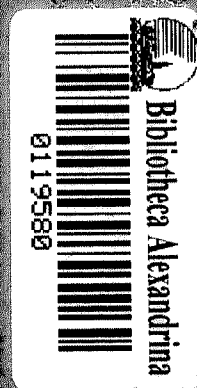


مؤسسة

كتاب مصر

أمر صين

مؤسسة دار الشعب





مَوْسُوعَةُ تَاجِ مِصْرَ

الجزء الأول

بقلم الأستاذ

أحمد حسين

الأهداء

الى روح مصر الخالدة ، التى وهبتها كل حياتى
وصحتى ، الى الأجيال القادمة والشباب المعاصر .
الى الشهداء الذين تساقطوا عبر العصور ، لتحقيق
مجد مصر ومن بينهم ابنى الطيار سامح مرعى
عبد الرازق ، أهدي هذه الموسوعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد . أما بعد . فقد فلت في كتابي تاريخ الانسانية : -

الانسان في العصر التاريخي :

يبدأ دخول الانسان في عصر التاريخ ، ونعنى بذلك التاريخ المحقق والمدون على الآثار وجدران المعابد والتمائيل ، أو في بطون الكتب وأوراق البردى على نستي الصور والاشكال . فعن طريق التدوين أو بالآخرى الكتابة دخل الانسان في عصر جديد أصبح من المستطاع فيه تراكيم المعلومات والمعارف الانسانية للاستفادة بها ، والانتفاع بثمراتها عبر الزمان . . وعلى اختلاف الامكنة .

- وإذا كان اختراع اللغة الملفوظة هو الذى اقام هذا الفارق الضخم بين الانسان وغير الانسان . فان اختراع الكتابة قد فرق بين العصور وجعل ما قبلها بوصف بأنه ما قبل التاريخ وأما ما بعدها فقد دخل في نطاق التاريخ .

كيفية اختراع الكتابة :

ولقد تم اختراع الكتابة بالطريقة التى تم ويتم بها أى اختراع انساني ، أى من خلال سلسلة من التطور نتيجة تراكيم المعلومات ، وتعقد الحاجات فليس من شك فى أن أول نقش نقشه الانسان على الحجر ، أو رسم ملون يحكى به صورة ثور أو أسد أو حصان ، كان يضع اللبنة الاولى فى اختراع الكتابة ، فقد أصبحت الصورة ترمز للواقع وأمكن استحضار شيء غائب الى الذهن برسم صورته .

ومن الصور التى ترمز لموضوعيتها بدأ التطور الذى انتهى بالابجدية . . فمن الصور الكاملة للدلالة الى شيء معين . . الى الصورة المبسطة (١) . فمجرد الخطوط الاساسية ، ثم الى استعمال هذا الرمز للدلالة على صوت معين وهكذا نشأت الابجدية أى الصور الخطية الدالة على الاصوات الملفوظة .

(١) لا تزال الكتابة الصينية تقف عند هذه المرحلة .

مصر القديمة :

والاجماع منعقد تقريبا بين الباحثين والدارسين على أن مصر القديمة هي مبدعة اختراع الكتابة وعنها تلقت باقى شعوب وامم ما يعرف الآن بالشرق الادنى او الشرق العربى ، وتولت فينيقيا (لبنان الحديث) صياغة الابدجية فى صورتها الحاضرة المألوفة ونشرها فى انحاء عالم ذلك الزمان .

وسواء اكانت مصر القديمة هي مخترعة الكتابة ، ام انها نقلتها عن الشعوب المجاورة ، فان ثمة حقيقة لاتجد خلافا عليها : وهى ان أقدم نصوص مكتوبة قد وجدت فى مصر ، حيث تشير الى معرفة المصريين القدماء للتقويم الشمسى وتقسيم السنة الى ٣٦٥ يوما وأن هذا التقويم قد بدىء فى استعماله عام ٤٥٤١ ق.م على أن هناك من يقول ان التاريخ المكتوب يجب أن يبدأ عند مصب الدجلة والفرات ، حيث كانت سومر وبابل وأشور وان المصريين القدماء أنفسهم ، انما جاءوا من هذا القسم من العالم حاملين حضارته عن طريق شبه جزيرة سيناء (١) . ونحن الذين حاولنا أن نثبت أن آسيا هي موطن الانسان الاول ومنشأ الحضارة ، لا نرى ما يدفعنا الى دحض هذا الرأى ، ولكن ثمة آراء أخرى تقول أن المصريين القدماء قد جاءوا من الجنوب سائرين مع النيل شمالا حتى وصلوا الى مصبه ، وان آسيا كانت موطنهم الاول ، وقد كانت الارض متصلة بين آسيا وأفريقيا ، وحتى بعد أن حدث الصدع وغمر ماء البحر بوغاز باب المندب ، فقد ظل المضيق يسمح بالانتقال عبر البحر من اليمن الى الحبشة وبالعكس . والذين يأخذون بهذا الرأى يقولون ان حضارة وادى النيل قد سبقت حضارة الدجلة والفرات .

ومرة أخرى نقول كما قلنا بالنسبة للكتابة ، سواء سبقت الحضارة فى سومر وبابل وأشور ام كانت سابقة على ضفاف النيل ، فالحقيقة الثابتة المقررة ، ان اهرامات مصر هي أقدم الآثار المبنية فوق سطح الارض فى الوقت الحاضر وعلما بالآثار يتراوحون فى تحديد تاريخها بين ٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م . ولا يعرف سطح الكرة الأرضية اثرا قائما باقيا على الزمن أقدم من هرم زوسر والمصاطب التى سبقت بناءه .

الانسان فى مصر القديمة :

ولما كانت اهرامات الجيزة أو بالاحرى هرم خوفو بالذات يمثل ذروة ما وصلت اليه امكانيات الانسان وحضارته وكان بناؤها قد تم كما قدمنا فى الالف الثالث قبل الميلاد ، فلا بد أن تكون مظاهر الحضارة قد سبقت ذلك التاريخ ببضعة آلاف أخرى من السنين ، وأكثر التقديرات تواضعا لبدء الحضارة فى مصر القديمة ترجع الى منتصف الالف السادس قبل الميلاد (٢) . فقد خلف

(١) عبد العزيز الدسوقي - الكيان العربى - ص ١٧ .

(٢) الدكتور عبد العزيز صالح - حضارة مصر - ص ٧٨ .

لنا المصرى القديم فى هذا العهد المبكر ما يدل على أنه قد تجاوز العصر الحجرى القديم والاوسط وبدا العصر الحجرى الحديث الذى لم يبدأ فى مناطق أخرى الا بعد ذلك ببضعة آلاف من السنين . فلم يعد المصرى يجيد التكلم ويحذق صنع الآلات وأشغال النيران ويستأنس الحيوان ويوزع الأرض بطريقة بدائية فحسب ، بل كان قد دخل بالفعل الى متطلبات التطور الزراعى فأصبحت الآلات أكثر تطورا وفعالية كالقؤوس والقواديم وأسنان المناجل ، وزاد عليها صناعة جديدة تمثل درجة جديدة من الحضارة وهى صناعة الفخار ، أى صنع الاوانى من الطين ثم حرقها بعد ذلك بالنار لزيادة صلابتها : بل إنه ذهب الى أبعد من ذلك فبدأ يلون هذه الاوانى ويرسم عليها .

صناعة النسيج :

وبدا الانسان المصرى فى هذا العصر السحيق ، الصناعة الاخرى التى لا تزال حتى الآن تعتبر أهم صناعة فى الوجود ، لانها صناعة الكساء عن طريق الغزل ، وقد خلف لنا الانسان المصرى فى آثاره من هذه الحقة أنسجة الكتان التى يعجب أئمة النسيج فى أيامنا هذه كيف استطاع المصريون أن يتطوروا فيما بعد بهذه الصناعة الى هذا الحد المعجز . واذا كان الانسان المصرى قد حذق صناعة الفخار والنسيج فلا عجب اذا خلف لنا فيما خلف من صناعات هذا العهد ، السلال والحصر والحبال وتفنص اليوم المتاحف ودور العاديات بهذه الآثار التى استجلبت كلها من مناطق معروفة ومشهورة بين علماء الآثار والمشتغلين بالتاريخ هى مرمدة بنى سلامة - حلوان - والقيوم - دير تاسا .. الخ (١) .

عصر بداية المعادن فى مصر :

وتلا هذا العصر الحجرى الحديث المبكر فى مصر عصر بداية المعادن ، أى منذ اواسط الالف الخامس قبل الميلاد ، فبدأنا نرى مصنوعات نحاسية فى منطقة البدارى بأسىوط ومنطقة نقاده .

ويحاول الباحثون وعلماء الآثار أن يتخيلوا كيف توصل المصرى القديم الى استخلاص النحاس من مركباته لأول مرة من خلال عمليات الصهر بالنار ، وبدأ خيالهم من الحقيقة الثابتة وهى أن النحاس متوفر فى شبه جزيرة سيناء حيث يختلط بكربوناته الخضراء (التوتيا الخضراء) والزرقاء (كبريتات النحاس) فلا بد أن يكون حدث مرة أن استعمل بعض هذه الاحجار فى موقد من المواقد فاذا هو يكتشف يوما من الايام بمحض الصدفة قطعة من المعدن البراق فى مخلفات النار .

وكيفما كان الامر فقد عرف المصرى القديم صناعة التعدين وهى استخلاص النحاس من مركباته مبتدئا بذلك مرحلة من مراحل التطور البشرى ، وتتجلى أهمية

(١) المرجع السابق - ص ٩٢ .

هذا الكشف اذا تذكرنا ان النحاس لا يزال هو اعظم وسيط لنقل الكهرباء التي تؤلف القوى المحركة في دنيانا الحديثة .

وهكذا بدانا نرى في آثار المصرى القديم الادوات الحجرية القديمة والفخار . ومضت صناعة الآلات في تطورها نحو الفاعلية والدقة ، فطرا تغيير جديد على صناعة البناء . . اذ اصبح المصرى يبنى بيته بقوالب منظمة الشكل من الطين بدلا من هذه (الجواليص) غير المنظمة التي كان يبنى بها مسكنه من قبل . ومع اكتشاف صنع قوالب الطين (اللبن) كانت صناعة البناء تدخل مرحلة جديدة سوف تصل في ذروتها الى الاهرام كما سترى .

تشخيص المدن :

وظهرت المدن بمعناها المفهوم لنا لأول مرة على صفحات التاريخ حيث يسكن الزراع والصناع واصحاب الحرف الاخرى الى جوار بعضهم في علاقات منظمة تحكمها قيادة واحدة وتقاليد واحدة ، وانظمة واحدة . وكانت المدينة تنشأ دائما حول هيكل الرب المعبود لهذه الجماعة . ولا شك في أن كاهن هذا المعبود وسادته كان هو أول حاكم وملك للجماعات الاولى فقد كانت السلطات كلها تنحدر من هذا الاله ، وانقوابين والتعاليم والأوامر والنواهي كلها لا تتصور الا باعتبارها أوامر الاله ، فكان الناطق باسم لاله هو دائما صاحب السلطة والأمر المطاع وهى حالة مستظل تقابلنا في كل مجتمع من المجتمعات القديمة وستظل تهيمن على المجتمع البشرى خلال العصور ، ولا نكاد نخف حدتها في بعض المجتمعات حتى تعود لسلطانها كاقوى ما كانت في اى وقت مضى . كما سيكون عليه الحال في أوروبا في ظل المسيحية وبابوات المسيحية تم ملوك المسيحية .

تكوين الدولة المصرية :

ونشأة المدن حول هيكل المعبود وتمتع سادن الهيكل بالسلطة والنفوذ ظاهرة مقررة في كل المجتمعات ولكن كثيرا من المجتمعات حتى في عصور متأخرة وحديثة قد ظلت عند دائرة المدن لا تمدوها ، فتؤلف كل مدينة وحدة سياسية قائمة بذاتها ويكون لها جيشها الخاص واستقلالها الذى تحرص عليه كما حدث ذلك عند الاغريق . . بل وفي ايطاليا وأوروبا في العصور الوسطى .

ولكننا نرى مصر القديمة تشد عن هذه القاعدة منذ عصر مبكر فنراها كلها وقد توحدت في ظل دولة مركزية في العالم كله ، حيث تدار الامور من عاصمة تخضع لها سائر المدن والمناطق ، ولا شك في أن نهر النيل وفيضانه السنوى كان هو العامل الذى ادى الى توحيد مصر في هذا العصر المبكر . فقد كان هذا الفيضان الذى يشكل في كثير من الاحوال داهما مشتركا لكل من يعيش على ضفتيه ، ولم يكن هناك سبيل لدفع هذا الخطر الا من خلال تعاون جميع الساكنين على شاطئيه ،

وإذا كان النيل من ناحية أخرى يؤلف شرياناً حيويًا للمواصلات ، وليس كالمواصلات بين الجماعات سبيلاً إلى توحيدها وتجميعها ، فقد انتهى النيل بأن كان على رأس العوامل التي وحدت مصر سياسياً . - ولذلك فليس هناك ما هو أصدق من كلمة هيرودوت المؤرخ الاغريقي الذي سيزور مصر في القرن الخامس قبل الميلاد . . عندما يقرر أن مصر هبة النيل ، فما هو النيل يخلق أول دولة وسم على الطراز العصري منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقد كان النيل قبل ذلك هو خالق دلتا النيل خلقاً من العدم بما يجلبه كل عام من طمي يقذف به إلى البحر (١) .

عهد الأسرات :

وهكذا يطالعنا تاريخ مصر بجلوس مينا على عرش المملكة المصرية الموحدة ، ويلبس لأول مرة تاجي الوجه القبلي والبحري معا عام ٢٩٠٠ ق.م على أكثر الآراء مبالغة في تضريب هذا التاريخ (٢) إذ أن هناك كسرين وعلى رأسهم بريستيد يرجعون بهذا التاريخ خمسة قرون إلى الوراء .

وهكذا نرى أنفسنا لأول مرة أمام أكبر نكتل بترى بمتد على رقعة طويلة من الأرض ويخضع لسلطة مركزية تبدأ برئيس دولة يعاونه وزراء وقضاة ويضع بحكامه إلى بقية المحافظات والمديريات . . ويجب الضرائب ويقيم العدل بين الناس على أسس من فوانين ثابتة مكتوبة وأنظمة إدارية محكمة .

وبدأنا نشهد مجتمعا ينطوى على كل ما ننطوى عليه مجتمعاتنا الحديثة من مظاهر ومقومات ، فعمل في سبيل الانتاج ، وعمل في الإدارة ، بجده ولهو واستمتاع مادي ومعنوي بالحياة . فأجود الأطعمة المطهية والأشربة والإنذدة والفواكه وأصناف الحلوى والخبز والكعك ، كل ذلك قد عرف طريقه إلى المائدة .

والفنون بكل أنواعها من موسيقى ورقص وشعر وأدب ورسم ونحت ، بل أن النحت لبصل إلى ذروة لم بصل إليها أي نحات في القديم أو الحديث . والألعاب الرياضية وألعاب الفروسية ، من قذف بالجلة والرمح والعدو والمصارعة والملاكمة والسباحة والتجديف والصيد كل ذلك قد أصبح يمارس على أوسع نطاق .

وأصحاب المهن والصناعات المتخصصةون بدأوا في الظهور ابتداء من البنائين والنجارين والمبيضيين ، حتى الكتاب والموظفين والأطباء والمعلمين . وهكذا نرى الإنسان قد توصل في هذا العهد البعيد إلى الحياة الاجتماعية الراقية كما نفهمها وكما نراولها ، ويستمتع بحياته كما يستمتع بها أحدث إنسان عصري ، عندما يتخذ من لعب الكرة أو مشاهدة مباريات الكرة أعظم هواياته .

(١) تبلغ كمية الطمي التي يحملها النيل إلى مصر سنوياً ٨٥ مليون طن أنظر كتاب من وحى الحبوب للمؤلف .

(٢) موسوعة تاريخ العالم .

اختراع الورق :

وإذا كان إنسان ما قبل التاريخ قد وضع أسس اللغات أو صناعة الآلات . . الخ مما أشرنا اليه فيما سبق ، فإن أحد اختراعات إنسان التاريخ جدير بأن يشار اليه لعظيم خطره في الأجيال والقرون السالية وذلك هو اختراع الورق ، فلو لم يكن الورق لظلت الكتابة بكل جلالها وخطرها محدودة النفع والاثر ، وليس مثلنا في العصر الحديث من يقدر قيمة الورق ، وكيف أن حضارتنا الحديثة إذا كان يحلو للكثيرين أن يصفوها أحيانا بأنها حضارة الحديد والصلب والكهرباء ، وقيسوا رقى الشعوب بنصيب كل فرد من الصلب أو الكهرباء ، فما أحراهم أن يصفوها أولا بأنها حضارة الورق قبل أن تكون حضارة الصلب والكهرباء . فلولا الورق لما كان شيء من ذلك كله ، واني لأجهد نفسي في تصور ماذا كان يمكن أن تكون عليه حياتنا لو لم يكن فيها هذا الورق اكان من الممكن أن أخط هذا الكتاب . . أكان من الممكن أن يجد سبيله الى الوفاء الغراء ما لم يكن هناك ورق . . من أين كنت أستقى معارفى إذا لم يكن هناك ورق . . كيف يمكن للتعليم أن يتم بغير كتب وورق ، كيف يمكن لاية حكومة أن تزاوُل سلطانها عن غير طريق الورق ، اكان يمكن لاي اختراع أو اكتشاف أن يتم ما لم يكن هناك ورق توضع عليه الرسومات الاولى والتصميم .

والإنسان في مصر كان هو أول صانع للورق بلا جدال أو شبهة ولذلك لا يزال اسمه في اللغات الأوروبية كلها بحمل الاسم المصرى الذى أشنقه الإغريق من اسم نبات البردى وهو papyrus ، وسوف ترى أن الاداة التى يصنع منها الورق سوف تتغير على مر العصور . فيصنع أحيانا من رق الغزال أى جلده ، وسيصنعه الصينيون من القماش وسنصنعه في عصرنا الحديث من لب النباتات . . ولكن الأساس والفكرة واحدة وهى صنع هذه الاداة الخفيفة البسيطة البيضاء لكتبت عليها .

الهندسة والرى والطب والفلك والكيمياء والتعدين :

وبقيام المجتمع المتكامل والدولة الموحدة ، كان طبيعيا أن تصب المعارف الإنسانية في علوم يستقل بعضها عن بعض ويتخصص في كل فرع منها المتخصصون ، فكان علم الفلك حيث استطاع الإنسان في هذا الوقت البعيد أن يحدد السنة الشمسية ب ٣٦٥ يوما ، ولن تنجلي عظمة هذا الكشف الا عندما تدرك ان الإنسانية بعد ذلك لم تستطع أن تغير من هذا الحساب الا بقدر خمس ساعات وكسور . وقام علم الهندسة والطب والكيمياء والجيولوجيا أى التعدين ووجد الأطباء والمهندسون والكيميائيون والوزراء والحكام الإداريون والقضاة والكتبة وسائر الموظفين .

الدين :

ووصل الوازع الدينى ، أو بالأحرى الضمير الإنسانى وهو المقياس الذى يمكن أن يقاس به درجة رقى أى مجتمع الى درجة عالية ، ولست أحسب أن هناك ما يمكن أن نسوقه لتصوير ما كان عليه الإنسان في مصر في هذه الحقبة من التاريخ ،

من حيوية الضمير ويقتضيه أكثر من أن تنقل نصا واحدا من مئات النصوص التي وجدت منقوشة على القبور والتي يقدم فيها الميت الحساب عن أعماله .

فهذا حاكم مقاطعة (جبل الحية القراء) يقول عن نفسه :

« لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع في جبل الحية القراء .

« ولقد كسوت كل من كان عاريا هناك .

« لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة وأراضيه المنخفضة بالماشية الصغيرة .

« ما ظلمت أحدا حتى شكأ منى بسبب ذلك لاله مدينتى ، ولكنى كنت أنطق

بما هو خير وأحدث به .

« لم يوجد شخص يستولى عليه الخوف بسبب شخص أقوى منه حتى شكأ

منه للاله .

« لقد كنت صانع معروف ، أنى لا أنطق بالكذب ، لأنى كنت شخصا يحبه أبوه

وتثنى عليه أمه ، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوا لدى أخته (١) .

وقد يكون كل ما جاء في هذا النص ، لا ينطوى على غير المباهاة والتفاخر الكاذب .

فنحن نعلم أن الحكام في كثير من الأحيان يقولون ما لا يفعلون ، بل أن ما يظننى قد

أوصى الحكام بذلك على أساس أن ذلك هو فن الحكم . ونحن نعلم أن اتباع الحكام

ينافقونهم فيصفونهم بما ليس فيهم ، وقد يصفونهم بالعدل وهم في أوج الظلم .

ومع ذلك فإن هذا النص يسجل لنا دستور الحكم ومبادئه الإنسانية من إنسانية

والأخلاق الفاضلة من ناحية أخرى والتي يجب أن يتصف بها الحاكم ليكون جديرا

بالتناء عليه عند الآلهة وعند الناس .

وأنظر إليه وهو يتحدث عن توفيره أنواع الماشية ووضع كرونها في مكان

الصحيح تراه يفتخر بما تفخر به الدولة العصرية بمضاعفة الإنتاج .

وأنظر إليه وهو يتحدث عن أطعام الجائع وكسوة العاري تبين أن الأسرة

الاشتراكية التي تقوم على احسان التوزيع بين الناس كانت موجودة لدى هذا الحاكم

منذ ستة آلاف من السنين .

وأنظر إليه وهو يقول أنه لم يوجد في رعاياه من يمتلي قلبه خوفا من الإنسان

لكونه أقوى منه . . ل ترى أعظم مظاهر الديمقراطية التي تقو لتأييد حقوق الإنسان .

أو ما نطلق عليه التحرر من الخوف . وأخيرا أنظر الى علاقته بأبويه وأخيه وأخواته

وكيف يفخر بأنه كان محبوبا منهم جميعا ، تجد أمامك النفس البشرية في رفعتها

وصيغاتها .

ولعل القارئ يدرك قبل ذلك من مطالعة هذا النص ، أن أشد ما يفرح به

في الدرجة الأولى ، هو أن يشكوه المظلوم الى اله المدينة .

(١) بريستيد - تطور الفكر الدينى في مصر القديمة ... ص ٢٤٢ .

التدين سر الحضارة المصرية :

والحق أن الخوف من الله كان هو مفتاح الحضارة المصرية القديمة ، وليس باستطاعتنا ان ندرك قليلا أو ن تفوق قدماء 'ا' 'خارق الا على ضوء فهم عقيدتهم الدينية التى كانت نملاً عليهم كل حياتهم . لقد كانوا ينظرون الى الدنيا باعتبارها معبرا الى الحياة الثانية ، وليس باستطاعتنا فى هذه العجالة أن نفصل الكثير من احكام هذه الديانة (١) ، وحسبنا أن نشير الى أن المصريين قد عرفوا جوهر الأديان كلها ، وأعنى به الايمان بالامور الغيبية ، كالبعث بعد الموت والحساب على ما قدمت يد الانسان فى هذه الدنيا ، ثم الثواب والعقاب فاما الى جنة الخلد أو الى قاع الجحيم ، واذا كان القرآن الكريم قد يحدث كثيرا عن الميزان الذى توزن به اعمال الانسان (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) فظان قدماء المصريين بلفتهم التصويرية قد صوروا الميزان على جدران قبورهم وقد وضع فى إحدى كفتيه قلب الانسان .

أهرامات الجيزة :

والحق أن ايمان المصرى القديم قد أوصله الى درجة جعلته يفعل المعجزات الى ما كان يمكن أن يقوم بها لولا هذا الايمان . . وعلى رأس هذه المعجزات بناء الهرم . فنحن نعلم أن الهرم قد بنى على مساحة ١٣ فدانا ويبلغ من الارتفاع ٤٨٠ قدما وقد ظل هذا الارتفاع هو أعلى بناء فى العالم حتى مطلع القرن العشرين أى طوال خمسة آلاف سنة . وقد تطلب من الصخور لبنائه مليونين وثلاثمائة ألف حجر ، متوسط ثقل الصخرة الواحدة طنان ونصف ، أى أن ثقل هذه الاحجار فى مجموعها يبلغ خمسة ملايين طن . وقد قطع الجزء الأكبر من هذه الصخور من جبل المقطم ونقل الى صحراء الهرم عبر النيل . أما كسوة الهرم الخارجية ودهاليزه الداخلية وحجرات الدفن فقد صنعت من حجر الجرانيت الذى استجلب من أسوان ، وحيث تبلغ زنة بعض الاحجار من عشرين طنا الى ١٥٠ طنا (٢) .

وعلىنا أن نستحضر الآن فى أذهاننا ، أن الصلب لم يكن قد عرف فى ذلك الوقت وكذلك الطاقة الكهربائية ، فبأى قوة وطاقة امكنهم قطع هذه الاحجار ونحتها ، ثم نقلها هذه المسافات الطويلة ورفعها بعد ذلك الى هذا المدى الكبير .

بل علينا أن نتصور قبل ذلك وبعد ذلك ، بأى عقول قد صممت هذه الأهرامات ورسمت ، ثم بأى قدرة وبأى تجربة وبأى فن نفذت بهذه الدقة العجيبة التى تدهل أعظم المهندسين دقة فى العصر الحديث فحيث يبلغ طول ضلع قاعدته ٧٥٠ قدما فان

١

نسبة الخطأ فى طول بقية الاضلاع والمسح والفراغ لا تبلغ ————— كما أن مواضع

١٠٠٠٠

(١) اقرأ المؤلف كتاب « فى الايمان والاسلام » .

(٢) ول دورانت - قصة الحضارة الجزء الاول - ص ٧٠ .

١
تلاصق الصخور الضخمة لا تزيد مسافتها — من البوصة . ويقول

١٠٠٠٠
بريستيد « وأن هذه الدقة في السطوح والحافات التي تشمل مسافات تقدر بالآفدنة مما لا يمكن مقارنته بدقة المهندسين المصريين ، الذين لا تتعدى دقتهم بضعة أقدام أو ياردات » (١) .

الأهرام رمز لقدرة الإنسان :

وما أكثر ما ارتفعت الاصوات من حين لآخر تحاول على ضوء مقاييس العصر الحديث أن تحكم على صواب هذا العمل ، وأن تتخذ منه رمزا على الطغيان والاستبداد وأن تصور الأهرام على أنها مجرد قبر لإنسان فرد ، وعندنا أن ذلك كله هو لون من ألوان التخبط والقاء الكلام على عواهنه ، فما كان الطغيان بقادر على أن يبني ويعمر فضلا عن أن ينشئ معجزة الدهور كلها .

وما كان لشعب يرزح تحت اثقال الظلم ، أن ينهض بهذا العمل الجبار ، ولا أن يجد العقول المبعدة التي تبده ، وإنما الحق يقال أن ليس سوى شعب مؤمن بفكرة الخلود ، وتوفرت لديه العزيمة على تحدى الزمن وعوامل الفناء ، من يقدر على بناء هذا الهرم الذى قال قائلهم فيه بحق « أن العالم كله يرهب الزمان ، ولكن الزمان ، نفسه يرهب الأهرام » (٢) .

والحق أن بناء الأهرام يجب أن ينظر اليه على أنه رمز لعظمة الإنسان في كل زمان ومكان ، وكما يحاول كل شعب وتحاول كل أمة أن تبني بناء يرمز له وصلت اليه من قوة واقتدار . . فيجب أن يعتبر الأهرام رمزا ناطقا على مر الدهور ، أن الإنسان قبل خمسة آلاف سنة وصل الى هذه الدرجة من القوة والاقتدار والسيطرة على الطبيعة وتحديها .

وذلك ما كتبته في كتابي تاريخ الإنسانية الذى هو في حقيقته فصل من كتابي الأكبر عن الأمة الإنسانية والذى حاولت عند كتابته أن أنسلخ من عواطفى ومشاعرى المحلية والإقليمية وأن أتحدث بمشاعر الإنسان الذى ينتمى الى الإنسانية بجمعاء دون أن يتعصب لوطن من الأوطان .

ولكن تاريخ مصر والإشادة بحضارتها قد فرض نفسه على فرضا كما يفرضه على كل من يحاول دراسة تاريخ الإنسانية فأيا كان منشأ الإنسان الأول وأيا كانت الحضارات الأولى لبنى الإنسان فالامر المحقق أن الحضارة الإنسانية كما هى اليوم تبدأ طلعتها بحضارة مصر القديمة فعنها نقلتها فينيقيا ونشرتها في أرجاء حوض

(١) بريستيد - تاريخ مصر - ترجمة حسن كمال - ص ٧٧ .

(٢) دورانت - قصة الحضارة - ص ٧٢ .

البحر الأبيض ثم كان الاغريق الذين انتفعوا بهذه الحضارة وبداءوا يحولونها الى علوم نظرية تلقفها منهم العالم بعد ذلك .

ويتصور الكثيرون أن دور مصر الرائد يقف عند التاريخ الفرعوني ولكنك ستري في هذه الموسوعة أن مصر بحكم تكوينها الجغرافي الذي يكاد يجعل منها قلب العالم قد فرض عليها أن تقوم بدور الريادة على مر عصور التاريخ وهذه حقيقة تخفى على بعض العلماء والمحققين أنفسهم ذلك أنهم يتصورون أن مصر قد فقدت هذه الريادة بعد العصر الفرعوني وهناك باحثون يضيفون الى هذا العصر تاريخ مصر الاسلامي ولكنهم يتصورون مصر قد غرقت في الظلام وأصبحت لا تؤدي دورها القيادي للعالم خلال فترتين الفترة الأولى خلال الحكم الروماني لمصر والذي ينتهي بدخول الاسلام الى مصر والفترة الثانية خلال الحكم العثماني والتي تنتهي مع بداية تاريخ مصر الحديث الذي يبدأ بحملة نابليون ولكنك سوف ترى في هذه الموسوعة من الحقائق التاريخية الثابتة أن مصر لم تكف عن اداء رسالتها وأرسال اشعاع النور فيما حولها يوما واحدا وكل الاختلاف الذي كان يحدث هو في درجة هذا الاشعاع وقوته وحسبك أن تعلم أن مصر في عهد الرومان كانت تخوض معركة المسيحية ضد الوثنية حتى انتهى الأمر بانتصار المسيحية كما سوف ترى .

ولذلك فقد تحدثت عن تاريخ الكنيسة المصرية بأسهاب نسبي باعتباره جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر ، واني لا اعتر بهدم الاضافة فقبل هذه الموسوعة كان تاريخ الكنيسة القبطية يكتب على حدة مع أنه هو كل تاريخ مصر في هذه الحقبة من تاريخها ، قبل ظهور الاسلام كانت المسيحية والكفاح في سبيل نشرها وفهمها هي أعلى ذروة للحضارة الانسانية .

ويرجع عزمي على تأليف هذه الموسوعة او بالاحرى الحافز الذي دفعني بطريقة مباشرة الى صياغتها على هذا النسق هو أنه وقع في يدي ما يسمى موسوعة تاريخ العالم الذي اشرف على وضعه وليم لانجر ونسقه بطريقة السنوات أي أن الانسان يستطيع أن يعرف ماذا حدث في أي بلد من بلاد العالم في سنة معينة فهو أشبه بالقاموس منه الى كتب التاريخ فعن لى أن أصوغ تاريخ مصر بهذا اسلوب ورأيت أن أشرك معي في وضع هذا القاموس عن تاريخ مصر بعض زملائي المتخصصين كل فيما تخصص فيه كالاستاذ أحمد عزت في التاريخ الفرعوني والاستاذ محمد صبيح في التاريخ الاسلامي والاستاذ أنور الجندى في التاريخ الحديث ، والاستاذ عبدالعزیز الدسوقي لتاريخ الادب بالذات . ولكن الفكرة تطورت بعد ذلك فلم أشأ أن الجأ لاسلوب لانجر فقد كان مضطرا الى هذا الاختزال الشديد لانه يؤرخ للعالم كله وأراد أن يكون كتابه أشبه بالقاموس أما أنا فأؤرخ لوطن واحد . ولما كنت مولعا طووال حياتي بتاريخ مصر فأردت أن يكون الكتاب موسوعة بالفعل وأن أنفرد بوضعه حتى يكون هناك تناسق في جميع أجزائه وأنا على ثقة أن سيأتى بعد ذلك دور احتشاد

المختصين لوضع موسوعة عن تاريخ مصر وقد يكون اصدار هذه الموسوعة بالذات حافظا على ذلك فشرعت في العمل على بركة الله وكانت المصادر متوفرة بكثرة كبيرة عن العصر الفرعوني وعن العصر الاسلامي والحديث ولكنها شحيحة كما قدمت عن العصر الروماني والعثماني ولكنى استطعت بعون الله ان اغطيها كما سوف يرى القارئ بحيث لا يشعر بالفراغ في هاتين الحقتين . وكان في عزمي وتصميمي ان اتحدث عن هذه المصادر وان اعرف بها القارئ في توسع واسهاب في هذه المقدمة ولكن شاءت ارادة الله لحكمة يعرفها ان اصاب بالشلل الكلى في اكتوبر عام ١٩٦٩ . وكنت قد وصلت في الموسوعة الى سنة ١٩٠٨ ولم افرغ من كتابة المقدمة التي كنت قد اشرت كتابتها حتى افرغ من كتابه التاريخ كله . واليوم وبعد قرابة تسعة اشهر وقد من الله علي بحياة جديدة اعود بعون الله وحمده للامساك بالقلم لاقتدم هذه الموسوعة بعد ان تفضلت ادارة « كتاب الشعب » فرات ان تقدم هذا العمل الذي قطعت في تأليفه بضع سنوات وقدمت في النهاية صحتي على مذبحه .

واذ اعود للكتابة فلست بمستطيع ان انفذ ما كان في عزمي وسؤا ان اصوغ هذه المقدمة كما كنت اشتهى وارغب تاركا التعريف بالمصادر الى نهاية البحث ولكن الامر الذي لا أستطيع تأخيره ولكنى استطيت ان اوجزه في هذه المقدمة هو الانطباع العام الذي استقر في ذهني عن طبيعة الشعب المصري ودوره في التاريخ والخصائص التي اختص بها من بين شعوب العالم وجمله ما يقال في الشعب ان طبيعة مصر والنيل جعلت الشعب المصري يستقر على الارض المصرية ويكون سباقا الى اكتشاف الزراعة والزراعة بطبيعتها تحتاج الى الاستقرار والامن والخلام وتحتاج قبل ذلك وبعد ذلك الى سلطة قوية لاقرار هذا الامن وهذا السلام . فالشعب المصري شعب متحضر من الرأس حتى أخمص القدم . اذ كان هو منشئ الحضارة الانسانية . ثم توالى عليه مختلف الحضارات الانسانية ، من فرعونية واغريقية ورومانية ومسيحية واسلامية وحديثة واصبحت الحضارة تجري في دمه والحضارة عنده هي في ان يعيش في امن وسلام ويعمل وينتج ويؤمن بالله وانه ستكون حياة ثانية ، وهو يقدس العدل على الارض ، ويحافظ على الحقوق ، ويكره العنف ويميل الى حل كل مشاكله بالحق والعمل والانتاج .

وسوف يعرض لنا ان الشعب المصري تعرض خلال حياته الطويلة الى غزوات الشعوب الاقل حضارة منه والتي لا تزال في ادوارها البدائية الاولى ، فغلبوه على امره واستولوا على السلطة ، ولا لوم في ذلك على الشعب المصري ولا تثريب ، فان اى انسان بدائي ، يستطيع ان يقبل اى انسان مثقف ، وكذلك شان الجماعات كلما كانت اكثر بدائية ، كانت اكثر همجية ووحشية اى تميل الى العنف في حل مشاكلها .

وقد استطاعت مصر دائما ان تغزو غزواتها ، فتحضرهم بحضارتها ومدنيتها ، ثم لا تلبث ان تنتصر عليهم ، اذ يكون مصيرهم الزوال ، ويبقى الشعب المصري

ماضيا في طريقه ، مؤديا رسالته في الحفاظ على المدنية والحضارة السائدة في العالم ، والتي لا يتغير لبها وجوهرها أبدا ، وهى العمل والانتاج في ظل السلام القائم على العدل .

سوف يمر علينا في هذه الموسوعة استيلاء كثير من الامبراطوريات على مصر . فيجب ان لا يزعجنا ذلك ، ويقلل من اعتزازنا بانفسنا ، فهذه الامبراطوريات لم تستول على مصر فقط ، بل استولت على كل العالم المعروف في وقتها ، وكانت هذه الامبراطوريات لا تستكمل قوتها وعظمتها ، وقدرتها على الحياة الا بالاستيلاء على مصر قاطب العالم ، وسرعان ما كانت مصر تلعب دورا رئيسيا في حياة الامبراطورية الغازية ، نم لا نلثب هذه الامبراطوريات أن تزول وتبقى مصر ويبقى شعبها كما قدمنا ، حصنا للحضارة والمدنية . وقد كان من حظنا نحن أبناء الجيل الحاضر ان نشهد انحلال الامبراطورية الانجليزية التي اعتدت علينا كما سوف نرى في عام ١٨٨٢ م وخرجت مصر من محنتها أشد لمعانا وتألقا كما كان شأنها دائما . فالشعب المصرى تعلم طوال تاريخه أن ينتصر بالعمل والانتاج والصبر ، ولا يجب أن يخجلنا ذلك فنحن شعب متحضر ومتمدن ، نلوذ بالمثل العليا أكثر مما نلوذ بالقوة والعنف ثمة حقيقة أخرى يجب أن يتمثلها من يطالع هذا التاريخ ، وهو يشهد الشعب المصرى يقف دائما موقفا سليما ازاء السلطات التى كانت تتنازع فيما بينها لتحكمه ، أقول ان هناك حقيقة يجب أن لا تغرب عن بال القارئ وهى ان الدولة فى القديم لم تكن كما هو شأنها اليوم وانما كانت الاسرة والعائلة هى وحدة المجتمع ، فالمصرى منذ أقدم العصور يعنى بعائلته وأرضه ودينه ، فما لم يتعرض له أحد فى هذه الثلاثة فهو يؤثر العيش فى أمن وسلام ومن هنا كان الحاكمون على اختلاف أجناسهم يحرصون أشد الحرص على ترك المصريين ومقدساتهم وهى العائلة والأرض والدين .

وسيرى المطالع لهذه الموسوعة انها تبدأ تاريخ مصر بتاريخ الكوكب الارضى وذلك لكى يعرف مكانة تاريخ مصر من هذا الكوكب ولكن هذا القسم أقرب الى الجيولوجيا منه الى التاريخ ولكن كان لا مناص من تسجيله وتسجيل تكوين مصر . ولكن هذا الجزء الذى تبدأ به الموسوعة قد يكون جافا فليتجاوز القارئ العادى الى الفصول التالية حيث يبدأ تاريخ مصر المتدفق .

والمطالع لهذه الموسوعة سيقطع معنا شوطا كبيرا فعلى بركة الله وباسم الله نقول وبالله التوفيق ، ، ،

الروضة فى ١٦/٨/١٩٧٠

أحمد حسين

الفصل الأول

ما قبل مصر والعريين

وحدة الأرض ووحدة الجنس الانساني

ليست مصر الا جزءا من الكوكب الارضى ، وليس المصريون الا فرعا من هذا الجنس البشرى . . فتاريخ مصر وارضها ، هو تاريخ هذا الكوكب ونشوته وتطوره ، وتاريخ الانسان المصرى ، هو جزء من تاريخ الانسان منذ وجد على هذا الكوكب .

وقد انتهى وجدان الانسان ، والمعرفة التى الهمها الهاما ، الى ان هذا الكون الذى هو جزء منه ، من خلق قوة قديمة تسبقه فى الوجود ، قوة لا أول لها أو آخر . أبدية أزلية عالية ، قادرة ، مريدة ، فعالة ، شاعية ، لحكمة لا يدركها الانسان ولا يستطيع ان يدركها ، ان تحدث هذا الكون وأن تخلق الحياة والانسان .

والاديان السماوية التى حملها نفر من اعلام البشر وهداتهم ، قد تحدثت عن هذا الاله الخالق ، ودعت الانسان لعبادته بالعمل والانتاج والعيش فى تعاون وسلام .

والاحاطة بالاله الخالق المبدع على هذه الصورة التى عرفها الانسان من خلال الوجدان والالهام ، لا يمكن أن تكون من موضوعات العلم ، الذى يقوم على المحسوس والملموس ، والقياس والكيل والميزان ، والعقل بكل مداه ليس الا جزءا . . . والله هو الكل وما كان الجزء ليحيط بالكل ، ولذلك فمعرفة الله لا تتم الا بالوحى والالهام والوجدان الذى هو سر يعلو على سر العقل .

وقد انتهى العلم الى ما انتهى اليه الوجدان من قبله من أن هذا الكون ، كان حيث لم يكن من قبل . أى أنه لم يكن على هذه الصورة التى هو عليها اليوم ، وأن ما نراه حولنا من شمس ونجوم وأقمار وكواكب ، وبحار وجبال ووديان ، ونباتات وحيوانات وانسان هى ثمرة تطور ونشوء وارتقاء .

بدأت رحلتنا الأولى من المادة المجردة ، التى كان يظن فى وقت ما ، انها مؤلفة من هذه الذرات التى تكون مختلف العناصر ، تم تبين أن هذه الذرات ليست كلها سوى ذبذبات كهربية ما بين سالب وموجب على اختلاف فى النسب ، وأن هذه الذبذبات أو الأمواج الكهرومغناطيسية ، تطور من الاشعاع الذى هو أحد خصائص الضوء ، وهكذا انتهى العلم المادى الحديث ، الى أن لبنة لكون الاولى هى وحدة الضوء وهكذا انتهى بنا العلم المادى التجريبي ، الى حيث توصل الانسان منذ اللحظة الأولى ، بأن الله خلق نور السموات والارض ، أو كما يقول كتاب العهد القديم فى البدء كان النور .

وليس من مهمة كتاب يؤرخ لجزء من الكوكب الارضى ، أن يخوض فى مباحث لاهوتية عن اثبات وجود الله ، فنحن انما نبدا تاريخنا من الحقيقة المحسوسة

الموجودة . من ان هذا الكوكب الذى نعيش عليه موجود قائم ، وانه كان حيث لم يكن من قبل .

وتقول ارجح النظريات الفلكية ، ان الأرض في أصلها جزء من الشمس كبقية الكواكب انفصلت عن الشمس ، وقيل في سبب الانفصال عديد من النظريات . وهناك قول بأن الأرض هى جزء من نجم آخر غير الشمس قد تمزق ، وهى تدور حول الشمس طبقا لقانون الجاذبية .

ومرة اخرى تبين لنا الحقيقة المحسوسة الملموسة من اننا نعيش على هذا الكوكب الأرضي ، والذي كان يظن ان الشمس تدور حوله ، ثم ثبت لنا ان الأرض هى التى تدور حول الشمس .

والراى العلمى الآن على انه الأرض ، بدأت حياتها المنقلة على صورة كرة هائلة من النيران والمواد الملتهية ، تنطلق في الفضاء دائرة حول الشمس فيما يوصف بأنه قطاع اهليلجى ، اى اقرب الى شكل البيضة منه الى الكرة ، بسرعة ١٨٥ ميلا فى الثانية ، وعلى بعد ٩٣ مليون ميل تقريبا .

وكما كان رأى العلم يكاد يستقر على ان الأرض قد انفصلت عن الشمس ثم نشأت نظريات تقول غير ذلك ، فذلك كان العلم قد أوشك على أن يستقر على أنه الأمر ما انفصل القمر عن الأرض ، حتى لقد حددوا المكان الذى انفصل منه جرم القمر وهو المحيط الهادى فقد نشأت نظريات تقول غير ذلك . ولا جدال أن وصول الانسان الى القمر ، سوف يزيد من تحقيق هذه الواقعة ، وعما اذا كان القمر قد انفصل من الأرض ، أم انه قد تكون بصورة أخرى .

والمهم ان ثمة قمرا يدور حول الأرض والأرض تدور حول الشمس . . والفضاء يغص بالنجوم والكواكب والشموس .

عمر الأرض بالطبقات والأملاح :

وقد اهتمدى الانسان فى العصر الحديث الى ما يشبه أن يكون ساعة زمنية لتحديد عمر صخور القشرة الأرضية التى تكونت بعد أن برد سطح الكرة الأرضية الملتهية وذلك عن طريق حساب الزمى اللازم لتحويل اليورانيوم الى رصاص .

ولكن كم من الوقت مضى قبل أن يبرد سطح الكرة الأرضية وتنساق قشرتها وتنشوع صخورها ، كل ذلك لا يزال محلا للخيانات ومختلف النظريات فقدره البعض بألفى مليون سنة . . بينما يضاعف البعض هذا الرقم فقدره بأربعة آلاف مليون سنة ، وكل ذلك لا يعدو أن يكون فروضا وتخمينات لا تعتمد على أساس يعمد به ومع ذلك فلا مناص لنا من أن نتخذ من هذه التخمينات نقطة ابتداء لتاريخ الأرض ، وبدء تكون قشرتها الأرضية ، لنبدا رحلتنا الزمنية عبر هذه الدهور والحقب السحيقة والمعنة فى القدم .

٢٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ - ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠

الناريخ المفترض لبدء تكون القشرة الأرضية وتغلغلها .

٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ - ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠

العصر الأركي ، أو ما قبل الكامبري Pre-Cambrian Time

وهو ما يطلق عليه بالعربية اسم الدهر السحيق ، وفي هذا الدهر تكونت الصخور النارية المعروفة كالجرانيت والبازلت والصخور المتحولة من هذين النوعين .

ومن المؤكد أن الأرض لم تعرف الحياة في الثلاثين الأولين من هذا الدهر ، ولكن بعض العلماء لا يستبعدون نشوء الحياة في البحار في الثالث الأخير من هذا الدهر ، ولا يفرض من هذا الفرض عدم عثورنا في صخور هذه الحقبة على بقايا هذه الحياة فان هذه الصور البدائية البسيطة من الحياة ، لا يمكن أن تترك أثرا على الصخور .

٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ - ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠

حقبة الدهر القديم أو الباليوزي Paleozoic Era وفي هذا الدهر الأحداث عهدها نسبيا بدأت معالم الأرض تتحدد وبدأ كتابها يصبح أكثر يسرا في مطالعته ، وذلك بسبب نشوء نوع جديد من الصخور الرسوبية ، التي هي في الأصل فتات من الصخور القديمة ، فدللتنا هذه الصخور على طغيان البحر على اليابسة وانحساره عنها أكثر من مرة .

ونقسم هذا الدهر القديم في دراسته عادة الى ستة أزمنة تتميز بأنواع الحياة المختلفة ، فترى في أولها ازدهار الحياة النباتية في المستنقعات والبحيرات والحيوانات وحيدة الخلية واللافقرية ، ثم نشوء أول صنوف الأسماك ثم ظهور النباتات الأرضية ، فالحيوانات الرمائية الأكثر تطورا ، فأول أنواع الزواحف ، حيث بدأت الحياة تتعلم كيف تتنفس الهواء ، وان ظلت جذورها في الماء ، ولذلك فقد كان يتعين عليها دائما أن تعود إليه لتضع بيضها .

على أن كل أنواع الحياة في هذه الحقبة القديمة تخالف كل الاختلاف ما نعرفه من حياة في حقبتنا الحديثة .

٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ - ٧٠.٠٠٠.٠٠٠

حقبة الدهر الوسيط الميزوزي Mesozoic Era وتتميز هذه الحقبة بالهدوء النسبي فلم تحدث هزات أرضية أو بركانية شديدة ونشطت حركة التعرية ، وتنقسم

هذه الحقبة في دراسة الاحياء بها الى ثلاثة أقسام ، فتشاهد في القسم الاول منها
اول نشأة حيوان الديناصور .

وفي القسم الثاني منها يصل الديناصور الى ذروته فيبلغ طوله من الرأس حتى
الذنب ٨٤ قدما ويعتبر بذلك (ملك الأرض) وتبلغ بعض الزواحف الى مائة قدم ،
كما ينشأ نوع من الطيور الجبارة . وفي القسم الثالث والآخر من هذه الحقبة تنقرض
لسبب غير معروف الديناصورات والطيور الجبارة .

كما تسجل لنا الصخور الرسوبية من هذه الحقبة حفريات نباتات أقرب
ما تكون شبيها الى نباتات حقبة الدهر الحديث ، فهي بمثابة حلقة الاتصال ،
بين القديم والحديث .

٧٠٠٠٠٠٠ - ١١٠٠٠٠٠

حقبة الدهر الحديث Cenozoic Era وفي هذا الدهر الحديث تكونت سلاسل
الجبال العظمى مثل الهمالايا وروكي والانديز والألب والبرانس والاطلس ، وانحسر
البحر عن جزء كبير من القارات . وغمرت مياه البحر بعض الفجوات والشقوق مثل
شق البحر الأحمر .

وقد عرفت الأرض في هذه الحقبة ازدهار ذلك النوع المتطور من الحيوانات ،
التي لم تعد تنقع في عملية اكثار النوع بوضع بيض تتخلى عنه بعد ذلك ، بل أصبحت
تحضن الجنين في داخلها وتغذيه من دمها (داخل الرحم) حتى اذا خرج أرضعته
من إحدى غددها التي تفرز لبنا ، وتلك هي الثدي ، ومن هنا فقد أطلق على هذه
الحيوانات اسم الحيوانات الثديية او اللبونة وكل ما حولنا من حيوانات في الوقت
الحاضر من أمثال الأرنب والقطة والشاة والبقرة والكلب والأسد ... الخ ليست
الا فروعا من هذا النوع الذي عرفته الأرض في هذه الحقبة .

وقد تنوعت الثدييات وسادت وبلغت ذروة تطورها فيما يطلق عليه اسم
الرئيسات Primate وهي الغوريلا والشمبانزي والاورانج أو تانج والجيرون حيث
نجد لدى هذه القرود ، اول مظاهر الاجتماع فتعيش متجاورة في جماعات يقلد
بعضها بعضا ويراقبه ويحذره وينذره عند اقتراب الخطر .

وتنقسم هذه الحقبة من الدهر الحديث الى : ما يسمى الزمن الثالث Tertiary
الذي ينقسم بدوره الى خمسة أقسام :

Paleocene ٧٠٠٠٠٠٠ - عصر البليوسين

Eocene ٥٨٠٠٠٠٠ - عصر الإيوسين

(حيث بدأت معالم القارات الحديثة تأخذ شكلها المعروف) .

Oligocene ويتلوه عصر الاوليوجوسين

Meocene ٢١.٠٠٠.٠٠٠ ر.ع. عصر الميوسين

وهو العصر الذى ظهرت فيه الحيتان والنسائيس وأكلة الاعشاب (وانحدار اجداد اشباه الانسان نحو الغوريلا) .

Pliocene ١١.٠٠٠.٠٠٠ ر.ع. عصر البليوسين

وفيه ظهرت الحيوانات آكلة اللحوم .

ويعقب الزمن الثالث ، الزمن الرابع والذى ينقسم الى عصرين :

Pleistocene ١.٠٠٠.٠٠٠ ر.ع. عصر البليستوسين

وهو العصر الذى يعتبره الكثيرون ، عصر ظهور اصول الانسان الاول ، مما يطلق عليه انسان الفجر ، على اختلاف فى أزمنة الوجود ، ما بين المليون سنة والمائة ألف سنة . وذلك ان الجليد قد زحف خلال هذه الفترة أربع مرات ، بحيث كان يغطى فى كل مرة الكثير من اجزاء أوروبا وآسيا ، ثم لا يلبث أن يتكشف فتتكاثر الحياة بشتى صورها وأشكالها من جديد .

٥٥.٠٠٠ ر.ع. عصر الجليد الأول :

ويعرف باسم جونز Gunz أى التى انكشف فيها الجليد ويقع فى الفترة بين ٤٧.٥٠٠ سنة و ٤٠.٠٠٠ سنة .

٤٠.٠٠٠ ر.ع. عصر الجليد الثانى :

وهو أعظمها شأنا وأجلها خطرا والفترة التى توسطت بين هذا العصر والتالى أى انكشف فيها الجليد ٣٧.٥٠٠ - ١٧.٥٠٠ ر.ع. ويعرف باسم مندل Mindel

١٧.٥٠٠ ر.ع. العصر الجليدى الثالث :

والفترة التى توسطت بين هذا العصر والتالى هى من ١٥.٠٠٠ - ٥.٠٠٠ سنة

١٢٥٠٠٠ :

إذا كان بعض علماء الحفريات لا يستبعدون وجود الإنسان الأول أو إنسان الفجر منذ مليون سنة سالفة ، فإن الأبحاث الأكثر واقعية ، تجعل هذا التاريخ هو ١٢٥ ألف سنة ، ويطلق على حفريات الإنسان في هذه المرحلة اسم الثقافة أو الصناعة السابقة على العهد الشيلي pre-chellean ، حيث يظهر على الأحجار أنها صنعت . وإنما استخدمت كما وجدت في الطبيعة ، وقد كان وجود بعض هذه الأحجار ولها مقابض ثلاث قبضة اليد ، ولها طرف واحد ، هو الذي جعل البعض يرجح أنها من صنع إنسان ذلك العهد وخاصة في الحقبة الأخيرة منه (دورانت - جزء ١ مجلد ١ ص ١٥٩) .

١٠٠٠٠٠ عصر الثقافة الشيلية :

حيث تحسنت الآلة الحجرية بارهاف جانبها وان ظلت على شيء من الفلظة وتبدليها بحيث تتخذ شكل اللوزة .

٧٥٠٠٠٠ سنة الثقافة الأشولية :

٥٠٠٠٠٠ سنة العصر الجليدي الرابع :

والذي انسحب منذ خمسة وعشرين ألف سنة ، والرأى على أننا نعيش الآن في أعقابها .

ويرجح البعض أن الإنسان قد اكتشف النار في هذه الفترة .

٤٠٠٠٠٠ سنة الثقافة المoustيرية :

حيث عثر على إنسان نياندرتال وهيدلبرج .

والذين يعتبرهما البعض أصل الإنسان الحقيقي الأول بعد أن انفصل عن القردة العليا مكونا الإنسان الحديث .

والقائلون بنظرية تطور الإنسان عن الحيوان مازالوا يعترفون بوجود فجوة كبيرة بين أرقى القردة وأول صورة للإنسان ، وتبدو هذه الفجوة في ضخامة منح أول إنسان ، بالنسبة لأرقى نوع من القردة ولذلك يفترض التطوريون دائما وجود حلقة مفقودة لم يتحقق اكتشافها حتى الآن . وتقول الدارونية الحديثة - لتتغلب على هذه الحقيقة وتسدد هذه الثغرة - أن التطور قد يتم على سبيل الطفرات ويجب التسليم بحدوث طفرة في الحياة ، انتهت بالإنسان . كما حدثت الطفرة في الحضارة الإنسانية كما سوف نرى .

واذا كان ذلك كله لا يزال من باب التخمينات والفروض العلمية التي لم تصل بعد الى حل قاطع قلنا ما تقوله الكتب السماوية ، وما يؤيده الواقع المشاهد المحسوس بل ويؤكدده هذا العرض الذي استعرضناه من تطور الثقافة الانسانية وهى انه منذ كان الانسان انسانا فى أبسط الصور التي يريد التطوريون أن يعتبروها نقطة البدء فانه قد اختص بالعقل والحرية فى الاختيار والعمل الأمر الذى جعله يتكلم ويصنع آلامه ويشعل النار ، ويدهش فى تطور مستمر - فى الوقت الذى نرى فيه كل ما فى الوجود من كائنات أخرى جامدة ثابتة على صورتها التي هى عليها منذ كانت فى الوجود . ففي الطبيعة اليوم كل صورة الحياة ، ابتداء من الخلية الأولى حتى مختلف فروع الاجناس وأطوارها . ولو كانت نظرية التطور صحيحة على اطلاقها ، لوجب أن تتطور هذه الصور البدائية ، الأمر الذى يدل على أن الطبيعة قد قصدت قصدا الى وجود كل نوع وكل جنس ، وكل طراز على سبيل الاستقلال والذاتية ... ومن هنا تبقى حجية كتب الوحي والالهام قائمة غير منقوضة .

وقد خلف من بعده آثار تدل على اقتراقه عن الحيوان بالكلام وصناعة الآلات ، والتطور الدائم المستمر حيث تجمد كل صور النباتات والحيوانات الكائنة على ظهر البسيطة على الصورة التي هى عليها منذ كانت .

وان أقدم هذه الكتب بين أيدينا وهو كتاب العهد القديم يحدثننا عن خلق الانسان بهذا الترتيب الذى مر علينا ، فقد خلق الله السموات ثم الأرض ، والماء ومن الماء خلق الحياة فكانت الأسماك والزواحف والطيور ثم حيوانات الأرض ، وبعد ذلك كله كان خلق الانسان . فصنع الله وحوش الأرض بحسب ، أصنافها ، وكل دابات الأرض بحسب أصنافها ورأى الله أن ذلك حسن وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا ، ولتسلط على سمك البحر وطيير السماء والبهائم وجميع الأرض ، وكل الدابات الدابة على الأرض ، فخلق الله الانسان على صورته ، وان الرب الاله جعل الانسان ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار الانسان نفسا حية (سفر التكوين - الفصل الأول والثانى) .

ونجد فى القرآن الكريم ذات الصورة السى يقول بها العلم من انفصال الكوكب الأرضى عن نجم سماوى وخلق الحياة من الماء .

« السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى » .
سورة « الأنبياء » .

ويقول عن خلق الانسان :

« لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا المعلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » .
سورة « المؤمنون » .

ويطلق كتاب العهد القديم على هذا الانسان الاول اسم آدم ، وعلى انشاء حواء

ويتابع القرآن الكريم العهد القديم على هذه التسمية للذكر والانثى الأولين على ظهر هذا الكوكب من أنهما آدم وحواء .

ويمضو العهد القديم متابعا حياة هذا الانسان فقد ولد لآدم قابيل ثم هابيل ثم شيثا وبعد ذلك ولدت بنات وتزوج البنون البنات فكثرُوا ونموا حتى جاء نوح ، وفي أيامه وقع الطوفان الذى أغرق كل الإحياء ، ثم بدأت الحياة على الأرض من جديد حيث رزق نوح أولادا ثلاثة سام وحام ويافث ، ومن هؤلاء الثلاثة تفرع البشر الذين يملأون الدنيا .

فاما يافث فهو أبو الترك والصقالية ويأجوج وماجوج ، وهم المفلول (أى الجنس الأصفر) .

وأما سام فهو جد شعوب العرب والروم والفرس (أى الجنس الأبيض) .
وأما الابن الثالث وهو حام فهو والد القبط والأبشاش السودان والبربر (أى الجنس الزنجى) أو من تسميهم التوراة كوش ومصرافيم وقوط وكنعان .

هذا الاصل الواحد لبنى الانسان وتفرعه الى هذه الفروع الثلاثة ، هو ما حاول علم الاجناس الحديث ان يلفظه ويبنى أبحاثه على تقلاسيم وتفاريع جديدة ... فاذا به ينتهى فى خاتمة المطاف الى هذا التقسيم الثلاثى ، فقسم الجنس البشرى الى مجموعة بيضاء ، ومجموعة مغولية ، ولثالثة زنجية .

وحاول علماء الاجناس من الأوروبيين ، ان يحطموها وحدة الجنس البشرى ، فزعموا ان الجنس الأبيض هو وحدة الإنسان ، وأن الجنس المغولى ، وبصفة خاصة الزنجى أمس رحما بالحيوان ، وأن كلا من الاجناس الثلاثة قد تفرع من أصل حيوانى خاص به ، حتى لقد اعتبروا هذه الثقافات المختلفة التى أشرنا اليها أمرا خاصا بأوروبا دون باقى العالم ، ثم وجدوا آثار هذه الثقافات بهذا التطور فى كل جزء من أجزاء العالم تقريبا ..

وقد انتهى ذلك كله بالتسليم بما جاء فى كتب الوحى والالهام من وحدة الاصل الانسانى حيث اجتمع علماء الاجناس الاعلام من سبعة عشرة دولة فى موسكو عام ١٩٦٤ فى مؤتمر دولى ، وأصدروا بيانا من ثلاث عشرة نقطة جاء على رأسها :

« كل الكائنات البشرية التى تعيش اليوم تنتهى الى نوع واحد هو النوع البشرى ، وكلها ترجع الى سلالة مشتركة وأصل واحد . وهناك خلاف فى وجهات النظر فيما يتعلق بالكيفية والزمن اللذين تفرعت فيهما الجماعات البشرية عن هذا الاصل المشترك - « الأمة الانسانية » (أحمد حسين) » .

واذ اتبينا الى الفراغ من تتبع تاريخ هذا الكوكب وهو الارض ونشأة الحياة وبوجود الانسان على ظهرها وتفرعه وانتشاره على أرضها ، فقد آن الاوان لنبدأ تاريخ مصر والمصريين ، باعتباره أقدم تاريخ مسجل ومكتوب فى تتابع منذ أقدم حقب التاريخ حتى

عصرنا الحاضر ، وليس ما يماثل تاريخ مصر والمصريين في هذه الناحية الا تاريخ حوض الدجلة والفرات .

وسنرى أنه جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر فكل منهما متصل أشد الاتصال بالآخر ، حتى لا يمكن التفريق بينهما .

وقد قسم هذا العصر الانساني الحجري ، الذي كانت فيه الأحجار هي آلات الانسان ، الى عصر حجري قديم أسفل ، وحجري قديم أوسط ، وحجري قديم أعلى .

وقد تهيأت الفرصة للأوروبيين للسبق والتعمق في دراسة هذه الأطوار الانسانية ، فقسموا آثار هذا الانسان الحجرية الى ما أسموه ثقافة أو صناعة ، وهي تبدأ بالثقافة السابقة على العهد الشيلي .

Pre Chellean : ما قبل الشيلي

ومعظم الأحجار الصوانية (الطران) التي وجدت في هذه الطبقة الوطيئة من طبقات الارض لا تدل دلالة قوية على أن أهل ذلك العصر قد صنعوها بأيديهم وإنما يبدو أنهم استخدموها كما وجدوها في الطبيعة أن كانوا قد استخدموها اطلاقاً ، ولكن ما جعل البعض يرجح وجود انسان قد استعملها هو وجود أحجار كثيرة بينها ، لها مقبض يلائم قبضة اليد ولها حد وطرف (الى حد ما) وهو ما جعل البعض من الأوروبيين يزعمون أن الانسان السابق على العهد الشيلي قد استعمل أول آلة وهي المذبة الحجرية .

ولكن عدم وجود بقايا للانسان من هذا العصر هو الذي يجعل كثيراً من الباحثين يشكون في وجود هذا الانسان .

Chellean : م.م الثقافة الشيلية

وقد سميت كذلك نسبة لبلده شيلية بفرنسا ، وقد تحسنت فيها المذبة الحجرية بارهاف جانبها ، ارهافاً على شيء من الغلظة وتديبها بحيث تتخذ شكل اللوزة أو النواه ، ثم تهيئتها تهيئة تجعلها أكثر صلاحية لقبضة اليد البشرية .

Acheulean : م.م الثقافة الأشولية

ولقد تخلفت عنها آثار كثيرة في أوروبا وجرينلندة والولايات المتحدة والمكسيك وأفريقية والشرق الأدنى والصين والهند ، في هذه المرحلة ، لم تتطور المذبة الحجرية ، فتصبح أكثر تناسقاً وأحد طرفاً وأشد فاعلية فحسب ، بل قد وجد الى جوار المذبة أنواع كثيرة من الآلات ، كالمطارق والسندانة والكاشطات والصفائح ورؤوس السهام وسنان الرماح والمدي .

٤٠٠٠ ق.م الثقافة المoustيرية : Mousterian

نسبة الى بلدة مستوييه بفرنسا وتوجد آثارها في القارات كلها ، والمدينة الحجرية نادرة نسبيا بين آثار هذه الفترة ، بعد أن حل محلها آلة جديدة ، وهي رقيقة من الصخر . أخف من المديّة السابقة وزنا وأرهف حداً وأحسن شكلاً . وقد بدأ يعثر من هذه الفترة على آثار النار وقبور الموتى ويطلق على الإنسان في هذه الحقبة انسان نياندرتال وهيدلبرج واللذين يعتبرهما البعض أصل الإنسان الحقيقي الأول .

٢٠٠٠ ق.م الثقافة الأورجناسية : Aurignacian

وهي أولى المراحل الصناعية بعد عصر الجليد وأولى الثقافات المعروفة لإنسان كرومانيون بعد أن انفصل عن القردة العليا مكونا الإنسان الحديث . وفي هذه المرحلة أضيف الى آلات الحجر ، آلات من العظم ، مشابك وسنّدانات وحاملات ، وظهر الفن في نقوش غليظة منحوتة على الصخر أو في رسوم ساذجة بارزة أغلبها رسوم لثساء عاريات ، ثم جاءت في مرحلة متقدمة من مراحل تطور الإنسان كرومانيون ثقافة أخرى هي :

٢٠٠٠ ق.م الثقافة السولتيرية : Solutrean

حيث وجدت آثار إنسان هذا العهد في فرنسا وإسبانيا وتشيكوسلوفاكيا وشمال أفريقيا التي يرى البعض أنها مصدر هذه الثقافة (ول دورانت - جزء ١ - مجلد ١ - ص ١٦١) .

ومن آثار هذه الفترة فوق آثار الثقافات الماضية ، صفائح ومشابك ومناشير ورماح وحراّب ، وأبر دقيقة حادة من العظم ، عدة آلات من قرن الوعل ، وقد تنقش قرون الوعل أحياناً برسوم .

١٦٠٠٠ ق.م الثقافة المجدلية : Magdalenian

وهي تتميز في الصناعة بمجموعة كبيرة متنوعة من رقيق الآنية المصنوعة من العاج والعظم والقرن ، وتبلغ ذروة تطورها في مشابك وأبر متواضعة ولكنها تصل الى حد الكمال في الاتقان . وهذه المرحلة هي التي تميزت في الفن برسوم التاميرا Altamira وهي اذق وأرق ما صنعه انسان كره كرومانيون .

والى هذا الانسان الاول نعى كما راينا معرفتنا للكلام ، والنار والفن .
وعند هذا الحد من التطور تقطع سلسلة النقائات الانسانية البدائية فى اوروبا
لنبدا الانسانية فى عصر التاريخ والحضارات المزدهره التى لا تفارن بها هذه الآثار
البدائية ، ويبرغ نور هذه الحضاره من حوض الدجلة والفرات فيما يسمى اليوم
بالعراق ، وحوض النيل فيما يسمى مصر ، وسنرى فيما هو آت وتاقه الصلة على
مرصور التاريخ بين سكان هذين الحوضين وشدة تأثر كل منهما بالآخر ، بحيث
يكاد يؤلف تاريخهما وحده لا تقبل الانفصام .

١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ ق م : العصر الحجري المتوسط :

وهو عصر انفعال ، أى المرحلة الانتفالية من العصر الحجري القديم الى العصر
الحجري الحديث ، وهو عصر لا يعترف به كثير من العلماء ويرى العلماء الدين
يعولون به . . انه يجب ان بدون هناك فترة انفعال مميزه بين العصر القديم
والحديث يظفون عليها اسم العصر الحجري المتوسط وينسبون الى هذه الفترة
ما وجد من آلات فزيه فى مدينه أزيل .

ولكن لا مناص لنا ، قبل البدء فى فصلنا الثانى عن الانتقال من العموم الى
الخصوص بالتحدث عن تاريخ مصر . أن نلف النظر الى أننا أتينا بما نذكره الكتب
العلمية عن تطور الانسان ، بعد انفصاله عن الفردة العليا ، وكيف وجد ما يسمى
بانسان الفجر أقرب الى الحيوان منه الى الانسان ، ثم انسان نياندرتال وكرمانيون ،
الذى يعتبر جدا للانسان العصرى الذى يبدأ أول تاريخه بعصره آلاف سنة .

٨٠٠٠ - ٦٠٠٠ ق م : العصر الحجري الحديث :

وهنا سنجد الانسان قد بدأ حضارة واسعة النطاق ، يجب أن تعتبر طفرة
بالنسبة لكل ما سبقها حيث لا نجد فيها تسلسل التطور فقد عرف الانسان الزراعة،
واستأنس الحيوان ونسج الفماش ، وصنع الخزف وشيد المباني وعرف الدين .

وقد كان الانسان الذى تحققت على يديه هذه الطفرة هو الإنسان الساكن فى
حوض الدجلة والفرات أو فى حوض النيل .

ولذلك فقد حان الوقت لنتقل بتاريخ الانسان من الشمول والعموم ، الى
التخصص فى وادى النيل، حيث بزغت الحضارة الانسانية عملاقة جبارة تذهل
المراقبين .

الفصل الثاني

مصر والنيل

جيولوجيا وجغرافيا وشعبا

تكون الصخور النارية كالجرانيت والديوريت وكذلك الصخور المتحولة والتي ترجع الى الزمن الجيولوجى الابتدائى ، أى ما قبل الكامرى أو الأركى ، الدعامة الأولى لأرض مصر ، وتتمثل فى الوقت الحاضر فى سلاسل جبال البحر الأحمر والمنطقة الجنوبية من شبه جزيرة سيناء ، والمرتفعات الجنوبية الغربية بالصحراء الغربية ، كما تظهر فى منطقة الجندل الأول قرب أسوان وخانق كلابشة جنوب أسوان بخمسين كيلومترا .

وقد شهدت مصر فى تاريخها الجيولوجى حركات أرضية تختلف بين الانخفاض تحت سطح البحر وبين الارتفاع فوقه ، وقد ظلت أجزاء كبيرة منها مغمورة بالماء كجزء من بحر كبير ، عدة ملايين من السنين ، ثم انحسرت مياه البحر وبدأ البحر الأبيض المتوسط يأخذ صورة أقرب ما تكون الى صورته الحاضرة . كما تكون منخفض البحر الأحمر ، وبرزت على جانبه الجبال كنتيجة لحركات التوائية وانكسارية .

ثم ظهر نيل مصر آتيا من الحبشة بعد أن نجح فى حفر مجراه وتعميقه بواسطة التعرية النهرية متجها نحو الشمال وفقا لميل الأرض ، شاقا طريقه بين صحراوين عظيمين .

ويقول الجيولوجيون أن مياه البحر عادت لتطفئ من جديد فى أواسط عصر البليوسين على مجرى النيل ، كائر لانخفاض الأرض من جديد ، ووصلت مياه البحر حتى منطقة أسنا جنوبا ، وربما حتى أسوان نفسها ، مكونة خليجا بحريا .

ولكن النيل عاد من جديد ، حاملا معه الرواسب من الرمال والحصى والطمي ، فكون لنفسه مجرى أعلى من مجراه الأول ، وتغلب على البحر . فاستطاعت رواسبه أن تغطى الخليج بالتدرج ، مكونة فى خاتمة المطاف تلك الأرض المنبسطة المثلثة الشكل التى أطلق عليها الاغريق اسم دلتا لأنها تشبه أحد حروفهم الهجائية بهذا الاسم . (مصر الخالدة - عبد الحميد زايد) .

وكان يظن فى القديم أن نهر النيل ينبع من جنادل أسوان . أو ما نسميه الشلال الأول : وما عرف فى التاريخ باسم بلاد النوبة ، ولكن هذا المنبع ظل يتراجع الى الوراء ، كلما توغل المصريون جنوبا . وثمة رأى قال به العرب ، من أن النيل ينبع من قبة فى الجنة ، مع عدد آخر من الأنهار . وهو معنى يرمز لما يجلبه النهر

من الخير العميم لأبناء وادي النيل ، وهو امتداد لتقديس القدامى لنهر النيل هذا التقديس الذي وصل الى حد العبادة .

ونحن نعلم اليوم أن نهر النيل يبدأ جنوبى خط الاستواء بثلاث درجات من هضبة وسط أفريقيا التي ترتفع ٤ آلاف قدم فوق سطح البحر ، ويتجه شمالا نتيجة انحدار الأرض ، فيصل في عصرنا الحاضر الى البحر الأبيض المتوسط على بعد ٢١٥ درجة شمال خط الاستواء .

ويبلغ طول نهر النيل ٤١٥٧ ميلا وهو بهذا على أحدث الآراء أطول أنهار الدنيا ، وهو ينبع من بحيرات خط الاستواء (فيكتوريا) والتي تعتبر بدورها خزاناً كبيراً للمياه التي تصب فيها من عديد من النهرات وأهمها نهر كاجيرا . وسمى النيل في أول مراحلها الآن بنيل فيكتوريا حتى اذا وصل الى بحيرة البرت نيانزا التي تمده بدورها ببعض المياه . يصبح اسمه بحر الجبل ، ويتصل به من الشرق بحر السوبات الذي ينبع من الحبشة ويسمى النيل بعد ذلك بالنيل الأبيض . ويؤلف النيل الأبيض ٢/٧ من موارد النيل المائية على طول العام .

وعند خط العرض السادس عشر وعلى بعد ١٣٠ ميل من البحر يلتقى من جهته الشرقية بالنيل الأزرق الذي يجلب الى النيل مياهه الفزيرة حتى ليقدر ما يمد به النيل ٤/٧ مياهه ، ٧٠٪ من الفرين (الطمي) الذي كون أرض مصر الزراعية ودلتا مصر (١) . وبعد مائة وأربعين ميلا يصب في النيل من جهة الشرق كذلك نهر العظيرة الذي يمد النيل بمياه شمال غرب الحبشة .

ثم يتعرج النيل أشبه بحرف S وسط صحراء قاحلة ، وتعرض مجراه شلالات صخرية غير منظمة يبلغ عددها ستة ، وهي أقرب ما تكون الى الجنادل منها الى الشلالات ، حيث تصدى عدة صخور جرانيتية ضخمة . ويطلق على الأرض التي تحف شاطئ النيل الجبلية قبل وصوله الى أسوان ، بلاد النوبة وتشمل الأرض الممتدة بين الجنديلين الأول والرابع . وبالقرب من أسوان يتعرض النيل لشلاله الأول المعروف بشلال أسوان ، حيث أنشئ السد العالي ، ويسير النيل بعد ذلك حتى مصبه في البحر الأبيض ، بطيء نسبيا في جريانه لقلّة انحدار الأرض وعدم وجود صخور رملية في تربته ، فلا تكاد السرعة تتجاوز ثلاثة أميال في الساعة - وأقصى عرض يبلغه النيل في مصر هو ألف ومائة ياردة وذلك في موضعين فقط على طول مجراه .

ويسير النيل بعد ذلك شاقا واديه بين سلسلتين من المرتفعات والهضبات ، مغطيا مساحة من الأرض تصلح للزراعة لا تتجاوز في أوسع حالاتها ١٢ ميلا . وقبل أن يصل النيل الى نقطة تفرعه ، يقع خارج واديه على مسيرة بضعة كيلومترات من حافته الغربية ، إقليم جفافي قائم بذاته هو إقليم الفيوم وهو عبارة عن منخفض في الصحراء الغربية .

(١) يبلغ الطمي الذي كان يجعله النيل يسوبا الى مصر ما يقرب من ٨٥ مليون طن .

وعلى بعد نيف ومائة ميل من البحر يتفرع النيل الى عدة افرع ، بلغت في فترة من الفترات سبعا ، بل أن بعضا منها كان يصب في البحر الاحمر وقت طفيان المياه على شمال مصر .

ولم يبق من فروع النيل سوى فرعين هما دمياط ورشيد ، بعد أن حلت الترع الصناعية محل فروع النيل .

ويمتاز نهر النيل بأنه أطول أنهار الدنيا على الإطلاق باستقامة مجراه الذي لا يكاد ينحرف عن الخط المستقيم الا مرتين ، يعود بعدها للاتساق العجيب حتى لقد شبهه البعض بالنخلة الفارعة التي تنتهى بتاجها من الفروع المثمرة .

ويمتاز قبل ذلك كله وبعده باتساق فيضانه العجيب الذي يبلغ الساعة في دقته وانتظامه ، حتى لقد كان أحد السبل التي مكنت المصريين القدمى من تحديد الدورة الزراعية ، ومعرفة السنة الشمسية .

ولما كان يسير في أرض صحراوية بحتة ، فقد جعل حياة من يعيشون على شاطئيه تعتمد اعتمادا كاملا عليه ، فالهوه وقدسوه كما رأينا وكما سوف نرى .

وقد استقر الرأى على تقسيم أرض مصر الى أربعة أجزاء رئيسية ، هذا الوادى الذى أنشأه نهر النيل فى تدفقه نحو الشمال والذى ينتهى بالدلتا التى هى من انشاء النيل ، مما جعل كلمة « هيرودوت » « مصر هبة النيل » ، تخلد على مر الزمن . ثم الصحراء الغربية (الليبية) وهى جزء من صحراء افريقيا الكبرى ، الشديدة الجفاف ، القليلة المياه . أما الى الشرق من الوادى فتقع الصحراء الشرقية ، والتى تطل على النيل بحافة قليلة الارتفاع ثم يتدرج الارتفاع حتى ينتهى بسلسلة من الجبال الشاهقة التى تمتد محاذية لساحل البحر الاحمر .

وأما القسم الرابع فهو شبه جزيرة سيناء ، التى هى فى حقيقتها جزء من الصحراء الشرقية ، ولكن خليج السويس فصلها عنها .

وقد احتلت شبه جزيرة سيناء ، دورا بارزا فى التاريخ المصرى القديم كما سنرى ، لكثرة معادنها ، ولأنها الطريق الذى يربط مصر بغرب آسيا ، حيث جرت الهجرات غربا وشرقا من وادى النيل ووادى الدجلة والفرات .

أصل المصريين :

يقول كتاب العهد القديم أن حام بن نوح قد أنجب كوشين ومصرام وفوط وكنعان .

ويقول الطبرى فى تاريخه على سبيل الرواية : ويقال ان مصرام ولد القبط والبربر .

ومضى مؤرخو العرب والمصريين يفرعون هذا الإيجاز فيقول لنا ابن تغرى

يرد في النجوم الزاهرة : فأما مصر فقد سميت هكذا نسبة الى مصرايم بن بصر ابن حام بن نوح .

وكان لمصرايم أربعة اولاد - وهم قبط وأشمون وأثريب ورحا ، وأقباط مصر يضافون في النسب الى ابيهم قبط . ولا يعترف علماء الآثار بهذه الأقوال بطبيعة الحال ، حيث لا دليل عليها من نوع الأدلة التي يعترفون بها .

وعلى أية حال فقد افترق علماء الأجناس والحفريات حول أصل قدماء المصريين ، فمن قائل أنهم من الأصل الحامي (نسبة الى حام) الذي يكون شمال افريقيا ، وآخرون يرون أنهم من الجنس السامي (نسبة الى سام) وفدوا الى مصر من آسيا ، على اختلاف في طريق الوصول ، فمن قائل أنهم جاءوا عن طريق برزخ السويس ، ومن قائل بل عن طريق الجنوب .

ونحن الذين لا نعلق كبير اهتمام على الفوارق بين الأجناس . فسواء كانوا من الجنس الحامي أو السامي ، فهذه التسمية في حد ذاتها تعود بنا الى نوح والد سام وحام .

وكيفما كان الأمر ، فالأمر لا يخلو في مصر كما هو الشأن في أي بقعة أخرى على ظهر الأرض ، من استيطان بنى الإنسان في بقعة من البقع ، ثم يفد عليهم الوافدون ، مهاجرين أو غازين ومعتدين ، حيث يهاجرون بدورهم أو يعبرون . . وفي كل ذلك يختلطون ويمتزجون بسلالة أسلافهم من بنى الإنسان الأقدم عهدا منهم ، وسنرى أن مصر منذ أقدم عصور التاريخ حتى عصرنا الحاضر ، وكما ستظل دائما بوتقة تنصهر فيها مختلف الأجناس والفروع والشعوب والثقافات والمدنيات .

وقد شهدت أرض مصر كل العصور والحقب التي مرت بالكوكب الأرضي ، ومنذ وجد انسان عليها ، اجتاز هذه المرحلة التي قطعها الانسان الفجر خلال عصور التاريخ الحجرية كلها قديمها ومتوسطها وحديثها .

فكان بها العصر الحجري القديم بأقسامه الثلاث الذي يجعل البعض كما ذكرنا بدايته ترجع الى مائة ألف سابقة .

وعثر على أدوات حجرية تنسب الى الثقافات المتعددة ، ما قبل الأشبيلين والأشبيلين والأشولية والمستورية .

وقد عثر على هذه الأدوات الأبرليتيية (القبضية) على عمق مائة قدم ، كما عثر على أدوات أشبيلية عند مستوى خمسين قدما ، كما عثر على أدوات موسستيرية عند مستوى ٣٠ قدما .

كما عثر على مصانع من العصر الحجري القديم ، عند العباسية حيث مصب النيل القديم ، وبالقرب من نجع حمادى ، وأسوان ، والى الشرق من الواحة الخارجة ، وعلى حافة الدلتا الشرقية .

اولان مناخ مصر كان اغزر مطرا منه الآن ، وأكثر برودة بعشر درجات على الأقل .
فقد كانت الحياة في الصحارى المصرية تختلف عن صورتها الآن ، فقد كانت تفص
بالوان الحياة تنمو بها الاعشاب والاشجار وتكثر فيها الحيوانات سواء آكلة العشب
او المفترسة ، لذلك فقد عاش بها الانسان متخذاً منها مسرحاً لحياته وتاركاً آثاره
في داخلها أو في اطرافها على حافة وادى النيل .

وقد اعتمد انسان ذلك العصر في طعامه على جمع الثمار وصيد الحيوانات .
وعاش الانسان في قبائل ، تحكم بعادات القبائل والتقاليد .

١٤٠٠٠ ق م :

توصل المصرى القديم الى الزراعة وقد كان هذا الرأى متنازعا عليه حيث كان
يتصور أن اقدم أثر للزراعة قد اكتشف بالقرب من أريحا في الاردن ويرجع تاريخها
الى ٩٨٠٠ سنة قبل الميلاد .

ولكن الأبحاث الأخيرة التى قامت بها البعثات الامريكية والبولندية والمصرية في
منطقة توشكا بالقرب من ادفو واسنا مديرتى أسوان وقنا قد كشفت عن وجود
آلات حجرية للمصرى القديم استعملها لحصد الحبوب ، حيث وجدت مسننة
ومشحوذة كالمستار ، كما عثر على رجايا لطحن الحبوب - وقد حدد عمر هذه الآلات
لحجرية بواسطة الكربون المشع رقم ١٤ فحددت عمرها ب ١٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد .
كما دلت هذه الأبحاث على أن طول الانسان المصرى القديم كان ١٨٠ سم - كما عثر
بين الهياكل العظيمة على ما يفيد وجود البقر البرى وسيد قشطة والفرزال السودانى
والزراف والضباع والحمار البرى ، وكلها من حيوانات السافانا التى تعيش حالياً
في منطقة جنوب السودان .

١٠٠٠٠ - ٨٠٠٠ : وعلى آثار العصر الحجري القديم الأعلى وجدت آثار من العصر
الحجرى المتوسط (الميزوليتى : Lemeseolithic)

وهو عصر لا يعترف به كثير من العلماء ، بينما يرى علماء آخرون أنه يجب
تحديد فترة انتقال متميزة بين العصر الحجري القديم والحديث .

٨٠٠٠ - ٦٠٠٠ ق م . - العصر الحجري الحديث :

وتتفق بداية هذا العصر مع تفهقر الجليد الذى ظل الى يومنا هذا وحيث يبدأ
تاريخ مصر القديم أكثر اتساقاً ، ويسراً في مطالعته ، وبدأت مصر تصبح أهلة بالسكان
الذين بدأوا يتجهون نحو سكنى الوادى ، مخلفين الصحراء التى كان الجفاف قد بدأ
يزحف عليها . ولا يعود ثمة شك في انتشار الزراعة على أوسع مدى ، فقد وجدت

في أمعاء جثث هذا العصر ، حبوب الشعير والذرة الرفيعة والقمح ، ولما كانت هذه النباتات لا تنمو في مصر بريا فلل ذلك على معرفة الزراعة في هذا العصر المتقدم .
كما استأنس مصريو هذا العهد الحيوان وأولهم الكلب وذلك لأن الكلب كان أول من وافق الإنسان عند رحيله من الصحراء الى النيل ، وكان يعيش على فتات طعام الانسان ثم استأنس بعده الخنزير والبقرة والحمر واستخدمه لأغراضه ، فأخذ اللحم لعدائه ، والجلد للبسه وغطائه ، والعظام لأدواته وأسلحته .
وقد تمت عدة كشوف من هذا العصر ، تكشف عن خصائصه ، ومن بينها حفائر القبيوم ١ ، ب .

ولكن الكشف الأهم من حيث قوته في الدلالة ، هو مرمدة بنى سلامة بوردان مركز أمبابة ، حيث تم الكشف عن قرية كاملة من قري هذا العصر بعد أن غطاها طمي النيل ، وهي أحسن مثل لمدينة من العصر الحجري الحديث ، حيث يعيش سكانها على الصيد والزراعة ، فقد عثر على بقايا من سنابل القمح وظهرت عظام للخنزير مما أيد استئناس الانسان للخنزير ، ووجد كذلك عظام حيوان فرس النهر (سييد قشظة) وظهر أنهم يسكنون في مساكن منظمة على شوارع مستقيمة . وان صناعة الفخار بها ، متقدمة متطورة عن مثيلاتها في مناطق العالم الأخرى ، وتمتاز بدقة السنع وجمال الصقل ، وتعدد الأشكال ، واللونين الأحمر والأسود ، وكانت العيش تقام من الغاب (البوص) بيضية الشكل محكمة الغلق من الجهة المعرضة لهبوب الرياح ، وكانت أرضية المسكن مغطاة بطبقة من الطين ، والجزء المنخفض من هذه الأرضية به أناء مثقوب من أسفله لاستعماله في تصريف المياه . وكانت المدافن قريبة من القرية ، وهي حفر بيضية الشكل بوضع فيها الموتى على الجانب الأيمن بضم الركبتين نحو الصدر ، وموجهة ناحية المساكن . مع وضع بعض الحبوب في الأيدي . واحتوى القبر على أجران فخارية ، والأواح لطحن الكحل الأخضر وآلات من الطران (الصوان) .

ويدل وجود هذه الأدوات ، والحبوب على أن الاعتقاد بالبعث بعد الموت ، مستقر في قلوب المصريين منذ هذا العصر المبكر . . . والإيمان بالبعث بعد الموت ، هو جوهر أي دين من الأديان .

العمري : وقد تم الكشف عن قرية أخرى كاملة من هذا العهد أطلق عليها اسم العمري نسبة الى المرحوم أمين العمري الذي اكتشفها في وادي حوف شمالى حلوان ، وقد دلت الآثار التي كشفت بها على اطراد التقدم في سلم الحضارة ، إذ وجد بها آوان من الفخار مزخرفة برسوم جميلة ، وآنية أسطوانية من الحجر ، وأقداح من الحجر الجيري والمرمر والبازلت والجرايت الوردى ، ووجدت عششها مستديرة وفي وسطها موقد ، وعلى مقربة منها كانت تقام سلال كبيرة من الحصر المجدول ولها غطاء ومدموكة بالطمي وتستعمل كمخازن للحبوب .

أما المدافن فكانت تحفر في مكان خالص بالقرب من القرية على حافة الصحراء . ونظام الدفن كمثيله في مرمدة .

وقد عثر في الوجه القبلي بدوره على خير نموذج ومثال للعصر الحجري الحديث وذلك في دير تاسا بالقرب من البداري ، وقد وجد بها مقابر فقيرة وبعض آثار لمساكن متفرقة بسيطة ، وأوان فخارية يدوية ، على نوعين ، أحدهما بني والثاني أسود ، وأن كان لم يحرق حرقا محكما فإن عليه زخارف هندسية والمميز لهذه الثقافة الأواني ذات البوق والمحلة بزخارف غائرة نوعا ما ومطعمة بالمعجينة البيضاء . وكانوا يستعملون الفؤوس المنقولة ، ومفارف كبيرة حجرية ، وآلات تدل على أنهم من الزراعين . ومخازن للمحاصيل في اقفاص كبيرة من الخوص . كما وجد بها عقود من الخرز مصنوع من العاج أو العظم أو العقيق . وكانت المقابر بيضية الشكل وكان الميت يدفن مقرفصا ويكفن اما بجلود الماعز أو الحصر وغطاء من فروع الشجر وكانت توضع تحت رأس الميت مخدة من القش .

٦٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق م عصر بداية استعمال المعادن : Leneolithic

ظهرت المعادن في العصور السابقة على شكل حلى للزينة ولكن العهد لم يطلق عليه عهد استعمال المعادن الا عندما استعملت المعادن في الأسلحة والادوات .

وأهم نموذج لثقافة هذا العصر قد تجلت في حفائر البداري بالقرب من أسيوط ، وهي التي تأتي في التاريخ مباشرة بعد ثقافة دير تاسا .

وأهم مميزات ثقافة البداري هو أوانيها الفخارية التي أمتازت بتزيين سطح الفخار الخارجي ، عن طريق تطعيمه بخطوط بيضاء ، مع رقة سمكه بالرغم من أنه كان لا يزال يصنع يدويا . وبدأ الصانع يزخرف الفخار بأشكال آدمية وحيوانية ونباتية .

ولم يعثر الا على قليل من مساكن القوم مبعثرة وأكثر الكشوف كانت في مقابرهم . وقد دلت على أنهم كانوا يعرفون الكتان ، وان ظلت ملابسهم العادية من الجلد . وكانوا يزرعون ويستأنسون الأغنام والثيران اذ وجدت عظام هذه الحيوانات وكانوا يتحلون بعقود من العاج والمصنوف وأنواع من الخرز ، ووجدت لوحات من حجر الشست لدق الكحل وتزيين الأعين ، ووجدت واحدة منها في كل مقبرة أمام وجه الميت .

وكان القبر حفرة بيضية الشكل ووجد الميت مكفنا في حصر أو جلد ماعز وكان يوضع فيما يشبه التابوت وهو صندوق من القش المجدول ، وقد استدل من ذلك على أن الانسان المصري بدأ يفكر في صنع التابوت الذي وجدناه فيما بعد من الفخار أو الخشب . كما وجدت بعض الدمى في المقابر ، وهي التي ستصادفنا فيما بعد في كل مقابر المصريين القدماء ، والتي كانت تدل على عقيدة القوم في الحياة الآخرة ، وعلى حاجة الميت الى من يخدمه ، ومن يدفع عنه مختلف أنواع الشرور التي ستقابله في الحياة الأخرى .

عصر ما قبل الاسرات

٤٥٠٠ ق م - عصر ما قبل الاسرات :

رأينا فيما مر بنا ، كيف أن المصرى القديم بدأ يخوض غمار الحضارة بقدم ثابتة وعزم صادق ، كما تكشف لنا عن ذلك قبوره المتتابعة ، فمن حالة البدائية الاولى ، وحياة الصيد ، الى حياة الاستقرار ، واستنباط الزراعة واستئناس الحيوان ، وتشبيد المساكن المجتمعة مؤلفا بذلك القرية المصرية . وهكذا بدأ يمهد السبيل للقيام بأول وحدة سياسية عرفها التاريخ ، حيث بدأت الآثار والكتابة تحدثنا عن قيام المدن وتقوية الصلات فيما بينها ، مما أدى الى ظهور الوحدات الإقليمية ، وقيام الامارات المحلية بدلا من نظام العشائر والأسرات .

٤٢٤١ ق م :

التاريخ الذى يرى كثير من العلماء وعلى رأسهم بريستيد ، وأن المصرى القديم قد عرف فيه السنة الشمسية لأول مرة وقسمها الى اثني عشر شهرا وكل شهر ثلاثين يوما ، وكانوا يضيفون في آخر كل سنة خمسة أيام قدسوها وأقاموا فيها الأعياد .

وقد امكنا التوصل لتحديد هذا التاريخ ، استنادا على أن المصريين القدماء ، قد بداد دراستهم الشمسية الاولى ، بافتران نجم الشعرى مع شروق الشمس . وقد حسب بعض علماء الفلك تاريخ وقوع هذا الحادث ، فوجده وقع فيما وقع في ١٩ يوليو سنة ٤٢٤١ ق م . ولما كان هذا الحادث يتكرر مرة كل ١٤٦٠ سنة ، فان بعض العلماء الآخرين يبدأون التاريخ المصرى متأخرا بهذا القدر (ولیم لانجر - موسوعة تاريخ العالم) .

ويقول سليم حسن ان الآراء قد أصبحت متفقة على اتخاذ تاريخ طريق وسط على جعل التاريخ المصرى يبدأ عام ٣٢٠٠ ق م .

ونحن ممن يميلون الى ترجيح اكتشاف المصريين للسنة الشمسية منذ اشتغلوا بالزراعة ذلك ان فيضان النيل ، يتم بطريقة دورية تتفق ودورة الفصول ، وقد كان هو أول كاشف للمصريين على أن هناك دورة زمنية هى السنة الشمسية .

وقد أصبح عصر ما قبل الاسرات محدد المعالم نتيجة كشوف وحفريات السير فلندر ريتزى الذى قسم عصر ما قبل الاسرات الى ثلاثة أقسام ووضع تاريخا متتابعا

بالنسبة لتطور الفخار في هذه الحقبة ، واعد جدولا بهذه الحلقات المتتالية من ١ - ١٠٠ ومعتبرا عصر ما قبل الأسرات يبدأ بالأرقام المتتالية من ٣٠ إلى ٧٨ حيث يبدأ عهد الأسرات من الرقم التتابعى ٧٩ أما الأقسام الثلاثة لعصر ما قبل الأسرات كما رتبته فلندر تيرى فيجربى على الوجه التالى :

١ - عصر ما قبل الأسرات القديم :

وتتابع أرقام فخاره من ٣٠ - ٣٧ .

ويدخل في هذه الحقبة حضارة « العمرة » نسبة الى قرية العمارة بجوار نجع حمادى ، حيث عثر على صناعة الحجر الصوان بحد واحد ، كما صنع منه مناجل ومباشر، وبلط مصقولة . وفخار هذه الحضارة من النوع الأحمر المصقول أو ذات الفم الأسود ومزينة برسومات الحيوانات ولأزهار - وكانت هناك صلات تجارية مع الأقاليم الأخرى ، اذ وجد بها الذهب النوبى والخشب السورى ، وانسان هذا العصر يؤمن كآسلافه بالحياة الأخرى ، يدل على ذلك وجود الآلات والحرايب داخل القبور .

٢ - عصر ما قبل الأسرات المتوسط وتتابع أرقامه من ٣٨ - ٦٠ :

وتندرج حضارة جزرة في شمال ميدوم بالفيوم ، تحت هذا القسم وهى تتميز بوجود أوان حجرية برسومات حلزونية وأنواع الصبار عليها . وقد بدأت صناعة الاواني الحجرية تظهر في هذا العصر ، بحيث انتهت للقضاء على صناعة الفخار المزخرف في ختام العصر .

وفي هذه المرحلة تقدمت الزراعة وزادت الأراضى الزراعية ، وزرع شجر النخيل والسنطمة والجميز وأصبحت صناعة الآلات الصوانية (الظران) فى غاية الدقة ، ومن أهم مصنوعات سكينة ديل السمكة . ومعظم أوانيها الفخارية ، كانت تزين بتقليد نقوش الاواني الحجرية التى تميز بها العصر .

٣ - عصر ما قبل الأسرات الحديث :

وتتابع أرقامه من ٦١ - ٧٨ :

وتندرج تحت هذا العصر ما يعرف بحضارة السمانية نسبة الى مدينة سمانية شرق مدينة العمرة بنجع حمادى ، حيث دلت الأبحاث على انه كانت توجد مبادلات تجارية مع آسيا الغربية - العراق - راحت تزيد على مر الزمن . وهذا العصر هو عصر التحول الى نشوء عصر الأسرات ، وتطورت عنه صناعة المعادن وارتقت صناعة الاواني الحجرية ، فصنعت من المرمر والديوريت ، وزينت ونقشت عليها الصور والأشكال - وظهرت أنواع المينا الزجاجية ، وازدادت الاواني الفخارية التى وجدت بمناظر جميلة واستعمل النحاس فى تفرغ الاواني الحجرية ، وجهزت الآلات الحجرية

بمقاييس من المعادن ، فقد وجدت سكنين جبل العرقى بناحية نجع حمادى «المحفوفة الآن باللوفر ولها يد من ذهب ، وهى مزينة بمناظر صيد الحيوان . كما وجد من هذا العصر الواح من الوردواز وقطع من العاج . ويرى بعض علماء الآثار ، أن نظام فلندرز يترى التتابع الذى وضعه لهذه الحقبة من تاريخ مصر : ينطبق تمام الانطباق على الأواني الفخارية ولكن نظرا لاندثار صناعة الفخار فى أواخر هذا العصر وظهور الأواني الحجرية متطورة بصورة سريعة ، تجعل نظام بترى لا يصلح .

٢٢٠٠ ق م - اندماج الأقاليم :

كانت درجة الحضارة قد أخذت طريقها نحو التطور السريع حتى أشرفت على العصر التاريخى ، وكان من أسباب هذا التطور التقدمى اندماج الأقاليم التى نشأت تحت سيطرة أمير واحد ، فأصبح الجميع ينشدون غاية واحدة ، ويترسمون طريق قائدهم ، وقويت بينهم الروابط الاجتماعية والقومية ، وتركزت الثروة فى أيدي الحكومات ، فأعان ذلك على القيام بالشروعات العامة النهوض بالبلاد .

وقد أرحت إلينا الأساطير المصرية ، أن الوحدة المصرية بدأت أول ما بدأت فى الوجه البحرى « حيث تآلفت به دولتان أحدهما غرب الدلتا فى البحيرة وعاصمتها بوتو ، والثانية فى صا الحجر (سايس) .

وحدث أن ملج محافل فى أقاليم الوجه القبلى واتخذت مدينة نخن (الكاب) عاصمة لهذه الدولة .

ويحتمل أن حجر يلرمو عن هذه الدولة بأنهم اتباع حور الجنوبيين واتباع حور الشماليين .

وسجل لنا أعمال بعض هؤلاء الملوك فى شن الحروب وإقامة الأعياد ، وتأسيس المعبود والهدن وعمل التمددات « وقيلس النيل وقت الفيضان .

الملك العقرب : وأهم أثر وصل لنا عن عصر ما قبل الأسرات هو رأس نبوس من الحجر الجيرى للكت يسمى «العقرب» وقد وجد فى نخن العاصمة الجنوبية ، ويرى به أعلام الأقاليم المختلفة التابعة له ، ويتلى من كل منها طائر منبوح يرمز إلى أفعاله اللعين المتمرد عليهم .

ومن الآراء العلمية التى بدأت تتردد الآن ، أن وحدة الإقليم فى مملكة واحدة تحت لواء الشماليين قد تحققت مرة أولى قبل بداية التاريخ المعروف لنا والتى يبدأ بمينا كما سوف نرى . والظاهر أن هذه الوحدة قد انقسمت عراها لأسباب دينية ثم عادت من جديد فى أول العصر التاريخى عندما أخضع أهل الجنوب الشماليين .

وقامت الوحدة التاريخية التى بدأتها الأسرة الأولى التى انتهت عصر ما قبل التاريخ ونشأ التاريخ .

الفصل الثالث

العولة القديمة

٢١٠٠ - ٢٨٩٠ ق م :

الأسرة الاولى الطينية : نسبة الى بلدة طينة بمديرية جرجا التي ينتسب اليها مينا مؤسس الأسرة حسب ما أورده مانتون ومينا هو الذى وفق الى تحقيق الوحدة السياسية للبلاد ، حسب اكثر المصادر التاريخية والبعض يميل الى أنه « نعرمر » صاحب لوحة الشمس الموجودة في المتحف المصرى التي تصوره لنا وهو يكافح الشماليين بينما هو يحمل تاج الصعيد ، حيث يرى في الوجه الثانى للوحة وهو يحمل تاجى الوجهين البحرى والقبلى واستطاع أن يكون لمصر حكومة ثابتة ويؤسس أول أسرة حكمت مصر الفرعونية . وقد أقام الجدار الأبيض عند رأس الدلتا ، قرب المهدرشين ، لتكون نواة لعاصمة استمرت عشرة قرون وهى مدينة « من نفر » التي حُرقت الى منف ويطلق عليها اليوم منفيس ويقال أنه حول مجرى النيل .

أما الاله الرسمى لهذه الدولة الموحدة فلم يكن أحد الآلهة السابقين مثل أوزير أو حور ورع ولكنه كان الاله المحلى للعاصمة الجديدة واسمه الاله « بتاح » .

وقد اعتبر المصريون الملوك الذين حكموا البلاد قبل مينا أشباه آلهة الذين جاءوا بعد أسرات الآلهة . وكان ملك الوجه القبلى يلبس التاج الأبيض وتحميه الآلهة النسر (نخب) وملك الوجه البحرى يلبس التاج الأحمر وتحميه الآلهة (الصل) أى الثعبان .

وقال مانتون أن مينا حكم ٦٢ عاما ويظن البعض أن نعرمر غير مينا غير عجا وأنها أسماء لثلاثة أشخاص مختلفين ، ولكن الرأى على أن نعرمر هو مينا . وأن عجا هو ابن نعرمر من زوجه نبت حثب وخلفاؤه هم :

جر - زر ، أجو - زت ، دق (دمو) ، وتولى العرش بعده ابنه عزايب ، وقد تولى العرش بعده سمرخت الذى محاسن عزايب عن الآثار ، وكذلك محاق الذى خلفه اسمه بدوره وأهم ما فعله سمرخت أنه قام بحملة الى وادى المغارة فى شبه جزيرة سيناء واحتفل بعيدة الثلاثينى وقد عثر على معظم قبورهم بالعراة المدفونة بالبلينا وقد وجد مدفن الملك ودمو الذى حكم ثلاثين عاما - وقد قام بحملات كثيرة فى سيناء - بالعراة المدفونة أرضيته من الجرانيت وهى أول مسرة نعث فيها على الجرانيت - كما عثر على مقبرة لزوجه مرت نبت أى محبوبته نبت معبودة صا الحجر - وقد كشف فى سقارة مقبرة كبيرة بها ٥٠ مخزنا لآخذ أشرف هذا الملك ويسمى جماكا وهى تحوى كثيرا من الآثار الرائعة وتحتل مكانا بارزا بالدور الثانى من المتحف المصرى .

٢٨٩٠ - ٢٦٨٦ ق.م - الأسرة الثانية :

بمؤسسها الملك حتب سخموى وقد عثر له على تمثال بالمتحف المصرى من الجرانيت يمثل به وهو رافع وعلى كتفه اسمه وأسماء الملوك اللذين جاءا من بعده ثم خلفه الملك « نب رع » (كاكاو) ثم الملك نتر - أن وبه الملك بيرايب سن وقد أحدث انقلابا إذ غير اسمه الحورى الى اسم الاله ست كما أعاد عاصمة الملك الى العصابة .

ثم خع سخموى ومعنى اسمه (الاثنان القويان) أى الاله حور والاله ست . وقد امتاز عهده بالتقدم والسلام والهدوء ، ويبدو أنه نجح فى القضاء على عوامل الفتنة التى كادت تؤدى الى هلاك البلاد وقد عثر له على مقبرة ضخمة فى إبيدوس ، وقد بنى بها حجرة كاملة من الحجر الجيري الأبيض لأول مرة فى تاريخ العمارة المصرية ، ويفلب الظن أن الملكة « نى ماعت حتب » هى زوجته وأم زوسر مؤسس الأسرة الثالثة .

٢٦٠٦ - ٢٦١٣ ق.م :

الأسرة الثالثة المنفية : وعدد ملوكها خمسة وبها يبدأ ما يسمى بالدولة القديمة حيث اتخذت منف عاصمة لها : وقد أسسها الملك نترخت زوسر وقد حكم ٢٠ سنة وكان من أهم ملوك هذا العصر البعيد وهو أول ملك بنى لنفسه مقبرتين أحدهما مصطبة ضخمة من الطوب اللبن فى بيت خلاف بجوار البليتة بصفته ملكا للوجه القبلى. والثانية شيدت له باعتباره ملكا للوجه البحرى فوق الهضبة المجاورة لمدينة منف بسقارة وهى أقدم هرم عرف حتى الآن فى التاريخ ، ويعتبر الحلقة المتوسطة بين المصطبة والهرم الحقيقى ، ويعرف باسم الهرم المدرج .

وكان « امتحب » المهندس الذى أشرف على تصميم وبناء هذا الهرم كاهن الملك وبوزيره ، وكان زيادة على تفوقه فى الهندسة من أكبر علماء الطب وله قدم راسخة فى الإدارة ، حتى لقد اعتبره الطب ، وبقي اسمه خالدا حتى عصر اليونان ولكنه حرف الى « اموتس » .

وقد عثر على تمثال جميل للملك زوسر فى سردابه وكشف عن عدة مبان له وخاصة معبده الجنائزى ومقبرتى ابنه ونحن ازاء هذه المباني نحس أننا نشاهد خطوة انتقال فى تاريخ فن العمارة وتصميم البناء بالأحجار فى وادى النيل .

كما أننا نضع المهندس الذى وضع تصميمها والعمال الذين قاموا بتنفيذها بأعلى مراتب الشرف والعلم .. وهرم زوسر أو سقارة المدرج عبارة عن ست مصاطب فوق قبره ، كل منها أصغر مما تحتها حجما .

و يبلغ ارتفاع المصاطب السبت ١٩٥ قدما وكان الغموض يكتنف خلفاء سنفرو ، ولكن أعمال الحفر التي قامت بها مصلحة الآثار المصرية في المدة من ١٩٥١ - ١٩٥٤ كشفت عن هرم مدرج لم يتم بناؤه لملك يدعى سخم حت ، وقد ألقى الضوء على مكان بانيه بين ملوك الأسرة الثالثة .

وهناك احتمال أن يكون خليفة لزوسر . وثمت ملك آخر من ملوك هذه الأسرة وهو « سلخت » له مقبرة في بيت خلاف ثم الملك حابا ، ثم نفركا ولا يعرف عنهما شيء .

أما آخر ملوك هذه الأسرة فهو الفرعون حو ويدعى حونى ومعناه (الضارب) وقد أقام لنفسه هرما في دهشور في جنوب سقارة وهو الحلقة الموصلة بين الهرم المدرج والهرم الكامل .

وقد جاء ذكره في ورقة عثر عليها من عهد الدولة الوسطى تنص على أن حونى هذا هو السلف المباشر للفرعون سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة . وهناك مباحث حديثة ومحاولات جادة لتحقيق ملوك هذه الأسرة وإعادة ترتيبهم ، وتحقيق آثارهم على ضوء آخر المكتشفات . « مصر الخالدة - للدكتور عبد الحميد زايد » .

٢٦١٣ - ٢٤٩٤ ق.م - الأسرة الرابعة :

عصر بناء الأهرام العظمى : أهرامات ميدوم - دهشور الجيزة وأبو رواش .

عمليات تعدينية في سينا - تجارة مع ببلوسى للاخشالب - محاجر لاستخراج الجرانيت من أسوان وصحراء النوبة .

وقد أسسها الملك سنفرو (١) الذى تزوج ابنة الملك حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة « حتب حرس » وهى التى اكتشف قبرها حديثا فدلنا على أساس تسلم سنفرو للعرش نتيجة المصاهرة - وتأسيس هذه الأسرة بعد أن كانت غامضة . وقد نقلت محتويات هذه المقبرة الى غرفة خاصة بجوار غرفة الحلى بالمتحف المصرى ، وتقول حتب حرسى عن نفسها أنها ابنة الملك « حونى » وزوجة الملك « سنفرو » وأم الملك « خوفو » .

وقد بنى سنفرو لنفسه أخذا بالتقاليد القديمة مقبرتين على شكل أهرام ، أحدهما فى ميدوم بالقرب من الواسطى وهو يقرب من الهرم الكامل ، قاعدته مربعة وله وجوه أربعة مثلثة - أما الهرم الثانى ففى دهشور جنوبى سقارة ، توفرت فيه كل صفات الهرم الكامل بزواياه المضبوطة .

(١) يعتبره بريستيد أخسر الأسرة الثالثة - ولكن مانيخون ذكره على رأس الأسرة الرابعة والاكتشافات الأخيرة قد أيدت ذلك .

وفي عهده قامت حملة بحرية الى سوريا وعادت بأربعين سفينة محملة بالأخشاب ، فكان ذلك أول أسطول بحرى عرفه التاريخ .

وكان الملك سنفرو بناء عظيما ، محبوبا لدى الشعب وقد ظل صدى هذا الحب عالقا في أذهان الناس لعدة قرون ، وقد اعتبر المؤسس الأخير للنفوذ المصرى في سيناء - وقد افتخر الملوك بعد عهده بألف سنة أن مشروعاتهم في سيناء قد فاقت مشروعاته ، ويهتبر عصره بصفة عامة عصر رقى وقوة ورخاء وازدهار ، بلغت فيه الدولة القديمة درجة رفيعة وقد حكم ٢٩ سنة تقريبا .

٢٥٨٤ ق م :

ولى الملك « خوفو » ابن الملك سنفرو : وقد تزوج فيما يعتقد البعض اخته « مريت أيتس » واستفاد خوفو من خبرة رجال ابيه وجهود عهده وقد توفر له من سعة السلطان مما توفر لابيه وتوفر لمصر في عهده من الامكانيات المادية والكفايات الفنية ما لم يتوفر لها في العهود السابقة أو التالية . . وكان هذا هو ما مكّنه من بناء أخلد ما عرفت الدنيا من معجزات ، فقد كان يقال أن الاهرام احدى معجزات الدنيا السبع ، وقد زالت المعجزات الست الاخرى ولم يعد لها وجود ، أما معجزة الاهرام فلا تزال باقية فحق بأن يوصف أنه معجزة المعجزات .

ويشغل مبنى الهرم مساحة قدرها ١٣ فداناً وارتفاعه الاصلى ١٤٦ متراً أو أقل قليلاً وقاعدته مربعة يبلغ طول اجد اضلاعها ٧٥٠ قدماً واستخدم البنّاءون في بنائه على ما يقال مليونين وثلثمائة ألف كتلة حجر تراوحت زنة الواحدة بين طنين وثلاثة أطنان ويصل وزن بعضها الى ١٥ طناً ، قطعت جميعها من الحجر الجيرى وكان يظن الى وقت قريب جداً أنها من محاجر المقطم جنوبى القاهرة - ولكن الرأى أثبت الآن أنها من هضبة الجيزة نفسها . فيها عدا الكساء الخارجى للهرم قطعوا لوحاته السميكة من الحجارة الرملية .

وقد جرى الخلاف ولا يزال قائماً حول الكيفية التى استعملت بها حجارة الاهرام الى موقع العمل ، ثم رفعت بعد ذلك لبناء الهرم . وقد روى هيردوت أن المصريين قد استعملوا الجبال والبكر لرفع الاحجار ثم جاء من اعترض على ذلك مقررأ أن طريقة المزالق (الطريق المنحدر) هو الذى استعمل لرفع الاحجار وان حفائر الجامعة المصرية عثرت على بكرتين بجوار الاهرام (ص ٢٨٨) جزء أول .

كما كسيت بعض حجلات المدفن بالاحجار الجرانيتية وقد عثر حول الهرم على كثير من قبور بعض افراد أسرته . ولكن نقوش هذه الآثار لم تتحدث كثيراً عن ايام حكمه وقال هيردوت في تاريخه ، أن عدد الذين استعملوا في بناء الهرم ١٠٠ ألف . . ولا يجد علماء الآثار مبالغة في هذا الرقم ، وكانوا يعملون لمدة ثلاثة أشهر ثم يستبدلون بغيره .

ومن عجائب الاقدار أن جثة الملك الذى بنى هذه المقبرة للمحافظة عليها ، لم يعثر عليها .

ولم يعثر لخوفو الا على تمثال صغير من العاج فى أبيدوس وهو محفوظ بمتحف القاهرة . ومن أهم المكتشفات الأثرية فى عهده العثور على مراكب الشمس المصنوعة من الخشب طول الواحد منها ٥٥ مترا .
وقد حكم خوفو ٢٣ سنة .

٢٥٦١ ق . م - ولى العهد « ددف رع » :

ويقول برستيد أنه يجهل تاريخه وعلاقته بأسره خوفو ، ولكن المباحث الحديثة بعد الكشف عن مراكب الشمس ، قد رجحت أنه ابن خوفو ، ذاته وهو الذى أشرف على دفن مراكب الشمس بعد وفاة أبيه وشرع فى تشييد هرم خاص به فى أبى رواش يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه مائة متر أما ارتفاعه فى الوقت الحاضر فلا يزيد على عشرة أمتار ، ولم يبق من مداميكه الا القليل .

وقد حكم ثمانى سنوات ، وقد نحت له الفنانون عدة تماثيل رائعة أظهروا فيها ملامح وجهه بأسلوب واقعى صارم حزين وابتدعوا فى عهده فيما يظن أول نموذج لتماثيل أبو الهول برأس أنسان وجسم أسد رابض .

٢٥٥٣ ق . م :

تولى خفرع العرش بعد أخيه ددف رع وأسمه المصرى القديم حرفيا «خفرع» وكان أول من أطلق على نفسه اسم ابن رع . وقد بنى لنفسه هرما ، وإن كان أصغر من هرم خوفو (١٤٣ ارتفاع) ولكن مهندسه وضعه على هضبة مرتفعة ليعوض نقص ارتفاعه ، وهو لا يزال حافظا لرونقه أكبر من الهرم الأكبر ، ووجد فى معبد الجنائزى بقايا كثيرة من تماثيله ، ويرجع ذلك الى الدورة التى قامت فى أواخر الأسرة السادسة التى حطمت آثار الأسر السابقة عليها . ولكن وجد له تماثلا من حجر المديوريت فى معبد الوادى الملاصق لأبى الهول واحدهما يعبر عن السطح النminente النى يمتلكها المتحف لمصرى .

وتتمثل ذروة ما وصل اليه فن النحت فى عهده فى تثال أبو الهول والذى دلت آخر الكشوف على أن خفرع كان هو الأمر بنحته ، وقد نحت من صخرة واحدة ، على صورة رأس خفرع ولكن جسم أسد ، ويرى سليم حسن أنه رمز للاله آثوم (اله الشمس) وقد أطلق عليه فى العصور المتأخرة اسم (حور أم أخت) وحدث أن قطن فى المنطقة قوم من الآسيويين فاعتبروا أبا الهول ، هو الههم حورون ، وسموا

المنطقة التي يقع فيها أبو الهول (يو حول) فحرفها العرب عندما دخلوا مصر الى (أبو الهول) .

٢٥٢٨ ق م .

تولى العرش بعده الملك (منكا ورع) : وقد لقب بالصقر الذهبي ، وذكره هيردوت باسم مركيز نيوسى وعبر عنه مانيتوف باسم منخريس وهناك بعض الشك في كونه ابن خفرع : فقد وردت بعض دلائل في ورقة تورين وغيرها على وجود اسم ملك يتوسط بين خفرع ومنقرع وهو الذى بنى الهرم الثالث الذى لا يزيد ارتفاعه عن ٦٦ مترا أى أقل من نصف الارتفاع هرمى (خفرع وخوفو وقد ذكر هيردوت أن المصريين أحبوا منقرع أكثر مما أحبوا أباه وجده .

وقد وجد من الآثار ما يدل بالفعل على أنه كان أكثر برا بالرعية ورجال حاشيته وقد حكم عشرين سنة .

وقد كشفت الحفائر في معبد الوادى لمنقرع عن نقائس فنية ودينية تعد انفس مجموعة وجدت في الدولة القديمة من الاسرة الرابعة ومن بينها مجاميع السهات المقاطعات ، وتمثالان لمنقرع وزوجته في قطعة واحدة بالحجم الطبيعى من الجرانيت وهما يعدان من أجمل قطع الفن في هذا العصر .

٢٥٠٨ ق م :

تقريبا - تولى العرش ابن منقرع الملك « شيسكاف » وقد خلا اسمه من كلمة « رع » كما لم يبن لنفسه هرما وانما بنى لنفسه مصطبة كبيرة ووضع فوقها بناء على هيئة تابوت سميت مقبرته (مصطبة فرعون) (١٠٠ متر طولا ٧٢ عرضا ١٨ مترا ارتفاعا) .

وقد قال بعض العلماء ومن بينهم (سليم حسن) ان عدم وجود لفظ (رع) في اسم شيسكاف وعدم بنائه هرما ، يدل على أنه رغب عن عبادة رع ، بعد أن رأى ترايد نفوذ كهنته . ولكن البعض الآخر ، لا يرون هذا الرأي ، ويرجعون عدم بنائه هرما .. « الى قلة الموارد المالية .. » وأن اسمه وإن خلا من لفظ « رع » فقد يكون ذلك مبالغة في التقديس فاكتفوا بالإشارة له بطريق الرمز وحرف الضمير في آخر اسمه وهو (الفاء) خاصة وأنه ظل يحتفظ باسم « سارع » أى « ابن رع » (عبد العزيز صالح) .

٢٥٠٤ ق م :

تقريبا - احتلت العرش بنت منقرع أخت شيسكاف الملكة « خنت كلوس » وقد كتب على مقبرتها التي تشبه مقبرة أخيها على هيئة تابوت ضخم فوق قاعدة

صخرية مربعة « ملك الوجهين القبلي » والسحري » ، والأم الملكة « بنت الاله وكل شيء تأمر به ينفذ لاجلها .

وقد تزوجت خنت كاوس شخصا من غير الدم الملكي وكذلك لم تذكر اسمه في مقبرتها وقد يكون هو من بين كهنة الاله « رع » وانجبت « أوسركاف » الذي أسس الأسرة الخامسة ، فكان خنت كاوس هي حلقة الصلة بين الاسرتين الرابعة والخامسة .

ويرى البعض أن خنت كاوس ، هي التي أشار إليها مانتون تحت اسم « نيتوكريس » وانها التي أتمت بناء الهرم الثالث . . كما كانت هي التي أوجت بالاسطورة الخيالية التي صاغها الاغريق عن بنوا الهرم ، وورد ذكر « وودريس » وانها بانية الهرم الثالث - وقد تولى هيروdotot تنفيذ هذه الاسطورة ، ويضع برستيد تاريخها قبل ذلك أي عام ٢٧٥٠ .

الأسرة الخامسة

٢٤٩٤ ق م - تقريبا :

قيام الأسرة الخامسة - تسع ملوك - أسركاف - ساحورع - نفرأير كارع - (كاكاو) - شيسكارع - نفر فرع - نير سيع - منكاوخور - ديدكارع - أوناس . ارتفاع شأن كهنة هليوبوليس - العودة الى عبادة الدولة - أهرامات بمعابد الشمس في أبو صير - اتمام لحوليات يلرم - معارك مع اللبيين - رحلات تجارية مع بونت ونوبيا - بدأ اللامركزية في السلطنة - قيام أمراء الافطاع .

كان تأسيس هذه الاسره عامضا بالنسبة للظروف التى بدأت بها .

وهناك أسطورة عن أصلها جاءت في بردية وستكار ونسب لأحد السحرة المسمى ديدى ، فقد تنبأ بين يدى « خوفو بولادة اطفال ثلاثة ستلدهم زوجة كبير كهنة « رع » وان كلا منهم سيكون حاكما للبلاد ، وبالفعل أسس الأسرة أوسر كاف .

ونعبر هذه الأسطورة لماذا اعتبر ذراعته مصر أبناء رع منذ ذلك الحين حتى آخر التاريخ المصرى . واتخذوا ملوك هذه الاسره منف قاعدة لحكمهم ، واصبح اسم الملك يسبق دائما بأنه ابن الشمس بعد ان كان ينسب الى المعبود حوريس - وبنوا بجوار منف معابد للشمس ، يحنوى كل منها على مسلة ويزين جدران ممراته وقاعدته بمناظر ذات ألوان زاهية تمثل مخلف صور الحياة القديمة ، وقد تهدم الهرم الذى بناه « وسركاف » ومعبداه فى منطقة أبر غراب جنوبى الجيزة ولكن بقيت له رأس ضخمة لامعة من الجرانيت ، لابد انها كانت رأسا لتمثال كامل .

وحكم أوسركاف ٧ سنوات ، كما يقول بردية تورين ، ويقدر مانتون أنه حكم ثمانى سنوات .

٢٥٦٣ ق م :

وخلفه ساحورع الذى حكم ١٢ سنة على ما تقول بردية تورين وحيث يقول مانتون بأنه حكم ١٣ سنة وأقام معبدا للشمس بأبى صير شمال سقارة بالقرب من هرمه الذى أقامه بهذه الناحية وهو يعتبر أحسن مثال لهذه المعابد المميزة لهذه الأسرة ، وقد نقش عليه بأنه أرسل أسطولاً الى فنشيا وبعث بحملة بحرية أخرى الى بلاد بونت (الصومال) لاحتضار البخور .

٢٥٥١ ق م . :

ثم تولى الحكم اخوه **نفر اير كارع (كاكاي)** ، وبنى له هرما ومعبدا بأبو صير ولم يبق منه سوى كتل كثيرة منقوش عليها أسماءه والقباه - وقد فقد من بردية تورين ما يدل على مدة حكمه ، ولكن حجر بلرمو ثبت به ما يدل على انه حكم على الأقل عشر سنوات .

٢٥٤١ ق م . :

تولى بعده الملك **شيسكارع** - وحكم مدة قصيرة بلغت سبع سنوات على ما جاء في بردية تورين .

٢٥٣٧ ق م . :

وتولى الحكم من بعده نفراف رع واسمه الحوربس نفرخو والذي قام ببناء هرم له في ناحية أبو صير ولكنه لم ينمه وقد جاء اسمه على مسرد أبيدوس ثم تولى الملك « نى اوسرع » وترك لنا بناحية أبى صير هرمة ومعبدته الذى نقش عليه أقدم احتفال بلوغه الثلاثين سنة في حكمه ولكن البعض يشكون في ذلك . وبردية تورين ممزقة في مكان ذكر مدة حكمه وكان من بين الكهنة المخصصين لمعابد هرمة الكاهن « تى » الذى شاد لنفسه ولابنه مبرة كبيرة بصقارة امتدتها بمعاومات غزيرة فيمة عن الحياة الاجتماعية والدينية في هذا العصر .

٢٤٥٠ ق م . :

قيام الامبراطورية الاكادية على يد سرجون الذى حكم اكلدوسومير وعيلام واشمور وشمال سورية وورث الحضارة السومرية .

٢٤١١ ق م . :

ثم تولى ملك مصر الملك من كاوحور وذكرت بردية تورين انه حكم ٨ أعوام . وكل ما نعرفه عنه انه ارسل حملة الى نبيه جزيرة سيناء .

٢٤٠٣ ق م . :

ثم تلاه « ددكارع » - « اسيى » وكان عصره حافلا بالأعمال العظيمة ، وارسل

بعثت الى بلاد بنت واحضر منها قزما من نوع نادر ، وعثر لهذا الملك على أربعة نقوش في وادى المفارة يشبه جزيرة سيناء وقد وصف على احدها بأنه ابن الشمس .

كما ارسل حملة الى بلاد النوبة .

وقد كان « فتاح حوتب » صاحب النعاليم المشهورة التى تعد اقدم ما وصل الينا من حكم المصريين الآن ، مربي الملك « اسيسى » وقد املى تعاليمه في شيخوخته لاعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته في البلاط . . وكان مما قاله وصفا لشيخوخته :

« حلت الشيخوخة ونزل هذيانها - وامتلات الأعضاء الآما وظهرت حالة الشيخوخة كأنها شيء جديد ، وانمحت القوة أمام الهزال ، وصمت الفم فلم يعد ينطق ، وغارت العينان ، وصمت الأذان ، والقلب كثير النسيان ، والعظام تتألم من كبر السن ، والأنف كتم وأصبح لا يتنفس ، والقيام والقعود كلاهما مؤلم والطيب أصبح خبيثا ، وكل ذوق قد ولى . وما يفعلته التقدم في السن مع الانسان هو أن يصير حاله سيئاً في كل شيء ، فمرنى أن أضع عكازا لكبر السن ، ودع ابنى يأخذوا أحاديث من يسمعون وأفكار من سلفوا » . (سليم حسن)

وكان من وصاياه لابنه :

« لا تتعال بمعرفتك ، ولا تشغل عقلك بأنك عالم اذا ارتقيت بعد صغر شأنك ، وحزت ثراء بعد عوز تقدم في قرية تعرفها فلا تتنكر لما حدث لك من قبل ولا تتكل على ثرائك ولا تتخلف عن غيرك ممن أوتوا حظا أقل مما أوتيت » .

ترفق حين تستمع الى حديث الشاكي ، ولا تنهره حتى يفضي بما في جوفه ويحكى ما جاء من اجله فالتظلم يجب أن يؤمن السامع على قوله حتى ينهى ظلامته والمهموم يفضل أن يواسيه السامع عن أن يقضى له حاجته ومن شأن حسن الاستماع أن يريح الفؤاد .

واستمر فتاح حوتب يدعو ولده لتهديب نفسه فأوصاه أن يجنبها الكبر والتعالى والجشع والنهم ، والحقد ورغبة الانتقام أوصاه أن يحمل نفسه على أداه واجباتها الضرورية . وأن يتكفل بتأسيس داره ونفقات أولاده وكماليات زوجته وختم وصاياه :

« فاذا عرفت ان تحيا بالفناعة أتاك ما قدره الأرباب لك بأكمله » .

« واعلم ان الرزق وفق ارادة الرب - والجهول هو من يعترض على ارادته » .

(عبد العزيز صالح)

وقد حكم الملك ٢٨ سنة .

٢٢٧٥ في ٣٠ م :

رخلقه احسن ملوك الاسرة واعظمهم شهرة وهو الملك أوناس الذى حكم ثلاثين عاما على ما تقول بوردية تورين واشتهر ببناء هرمه بصقارة وقد نقش على جدران حجرة مدفنه تعاريف ورسومات دينية باسم يتون الاهرام ، وهى من أهم المصادر التى تمكننا من معرفة معتقدات المصريين القدماء واسلافهم .

وستصادقنا هذه القوس نفسها عبر التاريخ المصرى القديم وقد سجلت بالمداد الأسود على توابيت الموتى من طيلاء القوم ... كما سترأها فيما بعد فى الدولة الحديثة مكتوبة على اوراق البردى بعد ان غزت مادتها فيما اشتهر بين علماء الآثار باسم كتاب الموتى .

وقد كشفت أجزاء من الطريق الموصل بين معبد الجنائزى ومعبد الوادى التابع لهرمه وكان هذا الطريق مستويا باحجار نسخة من الحجر الجيرى ومزينة بالنجوم لتجمل قبة السماء أما جانبا الطريق فقد نقشنا بمنظر غصاة فى الاتقان بعضها جنائزى ، وانبعض الآخر يمثل الحياة العامة وحياة البلاط .

وبانتهاء حكم أوناس انطوت صفحة الاسرة الخامسة التى تعبر فترة ازدهار اتسعت فيه آفاق دين الشمس وشملت أمور الدنيا والآخرة وازداد التقارب خلالها بين ملوك وكبار أفراد الشعب ؛ ومضى التطور الطبقي بخطى وثيدة وبلغ فن العمارة والنحت والتصوير والنقش ذرى عالية واستأنفت مصر خلالها صلاتها التجارية الخارجية على نطاق واسع مع فينيقيا فى شمالها الشرقى وبلاد بونت فى جنوبها الشرقى .

الأسرة السادسة

٢٢٤٥ - ٢١٨١ ق م تقريبا

« من دائرة المعارف » :

تمانية ملوك بما فيهم تيتى - أسركاد - بيبى الاول - مرر - بيبى الثانى نفتكارى .
- ثلاثة ملوك من بينهم ملكة (نيتو كريس) . زيادة التجارة البحرية مع بابلوس
وبونت - نومارخ الفينتين يسوق قوافل الى السودان - نمو فوة نومارخ - مدافن
خاصة كبيرة - بيبى الثانى يحكم اكثر من تسعين سنة أطول حكم فى التاريخ .

لم نكتشف الآثار حتى الآن عن أصل قيام الأسرة السادسة ، غير انه من الراجع
ان مؤسسها هو الملك تبتى واسمه الحوريسى « سمحبت توى » ، ويتجه الظن الى
انه كان زوجا للأميرة « أبوة » او « أبوت » ابنه أوناس » وانه اكتسب شرعية
اعتلاء العرش عن طريقها . وان كان قد تزوج بعدها بأمريرة أخرى تدعى خوية .
وله هرم بصقارة نهبنه اللصوص ومنقوش على جدران حجرة المدفن به جزء كبير
من فنون الاهرام وقد ذكر مانيتون ان هذا الملك قد قتله الحراس .

وفى عهد تيتى بدا « أونى » حياته وهو يعد من اكبر الموظفين المصريين فى هذا
العصر ، وقد عاش فى عهد عدة ملوك ، وقد دفن فى العرابة وترك لنا على أحد جدران
مقبرته أطول نقش عن حياة شخص وهو يعتبر أهم وثيقة تاريخية وصلت إلينا من
الدولة القديمة .

وقد تلا حكم تيتى عصر غامض ربما كان سببه الاضطراب الذى حدث بعد قتله
طبقا لرواية مانيتون ، وكل ما نعلمه عن هذه الفترة أن قائمة الملوك بالعرابة ذكرت
لنا اسم ملك خلف نيتى لا نعرف عنه شيئا مطلقا وهو وسر كارع .

بيبى الأول : وظهر بعد هذا الغموض على عرش مصر فتى يدعى بيبى وقد ظل
قابضاً على زمام الأمور فى البلاد بقوة وعزم نحو خمسين سنة ، وهو يعد بحق من
أكبر الفراعنة الذين قبضوا على زمام الأمور فى مصر فى كل عصور تاريخها بحزم
ونشاط .

وقد عثر له على تمثال آية فى دقة الصنع من النحاس ، وهو يفوق كل ما صنع

قبله من المماثل حتى تلك التى عثر عليها لخفرع ومنقارع ، وهو يعد عند علماء الآثار من أعظم ما عثر عليه من كنوز فنية .

وقد بنى بيبي لنفسه هرما فى سقارة وهو أكبر من هرم أوناس ومن هرم تيتى ، ويمتاز بالتفنن فى إخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات فى طريق الوصول إليها ولكن رغم كل التحفظات التى بدلت فى هذا السبيل ، فإن ذلك لم يحل بين اللصوص وبين تمزيق جثة هذا الفرعون العظيم . . وربما كان ذلك من عمل الثوار الذين ثاروا فى ختام هذه الأسرة .

(أونى) وقد حدثنا أونى الذى أشرنا إليه فيما سبق ، كيف أنه من أبناء الشعب . نشأ فى وظيفة بسيطة ، ورقى حتى وصل إلى وظيفة كبيرة فى الدولة ، وحاز ثقة بيبي الأول ، حتى لقد عينه قاضيا للفصل فى قضية خاصة بزوجه الملكة .

وبلغ من حب الملك له أن أهدها ببناء على طلبه تابوتا من أحجار طره . . ويمضى « أونى » فى سرد أعماله بالتفصيل وكيف قاد خمس حملات ، وتلا الملك بيبي الأول ابنه الملك مرن رع ولم يمكث على العرش أكثر من سبعة أعوام ومات وهو لا يزال فى بداية العقد الثانى من عمره .

وقد بدأ بناء هرمه عند توليه الحكم مباشرة ، وكان الموظف الكبير المشرف على بناء الهرم هو « ونى » .

وقد عثر على مومياء ، هذا الملك سليمة ، وهى أول جثة عثر عليها لفرعون بقيت إلى عهدنا هذا ، وقد لوحظ أن خصلة الشعر التى كان يتميز بها الفتيان حديثو السن لا تزال عالقة بجمجمتها مما يدل على أن (مرن رع) كان لا يزال صبيا عند وفاته .

وقد عين « ونى » حاكما على الوجه القبلى ولقب بحاكم الجنوب ، ولقد سجل لنا « ونى » قائمة بأعماله ، لعل من أهمها حفر قنوات خمس عند الشلال الأول لتسهيل سير السفن التى كانت تعترض صخورها ، مما مكن من تسيير التجارة بين مصر والنوبة .

وبعد « حر خوف » أحد عظماء حكام « الفنتين » الذى لا يزال قبره محفوظا الآن على الضفة الغربية من شلال أسوان ومن أعظم أبطال هذا المضمار - وقد قام حر خوف ، بثلاث رحلات - داخل لأقطار الأفريقية قبل وفاة سيده « مرن رع » وكان يحول لقب « مدير القوافل » وقد قص علينا بنفسه المخاطر المختلفة التى قام بها على قبره بكل دقة - حيث وصف لنا تفاصيل ثلاث رحلات ، تدل على أنه كان كاشفا عظيما فى عصره وأنه يعد أول من فتح الطريق للكاشفين والرواد العظام للتوغل فى مجاهل أفريقيا ، واستجلاب مختلف الخيرات منها . وسوف نسمع عنه من جديد فى عهد الملك الصغير الذى تولى زمام الملك بعد وفاة « مرن رع » .

مات « مرن رع » وهو لا يزال فى بداية العقد الثانى وخلقته على الهرم أخوه

« بيبي الثانى » وقد ذكر لنا « مانيتون » انه جلس على عرش البلاد وهو فى السادسة من عمره ، وقال انه حكم حتى بلغ المائة من عمره ، ومعنى ذلك انه حكم ٩٤ سنة ، وقد اكدت الآثار هذا القول ، وهى اطول مدة حكمها أى ملك فى التاريخ الانسانى كله وكانت مدة حكمه مليئة بالبعثات الى البلاد الاجنبية وخاصة الفتوة الاولى من حكمه - ففى السنة الثانية من حكمه قام « حر خوف » بحملته الرابعة وتعد مغفرتة التى توجت حياته - وقد توغل فى داخل افريقيا حتى توصل الى اقزام اواسط افريقيا وافلح فى اقتناص قزم أو اغراء واحد منهم ليصحب القافلة الى البلاط المصرى .

وعندما بلغ خبر هذا القزم الى بيبي الثانى ، كتب لحر خوف يقول : « عد فى الحال الى البلاط نازلا فى النهر واترك كل شىء آخر ولتحضر معك هذا القزم الذى جلبته معك من بلاد الأرواح حيا وسليما معافى حتى يقوم بالرقص المقدس وليسرى عن القلب وليسر قواد ملك الوجه القبلى والوجه البحرى نقر كارع عاش أبديا » .

وهناك نقرش أخرى لشخصين كبيرين أحدهما موظف كبير يدعى « بيبي نخت » وقد قام برحلتين أحدهما الى بلاد النوبة والثانية نحو شمال البحر الأحمر .

أما الموظف الثانى الكبير فهو أحد عظماء أسوان ويدعى « سبنى » وقد قام بحملة شبيهة بحملة « بيبي نخت » لاحتضار جثمان والده الذى مات شهيدا فى مجاهل افريقيا فى بلاد الزوج وهو يرتادها .

ولا عجب اذا استطلح حكم بيبي الثانى ، أن يكثر فى عهده الرجال الذين ولوا الوزارة فى أيامه ، ووصلوا الى قمة السلطان ، ولعل أشهرهم زاو ، وابنه « أبى » وقد ترك كل منهما خلفه مقبرة قد سجل عليها الكثير مما كشف لنا عن روح العصر ومعتقداته ..

وكان مما جاء على مقبرة « أبى » :

« انى اعطيت خبزا للجائع ، وملابس للعريان .. وحبوبا وثيرانا وفلاحين من اوقافى » .

وخلف بيبي الثانى فرعون آخر يدعى مرن رع محتى لا نعرف شيئا عن حكمه - وقد عدت بردية تورينو ١٨١ سنة مدة حكم ملوك هذه الأسرة ، فذكرت أربعة ملوك جاءوا بعد بيبي الثانى - ولكن مانيتون عندما كتب تاريخه عن مصر انهاد بحكم ملكة أطلق عليها اسم نيتوكريس وقال عنها مانيتون انها « أنبل وأحب نساء عصرها » وذكر هيرودوت قصة انتحارها حيث قام بعض المصريين بقتل أخيها .

وكيفما كان الحال فالانفاق على أن نهاية الأسرة السادسة كانت غامضة ، ولم يعثر فى الآثار حتى الآن ما يكشف الستار عن حقيقة ما جرى .

سقوط الدولة القديمة :

والحق أن سلطة الفراعنة فى الأسرة السادسة ، كانت قد أخذت فى التدهور

شيئا فشيئا وخاصة في عهد الفرعون « ييبى الثانى » الذى حكم البلاد اكثر من ثلاثة اجيال ، وقد راينا كيف بدا كبار الموظفين يخلدون اعمالهم ويننون لانفسهم المقابر بعيدا عن مقبرة الملك ، ويستولون على السلطة - حتى انتهى الامر بانهيار السلطة المركزية وانفراط عقد الوحدة الذى دام الف سنة ، فعادت كما كانت قبل الوحدة ، الى عدة ولايات وامارات متطاحنة متضاربة .

وقد اعتبر ملوك الدولة المصرية القديمة عبر التاريخ المصرى القديم كله آلهة تعبدا ، وقد استمر المصريون يعبدونهم حتى الاسرة السادسة والعشرين فكانوا يثلبون على تعيين الكهنة برسم الاشراف على عباداتهم ، ولا عجب في ذلك فقد كان هؤلاء الملوك هم الذين وطدوا اركان المملكة وحشدوا قواتها ووجهوها نحو العمل النافع الثمر ، وآثارهم من المعابد المقابر والاهرام المنتشرة على طول النظر لعدة اجيال تشهد لهم بتوقد الذهن وعظم المجهود والبراعة في الاعمال الالية والانظمة الداخلية ، وبناء السفن لعبور البحار وارتداد البلاد للكشف ، وكانوا هم الذين وجسوا الى اواسط افريقيا ، وحسنوا فن الحفر والنقش وقدموا فن العمارة فشيّدوا اعظم المعائر ، وبرعوا في سياسة البلاد داخليا وخارجيا فسنوا القوانين المتينة العادلة ، وأعدوا الرجال المتضلعين في القضاء .

وكانوا هم واضعى اساس الديانة المصرية العتيقة التى تؤمن ببعث بعد الموت ، وحساب يثاب فيه المرء ابو يعاقب على ما قدمت بداه .

وانتشرت مدنيّتهم في العالم المعروف في ذلك الزمان فتأثرت بها كل المنطقة وتفاعلت معها .

ملاحظات على الدولة القديمة

كانت حياة مصر الاقتصادية تقوم على الزراعة التى تتأثر بالفيضان وقد قسمت السنة الى فصول ثلاثة كل واحد منها أربعة أشهر . وهى فصل الفيضان وفصل الانبثاق أو الازدهار حيث تكون الارض قد ظهرت بعد الفيضان وتودع فيها البذور ، ويثمر الزرع ، وأخيرا فصل الجفاف .

وهذه الصورة لم تتغير سواء قبل عهد الاسرات أو بعد الدولة القديمة . وكانت الحكومة هى التى تقوم باستصلاح الاراضى . فقام نعرمر مينا بمثل هذا العمل .

وقد سجل المصريون مقياس النيل من إمام الاسرة الاولى .

والمحصولات الرئيسية هى الشعير والقمح - وكانت هناك محاصيل ثانوية كالخض والبصل واللوبيا والعدس .

وكان المساحون يأتون بعد أن تنمو الزراعة - الى ارتفاع معين ويقومون بتقدير الضرائب على الفلات المنتظرة .

وتحصّد الحبوب بالمناجل ، وتقوم الحمير بعملية الدراس ثم تدوس الماشية على السنابل ، وتقوم النساء بعد ذلك بالتدريّة ، وتخزن الغلة بعد ذلك فى اكوام أو مخازن وبعد ذلك يعطى المالك أو صاحب الارض نصيبه وكانت التقاوى تعار للفلاحين ، كما تعار الحمير والثيران للقيام بعمليات النقل أو الحراثة ، وهناك بعض الوثائق التى تظهر تسامح بعض كبار الملاك مع الزراع الذين لم يقوموا بأداء ما عليهم من ضريبة نتيجة عوارض طبيعية .

وكان الفرعون هو مصدر القانون ويحكم بمراسيم كأنها قرارات أوحى اليه بها .

وبتقدم الحضارة المصرية وجدت وظيفة الوزير الذى يجتمع بالملك كل صباح ومساء ليرفع له تقريراً عن حالة البلاد وكان الوزير هو القاضى الاعلى ورئيس السجلات .

وكانت الادارة التى تعمل تحت اشراف الوزير مقسمة الى ادارات مختلفة - ادارة الخزانة وادارة الزراعة .

وبعد هذه الفترة المبكرة سنجد التصوير الابدى لحالة الفلاح وهو اذ يصور بؤس الفلاح من ناحية ، فهو يظهر أن القلوب الرحيمة والاصوات قد ارتفعت دائما لنصرته .

الا تذكر حالة الفلاح الذى تعب أمام جامع الضريبة الذى اناه لتحصيل ضريبة الحصاد - وقد حصدت الحملة نصفه وابتلع فرس النهر النصف ، ان الثيران كثيرة فى الحقول والجرباد فادم - ان العصافير تجلب الكارثة للفلاح ، ثم يهبط الكاتب الى شاطئ النهر وهو على اهبة تحصيل ضريبة الحصاد - واحجاب يحملون الدفوف وزجال الشرطة يحملون العصى ويقولون سلم الحبوب مع انه لا يوجد شئ منها - ويضرب الفلاح فى كل انحاء جسمه ويوتق ويرمى فى بثر ويفطس ويوضع رأسه الى أسفل ، ويوتق أمام زوجته بينما اولاده فى القيود (ص ٢٨٠ عبد الحميد زايد) .

هذا الحديث السابق - من أقوال الكتاب الذين يقومون بتعليم الاولاد فى الكتاب فى الريف .

ولكن الرسوم والنقوش على القبور تحمل صورة غير هذه فالفلاح يقوم بالفناء الجماعى أو الفردى - والصيدون والرعاة يقومون بعملهم فى جد ونشاط يدل على الاسنماع والحيوية ، فهم ينحرون أو يحصدون فى صف واحد وقد لوحوا بمناجلهم بانسجام على لحن الاغاني بينما يعزف لهم حامل الناي ، وقد جاءت النسوة تحمل لهم الطعام .

وأما عن مركز المرأة فى الدولة القديمة كابنة اله أو زوج اله أو أم اله - وكانت الأم تسيطر على الأسرة فى المجتمع المصرى وكان للفراغنة حق الزواج بأكثر من واحدة - ولكن الزوجة الاولى تعتبر أعلى الزوجات - وهذا هو السبب فى زواج الأنح باخنه لتأكيد صفة الالهية .

الحبوب التى كانت تزرع فى مصر :

الفول - العدس - الحمص - البامية - الفاقوس - البطيخ - الكرات - الكرفس - الخس - البصل - التوم - التوابل (الكزبرة - الكراويا - الكمون) - العنب (ويستخرج منه النبيذ ما يبين أبيض وأسود) .

الرمان - الالياف - الكتان - وهناك من يقولون أن مصر عرفت القطن .
وشجر الزيتون والبردى .

أما آلات الفلاح فهى : المحراث - المحشة (المنجل) والاقساط والمطارق والمجارف والمكانس والمناخل والغرابيل .

الحيوانات المقدسة (قبل الاسرات) :

الفهد - فرس النهر - الذئب - الفيل - وحيد القرن - الأسد واللبؤة - التمساح - الصل أو الثعبان .
(الخنزير - الضبع - الدواجن) .

النحل .

- الفقم - الحمام - الثور - الحصان - البجل .
- الكلب - القطة - النمس المصرى - فأر فرعون - القرد .
- كان المصرى يعامل حيواناته برفق ، ويقودها الى الحقل وهو يتشد لها الأمانى .
- كانت الحيوانات تعد كل عامين (حجر بلزم) .
- وأنواع السمك : البلطى - والبورى - القرموط .
- وكان المصرى يعرف القوس والنشاب .
- ويضع الفخاخ لصيد الغزلان .
- واستعمل الخية .

الاحجار التى عرفها :

- الحجر الجيري .
- الحجر الرملى .
- حجر الجرانيت .
- حجر المرمر .
- حجر البازلت .

واستعمل فى غير البناء :

احجار البرشيا الخضراء والحمرات وحجر الديوريت والدولوميت والفسران
او الصوان - واستعمل الجبس وحجر الشست والاردواز .

وكان تقطيع الاحجار السهلة يتم بفصل الكتلة المرغوب قطعها من جهاتها الأربع
عن الصخر الاصلى وذلك بخوابير من الخشب وعروق مبللة بالماء والآلات التى
تستعمل فى ذلك من المعدن فكان من النحاس حتى الدولة الوسطى حيث حل البرنز .
ومدقات من الخشب ومطارق من الحجر . أما بالنسبة للاحجار القاسية ، فلا يزال
الامر محل تكهنات حيث قال البعض أن لابد أن يكون المصريون قد عرفوا الصلب ..
وأن كان الاستاذ سليم حسن كدابه فى تبسيط الامور ، يرى غير ذلك .

احجار الزينة الاحجار الكريمة :

العقيق - الحمشت - الزمرد المصرى الأخضر - حجر الدم (العقيق الاحمر) -
العقيق الابيض (شمسى اللون) - المرجان وهو ابيض أو احمر - حجر الامزون
(الفلستين الأخضر) - حجر سيلان (احمر قائم) - حجر التملات - حجر الدم

(أكسيد الحديد) - اليشم أو حجر الجاد - حجر البشت - الأليزورد - أوريق قائم - حجر الدهنج (التونيا) - اللؤلؤ - الفيروز .

المعادن :

النحاس - الذهب - الحديد - (على اختلاف وعدم تأكيد) والقصدير والفضة والرصاص - البرنز - (خليط من النحاس والقصدير) - والالكتروم - (خليط من الذهب والفضة) .

الاعمال في الدولة القديمة :

- ١ - الاعمال الحكومية - الادارية - استغلال المناجم والمحاجر .
- ٢ - الاعمال الحرة كالخرف والصناعات وكانوا احرارا غير تابعين لفرد معين أو للحكومة وكانوا يعملون في مقابل أجر يتفق عليه في حرية .
- ٣ - اعمال الفياح العظيمة .

طرق المواصلات :

الاعتماد الاكبر كان على النيل ، والذي جعلهم أمة ملاحية منذ أقدم العصور ، نفى وقت الفيضان لم يكن ثمة سبيل للانتقال من قرية الى اخرى الا فوق الماء . وكان الحمل هو مادة الحمل العادية .

النقود :

والراى على أنهم عرفوا النقود ، فقد جاء في احدى الوثائق اشارة الى الشمت الذى يعتبره المصريون معيارا من المعدن . . وينتهى سليم حسن من بحثه باعتماد فكرة النقود .

تجارة مصر الخارجية :

عثر في مقابر جبل (بابلوس) على بعض آثاث من طراز صناعة ما قبل الاسرات . وذكر حجر بلغم علاقات مصر مع آسيا في عهد سنفرى وقد عثر في أساس معبد ببلوس على قطع اثرية منقوشة عليها أسماء ملوك من الاسرة الرابعة . وتدل الكشوف على احتمال وجود علاقات تجارية بين مصر وجزر البحر الأبيض المتوسط وخاصة كريت قبل عهد الاسرات . والعلاقة وثيقة مع بلاد بونت .

العلوم :

كان المصري ماهرا في العلوم التطبيقية وفي المسائل الفنية - يقول هيرودوت أن علم الهندسة كان وليد الحاجة عند المصري عندما أراد أن يقسم الأراضي الزراعية الى قطع منتظمة .

استعمل المصري للمقاييس السطحية الدراع والشبر والقصبه والاصبع والقيراط . وكان المساحون المليون يقيسون الارض بوحدته تسمى « ستا » وتساوى ٢٧٥٦ مترا .

وكان يستعمل الارقام في الحساب منذ فجر التاريخ قبل عهد الاسرات - ومنذ عهد الملك نعرمر كان يوجد في مصر نظام الارقام بكل علاماته حتى العلامة التي تدل على الف .

ونذ وجدت برديات تحتوى على عمليات حسابية ولعل من أهمها ورقة (رند) .

علم الفلك :

وكان في عين شمس كاهن خاص لمراقبة سير الشمس يسمى الرائي العظيم ، وفي المعابد جماعات كهنة لمراقبة سير النجوم .

وتقسيم السنة الى اشهر قمرية كل منها ثلاثون يوما اكبر دليل على معرفة تامة بمنازل القمر . اما الاشهر القبطية - توت و بابه وهاتور و كيهك وتمثل فصل الفيضان .

ثم طوية وامشير وبرمهات وبرمودة ويتألف منها فصل طلوع النبات .

ثم بشنس وبثونة وابيب ومسرى ويتألف منها فصل الصيف .

واليوم ينقسم الى اثنتى عشرة ساعة نهارا واثنتى عشرة ساعة ليلا - وكان الوقت يعرف « بالمزولة » واستخدام الظل والفلاح يستعملها حتى الآن .

وهناك ساعات مائية - اما في الليل فيميز من النجوم .

وكان الى جوار علم الفلك - يوجد علم التنجيم .

الطب :

بدأ التحنيط منذ الأسرة الثانية (علم التشريح) وكان الاطباء متخصصين - أعين - باطنى - أسنان - وكانت هناك كتب طبية منذ بداية الأسرة الخامسة وهناك برديات وأهمها بردية سميث ، ويظهر منها أن الطب لم يركز على مجرد التعاويل السحرية وهى بحث في الجراحة - وطب الجراحة ومعالجة الامراض الظاهرة والتشريح .

والملومات مرتبة ترتيبا علميا منطقيا حيث فحص مؤلفها الجسم الانساني من
الراس الى القدمين ورتب مادتها وقد دون بها عشر حالات عن الجمجمة وتسعا عن
الأنف وعشرا عن الفك والاذن والشفنين وستا عن الزور والرقبة وخمسا عن الترقوة
والكتف ومشط الكتف وستا عن الصدر ومقدمته ، وواحدة عن العمود الفقري .

نظام الأسرة في العولة القديمة :

- المساواة في الميراث بين الاولاد - الابن الاكبر كان يتولى ادارة الوقف .
- كبرى البنات تقدم لوالدها القربان .
- الزوجة تمثل بحجم زوجها في غير المناظر الرسمية .
- والابن الاكبر في مناظر تمثيل لاسرة يشعر بسبطرذ على امه الارملة .

العهد الانتقالي الاول

٢١٨١ - ٢٠٤٠ ق م

« العهد الانتقالي الاول - الاسرة السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره » .

« ملوك ضعاف يحكمون في منفيس - الامراء في مصر العليا يؤلفون اسرات حاكمة خاصة بهم - الآسيويون والليبيون في الدلتا » .

قيام اسرة هيركلوبونيس (الاسرة التاسعة) : خيبي الاول - ١٢ ملكا حكموا الشمال - امراء طيبة احرزوا تأييدا وتغلبوا على اهناسيا » .

يعد العصر الذى تلا الاسرة السادسة اى ظهور الاسرة الحادية عشرة من اظلم العصور في تاريخ مصر ، وقد اختلف المؤرخون في تقدير طول هذا العصر فقدره ريزنر بـ ٣٤٤ سنة من بداية الاسرة السابعة الى الحادية عشرة وقدره بريستيد بنحو ٢١٥ سنة الاسرة السابعة الى العاشرة

ويظن البعض (الأستاذ بترى) ان الوجه البحرى وجزء من الوجه القبلى قد غزيا في نهاية الاسرة لسادسة ، باقوام جاءوا من الشمال الشرقى .

وثمة شواهد دل عليها الادب الذى بقى من هذه الفترة على ان ما يشبه ان يكون اول ثورة اجتماعية عرفها التاريخ قد شبت لظاها في مصر ، حيث قام الشعب على حكامه فقتل وحرق ونهب وخرّب .

ويقول لنا مانيتون ان هذه الاسرة كانت سبعين فرعونا حكموا سبعين يوما . وربما كانت هذه اشارة من مانيتون على ما ساد مصر من الفوضى . . أو انها انقسمت الى عديد من الامارات التى تسمى كل واحدة فيها بفرعون .

ثم ظهرت اسرة جديدة هى الاسرة الثامنة وقد ذكر مانيتون ان ملوكها كانوا ثمانية عشر دون ان يذكر اسماءهم - اما ورقة تورين فقد ذكرت أسماء ملوك ثمانية - بينما ذكرت قائمة العرباة أسماء سبعة عشر منهم ، اما قائمة سقارة فلم تذكر اسم واحد بعد بيهي الثانى الى أوائل الاسرة الحادية عشرة اى انها أهملت الاسرات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشره .

اما الآثار فلم تذكر لنا شيئا عن هذه الحقبة يشفى الغليل .

٢١٦٠ - ٢٠٤٠ ق م الاسرتان التاسعة والعاشره :

وكان مقر حكمها مدينة هقياكليوبوليس (اهناسيا المدينة ببنى سويف) وقيل أن ملوك هاتين الاسرتين من أصل ليبي نزحوا الى مصر من ناحية الفيوم ، وتولوا الحكم بعد اغتصابه من الأسرة الثانية المتغية . . وكان يمكن الا نعتمد شيئا عن هذه الأسرة لولا النقوش التى دونها أمراء أسيوط على جدران قبورهم ، وقد كانوا معاصرين ومحالفين لحكام هاتين الاسرتين ، وساعدوهم على نشر نفوذهم (الاسمى) على البلاد .

ومؤسس هذه الأسرة هو الملك « خيتى الاول » وقد كانت له شهرة سيئة فى التاريخ حسبما جاء فى الروايات التى رواها لنا عنه مانيتون ، وكررها من بعده المؤرخ الاسكندرى رستاتونيس ، من انه من بين الفراعنة التسعة عشر الذين حكموا فى اهناسيا نحو ٤٠٩ سنة كان خيتى الاول هذا أسوأ أسلافه وقد انزل الضرر بكل سكان مصر وانتهى امره بأن جن جنونه واغتال حياته تمساح .

وكانت مصر فى هذه الفترة منقسمة الى ثلاثة أقسام - فالدلتا كانت فى قبضة الآسيويين ، بينما تمكن الاهناسيون بمساعدة أمراء أسيوط من اخضاع مصر الوسطى - أما الصعيد فقد التف حول أمراء طيبة ، الذين شرعوا ينازعون ملوك اهناسيا السلطان بالتدريج .

وقد حكم خيتى الاول ٢٢ سنة . .

ثم حكم بعده خيتى الثانى الذى لا نعلم عنه سوى أنه مات فى سلام ودفن فى قبره . ثم تلاه « خيتى الثالث » ومنذ اعتلائه على اريكة البلاد قام بينه وبين أحد البيوتات الكبيرة فى الجنوب نزاع كان له خطره عليه وعلى خلفائه من بعده وعلى مستقبل العالم المتحضر فى تلك الفترة . وكان مقر حكومة هذا البيت العظيم بلدة « طيبة » وكان حاكمها هو انتف العظيم (أنف عا) ابن انتف الأول مؤسس هذا البيت .

وكانت طيبة فى ذلك الوقت مدينة صغيرة لا تقارن بمدن الشمال وقد كتب خيتى الثالث وصيته لابنه خيتى الرابع ويملى عليه تجاربه ، وقد وصلت الينا هذه الوثيقة فالتفت لنا ضوءا على النزاع الذى وقع بين فرعون اهناسيا وحاكم طيبة « أنتف » ، والذى بدأ بعدوان جنود الملك على العرابة المدفونة وانتهكوا حرمت القبور المقدسة ، مما جعل الراى العام يشتعل غضبا ضد خيتى الثالث وجنوده ، وفوى نفوذ أنتف وعلى الرغم من أن بعض أمراء أسيوط حلفاء ملك اهناسيا ينحدرثون عن هزيمة أنتف مرتين واغراق أسطولة النهري فى النيل ، ولكننا نراه منتصرا فى خاتمة المطاف وعقد صلحا مع فرعون لا يدفع له بمقتضاه الجزية ويحق له استخراج ما يلزمه من حجر الجرانيت من محاجر أسوان . ومات أنتف العظيم وخلفه اثنان من الامراء حكم كل منهما فى عهد خيتى الرابع مدة قصيرة ثم خلفهما فرعون يدعى « منتحبت الثانى » وقد جاء فى نقوش له عشر عليها فى الجبلين أنه قبض على أمراء

الأرضين وأنه المسيطر على الجنوب ولشمال وعلى الأرض المرتفعة وعلى القطرين وعلى فبائل البدو التسع والأرضين - ومعنى ذلك أنه كان قد أسقط أسرة أهناسيا العاشرة مبتدئاً حكم الأسرة الحادية عشرة التي يمكن اعتبارها بداية الدولة الوسطى.

الأدب في فترة الانتقال :

ولكن إذا كان تاريخ مصر السياسي في هذه الفترة مضطرباً ومشوشاً ، انحلت فيه وحدة البلاد ، فإن أجمل أثرين أدبيين بين أيدينا الآن هما من هذه الحقبة .

فأما أول الأثرين ، فهو قصة الفلاح الفصيح التي لدينا منها أربع نسخ أطلق عليها علماء الآثار « سكارى » وهى تؤلف كتاباً مثلاً في البلاغة والفصاحة ، وتدور حول موظف كبير اغتصب حمير فلاح بأئس بحمولتها فقصد الفلاح الى مدير بيت الملك وقدم له شكوى مكتوبة وقد أعجب مدير بيت الملك بأسلوب الشكوى فعرضها على الملك الذى أعجب بها بدوره وطلب من مدير بيته ، أن يسكت عن الفلاح في الوقت الذى يمد فيه زوجته وأهل بيته بالطعام دون أن يشعر الفلاح .. فراح الفلاح ينهال بالشكاوى واحدة أتر أخرى حتى بلغت ثمانية وهى تعطينا صورة دقيقة بما كان يجرى في هذا العهد من المظالم .

أما الوثيقة الثانية فهى وصية خيتى الثالث لابنه .. يتحدث لأول مرة في التاريخ حديث الندم ، فهو لم يعد الآله ، بل الإنسان الذى يحس بذنوبه . حيث راح يوصى ابنه بمصانعة أهل الجنوب .. وفي حديثه إيماء لسياسة عدم العنف حيث يقول لابنه محذراً منه « أن الضربة إنما تقابل بالضربة » .

ويشيد بقوة السياسة (الحوار والحجة والمنطق) « قوة المرء في لسانه وأن الحديث الطيب أقوى من الحرب والقتال » .

« أعمل على إقامة النحق طول عمرك وخذ بيد الحزين والبائس ولا تظلم أرملة ولا تقتل ، فالقتل لا يفيد » .

لا تنظر الى الرجل العظيم على حساب الرجل الفقير بل عامل كلا على حسب أعماله وكفاءته .

وأعبد الله وعظمه - أن الله يتقبل أعمال الصالحين وهى أفضل من أى تقدمة أو قربان - الله يعلم ما تسره وما تعلنه هو راعى الناس ، خالق السموات والأرض وما بها من ماء للظامى ، وهذا الهواء ليحيا به الناس .. ثم يختم نصائحه بقوله « أرع الدنيا كلها تحبك » .

والوثيقة الثالثة - بردية. محفوظة بمتحف برلين وهى تصور شجاراً وقع بين إنسان كان قد ستم لحياة وبين روحه ، فالرجل يريد أن ينتحر والروح تأبى عليه وتروح تصفت له فظائع القبر حيث ترى بدور الشك في الحياة الآخرة والثواب والعقاب ، وعدل الآلهة واضح وجلى « اذا تذكرت الدفن فانه حزن ، وذكره تثير

الدموع وتفعم القلب حزنا ، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به على الجبل ولن تخرج قط لترى الشمس أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر وأقاموا حجر دفن في الهرم ، هؤلاء الجميلون الذين شيدوا هذا المبنى الجميل وأصبحوا مثل الإله ، ترى موائد قربانهم هناك خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون على الجسر من غير خلف لهم . فيبتلع الفيضان ناحية من أجسامهم وتلفحهم حرارة الشمس كذلك ويلتهمهم سمك شاطئ النهر ويعبث بهم . اصغ الى أنه جدير بالناس ان يصفوا ، تمتع بيوم سرور وانس الهموم .

وهكذا مع زوال عهد الملوك الأقوياء . . تجلت كما هو الشأن روح الشعب ، أو ما يمكن أن نصفه في عصرنا الحديث بالديمقراطية أو الاشتراكية . . وعلو شخصية الانسان الفرد .

الفصل الرابع

الدولة الوسطى

الأسرة الحادية عشرة

٢١٣٣ - ١٩٩١ ق.م :

ثلاثة أو أربعة من مصر العليا يسمون أنتف أو منتوحتب بما فيهم منتوحتب الثانى نب تاوى رع - منتوحتب الثالث سانح كارع - منتوحتب الرابع نب تاوى رع . منتوحتب الثانى وحده مصر ٢٠٠٠ ق.م وطرد الآسيويين من الدلتا - استئناف التجارة مع آسيا وبونت . أعاد فتح النوبة ثانية .

أسس هذه الأسرة أنتف عا اى أنتف العظيم حاكم طيبة في بدء صراعه مع ملوك اهناسيا ، وأخذ النزاع يشتد ويزداد عدد البلاد التى كان يستولى عليها ، يوما بعد آخر ولم تكن طيبة التى اتخذت عاصمة لهذه الأسرة الجديدة الا قرية صغيرة ولم تكن عاصمة الاقليم الذى تقع فيه اقليم (واست) والكلمة تعنى الصولجان ، فقد كانت عاصمة أرمنت ، ومع ذلك فقد بدأ اسمها يظهر في تاريخ مصر ابتداء من ذلك العصر وبدأ شأن الهها آمون يرتفع ومعبد الصغير يكبر .

وبعد وفاته تولى ابنه أنتف الثانى لواء الثورة على اهناس ، ولكنه لم يصل بها حتى نهايتها وأقام لنفسه مقبرة بجوار الدير البحرى .

وتولى بعده أنتف الثالث الذى اخذ في استكمال القبض على ناصية الملك ، فاستولى على البلاد من ابيدوس شمالا ، حتى نهاية الشلال .

وولى الحكم بعده ابنه أنتف الرابع ، الذى واصل نضاله ضد ملوك اهناسيا . ثم وصل الى الحكم منتوحتب الاول ، وكان معاصرا لخيتى الثالث ملك اهناسيا ، مدارته بينهما المعارك التى اشرنا اليها .

واخيرا تربع على العرش منتوحتب الثانى الذى دام حكمه خمسين سنة ، وفي عهده كسر شوكة الملوك اهناسيين نهائيا . ووجد القطرين في دولة واحدة مرة اخرى ، وتسمى سنة ٢٠٠٠ ق.م بموحد الارضين وملك الوجهين البحرى والقبلى ، وبني ذلك المعبد الجميل على صخور طيبة الغربية والذى استوحاه من هيئة اهرام الدولة القديمة ومقابر عصره المنحوتة ذات الأبهاء التى شادها سلفه القريب للأناتفة وعدل في هذه وتلك وخرج منهما بأسلوب مبتكر خللته فيما بعد حتشبسوت عندما شيدت معبدها بالدير البحرى . وسجلت أعماله على كثير من آثار هذه الحقبة .

ثم تولى الملك بعده منتوحب الثالث ، ويبدو أنه كان شارك أيام أبيه في حرب
الاهناسيين اذ سجلت الآثار منفره وهو في لباس الحرب وعدته ، لأنه في مدة حكمه
التي استمرت اثنتى عشرة سنة ، كانت سلاماً وتوفيقاً ، وخلفه ابنه منتوحب
الرابع ، ثم الخامس ويظهر أن الخلاف بدأ يدب بين أفراد الأسرة حول وراثة العرش ،
ولذلك فقد كان هذا الملك هو آخر أفراد هذه الأسرة ، اذ استطاع وزيره امنمحات
أن يستولى على الملك مؤسساً بذلك الأسرة الثانية عشرة .

ولعل أوضح ما يذكر من انشباط الاقتصادى للأسرة الحادية عشرة هو اتجاهها
نحو استعادة الاستثمار الواسع لموارد الصحراء الشرقية والصحراء الغربية وما بهما
من مناجم ومخازر واستعادة الاتصال الواسع ببلاد النوبة وبلاد بونت وكان ذلك
كله يستدعى ضرباً من ضروب المخاطرة والبسالة فلدينا من الآثار الادبية عن هذه
الفترة قصة « الملاح الفريق » وأن كان الاجدر بها أن تسمى « نجاة الملاح » وهى
تررى قصة مغامرة أحد رجالات البلاد الذى كلفه الفرعون بالتقيام بمهمة فيما وراء
أرض واوات .

جعلت القوائم الملكية سفنح كارع آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة - وقد ذكرت
بردية تورين أن فترة حكمه دامت اثنى عشر عاماً - وأضافت بعده سبع سنوات
لم ننسبها إلى ملك معين .

الأسرة الثانية عشرة

١٩٩٢ - ١٧٨٠ ق :

ثمانية ملوك - منمنحت الأول - سنوسرت الأول - منمنحت الثانى -
سنوسرت الثانى - سنوسرت الثالث - منمنحت الثالث - منمنحت الرابع -
الملكة سوبيك نفرووع .

العهد الذهبى للن - والداءات "يدوية - عودة الازدهار الى مصر - مقابر
الامراء الاثرياء - نقل العاصمة من طيبة الى الفيوم - تجارة كثيرة مع فلسطين
وسوريا - غزو النوبة السفلى واتعلمه - الرى واستصلاح الاراضى فى الفيوم .

صادفتنا منمنحات فى أيام حكم مننحتب الرابع ، حيث كان وسى له . وترتد
أثار بعثاته التى نام بها لسيدته ومولاه . وهو لا يتحدر من سلالة ماكية . فقبلة كان
والده من العامة يدعى ستخرت ولكن مهابته وقدرته . قد مكنته على ما يظهر أن
يلى أريكة الملك .

فان مهارة ودهاء منمنحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة هو الذى مكنته من
أن يخضج حكام الاتطاع لسلطانه وأن يكون له فضل كبير فى إعطاء مصر هدوءاً . يعتبر
من عصورها الذهبية . وقد قضى على الغوضى التى عمت البلاد ونشر السلام فى
أطرافها . ويشبهه دورانت مؤلف تاريخ الحضارة بشرطان فى عصور أوروبا القديمة
اذ نبض بيد من حديد على زمام الأمور وأعاد النظام إلى البلاد .

وهو أول من احتضر المعبود آمون (الخفى) الذى لم يكن معسروفا بين الة
الدولة القديمة ، فسماء « آمون رع » وجعله رب الأرباب ، ليصرف سكان المنطقة
عن عبادة « مشو » الذى كان معبود أمراء طيبة . ومازال يرعى آمون الذى بدأ يعاوى
نجمه فوق بقية الآلهة حتى وصل الذروة كما سنرى فى الدولة الحديثة .

وكان من حكمة منمنحات الأول ، أنه لم يتخذ طيبة عاصمة لملكه حتى لا يصادم
عن اطف القوم ، كما لم يتخذ منف عاصمة له . أو أهناسيا . إنما اتخذ عاصمة جديدة
فى اللشت وكانت تبعد ثمانية عشر كيلو إلى الغرب من منف وكانت تسمى « إشت
تاوى » أى منشأ الأرضين ليكون قريباً من الشمال .

وقد سعى لحكم البلاد حكماً سطقاً ، كما فعل ملوك الدولة القديمة ، ولكن

تغير الاحوال الكبير الذى تم خلال الظروف الاخيرة ، وخاصة بعد قيام الثورة الاجتماعية ، وظهور الفردية والروح الديمقراطية ، كان يستحيل معه العودة الى النظام القديم . فمناظر قبور بنى حسن الجميلة المنحوتة فى الصخر (فى اقليم الوعل) يظهر لنا مدى ما وصل اليه حكام الاقاليم من قوة ونفوذ ، ما كان يمكن أن يتمتعوا به فى عهد الدولة القديمة .

ومن الرسوم التى وجدت فى هذه المقابر فى قبر « حتوم حتب » حاكم اقليم الوعل صور هذه القبيلة الكنعانية التى بلغ عدد افرادها ٣٨ من ذكر وانثى بملابسهم المزركشة ولحى رجالهم المرسله ، يتقدمهم زعيم لهم يدعى « بشاى » حاكم البلاد الاجنبية .

وقد قرن بعض المؤرخين بين هذه المناظر وما روته النوراه عن مقدم سيدنا ابراهيم الى مصر .

غير أن مؤرخين آخرين يجعلون مقدم ابراهيم أيام امنمحات الثانى (١) . ومن الواضح أن امنمحات اعتمد على حكام الاقاليم ، ولم يحاول أن يلغى سلطان الحكام الوراثيين ، بل اعاد لهم الكثير من كرامتهم وامتيازهم . وفى العام العشرين من حكمه رأى من الخير أن يشرك معه ابنه سيزويستريس أو سنوسرت (وكانت نقرا خطأ اسرتسن) فحكمها معا عشر سنوات . وقد كانت هذه سنة اتبعها كل خلفاء امنمحات فاشتركوا اولادهم فى الحكم قبل وفاتهم .

وفى فترة هذه المشاركة وتحت اشراف سنوسرت احتل المصريون النوبة السفلى حربياً . وامتد الفتح فى العام التاسع والعشرين حتى كرسكو .

وفد ترك امنمحات لولده سنوسرت الأول تعاليم تعطينا صورة واضحة صادقة عن هذا العهد ، ليس فقط فى السياسة الخارجية ، بل وفى سياسة امنمحات الداخلية وقد لا تكون هذه التعاليم من وضع امنمحات نفسه وأيا كان الحق فى هذه النسبة . فذلك لا يقلل من شأن أهمية هذه الوثيقة التاريخية .

ويستدل من هذه الوثيقة على أن امنمحات كان محل مؤامرة فى أخريات حياته، ولكنه استطاع أن ينجو منها ، وأن كانت قد تركت فى نفسه مرارة شديدة فهو يقول لابنه :

« أنت يا من ظهرت لها ، اصبح الى ما أقوله لك لكى تكون ملكا على البلاد وحاكما على ضفاف الأنهار ، ولكى تصب الخير الوفير تمنع على مرءوسيك لئلا يقع ما لا يحسب . لا تدن منهم فى وحدتك . لا تملأ قلبك بأخ أو صديق ، ولا تجعل لك خلاء ذلك مما لن تحمد عقباه - لقد أعطيت الفقير وآويت اليتيم ولكن الذى أكل زادى هو الذى قاد جندا ، والذين ارتدوا أفخر ثيابى هم الذين نظروا الى كخرقة بالية » .

(١) موكب الشمس ص ٢٤٤ الجزء الثانى .

ولعل هذه النصائح هي بذاتها بعض ما كان ماكيافلى يوصى به الأمير ، مما يدل على أن فن الحكم المطلق ، صورة تتكرر في كل زمان ومكان .

وفد وصل نعى امنمحات الأول الى ابنه ، وهو يحارب الليبيين على الحدود الغربية فلم يخبر الجيئس بالخبر وأسرع من فوره الى اث توى مقر الحكم وتسلم مقاليد الحكم .

أما الوثيقة الادبية النائية التي خالدها التلوخ فهي قصة سنوحى ، وهو أمير مصرى ، فر هارباً من مصر لسبب مجهول وأقام في آسيا بعض سنوات ، ولكنه ظل طوال الوقت يحن للعودة الى مصر ، حتى بلغ خبره مسامع سنوسرت الأول فرعون مصر ، فكتب له يقول « انك غادرت البلاد برغبتك ، ولم تحدث بسوء حتى تحاسب » .

وأصدر فرعون رغبته لسنوحى أن يعود الى مصر معزلاً مكرماً . وعندما وصل سنوحى الى حضرة الفرعون قال له « ها قد رجعت الينا بعد أن طويت الاقطار وأصبحت شيخاً كاملاً » .

١٩٧١ قى . م — سنوسرت الأول :

بدأ تولى سنوسرت الأول العرش بالاشتراك مع ابيه ، واذا كنا نعلم انه حكم عشر سنوات في حياة ابيه ، فان انفراده بالعرش بدأ عام ١٩٦٢ قى . م .

وقد بلغ العمران في عهده الى الاوج ، فقد وجدت آثار من عهده في ٣٥ منطقة موزعة على الوادى من الاسكندرية حتى الجندل الأول ، ومن أهم اعماله انشاء معبد عين الشمس ، اذ جعل الفضل في وصوله الى العرش للاله « رع » ، وقد زالت آثار هذا المعبد الكبير ولكن مسلته العظيمة لا تزال قائمة حتى اليوم (في المطرية) ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً وهي مكونة من كتلة واحدة من الجرانيت الوردى ، وقد نقش عليها اسم سنوسرت الأول ، واقيمت بمناسبة عيد سد وهو العام الثلاثين لتوليه العرش .

واستتب الأمن في عهده — ووصل سلطان مصر الى ما بين الجندل أو الشلال الرابع والثالث حيث تقع أرض كوش .

واستؤنف عمليات استغلال المناجم والمحاجر على أوسع نطاق ، حتى لقد بلغ الأمر الى ايفاد بعثة الى وادى الحمامات مؤلفة من سبعة آلاف رجل لقطع كتل حجرية خاصة لتشييد تمثال لابي الهول غير مائة وخمسين تمثالا آخر . كما استخرج الذهب بكثرة .

وساد العدل في وقته كما يتجلى ذلك مما قاله آمتى حاكم اقليم الوعل حيث يقول « اننى لم أظلم أرملة ، ولم احتقر فلاحاً ، ولا راعياً ، ولم أسخر عمالاً في أى عمل ، ولم يوجد فقير في ارضى ولا جائع في عهدى ، ولما أن جاءت سننى القحط قمت

بحرث كل اقليم الوعل الى الحدود الجنوبية والشمالية ولم يبق جائع فيها ،
واكرمت الارمل والزوجة بدرجة واحدة ، ولم اخير الغنى على الفقير في كل ما قمت .
وسواء صدق حاكم آمتى فيما قال . . أم أن هذا الذى سجله على قبره هو
من نوع النفاجر والادعاء المألوف الذى لا يتفق مع الحقيقة في كثير من الاحوال .
(مقال عبد الحميد زايد)

فان هذا النص شاهد ، على وجود دستور للحكم الصالح يحث الحاكم أن
يتصف به . ويقوم على العدل وتأمين جميع المحكومين من الجوع والمرض والخوف .
وبنى سنوسرت لنفسه هرما في الجهة الجنوبية من المعبد الذى بناه والده .
وقد نهب المصوص هذا الهرم . ومات بعد أن حكم ٤٦ سنة . واشرك ولده معه
في أربع سننات .

١٩٢٩ قى ٠ م - امنمحات الثانى :

بدأ تولى امنمحات الثانى الملك ابلن حياة أبيه ، جرى على سياسة أبيه واشرك
معه في آخر حكمه أبنيه « سنوسرت الثانى » لمدة ثلاث سننات ، وتقدر مدة حكم
هذين الملكين بخمسين عاما ، لبست مصر خلالها حلل الرشاء والسعادة والرفاهية .
حيث فتحت مناجم وتوطدت العلاقات التجارية مع بونت . وأصبح السفر الى بلاد
الصومال مسألة عادية ومألوفة لدى المصريين ، ويحفظ لنا الادب من هذه الفترة
قصة بحار مصرى تشبه قصة السندباد البحرى فقد غرقت السفينة فهلك كل من
كان عليها ، الا بحار واحد ، يقول عن نفسه : « ثم دفعت بى موجة الى جزيرة ،
وامضيت ثلاثة أيام ، اذ لم يكن فى صسحبى الا قلبى ثم سمعت صوتا كالرعد
واعتقدت انها موجة بحر ، ولما كشفت النطاء عن وجهى وجدت انه ثعبان أخذ يقترب
مضى يبلغ طوله ثلاثين ذراعا ، ولما لحيته فيبلغ طارها خمسة أذرع ، وقد دلا جسمه
بالذهب ، ثم سألنى « من أحضرك الى هنا (وكرر ذلك ثلاثا) » .

وهكذا تمضى القصة ، التى يكاد يرجح الإنسان انها كانت هى الوحى لقصاص
السندباد التى اشتهرت فى العربية بعد ذلك بألوف السنين .

وكانت علاقة مصر بآسيا فى هذه الفترة علاقة ود وصفاء .
وقد كشف فى بلدة طود فى مصر العليا عام ١٩٣٦ عن كنز فى أساس معبد يرجع
الى الأسرة الثانية عشرة ومن أيام امنمحات الثانى وهو عبارة عن صناديق مصنوعة
من البرونز عليها اسم امنمحات الثانى وبداخلها أوان ذهبية ، وفضية بلغت حوالى
مائتى اناء وكذلك سبائك من الذهب والفضة ، وقد لاحظ البعض تأثرا واضحا فى
صناعة هذه الأوانى (بالفن الايجى والبابلى) مما ينطق بعرق تأثر المنطقة كلها
بحضارات ذلك العهد .

وقد أقام هرما جنوب سقارة بناحية دهشور : وكان باطن الهرم مقاما باللين

وكسى من الخارج بالحجر الجيري ، وقد سلب قديما ، ومما يؤسف له اننا لم نعرف لهذا الفرعون على مبان كثيرة غير انه قام باصلاح دور العبادة التى تهدمت . وكان اداريا حازما استطاع ان يسيطر على حكام الاقاليم . وقد جاء ذكر ذلك على قبر امير اقليم الوعل . وبعد ان جلس امنمحات الثانى على عرش البلاد ٣٥ سنة اشرك ابنه « سنوسرت الثانى » ، وقد وجد ذلك منقوشا على صخر عند الجندل الاول .

١٨٩٧ ق م :

اشترك سنوسرت الثانى فى الحكم مع والده - وقد جاء فيما كتبه مانتون عنه ، انه كان من اطول الملوك قامة اذ بلغ اربعة اذرع وثلاثة اشبار واصبعين - ولم يدم حكمه طويلا فلم يجلس على العرش اكثر من تسع عشرة سنة ضمنها الفترة التى اشترك فيها مع والده .

ولم يكن بميل للخروج الى الحرب ، ومن اجل ذلك حاول النوبيون الخروج عليه . وراحوا يهددون الحدود الجنوبية - قام بنشاط عمرانى كاسلافه .

ووصل حسن الجوار مع البلاد الآسيوية المجاورة ، ان يرى مسجلا على جدران مقبرة « خوم حتب الثانى » ، قدم جماعة من العامو وعددهم ٣٨ يحملون الجزية من الكحل وغزال البت وكان رئيسهم يدعى بحاكم البلاد الأجنبية ، وعلى وجوههم مسحة سامية (يقول عبد الحميد زايد - وليس لهذه الجماعة علاقة بدخول يعقوب وأولاده الى مصر ، او بدخول ابراهيم وأسرته) .

والدبير بالذكر ان الآسيويين كثر مجيئهم الى مصر ايام الاسرتين الثانية والثالثة عشرة . رجالا ونساء فى اعداد كبيرة يعملون فى منازل الاغنياء .

وقد اثنام سنوسرت الثانى لنفسه هرما باللاهون عند مدخل الفيوم وقد اقامه فوق مسنرة واكمل بناءه بالأحجار واللين وكساه بالحجر الجيري .

ويرى البعض ان سنوسرت الثانى هو الذى بدأ المشروع الكبير الخاص بالتحكم فى مياه النيل عند الفيوم واستغلال المياه فى رى الاراضى - وقد اتم خلفاؤه من بعده هذا المشروع وخاصة حفيده امنمحات الثالث .

١٨٧٨ ق م - سنوسرت الثالث :

ولى الملك سنوسرت الثالث ، الذى يعتبر من اعلام التاريخ ، حيث اثبت انه رجل حرب وادارة ممتاز فى نفس الوقت . فقد واصل جهوده فى بلاد النوبة حتى اخضعها نهائيا لسلطائه وجعلها جزءا من مصر بصفة نهائية ، واعاد شق الترع التى كان « اونى » قد انشأها فى الدولة القديمة بين صخور الشلال الاول سميت باسم طريق سنوسرت الجميل ، وشيد عند آخر حدود النوبة بسمنة قلعة كبيرة بنيت على ربوه لا تزال باقية حتى الآن .

وقد بلغ عدد القلاع التى بناها فى بلاد النوبة أربع عشرة قلعة واقام بكل هذه القلاع معابد تقام فيها الصلوات لآلهة هذه المناطق ولما جاء « تحتشمس الثالث » بعده بثلاثمائة وسبعين عاما اعاد الاحتفالات التى كانت تقام فى دور العبادة ببلاد النوبة واهل سنوسرت الثالث ، كما ان عامة الشعب قدسوه .

وفى عهده بدأ على ما يبدو اول اصطدام حربي مع سكان آسيا (فلسطين) فقدم ارسل احد قواده المدعو « سبك خو » على رأس حملة الى فلسطين ، وقد ذكر انه تقدم شمالا للفضاء على البدو لآسيويين وبلغ مدينة سكهم وكانت تقع فى قلب فلسطين ، وقضى على اهل رتنو .

ومن أعماله العمرانية الخالدة - حفر قناة فى شرف الدلتا وصل بها ما بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى طميلات والبحيرات المرة وتعد هذه القناة أقدم محاولة لربط البحرين الأبيض بالأحمر ، فقد كانت السفن الآتية من البحر الأبيض تشق طريقها فى النيل ثم الى هذه القناة ومنها الى البحر الأحمر ، فتواصل طريقها الى بلاد بونت « الصومال »

وقد حكم سنوسرت الثالث أربعاً وثلاثين سنة ولما تقدم به السن أشرك ابنه امنمحات الثالث ودون ذلك على جدار معبد مدينة أرسينو بالفيوم - وحكم بالاشتراك مع ابنه بعد ذلك أربع سنوات .

١٨٤٢ ق م - امنمحات الثالث :

حكم امنمحات الثالث ، وقد سمي باسم نى ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر ، ودام حكمه خمساً وأربعين سنة مرت على مصر فى هدوء وسلام وملئت بالمشاريع الكبرى العمرانية .

كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الري الذى ابتكره للوجه البحرى بأن اتخذ من منخفض أقاليم الفيوم الذى ينخفض فى بعض اجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدماً خزاناً للماء حيث لا تزال بحيرة قارون آية على ذلك فشيدوا على الفتحة فى سلسلة جبال ليبيا التى تربط وادى النيل بمنخفض الفيوم - سداً عظيماً ، فنشأت هذه البحيرة الهائلة فى التاريخ التى عرفت باسم بحيرة موريس ، والتى كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق ، اشبه بخزان أسوان أو السد العالى فى عصرنا الحديث .

وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد ، فهو قد انقذ الفيوم من الفرق الذى كانت تتعرض له كل عام ، واستصلح أراضى زراعية قام باستغلالها بالفعل ومد النيل بالماء أيام التحاريق .

ومن الأعمال العمرانية العظيمة التى تنسب الى امنمحات الثالث ، القصر العظيم الذى أطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت وكان طوله يبلغ ألف قدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهداً دينياً وإدارياً ، وحوى مجموعة من الحجرات

يفدر عدد اقسام مصر فى كل مجموعة منها تماثيل آلهة القسم المنسوبة اليه .
وايا كانت رغبتنا فى الايجاز بقدر الامكان فلسنا نستطيع مقاومة النقل عن
هيرودوت وصفا لهذين الاثرين ونعنى بهما بحيرة موريس وقصر الابرانت ، فقد
رأها رأى العيان ووصف ما رأى عامة وسجل انبهاره .

« أن اللابرانت عمل يعجز عن وصفه البيان اذ لو قدر لمرىء أن يجمع معرضا
للمباني والآثار الفنية التى شيدها اليونانيون لبدت عملا أقل من هذه اللابرانت » .
واذا كانت الاهرام تجل عن الوصف ، فلن اللابرانت تفوق الاهرام — وبه اثنا
عشر بهوا مسقوفا ، مداخلها متقابلة ستة تتجه نحو الشرق وستة نحو الغرب ،
متتابعة يحيط بها سور خارجى واحد — وهناك نوعان من القاعات بعضها تحت
الارض وبعضها فوق سطح الارض وعددها ثلاثة آلاف قاعة خمسمائة وألف من كل
نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا القاعات التى فوق سطح الارض وجسنا خلالها وانا لن
نتمكن من التعبير عما شاهدناه بأعيننا من أعمال تفوق طاقة البشر . فالممرات خلال
الردهات والمترجات المعقدة منتهى التعقيد خلال الابهاء كانت مصدر اعجاب لا حد
له . وسقف هذه الابنية كلها من الحجر مثل الجدران — والجدران ممثلة بأشكال
محفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الابيض متداخلة باتقان فائق .
ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة موريس :

« ومع أن اللابرانت على هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة ببخيرة
« موريس » والتى بنى اللابرانت بالقرب منها نثر أعجابا أشد — وراح هيرودوت
يسجل أبعاد الخزان العظيم ، وكيف يصل إليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر ، ثم
يرجع منها إلى النيل مدة ستة أشهر ثانية (١) كما تحدث عن تماثيل لامنمحات
الثالث (٢) .

ويرى بعض أساتذة التاريخ فى العصر الحديث . . أن وصف هيرودوت لهذا
القصر فيه كثير من المبالغة ، وغنى عن البيان أن هيرودوت لم يعد حجرات القصر ،
وانما روى ما قيل له . . غير أن الذى لا شك فيه أن مظهر القصر كان من الروعة
والضخامة بحيث جعلت رجلا كهيرودوت يتقبل ما قيل له عن عدد حجرات القصر .
وهكذا ارتفعت شهرة إقليم الفيوم وأصبح من أكثر أقاليم مصر عمارا ، وارتفع
بالتالى شأن معبوده سبك أى التمساح ، حتى ضاهى شهرة « آمون » ، حتى لقد
سمى آخر فرعون هذه الأسرة نفسه سبك نفرو رع نسبة إلى المعبود سبك وقد
عرف جميع ملوك الأسرة الثالثة عشرة باسم سبك حوتب نسبة إلى المعبود سبك .
وحكم امنمحات الثالث مصر خمسين سنة حل فيها النعيم والأمن والسكينة على
البلاد ، حتى ترنم القوم بالفرعون قائلين :

(١) وهى القنسة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف .

(٢) هيرودوت يتحدث من مصر — محمد صقر خفاجة .

« انه يكسو القطارين جنة خضراء اكبر من النيل العظيم .. لقد زاد القطارين قوة .. كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف ، هو الذى يوزع الخيرات على تابعيه ، هو المقلد لخلفائه ، هو النداء وفى فمه الخير » .

١٨٠٠ ق م - الملك حمورابى - والعصر الذهبى فى بابل :

١٧٩٨ ق م - امنمحات الرابع :

حكم امنمحات الرابع بعد ابيه البلاد .. ولكنه لم يكن بقوة شخصية ابيه - وتقول بردية تورين انه حكم تسع سنين وثلاثة اشهر وسبعة وعشرين يوما ولعل ذلك يظهر مدى الدقة التى بدأ التاريخ يدون بها ومات فيما يبدو بغير وريث .

١٧٨٩ ق م :

وليت « سبك نفرو » اخت امنمحات الرابع عرش البلاد - وقد ذكرت ورقة تورين انها حكمت ثلاث سنوات وأربعة شهور واربعة وعشرين يوما وقد ذكرت فى مدونة سقارة بلغتها سبك كارع على انها خليفة امنمحات الرابع .

وهذه هى المرة الثانية فى التاريخ تحكم فيه امرأة مصر العليا والسفلى ، ولكن الشيء الذى يستلفت النظر ، أن بكليهما تبدأ بدور المآسى والفوضى ، فقد انهارت الدولة الوسطى بعد حكم سبك نفرو .. كما انهارت من قبل بعد حكم نيتو كريس .

بالنسبة للنوبة - ففى الأمر يضمها الى مصر فأصبحت جزءا منها واقامت سلسلة من القلاع أهمها سمنة .. كما أنشئت منطقة للتجارة جنوبها عند الشلال الثالث - الكسرما .

وأصبحت مناجم النوبة هى المصدر الأساسى للذهب والماج والأبنوس وجلود الفهد وریش النعام - وكانت الاحجار الثمينة والرفيعة تستجلب من السودان الى مركز التجارة ، حيث كانت تستبدل بالبضائع المصرية .

وفى آسيا زاد نفوذ فرعون مصر - وبلاط أمراء بابلوس أصبح مصرى - ومن المآوف العثور على المنتجات المصرية من هذه الحقبة فى المدن السورية . وقد حارب الجيش المصرى فى فلسطين وكان الرقيق الآسيوى ، سواء عن طريق التجارة أو اسرى حرب يملأون بيوت أنس الكبيرة فى مصر .

ملاحظات عامة عن العهد الوسيط

لم تصل العمارة في الدولة الوسطى مبلغها في الدولة القديمة ، فسائر الأهرام التي بنيت للملك الأسرة الثانية عشرة في اللشت ودهشور واللاهون وهوارة بنيت كلها باللبن من الداخل وكسيت بالحجر الجيري من الخارج فقط (ماعدا هرم امنمحات الاول) ، وقد بقيت لنا آثار واضحة عن مدينة سنوسرت الثاني بالقرب من هرم اللاهون ، حيث عثر على مساكن مؤلفة من أربع حجرات خاصة بعمال الملك - كما عثر أيضا على مساكن فاخرة لها أفنية وردهات وعدد من الغرف بلغ في بعض الأحيان ٧٠ غرفة - ويحتفظ متحف القاهرة بنموذجين لمنزلين بهما حديقتان من أواخر الأسرة الحادية عشرة. وقد صنعا من الخشب ، وعثر عليهما في قبر حاسل الختم « مكت رع » .

أما عن التصوير والزخرفة الملونة ، فأننا نستطيع ان نرى أمثلة رائعة من هذا العهد ممثلة خير تمثيل في قبور بنى حسن ومقابر وتوابيت دير البرشا - حيث نجد مناظر تفصيلية رائعة للرقص الجماعي وأعمال المصارعة - ومناظر الصيد ولعب الداما .

ولم تعد التوابيت تصنع من الحجر - وإنما من الخشب ومزدوجة أى أحدها في داخل الآخر وعلى سطحها الخارجي صورة لعينين راقيتين تمثل عيني حورس وباب تستطيع روح الميت أن تخرج منه حين تريد الخروج - وبزين دائر التابوت شريط من كتابات هيروغليفية زرقاء اللون كثيرة الزخرفة - تتضمن أسماء وألقاب صاحب القبرة ، أما الجدران الداخلية للتابوت فأنها تمثل الأشياء التي كان الميت يستخدمها في حياته .

أما بالنسبة للفنون الصغرى مثل الحلى ، فإن الفنان في أيام الأسرة الثانية عشرة قد بلغ الذروة - الانقان - وإلى مستوى من الامنيان لم يتجاوزه مرة أخرى في التاريخ المصرى بعد ذلك . وأن الحلى ، والمتعلقات الخاصة بالحريم الملكى التي وجدت مدفونة في دهشور واللاهون تعطينا فكرة طيبة عن سلامة الذوق والكمال الفنى ، وحسن الاختراع .

الأدب :

هناك انصراف من جمهرة المؤرخين باعتبار هذه الفترة من فترات التاريخ الفرعونى العصر الذهبى في الاداب المصرية - وقد ظلت اللغة الخاصة بالدولة الوسطى وهى لغة وجيزة وراقية تستعمل في كل التأليف بعد ذلك .

وبقيت هي اللغة الكلاسيكية لمصر في الدولة الحديثة وقد عاشت في شكلها المتأخر في بعض الأغراض الأثرية التذكارية والأدبية حتى العهود اليونانية الرومانية وقد أشرنا فيما سبق الى نصائح الملك امنمحات الاول الى أبنة .

والى قصة الفلاح الفصيح ، والى مشاجرة رجل مع روحه والى قصة الملاح العريق وقصة سنوحى .

المسرح :

بل وقد عثر على أجزاء من وثائق خاصة بمسرحيتين كانتا تمثلان داخل المعابد والهيكل وهى الدراما المنفية ودراما التتويج ، وقد وجدناهما محفوظتين في نسخة متأخرة منقوشة على ما اصطلح على تسميته حجر شاباكو المعروف في المتحف البريطاني - وعلى بردية مشهورة من أواخر الأسرة الثانية عشرة كشف عنها في قبر تحت معبد الرامسيوم - وتعتمد احدهما على أسطورة أوزوريس ، ويصف « اخرنوفرت » في سرور وابتهاج وقد عاش أيام سنوسرت الثالث على لوحة المشهور المحفوظ بمتحف برلين ، كيف قام بدوره في تمثيل الاله هورس في صورة اله .

العلوم :

والى هذا العهد ترجع الآثار العلمية التى لدينا عن الطب والرياضة والهندسة ، وقد تكون هذه المعارف من صنع أجيال سابقة ، ولكن النسخ المكتوبة منها في هذه الفترة هى التى وصلت لنا .

الدين :

امتاز عصر المملكة الوسطى بنغير واضح في عقيدة القوم الدينية . فقد أخذت عبادة الشمس شكلا رسميا كما رأينا في مبدأ الأسرة الخامسة ، ثم كانت الأسرة السادسة وما أعقب سقوطها من اضطراب وانقسام ، ومع ذلك فقد انتشرت عبادة الشمس ، حتى اذا ما تولت الأسرة الثانية عشرة الحكم كانت هذه العقيدة بالغة أقصى درجاتها فتغلبت على سائر عقائد القطر ، واضطر كهنة المعابد الأخرى أن يجاروا الظروف بقصد اجتذاب شرف عبادة رع الى معبودات أقسامهم فقالوا أن هذه المعبودات هى صور متنوعة للمعبود رع ، ثم ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فاعتبروا أسماء معبوداتهم مرادفة لاسم رع أيضا .

فكهنة المعبود سبك نسبوا معبودهم الى رع - وكذلك كهنة آمون في طيبة أسموه آمون رع .

على أن عبادة الشمس لم تكن وحدها العبادة السائدة عند المصريين - بل كان يوجد الى جوارها عبادة أوزوريس باعتباره اله الموتى والذي كان مقره إيدوس ، حيث كان كل مصرى (ابتداء من الفرعون والوزير حتى رجل الشارع) يطمح أن يدفن في هذا المكان المقدس - فاذا تعذر ذلك اكتفى باقامة شاهد بجبانة العرابة .

وكان الاعتقاد ان كل ميت لا بد ان يمثل في حضرة اوزوريس لمحاسبته وكانت محكمة اوزوريس تتكون من اثنين واربعين قاضيا يجلسون امام المعبود كالزبانية يمثل كل منهم قسما من اقسام مصر . فاذا دخل المتوفى امام المحكمة وانكر امام كل قاض اثما من آثامه يوزن قلبه في ميزان مقابل ريشة العدالة للتأكد من صدق قوله _ اما الاثام التي يتبرأ منها الميت امام محكمة اوزوريس ، فهي بعينها الاثام المستهجنة في عصرنا .

« السرقة والقتل والاختلاس (وبالأخص السلب) والكذب والخداع وشهادة الزور والرباء والتنازل بالالقاب والتجسس وعدم الاعتدال في الامور الجنسية : وامتهان كرامة المعبودات او الاموات كالكفر بهم وسرقة أمتعة الموتى » .

وكان الاموات الذين تحكم عليهم محكمة اوزوريس بالاجرام يعرضون للجوع والعطش ويحجزون في اماكن مظلمة لا يبصرون بها ضوء الشمس .

والنسخص الذي تبرئه محكمة اوزوريس تلقبه بالرجل الطاهر العادل « صادق القول » او المنتصر ، ويتنعم بالحياة الآخرة في جزيرة يارو التي تنبت أرضها قمحا يبلغ طوله اثني عشر قدما . وقد أدى انتشار عبادة اوزوريس الى اندماج بقية المعبودات الاخرى فيها كما هو الحال بالنسبة للشمس .

المرحلة الانتقالية الثانية

١٧٨٦ ق م . بدء قيام الأسرة الثالثة عشرة :

بدأ قيام الأسرة الثالثة عشرة بتولى الملك « سخم رع خوتاي » وكانت المملكة في أيام حكمه ممتدة من الدلتا شمالا الى الشلال الثاني جنوبا . وقد وجدت بأقليم الشلال الثاني نقوش لمقاسات مياه النيل في الأربع السنين الأولى لحكم هذا الملك . وان رسوم وضرائب الاملاك قد جعلت من الوجه البحرى كالمعتاد .

ثم توالى من بعده الملك بطريقة وراثية خلال أربعة ملوك ثم اغتصب الملك من يدعى يوفنى yufni على ما ورد في بردية تورين ، ثم عم الاضطراب وطمع الكثيرون في العرش واستعمل الكثيرون اللقب الملكية في اسمائهم . حتى أن مانيتون عد ستين ملكا حكموا ١٥٢ سنة ، ويرى البعض أن هذا الرقم خطأ من مانيتون فلا يمكن أن يجاوز حكم هذه الأسرة المدة من ١٧٨٦ - ١٦٢٣ ق م .

أما بردية تورين فقد عدت من حكام هذه الفترة ما بين خمسين وستين - وقد كان ملوك هذه الأسرة من أصل طيبى ومن عدد ملوك هذه الأسرة الطيبة وقصر مدة حكمهم يدل على انقراض عقد الوحدة من جديد في البلاد - وكان ذلك مؤديا الى دخول الآسيويين الى مصر ، الذين كانوا من العنصر السامى . وبدأوا متسللين في جماعات محدودة في بادىء الامر ، ثم تلبث أن تزايد عددها بالتدريج ، واستغلت الفتنك الذى سرى في أحوال الدولة ، فاستقروا في مناطق من الدلتا . وعلى مر السنين ، توطدت أقدامهم وأصبحت لهم قوة وسلطة فيما يحيط بهم .

وإن التاريخ لا يزال يذكر لنا قيام أسرة مصرية رابعة عشرة . يقدر مانيتون عدد ملوكها ب ٧٦ ملكا وأن مقرهم كان مدينة سخا في غرب الدلتا ، وأنهم حكموا ١٨٤ عاما ، ومعنى ذلك أن حكام هذا الاقليم قد استطاعوا أن يحافظوا على استقلال خاص بهم على الرغم من وقوع جزء من البلاد تحت الحكم الاجنبى .

١٦٧٥ ق م :

التاريخ المطور لاحتلال الآسيويين الذين سماهم مانيتون (على ما قيل عنه جوزيتوس) بالهيكسوس ، أى ملوك الرعاة ، ولم يترك هؤلاء القوم من بعدهم في مصر الا آثارا يسيرة . ومن هذه الآثار القليلة ، ما سجلته الملكة حتشبسوت بعد خروج

الهيكلوسيون بهولين حيث قالت « لقد اصلحت التلف واكملت الناقص بعد ما كانت البلاد تئن تحت حكم الآسيويين لاهالي البلاد الشمالية في عاصمتهم أواريس بالدلتا فقد ألفت هؤلاء القوم الآثار الجيدة عن جهل منهم بمعرفة سلطة المعبود رع (بريستيد ص ١٢٦) .

وهناك رواية عن طرد الهيكلوسيون انتشرت في مصر . قد جاء فيها :
« وأصبح القطر المصري في أيدي قوم قذرين غاصبين فتعذر على المصريين ان يملكونا على انفسهم واحدا منهم . وكان في ذلك الوقت الملك سكترع يحكم قسم طيبة الجنوى » .

والملك ابونيس الهيكلوسيون يحكم جميع القطر من أواريس ويجمع الجزية من سائر الأقسام ومن الحاصلات والخيرات التي انتجتها اراضي الوجهين القبلى والبحرى واتخذ الملك ابونيس المعبود سوتخ الها دون معبودات القطر كلها وشيد له معبدا جميلا ثابتا .. » .

وهذه الرواية تدل على ان الهيكلوسيون قوم آسيويين حكموا مصر واتخذوا أواريس عاصمة لهم .
وقد نقل جوسيفوس من مانثون ما قاله عن هؤلاء الهيكلوسيون ، وهو لا يخرج في مجموعه عما سبق .

« كان القطر المصري محكوما في وقت من الاوقات بملك يدعى تيمابوس ، وفي هذه قضيب الآله على مصر لسبب اجهله فلم يمنحه رضاء . فأتى الى القطر على غير انتظار قوم شرقيون وشبعون ، فأجاءوا أهله بالانغارة عليهم واستولوا على الوجه البحرى بلا معارضة كبيرة لأن اهل مصر كانوا وقتئذ في ثورة وهيجان . ولما اخضع هؤلاء الغزاة حكامنا العظام عشوا بالبلاد وبغوا وطفوا فأحرقوا المدن وهدموا المعابد واستسلموا انقطع طرق الشدة مع الوطنيين فقتلوا منهم البعض وأسروا الاطفال والنساء . وبعد انقضاء الحرب ملكوا عليهم رئيسا يحكمهم يدعى سلاطيس اتخذ مدينة منف مقرا له وانظم الحكومة وحسن الاداره ومهد الاحكام وضرب الجزية على من بقى من المصريين تحت حكمه في الوجه القبلى والبحرى ، ووزع القوات الحربية على البلاد حتى لا تنور عليه ، وكان هذا الملك يخشى على حكمه من الأشوريين الذين كانوا أقوى الامم وقتئذ فخاف أن يتطلع القوم الى مصر ويضموها الى املاكهم ولذلك شيد القلاع وأقام الحصون في الجهات المنتظر الغارة منها . ثم فكر في أمره فوجد مدينته في شرق النيل بجوار ال بسيطة سماها هدارة (أواريس) لاسباب دينية فبجد بناءها وحصنها بأسوار قوية منيعة من جهاتها وجعل فيها حامية مؤلفة من ٢٤٠ ألف جندي وكان سلاطيس هذا يذهب الى المدينة المذكورة في سيف كل سنة ليجمع الحبوب ويدفع مرتبات جنده ويوزع قوائمه على الحركات الحربية حتى يهرب الأجانب .

(١) رسالة كبيرة من مانثون .

وكان يقال لهؤلاء الفاصيين هيكلوس ومعناها ملوك الرعاة لأن الجزء الأول من هذه الكلمة وهو هيكل معناه باللغة البريائية « ملك » أما سوس فلفظ في اللغة الدارجة معناه الراعى (بريستيد) . ولكن هذه التسمية ليست محل اتفاق ، فهناك رأى آخر بأنها تعنى « رئيس بلد أجنبى ، ومنذ أيام الدولة الوسطى كانت تعنى مشايخ البدو » .

وقد قسم مانيثون فترة حكمهم التى استغرقت في تقديره ٤٥٣ سنة الى أسرتين وهما الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

فأما لأسرة الخامسة عشرة فقد ذكر ستة ملوك منها بأسمائهم ومدة حكم كل منهم .

سلاطيس ١٩ - نيون حكم ٤٤ سنة - ابشتان حكم ٣٦ سنة وسبعة شهور - ابونيس لمدة ٦١ سنة وايناس (خيان) لمدة خمسين سنة وشهر وأخيرا وأسيس لمدة ٤٩ سنة وشهرين .

وهذه البيانات كلها غير دقيقة ، لكل ما يتصل بهذه الحقبة من حكم الهيكلوس ، من ذلك ما ذكره افريكانوس أن عدد ملوك الهيكلوس في الأسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة بلغ خمسا وسبعين ملكا . بينما لا يمكن أن يتصور هذا العدد إلا باعتبارهم حكاما لعدد من الولايات والرأى 'راجع أن الأسرة السادسة عشرة كانت معاصرة للأسرة الخامسة عشرة . و يار تسجل لنا أسماء ثلاثة ملوك يقال لهم أبو فيس وملك رابع يقال له خيان الذى وجد اسمه على آثار في جنوب مصر وآخر يدعى خنزر يعقوب حر .

وقد انتهى الهيكلوس بأن انصهروا في الحضارة المصرية ، وثقفوا بالثقافة المصرية شأن مصر في كل تاريخها . فانتحل ملوكهم الألقاب الفرعونية ، واقاموا لأنفسهم تماثيل على الطراز الفرعونى - وعبدوا الاله سوتخ أحد أشكال المعبود ست القديم الشبيه في نظرهم بعمل السورى .

الأسرة السابعة عشرة

١٦٥٠ - ١٥٦٧ ق.م :

بدأ تاريخ الأسرة السابعة عشرة التى تقسم الى مجموعتين : المجموعة الاولى من الهيكسوس وعددهم ٤٣ ملكا كانوا يحكمون فى أواريس (صا الحجر) وقسم من المصريين كانوا يحكمون فى طيبة وينتهى حكمهم بطرد الهيكسوس .

وقد ظهرت باكورة الثورة المصرية بمجرد أن ضعف حكام الهيكسوس وتناقصت قوتهم ، اذ انتهز أمراء طيبة الفرصة واشعلوا نيران الثورة ، ودخلوا فى سلسلة من المصادمات مع قوى الهيكسوس ، وتسجل لنا الآثار أن اشتعال نار الثورة لأول مرة بدأ من عهد أبو فيس الثالث الذى رأى أن حاكم طيبة قد بلغ من القوة الى حد أصبح يشكل خطرا على الهيكسوس فأرسل اليه يثيره ويتحداه ليدفعه الى قتاله ، وكان ١٦٠٠ ق.م الحاكم فى ذلك العهد هو « سنكرع » فقبل التحدى وخرج على رأس جيش لمحاربة الهيكسوس ، ونشبت معارك بين القوتين حامية الوطيس ، سقط فيها سنكرع شهيدا وقد عثر على موميائه ضمن كنوز الدير البحرى وهى محفوظة بدار المتحف المصرى وعلى الرأس اثر جرح مميت يرجح أنه سبب مصرعه .

وقد حفظ لنا التاريخ « قصة دارجة » لاكتها الألسن فى زمن الرمسيين وهى مرجعنا العلمى الذى يكاد يكون وحيدا عن تاريخ خروج الهيكسوس وعما حدث فى القطر بعد ذلك ، والمظنون أن هذه القصة دونت بعد خروج الهيكسوس بأربعمئة سنة . وتقول القصة (التى سبق أن أشرنا اليها) أنه عندما حل عيد من أعياد المصريين المقدسة جمع أبو فيس رجال دولته وتداول معهم فى أشياء لا تزال مجهولة ، ويستدل من مضمون الرواية أن تلك المداولة كانت لتدبير مؤامرة لاغتيال الملك سنكرع الجالس بطيبة ، وتمضى لقصة فتصف لنا كيف أن أبو فيس بعث الى سنكرع وفدا يتحرش به ، ويدعى « أن فرس البحر لقاطن ببحيرة طيبة يمنع جلالته السوم نهارا وليلا فصياحه يرن فى أذن جلالته باستمرار (١) وواضح أن هذا الزعم الذى يذكرنا بقصة الذئب والحمل ، كان هو نقطة البدء للاشتباكات التى بدأت بين أمراء مصر يمثلهم سنكرع وبين الهيكسوس » .

(١) هناك ترجمة جديدة لهذا النص تقول ان أبو فيس طلب من سنكرع ان يدع افراس البحر فى هدوء - حيث كان يهد فى أواريس (مصر الخالدة ص ٤٨٥) .

وبعد وفاة سكتنرع خلفه ابنه كاموس بتشجيع من امه زوجة سكتنرع (اياح حنب) كما ورد ذلك مثبتا في لوحة كتبت في السنة الثالثة من حكمه وكشف عنها عام ١٩٥٤ في معبد الكرنك . وقد اعتبر بعض المؤرخين ان الملكة « اياح حنب » هي روح ثورة الاستقلال باعتبارها زوجة بطلها الاول وام بطلها الاخيرين . وقد كشف عن تابوت الملكة « اياح حنب » وكان يضم مجوهراتها التي تحمل اسمى كاموس وأحمس .

وقد اراد الهيكسوس في حربيهم مع كاموس (١) أن يضربوه من الخلف فالبوا عليه حكام النوبة وكانوا خاضعين لسلطانه ، فاضطر كاموس أن يدع الحرب مع الشمال وأن يتجه الى الجنوب فتغلب على النوبيين وأخمد ثورتهم واعادهم الى الطاعة ، ثم عاد يستأنف جهاده ضد الهيكسوس ، فواصل زحفه شمالا ، فاستطاع أن يخلص مصر الوسطى ، وامتد ملكه حتى الاشموانيين ، على ان المنية لم تلبث أن عاجلته .

١٥٨٠ ق م :

فخلفه اخوه أحمس الذي واصل مهمة سلفه ، فطارده الهيكسوس حتى أخرجهم من عاصمة ملكهم أواريس ، وتمعّبهم في انسحابهم خارج مصر حتى قلب فلسطين في بلدة شاروهين ثم قفل راجعا الى طيبة متخذًا منها عاصمة لحكم البلاد ، ومؤسسًا الاسرة الثامنة عشرة على ما يقول مانثون .

وقد جاءت اخبار هذه الحقبة من تاريخ مصر على صورة نقوش من قبر ضابط مصري من جهة الكاب كان مواليا للملك طيبة واشترك معهم في مهاجمة الهيكسوس . ومن المصادفات أن هذا الضابط يقال له « أحمس بن ابانا » ، واليك ما قاله هذا الضابط مترجما عما وجد منقوشا على قبره : « أمضيت أيام شبابي في مدينة الكاب وكان أبى ضابطا في جيش جلالة ملك القطرين البحري والقبلى سكتنرع ، ولما توفي أبى وظفت مكانه في سفينة تسمى القربان وذلك أيام المرحوم أحمس الأول ، وكنت اذ ذاك شابا لم أتزوج . فلما تزوجت وصارت لى أسرة نقلت الى الاسطول الشمالي لما شوهد في من الشجاعة والاقدام - وكنت أتبع الملك في سيره حينما أثلته عجلته . ولما حاصر الملك مدينة أواريس أظهرت له بسالة عظيمة وأنا أحارب على قدمي » وتمضي النقوش في سردها للوقائع ، والتي انتهت بسقوط أواريس عاصمة الهيكسوس

(١) كاموس - وقد مر على عدة وثائق من حرب التحرير أيام الملك كاموس يكمل بنصها نقصا . ومن هذه الوثائق يتضح :

- (١) أن كاموس دها مجلسا من رجال الراى والمشورة ليتباحث معهم في حرب الهيكسوس .
 - (ب) أن اصحاب الراى والمشورة ، قد اشاروا بعدم الدخول في صدام مع الهيكسوس .
 - (ج) أن الملك أبدى عدم رضاه عن اجابة مجلس الاشراف وأعلن عن امراره على محاربة العدو .
 - (د) وأن الملك مضى في حرب العدو حتى أخرجه من مصر الوسطى وقضى على مدنها وحرق امكنتهم فاضحت بتسايها حمرء الى الابد ، وذلك ردا على الخسارة التي سببها مصر .
- وبعد تلك الحملات عاد كاموس الى طيبة حيث استقبل بها استقبالا حارا وطلب الملك أن ينقش كل ذلك على لوح يقام في الكرنك - فنقل ذلك على أحسن وجه (مصر الخالدة - ص ٤٨٩) .

في قبضة الملك ، حيث أسر أحمر القائد رجلا وثلاث نسوة وهبهن الملك عبيدا له .
والمعروف أن حصار أواربيس دام عدة سنوات وأن مدته طالت .

ويحدثنا الضابط بعد ذلك عن نعقب أحمر للهيكسوس في فلسطين ومحاصرته
لقاعدتهم الجديدة في شارهين .

ويضي حديث أحمر بن ايانا ، بما يفهم منه أنه بعد أن طرد أحمر الهيكسوس
من مصر ، وجه همه نحو بلاد النوبة والسودان فأعاد إخضاعها .

ولم تكن إقامة الهيكسوس في مصر بغير فوائد ، فالتاريخ يسجل لهم إدخالهم
أسلحة جديدة من أدوات الحرب ، فوجدت أنواع جديدة من الخناجر والسيوف
والأسلحة البرنزية والأقواس المركبة الآسيوية - كما تطورا بفن تحصين المدن
الذي كان يفوق ما ألفه المصريون من قبل .

ولكن أثرهم الأكبر ، يتجلى في إدخال الحصان والعربة التي تجرها الجياد ،
والتي سيبرع المصريون في استخدامها فيما بعد ويخوضون معاركهم المقبلة
مزودين بها .

وقد اعتبر جوسيفس اليهودي - أن الهيكسوس هم بنو إسرائيل - ولكن هذا
الراي لا يقول به علماء التاريخ . فضلا عن أن التوراة نفسها تنفيه فهي لم تزعم
أن بنو إسرائيل قد حكموا مصر .

الفصل الخامس

الدولة الحديثة

الأسرة الثامنة عشرة

١٥٧٥ ق.م - «أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة» :

(موسوعة تاريخ العالم) .

« ١٥٨٠ - الأسرة ١٨ - العاصمة طيبة - أحمس ١٥٨٠ - ١٥٥٧ طرد الهيكسوس - غزو شمال النوبة من جديد - وضع حدا لسلطان الأمراء المحليين - أمونس الأول - ١٥٥٧ - ١٥٣٦ - تحتمس الأول (١٥٣٦ - ١٥٢٠) حارب في فلسطين وسوريا ووصلا الى الفرات - حتشپسوت هى الحاكم الحقيقى منذ عام ١٥٢٠ - حتى وفاتها عام ١٤٨٠ وهى أخت ليست شقيقة وزوجة لتحتمس الثانى أولا ، ثم لتحتمس الثالث .

(دائرة المعارف البريطانية) بدء الامبراطورية - الأسرة الثامنة عشرة

١٥٦٧ - ١٣٢٠ ق.م :

١٤ حاكما - أحمس الأول - أمنحتب الأول - تحتمس الأول - تحتمس الثانى - تحتمس الثالث - أمنحتب الثانى - تحتمس الرابع - أمنحتب الثالث - اخناتون او أمنحتب الرابع - سمنكارع - توت عنخ آمون - آى - حور محب . طرد الهيكسوس واعادة فتح النوبة - اعادة معظم مصر - نمو معبد آمون بالكرنك .
مصر الاستعمار - فتح فلسطين وسوريا حتى الفرات والنوبة (كوش) حتى السلال الرابع .

علاقات دبلوماسية بين القوى الكثيرة - عصر العمارنة .

الثروة العظمى فى عهد أمنحتب الثالث (العظيم) .

١٤١٧ - ١٣٧٩ ق.م .

عبادة آتون (الهرطقة) الفاء آمون بمعرفة اخناتون - عودة آمون الى العبادة بمعرفة توت عنخ آمون - حور محب يعيد النظام .

١٥٧٥ ق.م - أحمس الأول :

جعله مانيتون مؤسس الأسرة الثامنة عشرة وهو الرأى الجدير بالاعتبار فعلى يديه تم اخراج الهيكسوس من مصر كما رأينا ، وفى أيامه نعمت البلاد بالحرية .

وقد سجل أحد كتاب الرعامسية على معبد الرمنسيوم تقسيم تاريخ مصر فوضع
أحموس ثب بحيثى رع على رأس الدولة الحديثة .
وفي العام الثانى والعشرين من حكمه أقام أحمس لوحة كبيرة بدار آمون بالكرنك
ذكر فيها الكثير من نشاطه وما قامت به والدته « إياح حتب » واتصالها بحكام
جزيرة كريت . فبدأ اللوحة بوصف شامل للقباب أحموس وملكه العظيم الواسع -
ثم ينتقل الى الدعوة لتبجيل الملكة « إياح حتب » واصفا اياها بأنها سيده . الجزر
« وان اسمها رفيع القدر في كل بلد اجنبى » وتخصى اللوحة بعد ذلك اصلاحات الملك
لدور العبادة وهى تظهر لنا علاقات مصر بجيرانها . . ومقدار مكانة الملكة الام ودورها
في الحياة المصرية .

وكان من اثر العلاقات الطيبة بين مصر وجزر البحر المتوسط أن تأثرت الصناعة
وخاصة صناعة الاسلحة وظهر ذلك على سلاحين كان يحملهما أحموس حيث زين
هذين الخنجرين برسوم وصور فيها تأثير الفن الايجى وهى محفوظة بمتحف
القاهرة .

وبالرغم من حروب أحمس الأول ، سواء في الشمال لطرد الهيكسوس ، او في
الجنوب للقضاء على الثورات في لنوبة واسترجاع سلطان مصر الوطيد عليها .

فقد كان بطلا . . كذلك من أبطال السلام والتعمير قام ببناء دور العبادة راولها
دار آمون - واعيد في عهده فتح المحاجر واستؤنف العمل فيها لاستخراج الاحجار
اللازمة لترميم المعابد والهيكل .

وقد حظيت زوجته « أحمس نفرتارى » على مكانة رفيعة في التاريخ المصرى
القديم حيث ظلت ذكرها حياة حتى الأسرة الحادية والعشرين . واقيمت لها احتفالات
كذلك التى تقام للالهة ، ولقيت على النار بالابنة الملكية والاخت الملكية والزوجة
الملكية العظيمة والام الملكية والحاكمة العظيمة وسيدة الارضين وقد عثر على تابوتها
وهى محفوظة بمتحف القاهرة ويضم تابوتا آخر به جثتها .

وهكذا تطالعت الأسرة الثامنة عشرة ، والدولة الحديثة كلها ببلوغ المرأة المصرية
في هذا العصر البعيد الى اوج سلطتها فيما سوف تعدد مظاهره حتى تصل ذروتها
في حكم حتشبسوت الطويل .

وذكر مانيتون أنه حكم ٢٥ سنة وأنه مات قبل الخمسين . ولكن المؤرخ
المعاصر أحمد بدوى يرجح أنه غادر الدنيا ولم يتم الحلقة الرابعة من عمره « ص ٢٨٢
الجزء الثانى » وقد عثر يبحثه في مقبرة الدير البحرى ، وقد وجد حول عنقه
اكليل من الزهر وتبين من فحصها أنه كان ربعة من الرجال ، قوى الجسم ، عظيم
الكتفين ، هريص ما بينهما ، فاجم الشعر ، مجمده بارز عظام الخدين رقيق
الشفنتين - تكاد ملامحه رغم ما كسيها من ألوان العدم ومظاهر الموت أن تنطق بقوة
عزيمته وشدة بأسه .

ويشبهه ابنه أمنحتب الأول - وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعض الموظفين من عهده ومنهم ستى نائب بلاد كوش (النوبة) وقد عاش حتى أدرك تحتمس الثاني - و « نتي كى » رئيس المدينة الجنوبية (طيبة) وعلى قبره مناظر تمثل الحياة الاجتماعية فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة .

ومن بين كبار الموظفين أحمر بن ابانا وكان قد أصبح رئيس بحارة الفرعون وعاش حتى أدرك أمنحتب الأول . وأحمر نبتحتب وقد عمر حتى أيام تحتمس الثالث وكان يحمل فوق القابه الحربية لقب مربي الأميرة نفرو رع ابنة حتشبسوت .

١٥٥٠ ق.م :

ولى أمنحتب الأول (امونوفيس الأول) بعد أبيه الحكم ولكنه كان لم يبلغ بعد مبلغ الرجال - ويبدو ان أمه أحمرس نفرتارى هى التى أخذت بيدها زمام الأمور بمعونة كبار رجال البلاط كما فعلت من قبلها أم الملك بيبي الثانى - وأخذت كاوس « با أمنحتب » من قبلها .

وقد اضطر الى غزو النوبة للمرة الثانية لاستتباب الأمن ، وقطع دابر الحكام العصاة ، فسحقهم وكسر شوكتهم مرة ثانية ، وعهد بحكمها الى حاكم الكاب . وكان فى معيته القائدان العظيمان أحمر بن ابانا الذى قال لنا ان الملك أسر « رئيس الأعداء وسط جنده بالنوبة كما قال لنا مفتخرا انه تمكن بذكائه ومهارته من ترحيل جلالة الملك فى سفينة من الشلال الثانى الى القطر المصرى فى يومين - المسافة تبلغ مائتى ميل تقريبا - أما القائد الثانى فهو أحمر بن نخبت ، الذى استنتج البعض من حديثه ، ان أمنحتب الأول ، شن حربا ثانية على الليبيين ولما ان استتب الأمن والنظام داخل البلاد ، رنا ببصره الى الغزو الخارجى ، فسارع بجيوشه الى فلسطين وسوريا حتى وصلت جيوشه الى نهر الفرات . وقد بنى الملك معبدا صغيرا فى منطقة الدير البحرى هدمه البناءون أيام حتشبسوت عندما أخذوا يعدون لها مكانا لتشييد معبدها الرائع . وقد قدسه الشعب بعد وفاته فرفعه الى درجات الآلهة . فأقيمت الأعياد له فى جبانة طيبة كما تقام للأرباب . بل ان بعض علماء المصريين (جورجى صبحى) على ما ينقل عنه الدكتور أحمد بدوى يقول ان المصريين القدماء سموا باسمه أحد شهور العام الذى يقع فيه عيد الاحتفال بذكره وهو شهر بره .^١ « با أمنحتب » .

وقد بقيت جثة هذا الملك رغم الحوادث وتقلبات الدهر ورغم اعتداء اللصوص ونباشى القبور ، والثورات والفتن - ملفوفة فى الأكفان ، مزدانة بالزهور من قمة الرأس حتى أخمص القدم داخل تابوته صنع على هيئة آدمى ، ثم كسى باللون الأبيض وظلت الحوادث تنقلها بين مناطق الجبانة المخيفلة حتى وجدت طريقا آخر إلى متحف القاهرة (ص ٣٩١ مركب الشمس) .

وفى عهد هذا الملك بدأت مظاهر الحياة الجديدة فنبلأ العصر والمتحفون أصبحوا يتنقلون على عجلات تجرها جياذ الخيل ، بعد أن كانوا يتنقلون فى محفاته تحمل على

اكتشاف الرجال - فلم يكد المصريون يعرفون العجالات والخيول أيام الهيكسوس ويستخدمونها في القتال ، حتى استخدموها في السلم فراحوا يخرجون بها الى الصيد والرياضة والانتقال بين المزارع والحقول وعلى شواطئ النهر . وأقبل الناس الكبار في ذلك العهد على تطوير حياتهم اليومية تطويرا يكاد يكون كاملا .

١٥٢٨ ق.م - تحتمس الأول (عاخير كارع) :

لم يثبت اذا كان امنحتب الاول ترك ولدا ورثا . وانما الثابت أن الذى خلفه هو « تحتمس الاول » وهو ابن امراة صلتها بالأسرة الملكية غير جلية ، وقد وصل الى عرش مصر عن طريق اقترانه بأميرة مصرية تدعى « اعموس » والمرجح انها أخت امنحتب الاول وبهذه الوسيلة أعلن نفسه ملكا على مصر بمجرد وفاة « امنحتب الأول » .

وقد أرسل تحتمس الأول نسخة من مرسوم تنويجه الى نائب الملك المدعو تورى في كوش (المنطقة الواقعة بين الشلال الثانى والرابع) .

ويحدد المرسوم صفات الملك بأنه توج ملكا على شطرى الوادى فجلس على عرش حورس رب الاحياء وبدا بذلك معدوم القرين وكانت القابه حورس الفحل الظافر صعب الحق رب الناجين الصقر الذهبى مدى السنين محبى النفوس ملك القطرين تحتمس ولد الشمس - والجديد فى هذه الالقاب هو وصفه نفسه بأنه الفحل الظاهر - وهو يأمر نائبه فى كوش أن يقدم الفراعين لارباب الجنوب احتفالا بهذه الذكرى ويوصيه بأن يأمر الناس أن يجعلوا قسمهم بحياة فرعون وينبئه آخر الأمر انه موفور الصحة والعافية . وكان صدور المرسوم فى الشهر الثالث من فصول الشتاء من عام فرعون الاول .

على ان الأمر قد احتاج فيما يبدو الى أن يشن « تحتمس » الحرب على اقليم النوبة ، وان يذهب بنفسه ، ويعيد حفر قناة سنوسرت ، ويعود عن طريقها بعد أن قتل اعداءه وذلك فى الثانى والعشرين من أول شهور الصيف من ثالث أعوام الملك على ما يروى نائبه تورى .

ثم أغار الليبيون على حدود مصر الغربية ، فحمل عليهم بجيشه وظل بقاتلهم حتى هزمهم وشردهم فى بطون الصحراء . ولما فرغ من أمور الجنوب والغرب ولى وجهه شطر الشرق او بالأحرى صوب فلسطين وسوريا ، حيث كان الهيكسوس قد استأنفوا نشاطهم فى مختلف اقاليم الشرق القريب . باعيتين الفتن ومنظمين المؤامرات ، فشن تحتمس عدة حملات انتهت بنصر عظيم مكنه من وضع الأساس لما اعتبر أول امبراطورية فى التاريخ ، فانتشرت أملاكه على حد تعبير أهل زمانه بين مشرق الأرض من وراء الشلال الرابع واطراف المياه المنعكسة : ويعنون بها مياه الدجلة والفرات حيث تسير عكس مياه النيل من الشمال الى الجنوب .

وقد كان تحتمس الثالث هو الذى يشير الى فتوحات سلفه وانه بلغ متعرج الفرات بالقرب من قرقميش حيث أقام لنفسه نصبا الى جوار نصب سلفه (الذى

لم يعثر عليه) وتقع قرقيش عند اعالي الفرات على مسيرة مائة كيلو متر الى الشمال الشرقي من حلب .

وبدا أمراء سوريا وفلسطين يقدرّون قدر مصر ويعجبون بقوتها ومكانتها فأرسلوا اليها الهدايا الثمينة والعزّية ، فازدهرت المالية المصريّة ، وكان هذا أكبر مساعد لتحوّمس على اصلاح ما تلف من المعابد والهيكل فندب مهندس الماهر المدعو تيتي وكله بتشسيد صرحين كبيرين عند مدخل معبد آمون وبناء ساحة كبيرة مسقفة ذات عمد مصنوعة من خشب الأرز اللبناني وأمره أيضا بنصب أعلام طويلة أمام مدخل المعبد رؤوسها مصنوعة من المذهب والفضة وخشبها من أرز لبنان كذلك . أما باب المعبد فكان مصنوعا من البرنز الآسيوي ونقش عليه المعبود مطعما بالذهب وأصلح الملك معبد أوزوربس بالعراة المدفونة وزوده بالآثاث الجميل والأدوات الفضية والذهبية وتماثيل المعبودات البديعة ، كالتى فقدت أيام حكم الهيكسوس ورتب الملك أوقافا مستديمة على ذلك المعبد وترك في آخر عمره تعليمات للكهنة ليتبعوها ، وقد فعل هذا تخليدا لذكراه على مر الدهور .

ومن أهم الآثار التى كشفت لنا عن الحياة لاجتماعية في عهد تحوتمس الأول ، مقبرة « باحري » وهو أحد كبار الموظفين في عهده وقد نشأ في مدينة الكاب ثم أصبح حاكما لها وكان المشرف على الأرض الزراعية في الجنوب وفي نقوش المقبرة ورسومها ، نجد مختلف الأعمال الزراعية وطريقة الدراس والحصاد مما لم يتغير كثيرا عما يجرى في بعض الحقول في عصرنا الحاضر . وأحاديث عن نكات العمال وشكاويهم من كثرة العمل .

وقد حكم تحوتمس فترة تتراوح بين خمسة عشر عاما وثمانية عشر .

ومات بعد أن بلغ الستين ، ودفن في قبره الذى أعده له بناء العصر « انتي » ثم نقل جثمانه الى قبر ابنته حتشبسوت ، ثم عثر عليه في ذلك المخبأ الذى ضم رفات الفراغة بجوار الدير البحري ونقل أخيرا الى متحف القاهرة حيث يشوى الآن .

١٥١٠ ق م - تحوتمس الثانى :

قام جدل كبير بين علماء التاريخ المصرى حول من تولى العرش بعد تحوتمس الاول ، والخلاف والمنازعات في أسرة التحامسة ولكن الرأى الأخير على أن أكبر اولاد تحتمس الاول مات في حياته ولم يعمر من أولاده الذكور الا ولد سماه تحوتمس وهو من إحدى جواريه وندعى مرتة نفرت - وكذلك كانت له بنت واحدة من زوجته الشرعية (أحموس) وقد سماها « حتشبسوت » وقد كانت هى المسيطرة على الموقف أيام تحوتمس الثانى ، فلم يكن فرعوننا الا بالرمز لان حتشبسوت اعتبرت هى الوريثة الحقيقية للعرش . وعلى الرغم من أن أباه قد عهد لها في أخريات حياته بالعرش فالظاهر أن بعض النيارات كانت تأبى عليها حكم مصر ، فتزوجت تحوتمس الثانى وغدا بذلك صاحب حق في العرش .

وكان من أثر الخلافات فيمن يتولى العرش أن اشتعلت نار في بلاد النوبة بمجرد

ثولى تحوتمس الثانى الملك . ولكن تحوتمس الشاذى غضب لهذه الأبناء وأقسم أن يبيدهم جميعا ، وبعث اليهم بالجيش التى سحقت الثورة وانتصرت عليهم ، وقد وجدت هذه الثورة مسجلة على الصخور الواقعة بين أسوان والشلال الاول . وقد حدثنا أحموسى الكابى عن حرب أدار رحاها فى الشرق تحت امرة تحوتمس الثانى ف ضرب فيها بدو الصحراء الذين يعيشون على حدود سوريا . وقال البعض انه قام بحملات فى سوريا نفسها . وقد نقش تحوتمس على جدار معبد حتشبسوت انه تسلم الجزية من أعدائه المتهورين .

وأوضح من ذلك أن جهود أسلافه لم تحوجه لشئ كثير من الحروب . وقد وجدت له آثار فى واحة الفرافرة وفى أسنا وقمنة وسمنة ووادى حلفا . وقد قيل انه بدأ فى إقامة الصرح الثامن من أبواب الكرنك ولم يقدر له أن يتمه . وذكر مانبنون انه حكم عشرين عاما وهو تقدير لا يبعد كثيرا عن الحقيقة فقد عثر فى خرائب طيبة على أجزاء من حطام تمثال يسجل العام الثامن عشر من سنى حكمه .

ويتبين من فحص جثته انه كان مديد القامة عريض ما بين المنكبين ، ومع ذلك فلا يبدو عليه ما يشير الى قوة بدنه وكان كبير الرأس ، بارز الشاى جميل التقاسيم ولقد بالغ بعضهم فى وصف أناقته ورقته واغراقه فى التأنق والترف . ولم تنجب له اخته وزوجته حتشبسوت غير ابنتين فلم تحقق لها الظروف ما أرادت من أن ترزق من زوجها بذكر يمهدها الطريق الى الحكم عن طريق الوصاية .

وقد سجل انتى وفاة تحوتمس الثانى فى كلمات هذا نصها : « لما صعد الى السماء اتحد مع الآلهة ، وجاء والده مكانه كملك للأرضين حاكما على عرشه من خلفه ، بينما كانت اخته زوجة الآلهة « حتشبسوت » تحكم الأرض ، وكانت الأرضين تحت رقابتها وقد عمل الناس من أجلها وخضعت مصر . »

١٥٠٤ ق م - التاريخ الذى تربعت فيه حتشبسوت على السلطة لا ينازعها فيها منازع :

نظرا لأن تحوتمس الثالث كان لا يزال فى مطلع العقد الثانى وكانت ابنة حتشبسوت من أخوها تحوتمس الثانى صغيرة كذلك . فزوجت تحوتمس الثالث من ابنتها فعينت هى وصية على العرش فلم تلبث أن احتكرت السلطة لنفسها باعتبارها ملكة ، وقد نقشتم صورها على الآثار فى صورة رجل وملابس رجل .

وفى السنوات الاولى من حكمها اكتفت بأن سمت نفسها ملكة فقط ، وبعد ذلك لم يتوقف طموحها ، ولم تمر سنون طويلة حتى اتخذت الخطوة الهامة فوضعت التاج المزدوج ، وتمثلت بالرجال وارتدت ملابس الرجال ، وهناك آثار كثيرة بالكرنك ظهرت

فيها حتشبسوت كرجل وتتقدم على تحوتمس الثالث ، وقد ظهر هو كملك شريك . وقد كانت توصف بضمائر الأنثى .

وما كان لامرأة أن تصل الى ما وصلت اليه من قوة جبارة الا بمساعدة الرجال ، ولذلك فان جبانة طيبة تحتفظ بقبور عظيمة لبعض كبار موظفيها ، وجميعها تتحدث عنها بأسلوب فيه تملق شديد ، ولعل من أظهرهم سنموث الذي كان لقبه الرئيسى « رئيس الاستقبال لخاص بالاله آمون » . وكانت ثروة معبد الكرنك الهائلة تحت تصرفه وكان له شرف القيام على تقويم وتربية الاميرة رع نفر ابنة حتشبسوت وهى الوارثة الثانية للعرش من « تحتمس الثانى » .

وقد أكثر المؤرخون من الحديث عن ذلك الرجل واثاروا حوله الريب والظنون ، وانتقلوا من التلميح الى التصريح فهو « صفى الملكة وخليها » .

والامر المقطوع به انه كان من اشد أعوان الملكة قوة ونفوذ وسلطانا ..

وانها استطاعت بمعاونته ومعاونة أمثاله ، أن تعلن نفسها الملكة الوحيدة على الوادى وأن تستأثر بالسلطة المطلقة من غير منازع ابتداء من عام ١٤٩٤ ق.م ويحفظ التاريخ لنا ان « حتشبسوت » بالرغم من كل شيء أقيمت على تحوتمس الثالث حيا فلم تتخلص منه - وذلك بعد أن صاغ لها أنصارها أسطورة طريفة تجعلها فى نظر الكهنة ورجال الدين وعامة الشعب المصرى - صاحبة الحق فى عرش البلاد ، وخلاصة هذه الاسطورة ان الاله آمون هو الذى أودع رحم أحموسى زوجة تحوتمس الاول . نطفة حتشبسوت ، وهو الذى أطلق عليها هذا الاسم وقضى أن تكون وارثة للعرش وان تحكم الوادى من أقبضاه لأدناه وقد سجلت هذه الاسطورة بتفاصيلها على جدران معبد الدير البحرى .

وقد اتجه نشاط الملكة الى أعمال العمران فاستأنفت بناء معبدها الواقع فى صخور الدير البحرى ، وكانت تحب هذا المعبد وتعزز به وجعلت منه بستانا لآمون . وجعلت من رفافه منابت لأشجار المر والعطور لتجعلها على غرار منابت المر والعطور فى بلاد يونث التى كانت فى عقيدة آل فرعون أحب بلاد الدنيا الى الارباب جميعا وعلى رأسهم آمون .

ومن أجل ذلك بعثت بأسطول من خمس سفائن أقلمت على متن النيل من شواطئ طيبة ، سالكة بعد ذلك للوصول الى البحر الأحمر قناة سنوسرت وعاد الاسطول الى طيبة محملا بالبخور وأشجار العطور والمر ، التى غرست بالفعل فى ساحات المعبد ، ومختلف الجواهر والحلى واللوان الاطعمة والأشربة والسلاح .

وكان سنموث هو الذى خط المعبد ونفذه وقد اتخذ فكرته من معبد « منثوحتب » قبل عصره بستة قرون ولكنه وصل فى التنفيذ الى حد الابداع . فالمعبد يقع بالدير البحرى فى نصف الدائرة الكبيرة والمشراف عليه التلال المرتفعة ، وقد تشابه طرازه كثيرا مع معبد منثوحتب الاول الذى يقع فى الناحية الجنوبية منه . وقد استخدم

مصمم المعبد سفوح الجبل فحولته الى ثلاثة مدرجات اشبأت فوقها ثلاثة أروقة يعلو بعضها البعض الآخر . ولبس يوجد بين الأبار المصرية الحاضرة ما هو أعظم وأروع من معبد الدير البحري - وان النقوش التي تشاهد خلف أعمدة الأروقة فريدة في نوعها . وقد أشرنا من قبل الى ما نقش على جدران هذه الأعمدة وجدران الأروقة من أعمال الملكة واساطيلها واسطورة ميلادها .

وقد اراد البناء أن يظهر الشعب على قوة الملكة وبأسها - فزين الطريق الى مدخل المعبد بتماتيل للملكة نحتها على هيئة أبي الهول .

ثم بنت لنفسها قبرا نقلت اليه رفات والدها تحوتمس الأول ، واقامت له مقصوره في المعبد تجرى فيها الشعائر الدينية على روح أبيها - وبالغت حتشيسوت في اظهار ولائها وتوكيد حبها لابيها فأكثر من تصويره على جدران المعبد . في حين لم يظهر صورة أخيها وزوجها تحوتمس الثاني على الإطلاق ، والذي يبدو أنها عاشته كارهة له ساخطة عليه باعتباره مفتصب العرش منها . ولما خشي الكهان خطر اللصوص من نياشي القبور نقلوا رفات الملكة مع ما نقلوا من رفات أسلافها وخلفائها الى تلك الحفرة المعروفة في الدير البحري فاستقرت هناك نحو من ألفين وخمسمائة سنة ثم نقلت الى متحف القاهرة في العصر الحديث . . ولكن رفات حتشيسوت لم تكن بين ما عثر عليه .

وقد أقامت لنفسها مسلتين عظيمتين ، بمناسبة ذكرى عيدها الثلاثيني الأول على ما قالت والذكرى أبيها تحتمس الأول وربها آمون .

وتشير الآثار الى أنها أقامت مسلتين (١) أخريين في الكرنك احتفالا بالذكرى الثانية لعيدها الثلاثيني ولكن لم يعرف الى الآن موضع اقامتهما في الكرنك ، ولم يبق منهما غير قمة مسلة آلت الى المتحف المصري .

واتاحت أيام السلم في عهد حتشيسوت أن تنفق جهودها في التعمير والانشاء فصرفت همها لاصلاح ما خربه الهيكسوس . ولم يبق أسلافها باصلاحه كاملا وقد ساعدها في ذلك رجل قصرها سنموت ، الذي لم يترك فرصة للدعاية للمليكتة دون أن ينتهزها ارضاء لها وتغانيا في حبها وحب نفسه أيضا .

ويحدثنا تاريخ هذه الفترة أن سنموت أفل نجمه وسقط من عليائه قبل انتهاء حياة سيدته حتشيسوت ويرى البعض أن ذلك قد يكون بفعل الملكة نفسها التي خشيت من قوة نفوذه ، أو التي تكون قد زهدت فيه .

وهكذا تسبق هذه الصورة ، بثلاثين قرنا على الأقل ، حياة الملكة اليزابيث ، ورجالها الاقوياء الذين كانت تسقطهم من أعلى عليين ، خوفا منهم ، وزهدا فيهم ، وتعلقا بغيرهم .

(١) وطول كل منهما ٢٩٥ مترا وقد بلغ وزن كل منهما ما يزيد على ٣٠٠ طن وقد اقتضى نقلهما بناء سفينة بلغ طولها ٨٢ مترا وقد نقش قصة هاتين المسلتين وسفن نقلهما على جدار معبد الدير البحري .

واعادت حتشبسوت فتح المناجم في طور سيناء ، وقد عثر هناك على بعض الفخار الملون الذي يحمل اسمها واسم ابن أخيها تحوتمس .

ويعتبر عصر حتشبسوت بصفة عامة عصر سلام وبناء وانشاء وتعمير وقد قالت يوما ما متفاخرة « لقد بلغت حدود مملكتي الجنوبية أرض الصومال (بونت) وحدودها الشرقية مستقعات آسيا . فصار الآسيويون في قبضتي ، أما حدودي الغربية فوصلت الى جبال مانو اى مغرب الشمس وذاع صيتي بين البدو وقد احضر الى من بلاد الصومال وخيرات تلك البلاد العجيبة اخضرت الى قصرى كتلة واحدة . . لقد احضرت الى أجود الخيرات . . من أرز وعرعر وخشب مرو وأخشاب الأراضى المقدسة الجميلة جميعها . لقد احضرت لى جزيرة (تحنو) الليبيين من عاج ، علاوة على سبعمائة ناب من أنياب الفيلة وعدد كبير من جلود الكناعم وقد حكمت سبعة عشر عاما ولم يعرف كيف ماتت ، وهل كان موتها طبيعيا ، أم نتيجة مؤامرة ، ولكن الامر المحقق أن حزبها اختفى فجأة ، وحطم تحوتمس اسمها واسم سنموت ، ولم يعد يذكر لها اسم بعد موتها . وفي مدونة الملوك في مقبرة سيتي الأول ورسيس الثاني لا يوجد لها ذكر » .

١٤٩٠ ق م - حكم تحوتمس الثالث :

وقد حدث خلط من بعض المؤرخين (بريستيد) ، فيصوره أخا لحتشبسوت وزوجا لها ، وتصوره قد حكم معها ، ثم أقصته عن الحكم ، ثم عاد بعد موتها ، ولكن الحقائق التى اكتشفت أخيرا ، أكدت انه ابن زوجها تحوتمس الثاني من احدى جواريه ، وقد اعتلى العرش صبيا بزواجه من ابنة حتشبسوت الكبرى التى كانت تدعى نفرو رع . وقد حالت حتشبسوت بينه وبين ممارسة سلطاته ، فلما مات انفرد بالسلطان غير منازع ، فانكر عهدها وجعل تاريخ حكمه من وراء موت أبيه مباشرة أى حوالى ١٥٠٤ ق م .

وفي السنة الثانية والعشرين من حكم تحوتمس والسنة الثانية من انفراد به بالسلطة .

١٤٦٨ ق م :

ولم يكد يصبح حاكم البلاد ، حتى اضطربت احوال البلاد الآسيوية ، فكون الآسيويون حلفا تحت زعامة امير قادش ، فزحف تحوتمس الثالث بجيوشه وانتصر على أعدائه فى معركة « مجدو » الخالدة ، التى تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة . مبتدئا بذلك هذه السلسلة من المعارك التى بلغت سبع عشرة حملة ، استولى فى بعضها على الساحل الفنىقى كله ، جعلت منه أشبه بنابليون مصر فى ذلك التاريخ

البعيد ، واعظم هذه الحملات تلك التى قام بها فى السنة الثانية والثلاثين من حكمه
والتي بلغ فيها الفرات ودونت وقائع تلك الحملة على جدران معبد الكرنك وعلى لوح
(جبل بركل) فهابته الملوك والأمراء والدول فى هذه الانحاء ، وراحوا يخطبون وده
بالهدايا والجزية .

وقد اتبع تحوتمس سياسة حكيمة ، فلم يمس عقائد الشعوب أو قوانينهم
وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية فى مواعيد
مقررة ، وعمل على أن يتعلم أنجالهم بمصر ليفرس فى قلوبهم حب مصر وليعودوا إلى
بلادهم وكلهم عطف ومحبة على البلد الذى علمهم (وليكونوا من ناحية أخرى أشبه
بالرهائن) .

وقد صاغ كهان آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون الظاهر ،
وفيها تلخيص لكل معاركه وحروبه وفى هذا النشيد يخاطب آمون فرعون ولده
تحوتمس الثالث « الى الى لتحيطنى بنورى ، أى بنى ونصيرى — رزقتك القوة والنصر
على أمم الأرض جميعا — وبسطت سلطانك ورهبتك على الناس ، ويروعهم بأسك
فى الأرض من أدناها لأقصاها . وحشدت لك أمراء الأرض فجعلتهم فى قبضة يمينك —
لقد قيدتهم جميعا من أجلك — صفدت لك الألوف وعشرات الألوف من عصاة
الجنوب ، ومئات الألوف من أهل الشمال — وطرحت أعدائك تحت قدميك لتهلك
منهم العصاة والشائرين . فدان لك أهل المشرق والمغرب فى طول البلاد وعرضها —
تضرب فيها مغتبط القلب حيث تشاء ، ودون أن تجد فى ربوعها من يعصيك — ثم
سقتك عليهم واعتبرت الفرات قويا ظافرا بتأييد من عندى — يسمعون صيحتك
فيلوذون بالكهوف والمخابئ ، على حين كنت أسلب أنوفهم نسيم الحياة ، وألقى فى
قلوبهم الرعب من بأسك — وجعلت على جبينك ناشرا (أى حية) ياكلهم ، ويحرق
بناره أهل المستنقعات ، ثم تأتي على الخوارج من آسيا فيما يبقى وما يذر ، وهيات
لك النصر تتغلغل به فى الأرض ، جاعلا كل من يشرق عليه نوري من رعيتك وعبيدك —
يحملون اليك ما فى بلادهم من رزق — وأتيت اليك بالخوارج صاغرين تلتاع نفوسهم
وترتعش أبدانهم » .

« وأتيتك مؤيدا لتسحق أمراء فينيقيا فجعلتهم تحت قدميك ، ثم ألقيت عليك
من نوري ما جعلهم يرونك فى صورتى » .

« وأتيتك لتسحق الشرق ، ثم سقتك فى الأرض المقدسة فأريتهم أبالك
شهابا رصدا » .

« وأتيتك لتسحق الغرب ، وجعلت أهل كريت وآسيا الصغرى يرون فيك فعلا
ظافرا فتيا حديد القرنين ، شديد النطاح لا يقبله غالب » .

وأتيتك لتسحق أهل المستنقعات والخواج ، فبات أصحاب « النهرين » يهتزون
أهاملك رعبا ووقفا ، وأريتهم أبالك فى صورة تمساح يملأ الماء رعبا فلا يدنو منه أحد .

واتيك لترهب أهل الجزائر في قلب اليم فروعتهم صيحتك في ساحة الوغى ،
وأريتهم أياك كالظائر (حورس) يصول فوق ظهر غريمه (ست) .

وأيتتك لتهلك الليبيين ، فصرعتهم . قوتك ، وأريتهم أياك في صورة سبع ضار ،
فعلا الأودية بإحداث صرعاهم وأيتتك لتسحق من في أقصى الأرض ، وجعلت
ما تحت الشمس في يمينك وأريت الدنيا أياك في صورة صقر ينقض عليها فيأخذ
منها ما يشاء .

وأيتك لتسحق النوبة ، وجعلت بقاعها في يمينك حتى « شط » وأريتهم أياك
في صورة أخويك اللذين ألفت بينهما ضمنا لتصرك (حورس ست) .
ويختتم الشاعر تلك القصيدة الرائعة بحديث يبارك فيه آمون ولده فرعون
ويدعو له بالنصر ، ويمجد ما شاد من عمائر وآثار وما قدم له من خير يفوق ما قدم
كل السلف من آبائه .

وقد حفظ لنا تاريخ هذه الفترة مخلفات وأسماء مائة من كبار الموظفين ، الذين
ملأوا حوائط قبورهم بأنبياء نشاطهم في مختلف الميادين .

ولكننا لا نستطيع إلا أن نختص بالذكر واحدا منهم وهو تحوتى الذى كان يعمل
مشرفا على الميادين الشمالية ، والذى حفظ لنا التاريخ نفسه ، ولها كانت مصدر
الوحي والالهام لكل ما جاء على غرارها من قصص فتح طروادة أو قصة الزباء
أو القصة الأحداث عهدا قصة على بابا والأربعين حرامى .

فعندما استعصت مدينة يافا الحصينة على جيوش تحوتمس ، عمد حوتى الى
مائتين من رجال الجيش المصرى فخبأهم فى الفرائر وأمر بهم فحملوا الى المدينة
يتقدمهم سائس خيل أمير المدينة برسالة الى زوجته ، فلم تكذ تفتح أبواب المدينة
لهم حتى خرجوا من الفرائر وقبضوا على رجالها وهكذا تم الاستيلاء على يافا بهذه
الحيلة (مصر الخالدة - وموكب الشمس) .

وكان تحوتمس الثالث قائدا حرييا ممتازا ، لم يكلف احدا من رجاله القيام
بعمل صعب ، فكان يتقدم هو الصفوف ، كما فعل حين ترجل على قدميه فى ممر
(عبرونا) .

وكان اداريا ممتازا فقد وصفه وزيره رخمى رع أنه كالصقر الذى يرى مالا يبصره
البشر العادى ، ولم يكن نهازا للفرص فعامل اعداءه باللين والمحبة مع الحيطة وقربهم
اليه ووثق فيهم بعد أن أدوا له يمين الطاعة .

وهو أول من فكر فى أن يأخذ أولادهم الى مصر ، ليتعلموا فى مصر وينشأوا
نشأة مصرية - حتى اذا ما عادوا الى بلادهم وحكموها لم ينسوا ذلك .
واتصفت حملاته بلون آخر ، فالى جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين
الذين كان يصطحبهم معه ، فقد أخذ فى ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين
احضروا بعضها الى مصر كاللدجاج والريحان (مصر الخالدة) .

واحتفل تحوتمس الثالث بعيده الثلاثين (عيد سد) أكثر من مرة ، فأقيمت الاحتفالات التي لم تشهد لها طيبة مثيلاً من قبل ، وأقام تحوتمس المسلات التذكارية لهذه الأعياد الخالدة فشاد اثنتين منها في معبد الكرنك واثنتين في مدينة الشمس وكان القدر شء أن يخلد تحوتمس الثالث كما لم يخلد أنيسان من قبله أو من بعده كملك عظيم ظافر ، فتوزعت مسلاته الأربع في أرجاء المعمورة تختال بها بلاد العالم العظمى ، وتقف في أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحوتمس .

تقف إحدى مسلاته في مدينة القسطنطينية وتقف الثانية في مدينة روما أمام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد على لحكومة إنجلترا في مدينة لندن على شاطئ التيمس . كما أهدى الخديوى اسماعيل المسلة الرابعة الى حكومة الولايات المتحدة ، حيث تقوم في حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك .

ومات تحوتمس الثالث بعد أن حكم أربعاً وخمسين سنة وتجاوز عمره السبعين عاماً .

١٤٣٦ ق م :

تولى ملك مصر « امنحتب الثانى » ابن تحوتمس الثالث من زوجته مرية رع حتشيسوت ابنة حتشيسوت . وقد ولد في منف ونشأ فيها وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره على ما سجل ذلك اللوح الكبير الذى كشف عنه بالقرب من أبو الهول وقد حدثنا القائل (آمو نمحت) كيف اعتلى ذلك الامير عرش مصر في صبيحة اليوم الذى مات فيه أبوه العظيم ، وحدثنا كبير وزراء أبيه « رخموع » كيف ركب الفلك على متن النيل لمقابلة العاهل الجديد الذى جاء في السفن من شمال الوادى .

وقد صور لنا حائط مقبرته مظاهر العظمة التى أحيط بها ركه ، وكيف قدم للملك باقة من الزهر المقدس ابتهاجاً للقائه ، ثم وصف لنا بالصور التفصيلية عودته في ركاب فرعون الى طيبة ، وخروج الشعب لاستقباله .

وتقول لنا اللوحة التى كشف عنها عند أبو الهول ، أنه كان عندما ولى العرش رفيع القوام ، قوى الذراع ، يجيد صناعة الحرب ، وليس بين جنود الأرض من يدانيه في شدة بأسه وقوة يمينه وليس فيهم من يقوى على شد قوسه ، وهو بعد ذلك عداء لا يسبقه سابق ، وهو يحسن التجديف أن ركب الشراع وكان رامياً بارعاً ، وفارساً أحب الخيل منذ نعومة أظفاره فقد عهد اليه أبوه بالاسطبل الملكى في منف وجعله قيماً عليه ولم يكذب على الملك ، حتى اندلعت الفتنة في أمارات آسيا فامتنعوا عن تقديم الجزية .

فأسرع الملك الى الولايات النائرة وأخمد الفتنة ، بعد أن لقن الثائرين درساً قاسياً ، فسجلت الآثار مظاهر تنكيله بالثائرين وغنى عن البيان أن الرجل في ذلك لم يتجاوز المؤلف في ذلك العصر .

وقد انمجت هذه الشدة في اطفاء نيران الفتنة ليضع سنوات ولكنها لم تلبث ان اندلعت من جديد ، فعاد فرعون لهم مرتين مرة في عامه السابع وثانية في عامه التاسع ، وكل بالمتمردين من جديد . وقد عثر في عام ١٠٤٢ (١) على سجل كامل لمعارك امنحتب الثاني ، بكل تفصيلات هذه المعارك وما أظهره فيها الملك من بطولة ، وأحرزه من نصر .

وفي جبانة الشيخ عبد القرنة قبر لعظيم من عظماء عصره صور صاحبه ، امنحتب جالسا فوق عرشه وسجل عند أقدام العرش ، أسماء شعوب الامبراطورية التي دانت لسلطانه ومن بينها واحات الصحراء الليبية وبلاد كوش وبلاد الساحل الفينيقي ، والنهرين وسوريا وبلاد مالوص (كليكا الحالية) : وقد أمر فرعون باقامة لوحين من حجر ، سجل عليهما حدود امبراطوريته نصب الاول عند « أقصى حدوده في نهرين ، والثاني عند أقصى حدوده الجنوبية » حول « كاروى » الى الجنوب من جبل بركل عند منحني النيل بجهة أبو حمد - أما فيما بعد ذلك الاقليم فكان النفوذ المصرى مبسوطا على الطرق التجارية فقط وقد ذكر مانيتون ان امنوفيس الثاني (امنحتب الثاني) توفي بعد أن ظل على عرش البلاد خمسة وعشرين عاما وهو تقدير يقرب من الحقيقة .

ولما مات دفن في قبره المشهور في صخور وادى الملوك وهو يعد من أجمل ما نحت من قبور ، وقد جعل سقفه على هيئة السماء ملونا بلونها ، ثم زين بما يمثل النجوم تلمع فيها باونها الذهبى الرائق .

ولا يزال امنحتب الثانى ثاويا في قبره ، الذى عثر فيه على قوسه الشهيرة التى فاخر بها أمراء الفرسان في مصر وغير مصر .

ولعل أظهر ما يميز « امنحتب الثانى » عن سائر الفراغة ، هو ولعه الشديد بالرياضة البدنية بكافة أشكالها وتشجيع كل من يبرز فيها .

وقد سار في أعمال البناء والتعمير مسلك والده العظيم فأقام المنشآت الكثيرة وخاصة في الكرنك . وله في مختلف أقاليم مصر آثار تدل على أنه اهتم بالبناء والتعمير .

وأهم الموظفين الذين عاشوا في حياته « قن آمون » وهو أخ « لامنحتب الثانى » في الرضاة ، وقد جعله قيما على قصوره وعهد اليه بإدارة أملاكه ثم رقاها فجعله الملك عينا له في الوجه القبلى وما في الوجه البحرى .

وقد ترك الرجل مقبرة في جبانة « شيخ عبد لقرنة » تمثل الحياة في هذا العصر بتفصيل دقيق رائع .

(١) عثر على اللوحة في ميت رهينة الدكتور أحمد بدوى ونشر نصوصها وعلى عليها .

١٤١٣ ق م :

تربع على العرش « تحوتمس » الرابع . وهو أحد أبناء امنحتب الثاني الذين كان عددهم يتراوح بين خمسة وسبعة على اختلاف بين المؤرخين ، فتشير بعض الدلائل الى أن تحوتمس الرابع لم يكن هو صاحب الحق في وراثة العرش ، فقد احتاج الى أن يصطنع شأن من سبقه من الملوك الذين راوا أن يقووا حقهم في العرش ، قصة نقشت على لوح من الجرانيت عثر عليه بين ذراعى أبو الهول وفحوى هذه القصة أو تحوتمس الرابع خرج ذات يوم عندما كان لا يزال أميراً للصيد ، فاشتد به الهجير والقيظ فأوى الى الظل في جدران أبو الهول ليستريح ، فأخذته سنة من النوم ، في ظل الاله العظيم (حور أم اخت) وهو اسم أبو الهول في الدولة الحديثة ، فرأى في المنام ربه الذى ناداه قائلاً :

« يابنى تحتمس اتنى والدك (حور أم اخت رع اتوم) اننى سألعطيك ملكى على الأرض على الاحياء وستضع التاج الابيض والتاج الاحمر على عرش الاله « جب » وطلب منه ازالة الرمال التى غطته . ولما أستيقظ ابن الملك من قيلوبته وضع هذا الكلام في قلبه .

ويرى كثير من المؤرخين أن لو كان تحوتمس صاحب الحق في العرش لما فكر في هذه القصة ، ولما رأى نفسه مضطراً الى بعث عبادة رع ، مما تحيط عليه كهنة آمون ، فلا بد أن كهنة آمون كانوا ضالعين مع غيره من أخوته الاحق منه بالعرش فلجأ هو الى كهنة رع الذين اصطنعوا له هذه القصة .

والحق أن أيام تحوتمس الرابع ، قد شهدت ، عودة الحيوية الى عبادة الشمس التى ستزدهر فيما بعد حتى تصل الى ذروتها على يد اخناتون .

وفي مبدأ حكم تحوتمس الرابع ، شبت في آسيا ثورة استدعت ذهابه ، وقد كان مجرد شخصه كافياً لاختضاع الأمراء الثائرين ، وقد لقي نفسه « فاتح سوريا » وكانت جزية هذه البلاد ترسل له كل سنة وتسلم الى رئيس المالية وفي هذه الفترة كانت حيثاً ونعنى بها دولة الحيثيين قد بدأت تصبح قوة ذات خطر تهدد سلطان مصر في سوريا وفلسطين ، فوجد تحوتمس الرابع من مصلحته أن يحالف ملك ميتانى ، وليس أقوى من المصاهرة على ربط الأواصر بين الملوك في ذلك العهد ، فتزوج تحوتمس الرابع أخت ملك ميتانى ، مخالفاً بذلك سنة السلف ، فقد كانت شريعة الملك تحتم عليهم أن يتزوجوا بأقرب النساء ، من ذوى الارحام ليشقوا بذلك طريقهم الى العرش ، حتى كانوا يتزوجون من اخواتهم كما رأينا . وعقد تحوتمس الرابع محالفة صداقة مع بابل . وفي السنة الثامنة من حكمه وصلت اليه انباء بحدوث ثورة في النوبة فسار اليها على جيشه ماراً بالمعابد العظيمة محيياً الهتها حتى بلغ الشلال الاول ثم زحف على بلاد الواوات ، وهزم الجيوش التى تصدت له ، وغنم الكثير من الغنائم والأسرى . ولشدة حبه لجده تحوتمس الثالث أتم عمل جده فأقام المسلة التى تركها بمدخل الكرنك الجنوبى ودون عليها أعمال جده ، وهى أكبر مسلة باقية

للآن، وهى الموجودة فى روما ، ومات « تحوتمس الرابع » ولم يتجاوز سنه ستة وعشرين عاما ولم يزد حكمه عن تسعة أعوام وبضع شهور على ما يقول مانيتون وقد كان قبره أول حلقة من سلسلة قبور الفراعنة التى كشفت فى العصر الحديث ، وقد وجد منهوبا كبقية قبور الملوك التى نهبت فى زمن الرعامسة . ولكن جثته قد عثر عليها ، وتبين من فحصها أنها لشاب صغير لا يتجاوز عمره ٢٨ سنة .

١٤٠٥ ق م - « امنحتب الثالث » :

وصلت البلاد فى عهده الى أعلى درجات الحضارة ، ولكنه لطول المدة التى حكمها وقدرها ٣٦ سنة ابتداء ديبب الضعف يسرى اليها شيئا فشيئا وأصبح للملكة « تى » زوجة الملك نفوذ كبير . وقد أمكنه أن يخضع عصيانا بالنوبة ، وقد حفظ له الود كل أمراء آسيا .

امنوفيس الثالث (١٤١١ ق م - ١٣٧٥ ق م) :

حفظ سلامة الامبراطورية فى آسيا بالطرق الدبلوماسية وتحفظ لنا خطابات تل العمارنة - المكوبة بالاشورية على لوحات مسمارية - كثيرا من المراسلات الدولية أيام حكمه وحكم ابنه - ويمتاز حكم امنوفيس الثالث بأنه عصر رخاء عظيم وتقدم ثقافى .

حكم امنحتوب (امنوفيس) الثالث ابن تحوتمس الرابع (١) كما سجل ذلك بنفسه على آثار معبد الخالد الذى أقامه « معبد الأقصر » حيث تسجل الآثار قصة أشبه بقصة حتشبوسوت عندما ادعت أن آمون هو وادع نطقها فى رحم أمها .

فكذلك نروى قصة امنحتب الثالث ، فقد تمثل آمون على صورة تحوتمس الرابع ثم غشى زوجته « مدنويا » فحملت منه بامنحتب الثالث .

وكان الملك ولوعا بالنساء منذ كان وليا للعهد ، فلما ولى الملك ازداد غرامه

(١) تشكك الدكتور أحمد بدوى فى تاريخه « موكب الشمس » وتابعه الدكتور عبد الحميد زايد فى أن يكون امنحتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع ورجحوا أن يكون أحد أبناء امنحتب الثانى واستدلا فى رأيهما على أن الكشف الجديد على مومياء تحوتمس الرابع قد جعل البعض يقدر عمره بست وعشرين سنة ، ومن هنا فقد استبعد أن يكون امنحتب الثالث ، الذى يقطع الآثار فإنه تزوج فى العام الثانى لحكمه ابنة تحوتمس الرابع . والحق أن الأدلة التى ساقاها فى كتابيهما الجليلين لم تقنعنى على متابعتيهما ولا يمكنى دحض اثر مكتوب ومسجل فى عصره ، بمجرد استنتاجات تبنى كلها على رأى طبيب معاصر من أن عمر تحوتمس الرابع عندما مات كان ٢٦ سنة . فالاقرب الى الاحتمال ، أن يكون الطبيب والاطباء المعاصرون قد أخطأوا تقدير السن . خصوصا وأن المعروف أن امنحتب الثالث مات عن سن لا يتجاوز الخمسين . مع أنه حكم ستا وثلاثين سنة ويعنى ذلك أنه ولى الحكم وعمره ١٤ سنة فلو أن الخطأ فى تشخيص عمر تحوتمس الرابع لا يزيد عن عامين أو ثلاثة لما كانت هناك أى صعوبة فى أن يكون امنحتب الثالث هو ابن تحوتمس الرابع . وهكذا تسقط هذه القرينة على دحض نسبه الى تحوتمس الرابع .

بهن ، وفد تزوج بملكة مجهولة الأصل تدعى « تى » وقد أمر امنحتب الثالث بصنع جعل حجرى كبير لينقش عليه تاريخ هذا القران ، حيث ذكر اسمى والدى هذه الزوجة بما يفهم منه انهما مجردان من كل صلة بالبيت المالك . وعلى الرغم من ان امنحتب الثالث قد تزوج بعد ذلك كثيرا واسرف فى الزواج ، فقد ظلت الملكة « تى » صاحبة المكان الاول . وأظهر امنحتب مقدرة عظيمة فى ادارة شئون الامبراطورية فلم يتجاسر سكان المستعمرات الامبراطورية على القيام بثورة ولكن بلاد النوبة قامت بثورة فى العام الرابع من حكمه فزحف بجيشه على الثوار وهزمهم ، ثم سار مع النيل حتى توغل الى نقطة بعيدة جدا لا يعرف مداها الآن .

ووصل الامر الى حد أن تنافست بابل واشور وميتانى وقبرص لاكتساب محبة مصر . ويعتبر ذلك أول مظهر سياسى دولى عام فى تاريخ الممالك المعروفة حتى الآن - وصار قصر فرعون مصر مركزا للتخاطب مع كبار حكام ذلك العصر ، وترجع معظم معلوماتنا عن المداولات بين فرعون مصر وحكام آسيا الى المجموعة الرائعة من الرسائل التى وجدت فى تل العمارنة وهى هذه الخطابات التى تبودلت بين حكام ذلك العصر وفرعون مصر وبلغ عدد هذه الرسائل ٣٠٠ رسالة وكل منها عبارة عن قالب من الطين منقوش عليه بالخط المسمارى البابلى ، وقد تم اكتشاف هذه الرسائل عام ١٨٨٨ م بتل العمارنة التى ستصبح كما سوف نرى عاصمة للبلاد أيام اخناتون (١) . أتاحت له أيام السلام فى حياته وكثرة ما أفاء الله عليه من الرزق الذى كان يتدفق على خزائن القصر أن يطلق يده فى أعمال التعمير والانشاء .

الآثار :

فبنى على ضفة النيل اليسرى جنوب دار الكرنك دار الأقصر الذى يعتبر أجمل وأبدع الآثار المصرية على الإطلاق ، والذى أريد به أن يكون مسكنا خاصا لآمون ، حيث كان الكرنك هو داره الرسمى - ثم أنشأ بين هذه الدار وبين الكرنك طريق الكباش ، حيث زين جانبا الطريق بتماتيل أبو الهول غير أن رأسه جعلت رأس كبش لا رأس انسان . وأقام فى أوله مسلتين عظيمتين وشيد فرعون لنفسه بعد ذلك قصرا رائعا عن يمين النيل فى المكان المعروف باسم مدينة حابو . وقد ذهبت آثار هذا القصر ولكن التاريخ حفظ لنا وصفه بالتفصيل ، وكيف كانت حوائطه وجدرانه مزدانة بأجمل الرسوم والصور والحق بالقصر بركة أريد بها تلطيف جو القصر وكان طولها ٣٧٠٠ ذراع وعرضها ٧٠٠ ذراع وقد فرح بها فرعون فرحا عظيما حتى لقد خلد قصة انشائها على كثير من الجعارين التذكارية .

وله بعد ذلك آثار فى منف وفى بلاد النوبة (صوليب) حيث أقام معبدا لآبيه وربيه « آمون » - كما عثر له فى سيناء على لوحين يؤرخ أحدهما عامه السادس والثلاثين ،

(١) كانت فلاحه مصرية هى صاحبة هذا الكشف الذى زود العالم بتاريخ تفصيلى من هذه الفترة ولكن العلماء فى ذلك الوقت لم يقدروه قدره فلم تكن أسرار اللغة المسمارية قد كشفت بعد .

وكيف أنه بعث واحدا من أبرز رجاله لاستخراج الفيروز - كما عثر له في خرائب منف على آنية تحمل اسم ذلك الفرعون .

وامتدت شهرته الى بحر ايجه ، فوجد المنقبون بين خرائبها طائفة من آثار صغيرة تحمل اسمه واسم زوجته الأولى « تى » منها ما وجد في قبرص وما وجد في رودس . وقد احتفل بعيدة الثلاثين ثلاث مرات ، في السنة الثلاثين وفي الرابعة والثلاثين وفي السادسة والثلاثين .

وبلغت هذه الأعياد مبلغا من العظمة والبهجة لم تعرفه من قبل حيث كان الفرعون يستقبل الاشراف والكبراء ، فيوزع عليهم العطايا من الذهب والملابس الثمينة ، ثم يفتح لهم أبواب القصر ليتناولوا الطعام على المآدب الملكية المترفة ، ثم يخرجون الى بحيرة فرعون ليحظوا بشرف مشاهدة الزورقين المقدسين .

ومن أشهر بناته « نفرتيتى » ، ثم ساة آمون الذى يزعم بعض المؤرخين أن أباهما قد تزوجها وأنجب منها توت عنخ آمون ولكن آخرين يشكون في ذلك (عبد الحميد زايد وأحمد بدوى) .

وكان لاسراف امنوفيس الثالث في حياة اللهو والعريضة أثره عليه فشاب قبل الأوان وأدركه الضعف ، وذوى ولما بلغ الخمسين من عمره نجده في بعض صوره وقد هذه المرض ذاهلا عن أحداث الدنيا وما يجرى فيها .

ويمكن تشبيه عصره ، بعصر الملك لويس الرابع عشر في فرنسا أو عصر الرشيد والمعتصم في العهد الاسلامى أو خمارويه أو اسماعيل .

وقد ازدهرت الفنون في عصره فبلغت من الرقى مبلغا لم تعرفه (شواطىء) مصر من عهد الأهرام ، وانقتمعت عن سماء البلاد سحب الحرب التى تغشتها من قيام هذه الأسرة .

ويعتبره بريستيد آخر أباطرة مصر العظام ، حيث وصلت الدولة في عهده ، الى اعظم درجات الرقى والحضارة ومات بعد أن حكم ستا وثلاثين سنة .

١٢٦٧ ق.م :

تولى اخناتون ابن امنحتب الثالث عرش مصر وهو لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ، وتزوج من أخته نفرتيتى والتى يحتمل أنها كانت من أم أخرى ، وان كان ليس من المقطوع به أنها أخته (ف . لولين جريفث : تاريخ العالم ، المجلد الثانى) وقد كان مقدر له أن تصل عقيدة التوحيد على يديه ذروتها بحيث يعتبره البعض من الانبياء والرسل ، على أن فضل اخناتون في اصلاحه الدينى لا يبدو في توحيدده الألوهية بقدر ما كان في تغييره صفات هذه الألوهية وتحويل الاله من اله محلى اقليمى

ومولى غاضب منتقم الى اله عالمى محب عطوف جميل يحب الجمال ، ويشمل ببره بنى البشر جميعا . وهناك رأى يقول ، ان فكرة توحيد الالهية فى اله الشمس هى فكرة آسيوية ، وفدت الى مصر مع زوجة امنحتب الثالث وحاشيتها من النساء والرجال الآسيويين ، الذين بدأوا يغشون البلاط المصرى منذ أيام تحوتمس الرابع ، وزاد أمرهم فشوا فى عهد امنحتب الثالث ، الذى طال واستفاض . ولكن فكرة التوحيد لم تكن بعيدة عن أذهان المصريين وخاصة رجال الدين منهم ، بل انها كانت فى تطور مستمر منذ توحدت البلاد . . كما ان عبادة اله الشمس سواء فى صورة حوريس ، أو رع هى من أوسع العبادات انتشارا وأقدمها فى حياة المصريين كما رأينا . . . بل ان آمون نفسه لم يأخذ قوته وسلطانه الا بعد ان اعتبر صورة أخرى من صور رع فأصبح يطلق عليه اسم آمون رع . وكذلك سائر الآلهة كسبك الذى أصبح سبك رع والحق ان اتجاه الوجدان البشرى والعقلى نحو توحيد الالهية هو احدى الظواهر الانسانية التى تفرض نفسها على الانسان فرضا .

فقدما عندما كان لكل قبيلة استقلالها ، فقد كان لها معبودها الخاص بها . وذلك طبيعى ومفهوم فقد كانت كل قبيلة تعتبر نفسها هى الجنس الانسانى فى مجموعه والأرض التى تعيش عليها هى الدنيا بطولها وعرضها ولكن مع اتساع معارف البشر واختلاطهم ببعضهم واكتشافهم أراضى جديدة ومعبودات جديدة فقد بدأت عملية تزويج المعبودات الى بعضها ونسبة بعضها الى البعض الآخر باعتبارها أبناء وآباء ثم ارتقى العقل البشرى فراح يرى فى المعبودات المختلفة صورا متفرقة لحقيقة واحدة . وقد كان كهنة كل معبود اذا اتاهم السلطان يرتفعون باللهم فوق باقى الآلهة ويجعلون منه الاله الواحد المسيطر على الكون .

فهؤلاء كهنة منف عندما كانت منف مستقر السلطان جعلوا من بتاح خالق الكون وقوته المحركة وعقله المدبر يقول للشئ كن فيكون . « بتاح العظيم » (قواد ولسان المعبودات) .

« بتاح المعبود الذى يبدأ منه الحب والمنطق فكل ما يصدر من ذهن أو فهم المعبودات أو الأهالى أو الحيوانات أو الأفاعى أو جميع المخلوقات المفكرة والأمر هو نتيجة ارادة هذا المعبود بتاح » .

وهكذا جعلوا « بتاح » هو خالق الكون واراדתه . وكهنة عين شمس كلما واتتهم الفرصة جعلوا « رع » هو اله الآلهة خالق الكون الذى أورث أبناءه ، ملوك الفراعنة حكم الأرض ، فما جاء به « اخناتون » من توحيد الالهية بالنسبة للبشرية كان هو النتيجة الطبيعية لتحول مصر الى امبراطورية تشرق الشمس على كل شعوبها ويمتد سلطانها شمالا وجنوبا على شعوب ومعبودات متفرقة فأصبح لا مناص من أن يكون معبود مصر هو رب كل هذه الشعوب والكائنات خاصة وقد رآه الجميع بأبصارهم يبرز فى السماء . والجديد بالنسبة لاختاتون هو أنه لم يستعمل الاسم المألوف لاله الشمس وهو « رع » وانما استعمل الاسم الذى كان يدل على قرص الشمس وهو

« آتون » ليكون رمزا على الألوهية المطلقة فلم يعد المعبود آتون هو قرص الشمس المادى ولكنه حرارة الشمس ثم أصبح شيئا فوق ذلك كله انه سيد آتون وأصبح يصور على الآثار فى شكل قرص الشمس تمتد منه الأشعة وفى نهايتها أيدى ترمز لعناية الله بخلقه ويمد يده اليهم . على أن ثورة اخناتون فى العقيدة الدينية لا تبدأ عند هذا الحد بقدر ما تبدأ من محاربته للمعبودات القديمة خاصة آمون باعتباره كان أشدها نفوذا حيث راح يحطم تماثيله ونصبه ويمحو اسمه حيث استطاع الى ذلك سبيلا حتى لو اضطر الى محو اسمه والى محو اسم أبيه نفسه منحتب الثالث وتغيير اسمه هو من منحتب الرابع الى اخناتون . (أى التابع لآتون) ولو أن خناتون اكتفى بالدعوة الى الهه الجديد معتبرا اياه صورة من صور آمون كما هو صورة من صور رع وأوزوريس لى حد ما ، لما أثار على نفسه كل هذا العداء الذى انتهى بتحطيمه وتحطيم دعواه . ولذلك فلا عجب أن بدأ كهنة آمون يناصبونه العداء ويجهرون بهذا العداء وكانوا قد بلغوا من القوة والنفوذ بحيث لا يقوى الفرعون الجديد على سحقهم وان استطاع أن لا يأبه بمعارضتهم ولذلك فقد غادر طيبة فى العام السادس من حكمه بعد أن أصبحت غير صالحة للاقامة بها ، وضرب نحو الشمال بحثا عن مكان لم يظله آتون أو اله آخر من قبل فعثر على هذا المكان فى بقعة من اقليم الأشمونين تقع على الضفة الشرقية للنيل فيما يعرف الآن بتل العمارنة « محافظة المنيا » وبدأ فى انشاء مدينته الجديدة التى أطلق عليها اسم (اخت آتون) أى سماء آتون . وجعل ما يحيط بها حرما مقدسا ، يبلغ عرضه من الشمال الى الجنوب ثمانية أميال ويتراوح طوله بين جبال الشرق والغرب بين اثنى عشر وسبعة عشر ميلا ، وأحاط هذا الحرم بأحجار لتحده وقد عثرنا على أحد هذه الاحجار وقد نقش عليها « رفع جلالته يده الى السماء نحو خالقه آتون قائلا هذا قسمى الأزلى ، وهذا شهادى الأبدى » وهذا الحجر يعين حدود الأرض ... لقد شيدت اخت آتون لتكون سكنا لوالدى وأظهرت حدود اخت آتون الجنوبية والشمالية والغربية والشرقية ... » .

لقد صنع الاله دائرته هذه لنفسه وجعل فى وسطها ضريحه الذى قدم عليه القرابين من أجله (برستيد) . وعهد اخناتون الى المهندس بك باحضار الاحجار من اقليم الشلال لبناء معابد اخناتون الثلاثة ، وقصرا للملك وقصورا للأمراء حول هذه المعابد .

وقد وصف أحد الأمراء مدينة اخت آتون بقوله :

« اخت آتون بلدة جميلة جدا فهى سيدة المدن فى الاحتفالات وافرة الثروة وفى وسطها الهدايا للمعبود رع . اذا رآها القلب سارع اليه الفرح كيف لا وهى مدينة بدعة حتى ليخيل الى ناظرها انها الجنة كثيرة الأهالى . اذا اشرق عليها آتون اغدق عليها اشعته محتضنا بأشعته ابنه المحبوب سليل آتون ، واقف الأقاليم على الذى اجلسه على العرش ومرجع الأراضى لخالقها » .

وتتجلى روعة الانقلاب فى تصور المعبود الجديد ، فى الكيفية التى أقام بها معبد آتون ، فبدلا من هذه المعابد التى أقيمت لآمون والتى يفساها الظلام والظلال

والغموض .. لتخلع قلوب العابدين من الروع والخشية ، بدلا من دماء الأضاحى التى تذبح لآمون .. فقد أقام معبدا لالهه الجديد مشرقا مشعا يبعث الدفء فى الأجساد والقلوب والأرواح .

ولقد دمر الهيكل بعد وفاة اخناتون وعودة الملوك من بعده الى عبادة آمون ، ولكن صورة الهيكل ظلت مصورة ومحفورة على الجدران ، فكانت أروقته كلها مكشوفة لتتخللها أشعة الشمس ، لتفيض على العابدين والمصلين وتحيط الأشجار بالأروقة لتقى بظلالها من وهج الشمس الساطعة وبهرة أضوائها .

وكانت القرايين فى الأغلب والأعم من الكعك والخضر والزهور والرياحين ، وكانت مجامر البخور تعطر المكان بالعطر المقدس ، بينما تتدفق أنغام الموسيقى والنراتيل الشجية فى حنان .

وكانت الصلوات تقام عند الشروق وعند الغروب .

وقد حفظت لنا مقبرة أى ترتيلة اخناتون الكبرى لآتون. والتى يقارنها علماء أوربا المسيحيون بمزامير داود ، ويرون أن الأخيرة مأخوذة من هذه الترتيلة (برستيد) :

« بزوغك جليل فى أفق السماء يا آتون يا حى يا مبدئ الحياة ، اذا ما صعدت فى أفق السماء الشرقى أفضت على الأراضى جمالك » .

ماذلك الا لأنك جميل عظيم ، تضىء فى السموات العليا ، نسطع على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك بأشعتك أنت رع . أنت الذى أسرتهم وقيدتهم بحبك . أنت بعدد عن الأرض لكنك على اتصال بها بأشعتك أنت عال لكن آثارك واضحة فى ضوء النهار اذا ما ظهرت فى الأفق وأشرقت فى النهار كأنون أضاءته الأرض ، اذا ما برغت أشعتك اضئ الظلام وتشمل الفرح قطرى مصر كيف لا وقد أيقظتهم فغنسلون وكتسبون ويبتهلون بأذرعتهم اليك وقت شروقك ثم يشرع سكان العالم يؤدون أعمالهم . البهائم كلها مستترجة فى مراعيها . والأشجار والنباتات جميعها يانعة ، والعصافير تخفق فوق الماء ناره أجنحتها ابنهالا اليك ، والأغنام ترفص على أرجلها . والطيور تحلق فى الجو اذا ما أشرقت عليها .

خلق الإنسان :

انت خالق الجنين فى أمه ، أنت خالق نقطة الانسان . أنت واهب الحمامة للجنين فى رحم أمه ، وملطفه حتى لا يتكدر فيبكى .. كيف لا وانت المربى فى الرحم . أنت معطى نفس الحياة كل مخلوفانك .

خلق الحيوان :

انت الذى تهب الحبة للفرخ فى البيضة .. فاذا اتممت خلفه ثقب بيضته وخرج منها صائحا جهده واتبا بقدميه .

الخلق عموما :

ما اكثر مخلوقاتك الى نجهلها — أنت الاله الاحد لا شريك لك في الملك . خلقت الارض بارادتك . ولما كنت وحيدا في هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التي تدب على الارض أو تطير بأجنحتها .

أنت الذي احللت كل انسان في سوريا والنوبة ومصر في موضعه وانعمت عليه بحاجاته ، فصار كل منهم يأخذ نصيبه وبعش أيامه المحدودة .

لقد اختلفت السنتهم وأجسامهم وجلودهم فسبحانك من مميز لخلقك . ما أبدع مشروعاتك أيها السيد الأزلي فنبل السماء مخصص للغرباء وللدواب من كل البلاد . والنبل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة أشعكت تغذى الجنان . فإذا ما أشرقت أينعت وأنبتت بتأثيرك .

سجلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك .

فالشقاء يعطيهم البرودة والصيف يهب لهم الحرارة أنت الذي رفعت السماء عالية لننظر ما خلقت في وحدتك شارقا حيا كآتون ساطعا مثلثا ثم راجعا ثانية الى حيث ابتدأت .

جمال الضوء :

أنت مبدع الجمال من نفسك .

فالمدن والبلاد والقرى والطرق والأنهر كلها عيون تبصرك أمامها . . كيف لا وأنت أكثر من النهار فوق الأرض .

تضرعات الملك :

أنت في قلبي ، لا يعرفك سوى ابنك اخناتون الذي جعلته عاقلا بأرائك وقوتك . العالم كله في قبضتك كما خلقتة .

إذا ما أشرقت عليه حيى وإذا ما أفلت مات . أنت الوجود وسبب الحياة للانسان . أعين الخلق تبصر محاسنك كل يوم حتى تغرب .

لقد وهبت العالم منذ خلقتة لابنك وسليتك الملك العائش في الحق سيد الأرضين نفر — خبرو — رع وان رع (ابن رع) العائش في الحق سيد التيجان اخناتون طال أجله . وأيضا للزوجة الملكية العظيمة خليلته سيدة القطرين نفر — نفرو — آتون (نفرتيتى) العائشة اليانعة الى الأبد » .

وكان اخناتون يتمسك في الدرجة الاولى بضرورة اتباع الحق وكان لقبه الابن الملك العائش في الحق .

ولا شك أن مصري ذلك الزمان قد اعتبروا اخناتون مجدفا وملحدا ومنحرفا

واسان حالهم يردد قول كفار قريش « اجعل الآلهة الها واحدا ؟ .. ان هذا لشيء عجائب » .

وكان يصدمهم كما صدم كفار قريش كذلك ، انه لم يقف عند حد الدعوة لاله ، بل تحدى باقى الآلهة وقرر ان يحطم اصنامهم ويمحو اسماءهم وكان يفزعهم اكثر واكثر وهم الذين كانوا سكرى بعظمة الامبراطورية والذين كانوا يعتبرون انفسهم هم وحدهم الناس وغيرهم ليسوا من الناس الا فى الدرجة الثانية اغضبهم واحنقهم ان يسوى بينهم وبين النوبيين وبين السوريين بل ان يذكر اسماء هؤلاء قبل ذكر المصريين وان الله يرفع الجميع على السواء ويجعل كل انسان مكانه ويعطيه الرزق ويقرر مصيره . على ان ما يروعننا نحن ، فى العصر الحديث من هذه الانشودة انها لم تنسب الى آتون اى وصف من اوصاف الغضب والنقمة والتعذيب فضلا عن الدعوة الى الحرب وقتال المخالفين ولم تنسب اليه الا آيات الرحمة رحمته على عباده وحنانه وبره بهم .

وهذا الذى يجعل اخناتون فى نظرنا هو نبى الدعوة الى الحب والسلام وشجب العنف بين البشر ، ويضاعف من قيمة هذه الدعوة ويظهر مدى ايمان اخناتون العميق بها ، انه دعا اليها وتمسك بها رغم انه كان ملك امبراطورية يجلس على عرش دولة لا تقوم الا على السلطان والقمع والردع وتجييش الجيوش ولم يغير موقفه عندما بدأ منافسو مصر فى ذلك الزمن من امثال الحيشيين الذين ازدهر ملكهم فى هذه الحقبة ، يمدون ابصارهم الى دويلات آسيا ويسعون الى فرض سلطانهم على هذه الدويلات .

ولم يكن اخناتون يحرص على وصف نفسه بوصف يعلو وصفه بالحق وانه عاش فى الحق ، ويدعو دائما لاحترام الحق .

وعندما عمد بعض الامراء يعلنون استقلالهم ويغيرون على جيرانهم مستغلين فرصة غياب ابن امنحتب الثالث عن الظهور فى آسيا . كل ذلك لم يخرج اخناتون عن الخط الذى رسمه لنفسه : وهو ان يكون داعية سلام وهداية للبشر .

وتسجل لنا رسائل تل العمارنة الصرخات والاستغاثات التى بعث بها امراء آسيا الموالون لفرعون مصر ، يحذرونه وينذرونه من عاقبة المصير اذا لم يبادر بأرسال جيوشه ، واذا لم يعالج الأمور .

فهذه احدى رسائل تل العمارنة تقول على لسان اعيان مدينة (تونب) بعلبك : « الى ملك مصر سيدنا . من اهالى تونب (بعلبك) خدمك لعلك تكون بصلة وعافية . نحن كلنا نسجد تحت قدميك سيدى . مدينة تونب تتسائل الآن قائلة : لم يجرؤ احد على سلب تونب فى عهد تحوتمس الثالث دون ان يسلبه ذلك الملك . الا بعلم سيدنا ملك مصر ان معبودات مصر لا تزال تتوتب ويمكن لجلالتك ان تتأكد من صدق ذلك من كبار قومك . ولكننا اوشكنا ان ننفصل من مملكة سيدنا ملك مصر ،

إذا ما تأخر وصول الجنود والسجلات من مصر . أن أزيرو (أحد أمراء دويلات آسيا) سيهاملنا كما عامل مدينة نى وحينئذ نعمنا الكدر كما يصيب جلالة ملك مصر الاسى لما يأتيه « أزيرو » .

أن هذا الأخير سيرفع يده في المستقبل ليقاقل قوات جلالة سيدنا . إذا دخل أزيرو بلدة صومير (بطران) يفعل بنا ما يشاء . ونحن في بلادجلالة الملك سيدنا حينئذ يندم الملك على ذلك كثيرا .

أن تونب (بعلبك) تبكى يا سيدى بكاء مرا . ولا تعتب لها ، لقد ثابروا على ارسال الخطابات لسيدنا ملك مصر مدة عشرين سنة فلم نصل اليها منه كلمة واحدة . ولم يظهرنا التاريخ على رد اخنايون على هذه الرسائل . . لكن الذى نعرفه أن سوريا ولبنان ، سرعان ما سقطتا في يد الحيثيين .

وهاجمت قبائل الخابيرو مدن فلسطين الجنوبية وأرسل الوالى المصرى بيت المقدس الحصن المنيع آخر صرخة لاختناون لانفاذ آخر ما بهى لمصر من ولايات في آسيا .

« ستضيع جميع ارض جلالتك النى نارت على . أما اقليم شيرى الواصل الى جننى - كرمى فقد شق عصا الطاعة على وكذلك امراؤه . لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوى فى بسط سلطتك على بلاد النهرين وكدش ، اما الآن فقد احل بدو الخابيرو بلاد فرعون . ولم يبق لسيدى وال يطيع فالكل عصاه . . ليحترس الملك على قطائعه وبلاده وليرسل المدد . . لانه اذا لم نصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سدى . . واذا تعسر ارسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة الملك ضابطا يلازمنى للحضور انا واخوانى كى نموت مع سيدنا الملك » .

فلا عجب واجزاء الدولة تنفصل عن آسيا ، أن يزداد مقت الشعب الذى لم يفهم فى اى وقت هذه الدعوة الجديدة التى جاء بها اخناون والذى خالف بها كل تقليد ومألوف . . وكانت هذه فرصة كهنة آمون ، لكى يؤججوا نيران الثورة ضد اخناون وضد الهه فأجتمعت عناصر السخط الوطنية والدينية ، ضد اخناون . فاندلعت نيران الثورة ضد اخناون ، فلم يلبث أن عزل بعد حكم دام سبعة عشر عاما اى عام ١٣٥٠ ق.م . ولم يلبث أن مات : ولا يعرف كيف مات . فقد عبث بجنته على ما يبدو اذ لم يعتز لها على اثر ، فقد وجدت بعض التوابيت التى قيل أنها لاختناون أو خصصت له . . ولم تكن جثته فيها على كل حال .

وقد استمر كره الناس له بعد موته لعدة اجيال حاولوا فيها أن يطمسوا كل ذكر له ، وكل اثر مكتوب . ولقبوه أحيانا « بمجرم أخت أبون » فقد حملوه ضياع الامبراطورية المصرية فى آسيا ، التى تعب اسلافه ملوك الأسرة الثامنة عشرة طوال مائتى عام لتثبيت قواعدها وتوسيع رقعتها .

ولكن الحقائق التاريخية كما تكشف عنها رسائل تل العمارنة ، تثبت ان امنحتب

الثالث وليس اخناتون هو المسئول عن نفكك هذه الامبراطورية فقد حكم ستة وثلانين عاما لم يذهب مرة واحدة الى سوريا أو يظهر في أرض فلسطين وفنيقيا.. .
وفد بدأت العتن ، وبدأت مناوشات الحبشيين في عهده فلم يبدل جهدا لمعالجة الموقف .. ولا يمكن ان نعذر لامنحطب الثالث بأنه كان صاحب دين وعقيدة يدعو للسلام ..

وقد اعاد ملوك الأسرة الناصرة عشرة كما سئرى نفوذ مصر في آسيا ، ولكن صوحانهم لا تلبث الا أن سبدد من جديد ولكن دعوه اخناتون ، هى وحدها التى كان مفدرا لها أن نبعث من جديد في عصرنا الحديث .. فقد شاء القدر أن تكون المقبرة الفرعونية الوحيدة التى سلمت من يد أسره لتصل الى أيديا كاملة هى مقبرة صهر اخناتون وزوج ابنته « توت عنخ آمون » لتهتز الدنيا كلها بروعه ما فيها من آثار وبستر من جديد صفحه اخناتون وعاليمه ، ليجد ملايين المعجبين والمفدرين للملك النبى .

الثورة الفنية :

على أن الشئ المنعق عليه : هو ايمان اخناتون المطلق بالحق ، وبحرى الحقيقة دائما ، فقد أحدث ثوره في الفن ، حيث خرج فيها على أصوله التقليدية القديمة المعترف بها . وهو الا يصور فرعون الا في صوره مناهية في الفوه والصحة والشباب ، وان لا يظهر معه الا من يليق بفداسته اما فنانو « اخناتون » ، فقد صدعوا بأوامر اخناتون وتعليماته ، أن يكون فنهم طبق الأصل من الحقيقة .

ولذلك فقد صوروا لنا اخناتون في بساطة وبعيدها عن كل كلفة محبا لاولاده وزوجه حتى ليظهرون معه في كل موقف وفي كل حفلة ، في المسد وخارج المعبد وعلى سرفات القصر .

ووصل الأمر في تحرى الفنان للحقيقة ، حتى صور فرعون نفسه في صورة تبدو معها بطنه وكأنها مسفخة حتى قال بعض الباحثين أنه كان مريضا بالاستسقاء .. كما رسمت ملامح وجهه ورأسه بطريقة فيها الكثير من المبالغه بحيث ظهر دميما جدا . فلا عجب اذا رأينا لأول مرة الحيوانات مرسومة بحالتها الطبيعية فالكلب عاو ، والطير محلق في الجو والور الوحشى عائم في المستنقعات .

ومن آثار فناني هذا العهد الخالدة ، تمال نفرنبتي زوجته الموجود الآن بمسحف برلين ، والذي يعتبر أجمل قطعة من النحت في العالم على الإطلاق .

بين موسى واخناتون :

وقد قامت محاولات الربط بين حركة اخناتون ودعوته للتوحيد ، وبين رسالة موسى عليه السلام ، فقد تلت دعوة موسى للتوحيد حركة اخناتون ومن أشهر من

حاض هذا الموضوع وأكده وتحمس له « فرويد » العالم المشهور وعنده أن موسى ولد في مصر ونربى فيها ونشأ في كنف الوجدانية التي أعلن أمرها في زمان اخانون وأن موسى قد تأثر بها في دعوته . والمسلم الذي ينلقى عن القرآن الكريم ، الذي يقول أن موسى عليه السلام قد دعا الى عبادة الاله الواحد المنزه . لا يرى بأسا في أن تكون ثمة صلة بين دعوة اخانون للتوحيد ودعوة موسى عليه السلام ، فالنوحيد هو دين العطرة ، وهو الذي برز اليه النفس كلما ضعفت .

ولكن المطالع للعهد القديم والذي يصور يهوه اله اليهود كما دعا اليه موسى . لا يمكن الا ان يجد فارفا كبيرا بين اله اليهود وبين آتون كما دعا اليه اخانون ، فحبت آتون كما رأينا ، اله بنى الانسان جميعا عطوف نسفوق ، يحب السلام . ويكره الحرب ويسوى بين الناس . ويهوه اله اليهود ، هو اله خاص باليهود قد ميزهم على سائر العالمين ، وهو رب الجنود الذي يحب القتل والقنال وسفك الدماء ، وهو الاله العاجز الضعيف الذي يخطيء ويندم والذي يؤنبه موسى من حين لآخر .

ولذلك فقد اراد بنو اسرائيل أكثر من مره حتى في حياة موسى نفسه الى عبادة اربابهم القديمة كعبادة العجل . وظلوا طول حياتهم على ما يروى عنهم العهد القديم . . يرتدون الى عبادة الأصنام وآلهة الشعوب المجاورة .

١٣٥٠ ق م :

تربع **سمنخ كارع** على العرش وهو زوج ابنة اخناتون « مرية آتون - حبيبة آتون » وهو أخ لتوت عنخ آمون الذي سيلي الحكم بعده ، وكلاهما اخوان لاختاتون من أبيه المنحطب الثالث . ولكن البعض يشك في ذلك ، ويعتبرهما من أبناء اخناتون نفسه . (الدكتور أحمد بدوى - موكب الشمس) .

ويدل اسم **سمنخ كارع** ، على أنه لم يلد بآتون فلم يلحق باسمه ، ولذلك فلا عجب اذا كان أول أعماله على العرش أن عاد أدراجه الى طيبة . على أنه لم يلبث أن مات بعد سنوات لم تزد على الثلاث .

١٣٤٧ ق م :

توت عنخ آتون ، والذي لم يلبث أن غير اسمه الى **توت عنخ آمون** ، وهو أخ **سمنخ كارع الأصغر** ، وهو مثله قد تزوج باحدى بنات اخناتون ونفرتيتي (متحسى - أن - با آتون) .

وقد كان يوم أن رفع على العرش صبيا ، وكان الى جواره قطبان من أقطاب السياسة والحرب . . فأما أولهما فهو الكاهن آي الذي رفعه اخناتون مكانة عليا . .

ثم ظل متربصا ليلعب دوره ، حتى اذا مات اخناتون تولى قيادة سفينة الاسرة التى اوشكت ان تغرق بمساعدة القطب الآخر القائد حور محب والذى كان اخناتون قد سلمه قيادة الجيش لما اضطربت الأمور .

وبدأت الامور تستقر في عهد الملك الشاب ، وخاصة بعد ان استقر به المقام في طيبة ، محاً من اسمه اسم « آتون » فأصبح يعرف باسم توت عنخ آمون .
وقد عثر على لوح كبير في الكرنك يصور الملك وهو يقدم قربانا للاله آمون والاله توت .

وبدا دور حور محب القائد العسكري في توطيد اركان الدولة . . فقام على رأس جيش اصطدم به في سوريا مع الحثيين وقد خرج كل من الطرفين يدعى النصر لنفسه . . . ولكن نجاح حور محب الاكبر كان في اخماد فتنة الامراء النافرين ، واعادتهم الى الولاء لعرش مصر وهكذا استقرت الامور في عهد الملك الشاب بينما كان حور محب يوطد اركان الدولة بقوة السلاح في الخارج ، كان « آى » يوطد بالانشاء والتعمير في الداخل في اصلاح ما تهدم من دور العبادة ايام اخناتون فأصلح معابد آمون في طيبة ومعابد بتاح في منف ، وغيرها من دور العبادة ، وأجرى عليها الخير والارزاق .

ولم يلبث الملك الشاب أن مات في ريعان الصبا بعلة ذات الرئة على ما يقول اطباء الذين كشفوا على مومياء بعد اكتشافها بعد حكم لم يطل اكثر من ثماني سنوات ، ومات وعمره ثمانى عشرة سنة ولم يكن قد اتم لنفسه بناء قبره ، فدفن في قبر كان آى قد انشاه لنفسه ، ولذلك فهو اصغر قبر دفن فيه احد الملوك ، وقد كان في الاصل حجرة واحدة ثم قسم عند الدفن الى حجرتين ، جعلت احدهما مدفناً ، بينما كدست في الثانية بقية ما حمل مع رفات الملك من زاد واثاثات جنازية حشرت في الحجرة الضيقة حشرا وعلى خلاف المعهود نرى على جدران المقبرة رسما يمثل تشييع جنازة فرعون لمقره الاخير .

كما نرى صورة آى يتقدم ركب الجنازة ويقوم ببعض الطقوس الجنائزية الخاصة بسفله ، ليسجل لنفسه حقه في تولى العرش . على أساس ان توت عنخ آمون كان آخر سلالة أسرته .

وقد قدر لاسم توت عنخ آمون في العشرينات من القرن العشرين ان يدوى في سمع الدنيا كلها ، عندما اكتشف امريكى يدعى كارتر يعمل لحساب انجليزى يدعى اللورد كارنرفون في عام ١٩٢٢ قبر توت عنخ آمون ، وعثر فيه لأول مرة في التاريخ على الاثاث الجنائزى الذى لم يمس والذي بهر العالمين ولا يزال يبههم حتى الان ، بالقدر الكبير من الذهب الذى يحلى الاثاث ومركبة الفرعون ، وتابوته .

وخاصة القناع الذهبى الذى يخضب رأسه ووجهه والذي يأخذ باليناب بنى البشر اجمعين ، بعد ان أصبح يطاف عليهم به ، ليس فقط من ناحية معدن الذهب المصنوع

منه كبقية تحف توت عنخ آمون ولكن من حيث الوانه والدقة الفنية ، التى تخيل معها للرأى كما لو كان القناع صورة لانسان حى .

وغمرت العالم يوم اكتشاف قبر توت عنخ آمون موجة من الحماس له وللعن الفرعونى ، فانشحت الفنون التشكيلية كلها بالصفة الفرعونية ، ونسجت الاقمشة بوحى من ألوان آثار توت عنخ آمون واطلق عليها اسمه ، وأصبح اسمه يتردد فى كل مصنع ومكان باعشا معه تاريخ حميه العظيم اخناتون . . ولا زال توت عنخ آمون يهز الناس هذا كلما شاهدوا آثاره المنعدمة المبال ، والتى لا تزال تعتبر اعظم كشف عرفته الدنيا فى عالم الآثار حتى اليوم .

١٣٣٩ ق م - ولى العرش « آى » :

وهو على النقيض من سلفه ، فاذا كان توت عنخ آمون قد مات فى صباه ، فقد ولى هذا العرش وهو فى خريف العمر او ارضله . ويرجح الكبر من المؤرخين ، انه عمل طويلا وفى صبر وداب للوصول الى هذا العرش . وقد صادفناه على الآثار باعتباره زوجا لمرسعه اخناتون المدعوة تى وقد تربى اليه اخنابون وعهد اليه بأكثر الوظائف وقد بلغ فى الجيش اعلى رتبة وهو قائد فرقة الفرسان فلما مات اخناتون وقف الى جانب سمنخ كارع يناصره فرفعه الى العرش ، ولما مات سمنخ كارع ، اجلس اخاه توت عنخ آمون من بعده وكان هو المدير لانتقال توت عنخ آمون الى طيبة كما راينا .

فلما ان مات « توت عنخ آمون » دون أن يخلف عقبا ، ولى آى الملك ونراه فى كل الآثار مع زوجته تى .

وحكم أربع سنوات ولا نعرف له خبرا عن هذه الفترة الا انه زار منف فى عامه الثالث ، ولا نعرف مصيره بعد ذلك .

وقد كان القبر الذى انشأه لنفسه فى اخت آنون ، هو الذى نقلنا عنه انشودن اخنابون لأنون .

١٣٣٥ ق م الميساند :

تولى « حور محب » عرش الفراعنة ولأول مرة نرى انفسنا امام تاريخ مفصل متصل لواحد من أبناء الشعب استطاع بجده واجتهاده أن يخرج من صفوف الشعب ليرقى السلم خطوة خطوة حتى يصل الى أوج المجد فيصبح فرعوننا ، بل وفرعوننا مرموقا ، فضى على الفوضى التى أوشتكت أن تغمر البلاد بعد الفتنة التى عمت البلاد فى أخريات عهد اخناتون وخلفائه .

والعراة بطبيعة الحال لم يخرجوا في أغلب الاحوال عن كونهم سلاله أشخاص ممنارين وابطال خرجوا من صفوف هذا التسعب كما راينا ، ولكن لل واحد منهم لا يكاد يؤسس اسرة جديدة حتى يصبح الحكم ارنا لاولادهم من بعدهم . الدين يعتبرون اسرة حاكمه يجرى في عروهم الدم الملقى وأصحاب الحق الشرعى .

ولكن حور محب ينفرد فان تاريخه معروف ومبسط ومسجل من البداية حتى النهاية . فهو قد ولد في عهد منخب الثالث ما بين عامى ١٤١١ ق.م - ١٣٧٥ ق.م . في زمن كانت فيه العسكرية هي سبيل الرقى والتقدم ، فالتحق به حور محب ، ولكن شات الظروف ان تكون الفترة التى التحق فيها بالجيش ، كانت هي الفترة التى عم فيها السلام البلاد . على أن حور محب فيما يبدو لم ينصل بالجيش الا بعد ان كان قد تعلم ويغف نفسه . اذ نراه يجرى بانتسابه الى رب المعرفة « تحوت » ويعلم اغتباطه بما اوتى من معرفة وكفاية .

وقد ظل حور محب ايام منخب الثالث يعمل في الجيش الذى كان مقره مدينة منف . حتى وصل الى وظيفة ما يساوى منصب « مدير العرق » . وركن اخناتون الى حور محب مطمئنا الى علم الرجل وكفاءته فترك له امر الجيش يدبره ، راضيا عنه بأن يكف اذى الجيش عنه لينفرغ هو الى دعوته الدينية وفام حور محب بماعهد اليه خير قيام فلا هو تورط في مجارة اخناتون في دعوته ، ولا هو في ذات الوقت حرض عليه او اخل بولائه نحوه .

وبفضل هذه السياسة الرشيدة ظل حور محب هو رجل الدولة الاول ، فاستطاع ان يدبر الامر لخلفاء اخناتون فيلوا العرش واحدا بعد آخر ، وقد حفظوا له ذلك ، فافاض عليه نوت عنخ آمون من مظاهر التكريم ما لم يحظ به موظف في الدولة من قبله حتى سمح له ان يقيم لنفسه تمثالا في معبد « تحوت » يمثله جالسا ناشرا بين يديه قرطاسا مر اوراق البردى وقد وضع محبرته على ركبته وقد اخذ في الكتابة . ويحمل التمثال القابه ، فهو الذى « يحمل المروحة على يمين فرعون » وهو « امير قواد الجيش » وهو ولى عهد فرعون .

اما قاعدة التمثال فقد ملئت بالنصوص التى يضرع فيها حور محب الى تحوت ليشهد له عند الآلهة انه كان مستقيما فلم يعمل مكروها ، ثم يذكر « اننى قمت بتصحيح قوانين القصر وجرى ذلك بتدبيرى ، ولم يكن هناك أحد غاب عنى . كذلك كنت مرشدا لكل فرد حريصا على ان يعرف كل انسان ما هو عليه . ومع ذلك لم انس ما يجب على . وكنت ارفع آرائى للملك وابنه الى كل ما خفى ولم اترك شيئا من آراء فرعون ، كنت اصدر تعاليمى الى مجلس البلاط مؤيدة بآراء الملك » .

وتصل عظمة شخصية حور محب الى ذروتها في اعقاب موت « نوت عنخ آمون » ، فقد كان هو الرجل الاول في الدولة بلا منازع ، وكان الجيش لا يعرف سيلا غيره ، وكان كهنة آمون اصحاب النفوذ الاعلى في البلاد ، يؤثرون على أى انسان آخر حيث لم يكن من شيعة اخناتون ، وكان مخلصا لآمون ، واذا لم يكن لتوت عنخ آمون من

وارث لعمرته ، وكان حور محب هو ولى العهد كما رأينا ، فقد كان ذلك كله يؤهله لأن يكون فرعون مصر غير مازع ، ولكنه اثر أن يترك هذا المنصب لآى الرجل الشيخ كما رأينا حتى اسوى اى مدبه العصريه ، فلم يعد فى مصر كلها الا رجل واحد ليؤول له الملك عن جسداه واستحقاق .

وهكذا عندما جاءت ساعته ركب الى طيبه على راس كنييه من رجال جيشه فاستقبله الشعب فى طريقه اليها استقبالا رائعا وبلغ المدينه فى يوم عيد امون . واذاع على الشعب من اهل خيبه ان اباه ورب افليمه « حورس » قد جاء به الى رب طيبه لينوجه ملدا على الوادى ، وتهلل امون وهو يستقبل حورس ضيغه الكريم وفى ركابه ولده العظيم « حور محب » الذى جاء ليتقبل الملك والتاج والعرش .

ولما تمت مراسيم التسويج ، غادر حور محب طيبه الى مدينته التى عاش فيها طول حياته . الى منف ليسعد منها لتجهيز الجيوش لاعاده الامن والسلام الى بلاد آسيا . بينما اخذت الحكومه تعمل على تطهير البلاد من انار اخناتون وخلفائه التلثة فمحت اسماءهم من انار البلاد الرسميه وحل محلها اسم حور محب ، بل لقد ذهبت الحكومه الى ابعد من ذلك فانكرت ايام حكمهم وجعلوا عهد حور محب ييدا فى أعقاب حكم اخناتون .

وأصلحت دور العبادة التى خربها اخناتون واعيدت لها اوقافها واموالها .

وليس لدينا ما يؤكد ذهابه فعلا الى سوريا او فلسطين ، وكل ما بقى من آثار ورسوم تمثل حور محب يقود ثلاثة صفوف من الأسرى يقدمها الى ثلوث طيبة (آمون وموت وخنسو) وتثبيت اسماء بلاد من بينها خينا كما يرجح انهم جماعة من الحيتيين ، وانما شك فى أنه ذهب الى هناك .

ولكن الامر المؤكد أنه ذهب الى جنوب الوادى على راس جيش ضرب به الثوار وحارب العصاة .

كما انه استرد كل ما كان لمصر من نفوذ وحقوق فى بلاد بونت (الصومال) وفى رسوم الكرنك ما يشير الى ذلك .

أما عن اعماله العمرانية فقد وضع اللبئات الاولى لردهة الاعمدة الكبرى بالكرنك والتى أتبعها بعد ذلك رمسيس الثانى ، وكذلك بدأ البوابة التاسعة والعاشرة بالكرنك . ومن اجل ذلك هدم مباني اخناتون التى اعترضت البوابة التاسعة . والظاهر ان جزءا من طريق الكباش الذى ييدا من الكرنك الى الاقصر من عمله .

على أن حور محب لم يستحق التخليد باعتباره من اعظم ملوك هذه البلاد ، بحيث ظل محبوبا وممجدا على مدى التاريخ ، الا بمقدار ما عمله من اجل سعادة هذا الشعب ورفاهيته بالقضاء على الفساد والرشوة ، والضرب على ايدى الموظفين الذين يستبدون بأفراد الشعب ، واعلاء سلطان القانون ولن تجسد فى تاريخ مصر القديم ، من صاغ القانون بكل هذا الوضوح والصراحة فى محاربة الفساد . . وليس سوى حمورابى فى أرض بابل من سبقه الى مثل هذا التنظيم القانونى الرائع المحكم .

ولم يكده حور محب يتولى الملك حتى دعا كاتبه الخاص وأملى عليه مواد قانونية للعمل بمقتضاها في كل ما ظهر له قبل ولايته من نقص في الأحكام ، وفساد في الإدارة .
وقد وفعت هذه المواد في سبعة أقسام :

اضطهاد الموظفين الماليين والإداريين للفقراء ، وهددهم بالعقوبات الصارمة .
حتى لقد ذكر أن أحد الصيارفة اضهد فقيرا متجاوزا في معاملته حدود القانون فحكم عليه بجدة الأنف ، والتقى إلى مدينة ناروا ، وحسبنا أن نطالع هذا النص القانوني لنذكر عمق هذه النوره الإصلاحية لحماية الشعب :

كل شرطى علم عنه أنه دخل المساكن لأجل سرفه الجلود يحكم عليه ابتداء من هذا اليوم بمائة جلدة ويجرح في خمسة مواضع ثم تسرّج منه الجلود المسروقة .

« كل موظف أو كاهن يقل عنه أنه عين في القضاء ليحكم بين القضاة وهو يجنى على القانون يحاكم بتهمة الخيانة العظمى أى أن جزاءه الموت إرادة جلالتي بعرض بحسين القانون المصرى .

وثمة مواد تنص بعقاب كل من تسول له نفسه من موظفى الحكومة فى تسخير الرقيق لمصلحته الشخصية .

وعقاب كل من يستولى بغير وجه حق على كنان أو خضر أو حيوانات .

ولكى يبطل الملك الرشوة بين القضاة والمواطنين ، زاد مرتباتهم واعفاهم من دفع الضرائب ، حتى لا يكون لهم عذر فى اتباع الوسائل غير التريفة .

ونظم مرفق العدالة التى كانت مفقودة فى البلاط فأنشأ مجالس قضائية فى كل البلاد لفصل فى الخصومات التى يحدث بين الناس وأوصى القضاة بالتزام العدل ثم وصح على رأسهم واختار وزيرين أعجب بهما كثيرا وعهد إليهما بمهمة القضاء العالى والإشراف على باقى القضاة ، جاعلا مركز أحدهما بمدينة طيبة والثانى بعين شمس أو منف ثم وصفهما بقوله :

« أن هذين القاضيين صادقان كريما الأخلاق شريفا الذمة مطيعان لأوامر القصر الملكى وقانون المحكمة ، لقد عينتهما قاضيين على وجهى مصر (القبلى والبحرى) وجعلت مركزهما المدينتين العظيمتين » . ثم حذرهما من أخذ الرشوة قائلا :
« لا تأخذا الرشوة من أحد والا فكيف يمكنكما أن تحكمما بالعدل إذا كنتما أنفسكما جناة على القانون » .

وفى القانون ما يشير إلى البر بالعبيد والجوارى والحض على معاملتهم بالحسنى .

وكل هذه المعلومات وما هو أكثر تفصيلا منها قد نقشها حور محب على شاهد حجرى عظيم يبلغ طوله ستة عشر قدما وعرضه عشرة أقدام نصبه أمام الصرح الذى شيده بالكرك من الأحجار معبد آتون وقد ذكر جلالته ملاحظة على الأثر هى :

لقد سنت جلالتي هذا القانون لضمان رفاهية اهل مصر ، وختم نقوش
الانى مخاطبا فومه :

استمعوا لأوامرى التى سننتها لأول مرة فى التاريخ لاحكم بها جميع الاراضى
نظرا لما شاهدته من الظلم الصارخ بهذه البلاد .

وهكذا لم نذهب دعوة اخناتون الى عبادة الله الحق هباء . . فهذا هو حور محب
على الرغم من أنه ساعد على محو دعوة اخناتون وآتاره ، الا أنه هو نفسه قد تحول
الى اعظم مصلح انسانى عرفته هذه البلاد ، خفق قلبه بروح العدل ، وحب الشعب
وسيادة القانون . وهى الغاية النهائية لأى دين من الاديان .

وقد مات حور محب بعد أن وصل الى سن الشيخوخة وقد فهم من سجلات
احدى القضايا التى حصلت فى عهد رمسيس الثانى ، ما يشير الى السنة التاسعة
والخمس من حكم حور محب وهذا تاريخ مبالغ فيه ، الا اذا ادمجنا فيه حكم
اخناتون وخلفائه ، والرأى الراجح انه حكم مدة تتراوح بين ٢٥ و ٣٠ سنة .

وقد عاش حور محب الجزء الأكبر من حياته فى مدينة منف فقد بنى لنفسه
مقبرة فى جبانته ، ولكن الاقدار جعلت منه ملكا على عرش مصر ، فأصبح مكانه
بين أقرانه من الملوك السابقين فى صخور طيبة .

ولكن اللصوص اعتدوا على قبره فنبشوه كما فعلوا مع بقية الملوك ، فلم يعثر
على جثمانه ، ولكن تابوته المصنوع من صخر الجرانيت الأحمر لا زال فى مكانه .

الأسرة التاسعة عشرة

١٣٠٨ ق . م - بدء الأسرة التاسعة عشرة :

يعتبر بعض المؤرخين « حور محب » هو ختام الأسرة الثامنة عشرة ، ويقول عنه مانيتون أن حور محب هو الذى أصلح أحوال المملكة المصرية التى ساءت فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة . وهو من ناحيته لم يحاول أن يكون لنفسه أسرة لتحكم البلاد من بعده تاركا العرش لمن يستطيع من أفراد الشعب أن يواصل حركة الإصلاح التى بدأها .

كان رمسيس تلميذه الأول ووفيه الأمين فجعله وليا للعهد ومنحه من الألقاب ما يشاء . ذلك ، جعله وزيرا له .

وإذ كان الناس قد الفوا فى هذه الفترة حكم العسكريين فقد قبلوا بحكم خلفه رمسيس الأول الذى كان قائد الجيش بقبول حسن .

ولم يكن رمسيس كسلفه ممن يجرى الدم الملكى فى عروقهم ، فوالده سيتى كان أحد قواد الجيش ، فأدخل ابنه فى سلك الجندية ، وراح يترقى فى سلمها حتى أصبح قائد فرقة الفرسان وهو ذات المنصب الذى وصل إليه حور محب . حتى إذا مات حور محب ، ولى رمسيس الأول الملك ، وإذ كان شيخا فلم يدم حكمه طويلا ويقول مانيتون أنه حكم سنة واحدة وأربعة شهور . . ولكن هذه الفترة القصيرة ، كانت كافية لكى يجعل من ولده الأكبر سينى قائدا لفرقة الرماة ، ثم قائد فيلق الفرسان ثم وليا للعهد وكبيرا لوزرائه ، مخالفا بذلك سنة من سبقوه . ولذلك فلم يكد رمسيس الأول يموت حتى ولى ابنه سيتى الأول عرش مصر ، مبتدئا بذلك عهد الأسرة التاسعة عشرة المجيد .

١٣٠٩ ق . م :

تربع سيتى الأول على العرش . . وإذ كانت سنة وقتئذ أربعين سنة وهى سن الرجولة والحيوية والعزم ، فقد استهل عهده بما حالت شيخوخة أبيه وقصر

مدة حكمه دون القيام به ، وهو إعادة سلطان مصر على سوريا وفلسطين ، وإقرار الأمن بها . وصد عادية المعتدين عليها .

وإذ كان حور محب قد أعاد تنظيم البلاد في الداخل ، وأعلى بها حكم القانون وسيادته ، مما أعاد للشعب حيويته في ظل الاستقرار ، فقد كان طبيعيا أن تكون الخطوة الثانية نشر هذا الأمن والرخاء في سائر أنحاء الدولة شمالا وجنوبا . ولذلك فقد قاد « سیتی » جيشه في السنة الأولى من حكمه وزحف به على آسيا مبتدئا من بلده تاروا (موقع القنطرة حاليا) ومتبعيا طريق سيناء ، الذي يبدو أنه أصلحه أبان ولايته للعهد في زمن أبيه ، تمهيدا لتحقيق هذا الغرض ، ولذلك فقد مر الطريق المهد ، وتوقف عند قلاعه وحصونه التي رممها على طول الطريق حتى بلغ جنوبى فلسطين الذى كان معروفا في ذلك الوقت باسم نجب (١) . فاصطدم أول ما اصطدم يبدو تلك المنطقة الذين عرفوا باسم الشاسو أو الشوسى فبدد شملهم ، ثم بلغ حدود كنعان (وهو الاسم الذى أطلقه المصريون على غربى فلسطين وسوريا) واستولى على سهل مجدو وعبر نهر الأردن ونصب هناك حجرا ذكر فيه انتصاراته التى أحرزها في حوران ، ثم زحف غربا حتى بلغ جنوب لبنان ، فأستولى على ما فيه من مدن ومواقع ، وبدأ أمراء هذه المناطق وحكامها يفدون عليه معلنين خضوعهم له ومقدمين له كل الذى يطلبه من خدمات حتى كلفهم بأن يقطعوا أشجار الارز ليقدموا اليه الخشب الذى طلبه .

وكان سیتی هو أول فرعون مصرى يروونه منذ خمسين سنة . وقدم له ملك قبرص هدايا جزیلة على عادة حكام تلك الجزيرة نحو حكام مصر .

وأصبح ساحل فلسطين آمنا والطريق البحرى بين مصر وفلسطين، مفتوحا آمنا . ولم يكبد سیتی يعود الى مصر ويقابل باحتفالات النصر التى نراها مسجلة بكل عظمتها على جدران الكرنك حتى شرع يعد حملة جديدة لضرب الليبيين القاطنين غرب مصب النيل والذين كانوا قد استولوا على غرب الدلتا فاستطاع أن يكسر شوكتهم ، وأن يعيد سلطان القانون والنظام ثم عاد من جديد الى آسيا ليواجه جيوش هذه الدولة الصاعدة دولة الحيثيين التى بدأت تهدد شمال سوريا ومن المحقق انه أستولى في هذه الحملة على مدينة قادش ودارت بينه وبينهم معركة لم تكن فاصلة ، وأن كانت كافية للمحافظة على هيبة ملوك مصر في هذه الأرجاء ، ورأى سیتی برجاجة عقله أن يبرم معاهدة ودية مع ملك الحينيين المدعو متيلا ، كانت أشبه بهدنة منها الى معاهدة صداقة حقيقية .

وعاد سیتی الى مصر لبستأنف حملة البناء والانشاء والتعمير واصلاح المعابد التى بدأها « حور محب » ، والتى لم يستع والده أن يسهم فيها . بحيث توجد على كل معابد آمون المنتشرة على النيل من بلاد النوبة جنوبا الى بسطة بالدلتا شمالا ، نقوش

(١) صحراء نقب في الوقت الحاضر .

تشير الى الاصلاحات التى قام بها سبتي الأول بهذه الاماكن المقدسة . . ويعتبر مقبرة سيتى فى وادى الملوكة اكر وافخر مقبرة أقيمت للملك ، حيث نشاهد فى جوف الجبل حجرات وطرقاً منتسبة بأخذ فى الانحدار بما يزيد على ٤٧٠ قدماً ومن عماراته القاعة ذات العمدة العظمى التى أسسها رمسيس الأول امام صرح أمنتبب الثالث بمعبد الكرنك وقد فاقت هذه القاعة فى العظم قاعة أمنتبب الثالث ذات العمدة التى لم يسم بناؤها فى معبد الاقصر .

كما شيد معبداً جديلاً بالعراة المدفونة لمعبودات مصر العظمى (أوزوريس - اريس - حوريس) ونقش على جدران معبده هذا قائمة بأسماء ملوك مصر الاقدمين ابتداء من مينا الى عهده ، ولا تزال هذه القائمة معبرة من أهم المستندات التاريخية التى نسجدها منها معالمة اتنا عن تاريخ هؤلاء الملوك وقد تلف صرحاً هذا المعبد ، ومع ذلك فان البقية التى لا تزال باقية منه تعتبر من أنفس الآثار التى أبدعتها أيدى المصريين المهرة .

وكان لا بد لسبتي للقيام بهذه الأعمال الضخمة من مورد للمال . . فاستأنف استخراجه الذهب من مناجمه فى جبل ريدا على ساحل البحر الاحمر ، واذ كان الطريق الذى اتبعها ويرا وقفراً ، فأمر بتجديد معالمة وحفر الابار لسقيا السائرين وبها ، حتى السجد نقوشاً تقول انا :

أيتها المعبودات الساكنات هذه البئر ، امنحن سبتي العمر الأزلى . شق لنا الطريق لنسير فيه بعد ما كان مهجوراً ، فأصبحنا نسير سالمين ونصل أحباء ، واضحى الطريق الصعب سهلاً جميلاً .

ولما تم مشروع المناجم أوقف سيتى ابراد هذا المشروع على معبد العراة المدفونة .

وقد حافظت الفنون الجميلة فى عهد سيتى على درجتها التى حازتها أيام الأسرة الثامنة عشرة من حيث التأثير والدقة والجمال . ويعتبر معظم الاثريين أن قاعة الكرنك العظمى التى أنشئت فى هذا العهد ، من أعظم الآثار المصرية بناء وضخامة وروعة .

وتعتبر مجموعة رسوم ونقوش عهد سبتي من أعظم أمثلة الاجتهاد والدقة اللذين اشتهرت بهما الأسرة الثامنة عشرة على أن أجمل الرسوم البارزة المصنوعة فى عهد سبتي فهى التى بمعبد العراة حيث يجتمع الدوق والدقة مع معالم الحياة والشجاعة والمهارة .

ومن الوثائق الهامة التى عثر عليها من عهد سبتي الأول ورقة من البردى محفوظة بمتحف تورين عليها أقدم مصور حفرافى فى العالم . فقد صورت بعض مناطق تعدين الذهب ، فرسمت الجبال وطرق الوصول الى المناجم ومناطق التعدين والمباني التى يابى إليها العمال .

ومات سيتى قبل أن يحتفل بمرور ثلاثين سنة على توليته ولاية عهد مصر ،

فلم يتمكن من قامة المسلتين اللتين عملهما لذكرى هذا الحادث . ولكن من المحقق انه حكم أكثر من عشرين سنة مستقلا بالملك ودفن في تابوت مرمرى بديع داخل قبره الفخم - وقد حفظت الاقدار جثة هذا الملك حتى يومنا هذا اذ غر عليها في خبيثة الدير البحري ، حيث تبدو على وجهه كل ملامح العظمة والابهة والجلال .

١٢٩٠ ق م :

اعتلى العرش رمسيس الثانى ابن سيتى الاول بعد وفاة أخيه الأكبر ولى العهد فى حياة أبيه ، وقد ذكر رمسيس انه شارك أباه سيتى فى الحكم فى أخريات حياته ، ولكن بعض المؤرخين وعلى رأسهم بريستيد (١) يرفضون هذه المشاركة ويرون انها من مزاعم رمسيس الثانى . ولكننا لا نستطيع أن نهدر ما سجل على الآثار وما يقوله رمسيس ، لاعتراضات وتكهنات ففى معبد سيتى الاول الذى أتمه رمسيس نرى هذه العبارات منقوشة ومسجلة .

« عظمى سيد العالم نفسه (سيتى الاول) عندما كنت طفلا الى أن أصبحت حاكما . منحني الأرض حيثما كنت فى البيضة . سجد عظماء الأرض أمامى . بعد ذلك وليت لأننى لابن الأكبر ولاصبح أميرا وراثيا على عرش جب (اله الأرض) وكتبت تقريرا عن حالة الأرض ، وكنت قائدا للمشاة ولركبات الحرب . ولما ظهر والدى فى عظمة أمام الناس كنت طفلا فى حجره ، قال شيئا عني : فوجده ملكا حتى يمكننى أن أرى جماله حين أكون على قيد الحياة : ثم نادى رئيس الحجاب ليعقد التيجان على مفرقى . قال ذلك فيما يخصنى حينما كان على الأرض حيا » .

وأن يكون رمسيس قد شارك أباه فى الحكم ، أو لم يشاركه مسألة ثانوية جدا بجانب الحقيقة الكبرى التى تتصل برمسيس وهو انه أشهر الفراعنة على الإطلاق ، والذى يعتبر اسمه علما على مصر القديمة تكملة للأهرام وأبو الهول ، وقد تسمى باسمه ، فراعنة من بعده .

وكان أول من أدرك أن عاصمة الملك السياسية يجب أن تنقل من طيبة الى شمال الدلتا ، ليتمكن لفرعون مصر أن يخف لحماية أراضي الدولة فى آسيا . وهكذا أصبحت طيبة مركزا دينيا لا يؤمها فرعون الا وقت الاحتفالات الكبرى . بينما أقام رمسيس فى مدينة تانيس ، حيث أقيم بها معبد شامخ نصب على ضريحه تمثال عظيم لرمسيس مصنوع من حجر واحد ويزيد ارتفاعه على تسعين قدما ، وتبلغ زنته ٩٠ طن - وقد اعتنى كثيرا بوادى طميلات . وهو فى طريق القنساء التى كانت توصل النيل بالبحيرات المرة فالبحر الأحمر ، باعتباره الطريق العام بين مصر وآسيا ، فشيد فى منتصفه مدينة بينوم ومعناها معبد آتون - وأنشأ مدينة بر رمسيس (التى ورد ذكرها فى التوراة) (أى بيت رمسيس) ويظن البعض انها هى ليست مدينة تانيس

(١) ناقش الدكتور أحمد بدوي اعتراضات بريستيد وردها ومال الى القول بالمشاركة ..

وقد أصبحت بر رمسيس هي مقر الحكومة وعاصمة البلاد فحفظت بها المكاتبات الرسمية وعبد فيها رمسيس كأحد آلهتها .

ويقال ان رمسيس سخر بنى اسرائيل في بنائها على ما تقول التوراة .

وقد اختار بعض المؤرخين ان يفضوا من شأن عظمته بالقياس الى غيره من الفراعنة الذين سبقوه ، كما اتهموه بأنه كان مجبا للعظمة والدعاية لنفسه ، وأن حقيقته العسكرية والعمرائية تقل كثيرا عما ادعاه لنفسه . ولكن الحقائق التي تثبت على مر العصور لا يمكن ان تزعمها التحليلات والملدونات . . ان اسم رمسيس يدوى الآن في سمع الدنيا كما لم يدو اسم فرعون آخر الا ان يكون توت عنخ آمون يوم اكتشف مقبرته . . . اما لماذا يدوى اسم رمسيس فبسبب تكاتف العالم المتحضر كله لانقاذ معبديه اللذين انشأهما في أبو سنبل من الغرق باعتبارهما من تراث الانسانية . . . وباعتبارهما أفخر وأروع الآثار المصرية . . وتكاتف العلم والتكنولوجيا لنقل معبدى أبو سنبل من مسنقرهما في بلاد النوبة التي ستغمر بالمياه ، ليعاد تركيبتها فوق هضبة عالية ، تعلو على بحيرة ناصر ، وسيظل المئات ولاوف يتوافدون كل عام الى موطن أبو سنبل الجديد ، ليشهدوا معجزة رمسيس في انشائها ، ومعجزة العلم الحديث في نقلهما .

وليس معبدا أبو سنبل اللذان تكاتفت البشرية لانقاذهما الا بعض ما بنى رمسيس وانشأ من عثرات المعابد . بل ان نمالا من تماثيله العملاقة ، هو الذى يزين أحد مبادىن القاهرة حيث لم يستطع أى فرعون آخر أن يحظى بهذا السبق وليس هذا التمثال الجبار الا واحدا من مئات التماثيل والذى يبلغ زنة احداها ألف طن . ناهيك بالسلالات التى نعددها بالعشرات ، والتى تملأ بدورها عواصم العالم الحديث .

وقد أتم القاعة الكبرى ذات العمود العظمى بالكرنك التى بدأ بها أبوه والتى وصفناها بأنها أعظم عمارات العالم قديما وحديثا .

وبنى لنفسه معبدا فى طيبة اشتهر باسم (الرمسيوم) كما أنشأ حوشا عظيما وصرحا شامخا بمعبد الأقصر .

ولا يزال اسم رمسيس الثانى منقوشا على جميع معابد مصر العظيمة فوق الحجرات والآحواش والعمد ولصروح الى يومنا هذا ، ويقولون انه كتب اسمه على كثير من أنار سلفه ونحله لنفسه زورا وبهتانا فى رأى البعض ومع ذلك فان برستيد الذى نسب اليه هذه التهمة ، لا يتمالك نفسه من القول « ومع ذلك فقد شهد آثارا فاقت عمارات سلفه حجما وشكلا وملأ معابده بتماثيله وبالسلالات الشامخة المنقوشة وغير ذلك من الاحجار والرأى السائد الآن أن تماثيل هذا الملك هي أضخم التماثيل المصرية » .

حروب رمسيس :

ما ان ولى رمسيس الحكم واشتغل به ، حتى اراد ان يؤكد النجاح الذى احرزه

والده في شمال سوريا ، وان يضاعف فيه . فعاد رمسيس في السنة الرابعة من حكمه ، وحدات جيشه وسار بها على شاطئ فلسطين الى الشمال حتى نهر الكلب على بعد قريب من بيروت ، حيث اقام لوحا تذكاريًا . وقام بالاستيلاء على الموانئ لبؤم المواصلات ، عن طريق البحر بين مصر والشام متبعا في ذلك خطة تحتمس الثالث .

الجملة الثانية :

على أن حملة رمسيس الكبرى ، التي لا يكاد يخلو معبد من ذكر تفاصيلها . هي معركته في العام الخامس من حكمه مع الحثيين حول مدينة قادش ، فنهاها منقوشة بكل تفاصيلها في معبد الكرنك وفي معبد الأقصر وفي الرمسوم . وكان التاريخ يأبى الا أن يسجل هذا الحادث بما لم يسبقه اليه حادث سابق ، فحفظ لنا قصيدة نسبت خطأ الى ناسخها في عصر متأخر وهو بنتاور .

وهكذا أصبح لدينا تفاصيل معركة رمسيس الحربية حول قادش كما لو كانت مسجلة بأقلام مراسلين حربيين من العصر الحديث . فقد قسم رمسيس جيشه الى أربعة اقسام أطلق عليها أسماء الآلهة الأربعة لمدن مصر الكبرى (آمون - رع - سونح - بتاح) وقد استطاع الحثيون أن يخدعوه اذ دسوا عليه من أنباء بمعلومات خاطئة عن مركز لجيوش الحثية . . فأسرع بكتيبته الخاصة ليلحق بهم ، فانفصل عن بقية جيوشه الأربعة ، وأحاط به الحثيون ، وقد أبدى رمسيس في هذه اللحظة فيما يبدو شجاعة خارقة فلم يطر قلبه شعاعا ، ولا انهارت قواه ، بل مضى يحارب في قوة وصلابة ، وفدائية حتى لحقت به جيوشه المتخلفة فانقذته من الموت المحقق . . ولقد جشم رمسيس في وصف هول هذا الموقف ، وما فعله فيه ، ولنسعد رمسيس ينكلم .

« فقدم جلالته مسرعا ودخل في صفوف الحثيين ، وكان وحده وحيدا ولم يكن احد معه . وتقدم جلالته ليبصره فوجد انهم احاطوه من الجانب الخارجى ب ٢٥٠٠ . مركبة حربية وكذلك كل ابطال عظماء الحثيين . وكان يوجد ثلاثة رجال على زوج من الخيول بينما لم يكن معى قائد ولا خادم للعربة ولا جندي من الجيش ولا حامل درع . وقد فر مشائى ومركباتى امامهم ولم يقف احد منهم ثابتا ليقاتلهم » .

ويمضى رمسيس بعد ذلك يناجى ربه والده آمون . ويتضرع اليه أن لا يتخلى عنه ، ويعدد ما قدمه رمسيس من خيرات لآمون وما شاده له من معابد . وانه ما خطا خطوة ولا تحرك حركة الا لاعلاء شأنه ، وهو لا يخوض هذه الحرب الا لتقديس اسمه . وتمضى الملحمة في سردها فتقول أن آمون هتف به :

« الى الامام يا مري آمون رمسيس اننى معك ، اننى اكثر نفعا من مائة الف رجل مجتمعين معا في مكان واحد » . وعندما سمع رمسيس ربه يناديه هدأت نفسه وأحسن بقدرته على الجهاد اذ يقول لنا :

فوجدت عقلى ثابتا وقلبي مبتهجا وكان النجاح نصيب كل ما فعلته لأنى كنت

مثل موت عندما أشد قوسى يمينى وعندما كنت احارب بيدى اليسرى لأننى كنت مثل الآله بعل . وقد وجدت الـ ٢٥٠٠ عربية التى أحاطت بى كومة أمام خيلى وأضحى أعدائى عاجزين ، سقطت قلوبهم فى جوفهم خوفاً منى ، وشلت أذرعهم فلم يستطيعوا الرمي ، ولم يحركوا رمحا وألقيت بهم الى الماء فسقطوا كالتماسيح ، بعد أن وقعوا على وجوههم وذبحت منهم من أردت .

ولما أقبل جنود فرعون اخذ يعنفهم لأنهم أنفضوا من حوله فى ساعة العسرة والضيق ، « لم يقف رجل واحد منكم ليمد يده لى وأنا احارب » .

« لقد حاربت وحدى ملايين البشر لا املك غير فرسى هذين والجاعل علقهما بى يدى وتحت عينى عندما اعود الى طيبة ، وسأظل اذكر منا سائق عجلتى لانه بقى الى جانبى مع خدام قصرى » .

استؤنف القتال فى الأيام التالية بعد أن تكاملت جيوش فرعون ، وكبدت الحشيين خسائر فادحة . .

ولذلك فان الاثر التاريخى يقول لنا أن الحشيين بعثوا بخطاب الى رمسيس يعجبون فيه من فوته التى فاقت كل قوة ويطلبون منه وضع حد لهذه الحرب الضروس التى لا يفيد منها أحد .

على ان المطالع لتفاصيل هذه الواقعة ، سرعان ما يدرك وفائع المعركة الحقيقية . وأسباب الهزيمة ، ثم اسباب النصر فقد كان رمسيس على رأس فرقة آمون عندما انفض الحشيون على فرقة رع على غير توقع ، فاستولى الفرع على جنودها ، فأقبوا على رمسيس سرازم ممزقة مذعورة ، وكان لذلك تأثيره على فرقة رمسيس نفسها ، إذ فرت بدورها مذعورة تاركة رمسيس فى عدد قليل من اتباعه المخلصين ، ولو أن الجيش الحشى تابع انقضاؤه على الفارين لاستطاع أن يغنى الجيش المصرى وأن يقبض على رمسيس نفسه . . . ولكن جنود الحشيين شغلوا بنهب الثنائى والأسلاب التى راوها فى معسكر المصريين الفارين . . . وفى هذه الاثناء كانت فرقة بتاح قد وصات ، فاستطاعت أن تنقض على الحشيين المشغولين بالنهب وأن تبطش بهم . . . وهكذا استطاع رمسيس أن يعيد تنظيم صفوفه وأن يواصل معركته .

ثورة فلسطين :

على أن حرب قادش لم تضع نهاية للحروب فى آسيا فقد رأينا رمسيس يعود ثانية ليخمد ثورة فلسطين ، قامت بتحريض من الحشيين فى العام الثامن من حكمه . حيث راح يستولى على مدن فلسطين الساحلية والداخلية واحدة بعد أخرى . على أن موالى ملك خيتينا لم يلبث أن مات وخلفه أخوه خاتوسبل وكان من المشهود لهم بالحنكة السياسية .

واذ كانت مملكة أشور قد كشفت عن قوتها العسكرية واستولت تحت قيادة

شالمنصر على دولة ميتانى ، فقد أدرك أن بلاده ستكون محل هجوم من مملكة آشور فآثر أن يضع حدا للحرب مع مصر ، وأن يبرم معاهدة تحالف وصداقة مع ملكها .

وقد أبرمت المعاهدة بالفعل ، وكتبت على لوح من الفضة وقد انتهت الينا المعاهدة بكل موادها ونصوصها من مصديها المصرى والحيثى ، وهى تستعمل على تمانى عشرة مادة وهى أكثر ما تكون شيها بأى معاهدة حديثة تعقد بين دولتين « لحفظ السلام والأخاء واستتباب السكينة بين الطرفين المتعاقدين » .

وقد أمر رمسيس بنقش صورتين من هذه المعاهدة على جدر معبدين .

ولم يرد بهذه المعاهدة بيان حدود الملكتين الحيثية والمصرية بآسيا ، ويبدو أنها كانت محددة بمعاهدة سابقة .

وتعتبر هذه المعاهدة خاتمة الحروب بالفعل بين الدولتين وبدء عهد السلام . فلم تقع حروب بين الدولتين بعدها أبدا .

وقد عاش رمسيس بعدها ستا وأربعين سنة لم يقع فيها ما يعكر السلام . ولم تجسر دولة على الاعتداء على حقوق مصر .

وقد زار ملك الحيثيين مصر بعد أبرامها بثلاثة عشر عاما ليحضر الاحتفال بزواج ابنته الكبرى برمسيس ، وقد استدعى مقدم ملك الحيثيين الى مصر اقامة احنفال عظيم بالقصر الملكى سارت فى مقدمته كريمة ملك الحيثيين متبوعه بالهدايا الجريلة ثم جلالة خيتا سار نفسه تم ملك كرد واختلط يومئذ حرس الحيثيين بالجنود المصريين بعد ما كانوا الد أعداء .

ونساهد رسوم هذه الزيارة على مدخل معبد أبو سنبل .

وقد أغرم رمسيس بالفتاة الحيثية ورفع مكانتها حتى أصبحت تلقب بالزوجة الملكية العظيمة .

ولم يكن الأميره الحيثية هى وحدها زوجة رمسيس ، بل سبقتها زوجتان وهما (نفرتارى) التى تزوجها فى السنة الأولى من حكمه « وأيزيس نر » ، بالإضافة الى عدد لا نعرفه من النساء الأخريات اللواتى تزوجهن خلال حكمه الطويل الذى أربى على ٦٧ عاما ، واذ كان هذا شأن رمسيس فلا عجب اذا علمنا انه أنجب ثلاثة وتلاتين ولدا واثنتين وتلاتين بنتا - (برستيد) يضاعف هذا العدد - فلا عجب اذا كان رمسيس قد أعقب ذرية حافظت على اسمه بين أحفاده نحو أربعمئة سنة . حتى أصبح اسم رمسيس مرادفا لالقب الامارة وعلو الشأن ، وأن ظل الناس يتحدثون عن رمسيس فى حكاياتهم لآلف سنة تالية . ولبس هناك ما يصور الحفاة فى أيام رمسيس ، ومدى ما وصلت اليه البلاد من مجالى الحضارة ومظاهرها . وتتسابق العالم القديم ، واتساع نطاق التبادل التجارى والفنى والثقافى بين أرجائه ، من أن ننقل لك ما قاله بريستيد وصفا لها :

« ان مائدة فرعون حوت اندر الزينات وادوات الترف من قبرص وخيتا وآشور وبابل والنهرين . وكان في حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الاسلحة والسياط والسوارى ذات الرؤوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا . وقد حوت الاصطبلات الملكية جياذ الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الواردة من مملكة الحبشيين . وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا كما أضحي لمعبد ببيتى الأول بالعرابة سفن خاصة وهبها له رمسيس لجلب دخله من البلاد الشرقية . وما أكثر الاثاث الآسيوى الجميل الذى استملك عليه قصور اعيان مصر ، ويلاحظ أن هذه المصنوعات الآسيوية اُرت كثيرا فى الصناعة المصرية ماكتبها رونقا آسيويا . وكثر بالقطر العبيد الآسيويون من ساميين وغيرهم . وغصت البلاد بالجار الفينيقيين والأجانب فصار لهم حى مخصوص بمنف تعبد فيه معبوداتهم مثل بعل واشتارته . ومنذ ذلك الوقت أخذت تلك المعبودات تندمج تدريجيا ضمن المعبودات المصرية .

وعظم الاختلاط الدموى بين المصريين والآسيويين فى هذه العصور وقد كان فى بدايته أيام الاسرة الثامنة عشرة فأقترن أهالى تلك البلاد بعضهم ببعض وأصبح للعنصر الآسيوى مقام عظيم بالعصر الملكى والحكومة المصرية .

وقد ازدهر الأدب كما لم يزدهر من قبل ، وقد أشرنا الى قصيدة بناؤور والى جوار هذه القصة التاريخية ، عشرات من القصص الأخرى التى حكى لنا الكثير من أحداث التاريخ المصرى كقصة النزاع بين الهكسوس وملوكهم أبو فيس وإمبر طيبة الذى أنهى باجلاء الهكسوس عن مصر ، وقصة تحوتى القائد المصرى أيام بحونمس والذى فتح مدينة بانا عن طريق اخفاء الجند فى زلج .

ونمة قصص أخرى تناولت أمور الفلاحين ونعرف واحدة منها بقصة الأخوين ، نتلخص فى أن أخوين عاشا معا فى كوخ باحدى الحدائق وكان اكبرهما متزوجا وقابضا على زمام البيت أما الأصغر فكان عاشقا معه كآبن له ، فصبت نفس زوجة الكبير الى الصغير فرفض طلبها . وعندئذ أرادت أن تكيد له فوشت فى حقه عند أخيه فصمم على الاقتصاص من أخيه وأراد قتله خلسة فتحفز له وراء الباب ، وفى مساء اليوم عاد الأخ الأصغر بالبهايم ليدخلها اصطبلاتها فلحظت إحدى الحيوانات الامر وأسرت الى راعيها بما يضممر له أخوه الكبير ، فلما علم ذلك فر هاربا خوفا من القتل ... والناظر الى هذه القصة يرى فيها طرفا من قصة يوسف عليه السلام (١) .

وكثرت روايات الحب والغرام عند اهل هذا العصر كما عثر على كثير من القصائد الدينية والأغاني والدعوات ووجدت كذلك عدة خطابات لكتاب وموظفين ، وعدة تمرينات مدرسية قام بها تلاميذ المدارس وعدة صكوك ومستندات ومذكرات عن المعابد وحساباتها مما اهتم به الأثريون كثيرا .

(١) ذكرنا أن يوسف كان فى عهد الهكسوس ، وليس هناك ما يمنع أن تكون محنته قد اشتهرت واستفاضت فصاغ بعض الادباء هذه القصة مستلهما ايهاا .

وقد مات رمسيس الثانى بعد أن حكم سبعا وستين سنة وكان عمره عند وفاته ٩٣ سنة .

وتظهر موميائه علامات العز والبذخ وفريية التشبه بتمثال صباه لمحفوظ بدار المتحف بتورين .

وقد سعى عشرة من الفراعنة بعده انفسهم باسم رمسيس .

١٢٢٤ ق م :

تولى **مرنبتاح** ابن رمسيس الملك ، وقد اشتهر باسم منفتاح فى كتبنا العديدة . وهو لابن الثالث عشر ذلك أن طول عمر الملك قد جعل أولاده الكبار يموتون فى حياته ، وقد كان كهلا عندما ولى الملك ، فى وقت كانت الظروف والأحوال العامة تتطلب ملكا فى شرح الشباب ، ليعالج الأزمات التى خلفها حكم رمسيس الطويل ، فقد أفعده الهرم عن مواصلة النهضة العسكرية التى بدأها ، كما أرقق مالية البلاد ، هذه المنشآت العامة التى ملأ بها الوادى .

ولذلك فقد جوبه ابنه مرنبتاح بمجرد توليه الملك بانتشار الفوضى والمنازعات المستهرة على حدود المملكة المصرية ، وظهر عنصر جديد على مسرح التاريخ . وهو عنصر شعب جزر البحر الأبيض المتوسط ، الذى تحالف مع الليبيين ، وشرعوا فى الضغط على حدود الإمبراطورية المصرية من الغرب حتى وصلوا الى غرب الدلتا .

وبدا مرنبتاح بمواجهة الموقف على الحدود الشرقية فسافر على رأس حملة فى السنة الثالثة من حكمه ، وبطش بالتوار بطشه عنيفة ، ويبدو أن احدى البلاد فى جنوب فلسطين وهى « جازر » قد قاومته طويلا فام يلبث أن انتصر عليها وفتحها ، ففقد وجدناه يصف نفسه على الآثار بأنه حاصر « جازر » وقد سجل مرنبتاح نصره فى هذه المعركة وغيرها على حجر كبير فأشار الى حروبه فى فلسطين بقوله :

اما عقلون فأخذت وكذا جازر استولى عليها جلالته . وقد انعدم أثر مدبنة بانوام .

لقد أبدت اسرائيل واستؤصات ، وأصبح فلسطين أرملة (ضعيفة) لمصر .

وتعتبر هذه أول إشارة فى الآثار المصرية الى اسرائيل والراى الذى يتردد بين علماء التاريخ المصرى والآثار أن هذه الإشارة الى اسرائيل ترجع أن يكون مرنبتاح هو فرعون موسى الذى خرج بنو اسرائيل فى أيامه .

ويقول كتاب العهد القديم ، أن فرعون موسى قد غرق فى البحر أثناء مطاردته لاسرائيل ، ولذلك فقد وجد بعض المؤرخين فى العثور على جثة مرنبتاح ما يدحض هذه الرواية ولكن القرآن الكريم ذكر حقيقة « فالיום ننجيك ببدنك » وعندما انتهى مرنبتاح من اخماد الثورة فى فلسطين . . عاد ليواجه الليبيين الذين كان ساعدهم قد

اشتهد وامروا عليهم ملكا (مريبي) وأجبروا بدو التحنو (بدو لصحراء الغربية) على الانضمام اليهم كما تحالفوا مع سكان جزر البحر الأبيض (صقلية وسردينيا) .

وشرعوا يزحفون على مصر في العام الخامس من حكم مرنبتاح ولكنه تصدى لهم وهزمهم هزيمة منكرة وترك مربى جميع أفراد أسرته وأثاث منزله في أيدي المصريين الذين غنموه وتسجل الآثار ان عدد القتلى والأسرى قد ناهز عشرات الألوف .

وفد غمر مصر فرح شديد ، سجلوه في أنشودة وصلت إلينا مسجلة على الآثار .

« شمل مصر فرح عظيم وصعدت من بلاد مصر أصوات السرور وأصبح الكال يتحدثون بنصر مرنبتاح على التحنو قائلين : ما أحب هذا الملك المنتصر وما أعظمه بين المعبودات وما أسعد هذا القائد الحاكم ، اجلس مسرورا ولكنهم فروا بعيدا حينما أردت ، فلا خوف الآن في قلوب الخلق » .

وتمضى الأنشودة بعد ذلك تسجل انتصارات مرنبتاح على الملوك والامراء .

وعلى الرغم من ذلك . فقد كانت صفحة الامبراطورية المصرية التي جاوزت حدودها ، غازية فاتحة ، قد وصلت الى نهايتها وارتدت مصر مدافعة بعد ان كانت مهاجمة .

آثار مرنبتاح :

ولم تدع الحروب التي خاضها مرنبتاح ، فرصة له لافامة ما اعتاده سابقوه من منسآت ومعابد خاصة له . فسطا على آثار من سبقه ولم يعف من ذلك آثار ابسه نفسه . . ووصل الامر به الى هدم معبد امنحتب الثالث في السهل الغربى لطيبة وحطم جداره وكسر تماثيله ليستعمل من اجزائها أحجارا لبنائه الجديد .

ومن هذه الأحجار الجرانيتية التى اقتلعها وأعاد استعمالها شاهد جرانيتى يزيد طوله على عشرة أقدام مكتوب عليه مبانى العمارات التى شيدها أمنحتب الثالث . فأمر مرنبتاح بوضع هذا الحجر فى عمارته الجديدة على ان تدار نقوش امنحتب الى الحائط ، وينقش على الوجه الآخر أنشودة الانتصار على الليبيين التى مر ذكرها ، والتى تعتبر ذات قيمة عظيمة . . . لاحتوائها كما قدمنا على أول ذكر لاسرائيل .

وتوفى مرنبتاح بعد أن حكم عثر سنوات عام ١٢١٥ ق.م ودفن بطيبة باوادى الذى دفن فيه أجداده وقد عثر على جثته فيمن عثر على جثته من الفراعنة ، فظهر بذلك خطأ الراى القائل بغرقه بالبحر الأحمر على ما يقول بنو اسرائيل .

١٢١٤ ق.م - ١٢٠٠ ق.م :

قام حول ولاية العرش عقب موت مرنبتاح نزاع دام عدة سنوات حكم فيها

حكام ثلاثة دفنوا في وادي الملوك ، بلغ اثنان منهم العرش عن طريق غير مشروع فلما جاء الثالث محاسن اسميهما من اكثر ما تركا من آثار .

وأولهما هو « أمنميس » أو « آمون موسى » ويبدو أنه كان مفتسبا للحكم ولذلك فلم يدم حكمه طويلا ، وخرّب قبره في وادي الملوك تخريبا منظما .

ثم ظهر على مسرح النضال شخصية أخرى هي « مرنبتاح سينتاج » والمعروف أنه ذهب الى بلاد النوبة في السنة الأولى من حكمه لقمع ثورة هناك . . وعين مندوبا ساميا لبلاد النوبة ثم اقترن بالأميرة تاوسرت التي يغلب أنها من أصل فرعونى عربى ، وبهذا تمكن من الحكم ستة أعوام .

ثم خلفه حاكم ثالث هو سبتى الثانى ، وقد اعتبره القوم الشخص الوحيد صاحب الحق الشرعى فى العرش ويبدو أنه كان قويا ناجحا نوعا ما فى بادىء الأمر فقد شيد معبدا صغيرا بالكرنك وآخر بالأشمونين (هرمبوليس) .

ولكن أمراء البلاد وحكامها بدأوا ينازعونه السلطان ، ويظهرون الاستقلال فى أعمالهم وإدارتهم لاقليمهم ولما لم يكن سبتى الثانى قوى الشكيمة فقد سقط من الحكم .

ولكن مسقطيه عجزوا عن أن يستولوا على الحكم ، فشبت فى البلاد حرب أهلية جزأت القطر ونقسم تحت تأثيرها الى عدة أجزاء مستقلة فعم البؤس وسوء النظام سائر أنحاء المملكة .

وقد سجلت لنا الآثار الباقية وصفا دقيقا لهذه الفترة فى تاريخ مصر :

« لقد قعد كل انسان مكانه ، اذ لم يبق هناك حاكم يرد الحق الى نصابه عدة سنوات ، وسقطت مصر فى يد أمرائها وحكام مدنها - وصار لجار يقتل جاره قويا كان أو ضعيفا » (برستيد ص ٣٢٩) وتسجل الآثار اسم قائد سورى بظن أنه اغتصب الملك فترة من الزمان وساس القطر بالقسوة والجبروت . وقد ورد ذكره على لسان رمسيس الثالث اذ يقول :

« ثم جاء بعد ذلك عصر خلو من البنين وظهر بين الناس سورى يقال له «أرسو» استطاع أن يضع نفسه فى مكان الرئاسة وأجبر البلاد كلها على تأدية الخراج اليه واستعان بقبيلته على نهب أرزاق الناس وكان بنظر هو وشيعته الى الأرباب كما ينظرون الى الناس ، فلم يفكروا فى شىء من خير أو أضحية يتقربون بها الى أرباب الوادى » .

١٢٠٠ ق.م .

كان من الطبيعى أن يخرج المجتمع من إبنائه من يرد اليه الأمن والنظام والوحدة واحترام الدين وشعائره ، فظهر حاكم يقال له « ست نخت » انتهت بظهوره فترة الظلام من تاريخ هذا العصر وهى فترة التنازع على العرش يرجح أنه من سلالة

سيتى الاول ورمسيس الثانى ، فنجح فى الاستيلاء على العرش الفرعونى ، واعادة الوحدة الى البلاد فى ظله .

ولم يدم حكم ست نخت طويلا ، فالآثار لا تتحدث الا عن السنة الاولى من حكمه ويبدو انه اشرك معه فى الحكم ابنه الذى أطلق عليه اسم رمسيس تيمنا باسم الفرعون العظيم وقد اعتبره مانبتون « رمسيس الثالث » مؤسس الأسرة العشرين ، ولكن من الحق أن ينسب تأسيس الأسرة الى أبيه ، فهو لأصل الذى انحدر منه رمسيس وهو الذى وضع حدا للقوضى التى سادت البلاد ، وسلمها لابنه من بعده موحدة ، خالية من الغاصبين والمثائرين من الداخل والمعتدين من الخارج .

الأسرة العشرون

١٢٠٠ ق م .:

بدا حكم الأسرة العشرين في رأي مانيتون الذي استمر حكمها مدة أربعت على قرن من الزمان . . حكم فيها **رمسيس الثالث** وحده ٣٢ عاما تعتبر آخر عهد مصر في هذه الفترة من تاريخها من الفراعنة العظام : حيث تشير مخلفات ملكه فيما بقي له من عمائر كبرى ، الى درجة عظيمة من الأبهة والعز واتساع السلطان ، وما أفاء على البلاد من لأمن والطمانينة والرخاء .

. على أن ذلك لم يتحقق الا بعد معارك ضارية قادها اول ما قادها ضد الليبيين وحلفائهم من شعوب البحر الأبيض الذين لم تكن هزيمة مرئياتهم صادة لهم عن معاودة الهجوم مرة ثانية وثالثة ، في السنين الخامسة والثالثة عشرة من حكم رمسيس الثالث وقد تصدى لهم في كلتا الغزوتين وهزمهم هزيمة منكرة وساق منهم عشرات الألوف من الأسرى ، الذين فكر في أن يتخذ منهم جيشا تحت أمره الضباط المصريين ، وسرى فيما بعد أن هذه الجيوش المرتزقة سوف تستولى على العرش .

وخاض رمسيس الثالث ما يمكن اعتباره أول معركة بحرية فاصلة في تاريخ مصر القديمة اذ أنقذتها من الوقوع بين هذه الشعوب الجديدة التي عرفت في هذه الفترة بشعوب البحر الأبيض والذين استطاعوا أن يستولوا على مدن الحيثيين شمالي سوريا ، وأن يستولوا على ساحل فينيقيا وجزيرة قبرص ثم طمعوا بعد ذلك في الاستيلاء على مصر .

وقد تصدى لهم رمسيس الثالث في البر والبحر ، فهزمهم في البر هزيمة منكرة ، كما تصدى لهم بأسطوله من البحر ، فأغرق وأسر كل وحدات العدو البحرية ، كما قتل العدد الأكبر من جنود الأعداء وأسر الباقي حيا منهم . . وقد سجلت لنا جدران معبد مدينة « حابو » هذه المعركة البحرية الواسعة النطاق .

وكانت هذه الانتصارات المدوية في دنيا الحرب كفيلا أن تجعل « رمسيس » يهنا بالحكم في جلال ومهابة بقية سني حياته ، وأن يستأنف عملية البناء والانشاء التي كانت مظهر عظمة القوم فأنشأ معبد مدينة حابو الذي يعتبر آخر المباني الشامخة التي شيدها فراعنة مصر الكبار من حيث الموقع والأهمية . وقد بناه ليكون معبدا

الأمون رب طيبة ، ولكى يكون معبده الجنائزى ، وقد حاول أن يبنى فى عمارته معبد
الرسميوم ولم يكن معبد مدينة « حابو » هو البناء الوحيد الذى أقامه بل أنه أنشأ
معبدا صغيرا للأمون فى الكرنك ، ويعتبر رغم صغره أكمل بناء وصل إلينا فى الوقت
الحاضر ، وبنى الكثير من الهياكل الصغيرة فى منف وعين شمس وباقى جهات القطر
وقد حدثنا رمسيس الثالث عن حى جميل شيده للأمون بالدلتا وصف بأ
كان محلى بالحدائق العظيمة والمماشى الكثيرة وأنواع النخيل كافة غير الطريق المقدس
الذى أنشأه وحلاه بالأزهار من جهات القطر .

ومن جديد بعث بالأسطول الى بلاد الصومال لاحتضار البخور والعطور الى معا
الوادي - وقد عادت هذه الأساطيل وعليها أمراء كثيرون من البلاد جاءوا يقدمو
فروض الطاعة لفرعون .

وتمتاز السنوات العشرون من حياة رمسيس الثالث بتوطيد أركان السلام فتر
يقول لنا وهو يفتخر بالسلام :

« لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنب
أو غيره . لقد جعلت مشاتى ورجال عجلاى الحربية يعيشون بمنازلهم مدة حكمى
وصار جنودى السردينيون والمكحكيون يسكنون مدنها نائمين على ظهورهم بلا وجل
ولم يعد يبدو عدو من بلاد كوش ومن سوريا ، ولذلك كانت أقواس وأسلحة هـ
القوات مكدسة فى مخازنهم . أما هم فكانوا مزودين بالمأكولات والمشروبات وقلوبهم
طافحة بالسرور ، وكانت زوجاتهم وأولادهم عائشين معهم فلم ينظروا خلفهم لا
قلوبهم كانت مطمئنة ، لأننى كنت أحميهم وأدافع عن أعضائهم . ولقد أحببت سك
الأراضى كلها ، أجنب ووطنيين ذكورا وإناثا . لقد فرجت هم البائس وأرجعت
الأمل والحياة ونجيتها من ظلمة القوى . لذلك صار كل انسان آمنا ببلده ، و
شخص فى المحاكم أنابته حقه كاملا . ولقد أصلحت الأراضى التالفة وساد الانس آن
حكمى » (برستيد ٣٢٧) .

ولدينا من أيام رمسيس الثالث أكبر بزدية من التاريخ المصرى القديم يبلغ طو
١٣٠ قدما وهى تحوى مائة وتسعة عشر نهرا من الكتابة طول كل نهر اثنتا عش
بوصة تقريبا ويعرف الدرج باسم قرطاس هريس وهو موجود بالمتحف البريطانى
وقد حوى هذا الدرج تفاصيل الهيئات والأوقاف التى أوقفها رمسيس الثالث ع
معابد آمون وغيره من الآلهة . . ولقد أصبح باستطاعتنا أن نأخذ صورة عن عدد سك
مصر وأراضبها الزراعية فى ذلك الوقت . . ومدى ما أصبح كهنة آمون يسيطرون
عليه من أموال وبالتالى من نفوذ فقد كان يقوم على خدمة المعابد حوالى مائة ألف
وسبعة آلاف عبد ، أى ما يناهز ١/٥ أهالى القطر المصرى . أما الأراض
الموقوفة على المعابد فكانت حوالى ٢/٤ مليون فدان أو ١/٧ الأراضى المصرية المزرو
وكان عدد الأغنام والبهائم الموقوفة على المعابد يبلغ ١/٢ مليون وعدد السفن ٨٨ ما
صغيرة وكبيرة والصانع ٥٣ مصنعا تستهلك المواد الخام الواردة الى المعابد لتعد
منها المصنوعات .

اما المدن المحبوسة على معابد مصر فكانت تبلغ ١٦٩ مدينة في سوريا وكوش ومصر .

فاذا علمنا أن تعداد مصر في ذلك الوقت كان حوالى ٥ او ٦ ملايين نسمة والأرض المزروعة لا تتجاوز عشره آلاف ميل مربع استطعنا أن ندرك كيف ان الجزء الاكبر من تروة البلاد قد آل الى المعابد وأصبح تحت سلطان الكهنة . . فلا عجب اذا كانوا سيطمحوون بعد قليل الى الملك والسيادة ، ويسهمون بذلك فى تفتيت الوحدة المصرية .

فقد كان من اثر نفوذهم ، أن حلول رمسيس الثالث ان يتخذ جيوشه وجنوده من الاجانب المرتزقة ويقلل اعماده على الوطنيين الذين كانوا يخضعون لنفوذ الكهنة بالدرجة الاولى .

وتمة عنصر نالت تتسم به الفترة الاخيرة من حياة رمسيس الثالث ، وذلك هو اغراقه فى الشهوات والملذات الجنسية فقد كان قصره يفص بالعشرات والمئات من الزوجات والجوارى حيث تمتلئ الاثار تحيط به حشود من النسوة لا اسماء لهن .

ويبدو أن هذه العوامل كلها ، من ازدياد تطلع كهنة آمون الى الملك ، ووجود الجنود والنوار المرتزقة . . وكثرة النساء المتطلعات الى حملك اولادهم . . قد انتهى الى قيام مؤامرة فى البلاط الملكى على حياة رمسيس الثالث . . . حيث يسجل التاريخ اكتشاف مؤامرة دبرتها احدى حريم الملك لقتل رمسيس الثالث بواسطة السحر ولتجعل ابنها « نبنا رع » ملكا بدلا من ابن ضرنها الذى كان معيناً وليا للعهد وقتئذ .

ويسجل لنا التاريخ موقفا رائعا من هذه المواقف النى تحبها الشعوب من ملوكها وقادتها ، وهو أن يتمسكوا بالعدالة وحكم القانون ، فنراه يقول لهؤلاء القضاة الذين عينهم للتحقيق فى هذه المؤامرة والكشف عن المتآمرين والحكم عليهم :

« أنا آمر القضاة قلألا أما من خصوص الكلام الذى يدور على السنة الناس فلا عام لى به ، فاذهبوا وافحصوا الأمر ، فاذا حققتهم وتبينتم المتهمين فأمرهم أن ينتحروا بأيديهم بدون اخطارى . ووقعوا العقاب على كل من يستحق بدون استشارتى أيضا ، احترسوا من عقاب البرىء . ها أنا ذا اكرر لكم أن كل شخص ارتكب او اشترك فى هذه الجناية يجب أن ينال نصيبه من العقاب . أنا أمين ومحروس الى الابد ، لانى ضمن الملوك العادلين امام آمون رع ملك العبودات امام ازوريس حاكم الازلية » . ولدينا سجلات مفصلة لتحقيق هذه الجريمة الكبرى وملابساتها وفى هذا الوقت حل ميعاد الاحتفال بمرور اثنين وثلاثين عاما على جلوس رمسيس الثالث ، فاقامت الزينات والافراح عشرين يوما جريا على عادة جلالته ، ومات بعد ذلك بعشرين عاما حوالى عام ١١٦٧ ق . م . قبل أن يعدم المتهمون فى مؤامرة اغتياله .

ويرى بعض المؤرخين (أحمد بدوى) أن وصية الملك السابقة الذكر للقضاة ، تمت وهو على فراش الموت أثر أصابته إصابة قاتلة نتيجة للمؤامرة . ويقول بعض آخر أنها من كتابة ابنه رمسيس الرابع الذى خلفه وأنه نقل هذه الوصية عن لسان أبيه الى القضاة .

وشيعت جنازة رمسيس الثالث فى طيبة واودع فى قبره فى وادى الملوك .

١١٦٧ ق م . :

تربع **رمسيس الرابع** على عرش والده رمسيس الثالث ، وكانت عوامل الضعف والانحلال التى غشيت مصر فى أواخر عهد أبيه ، قد ازدادت قوة واستفحالا فلم يكن لرمسيس الرابع من عمل سوى ارضاء المعبودات أو بالأحرى ارضاء كهنة آمون ، بل أن هذا السجل الكبير الذى أشرنا اليه فيما سبق باسم بردية هاريس والذى حوى أوقاف المعابد أيام رمسيس الثالث هو من كتابة رمسيس الرابع أراد أن يتقرب به الى الآلهة بتعداد أعمال أبيه .

ولا يحفظ له التاريخ الا انه توجه شخصيا فى العام لثانى من حكمه الى محاجر وادى الحمامات مع بعثة كبيرة للبحث عن أحجار لتشييد معبد له أرسل تجريده أخرى بعد ذلك بسنوات للفرض نفسه وكانت التجريدة مؤلفة من تسعة آلاف ، وقد هُلك منها عدد كبير ، وكل ما بقى من آثار رمسيس الرابع هو امتداد الحجرة الخلفية لمعبد خونسو بطيبة وكذلك القاعات الصغيرة ذات العمدة التى بدأ والده بناءها قبل ذلك بمدة يسيرة . ولم يدم حكمه أكثر من سنتين سنوات .

١١٦٦ ق م . :

تولى سبعة يحملون اسم رمسيس من الخامس حتى الثانى عشر ، وتولى **رمسيس الخامس** بعد **رمسيس الرابع** (على الأرجح) وتوفى بعد حكم قصير فتبعه **رمسيس السادس** الذى يغلب على الظن انه حفيد **رمسيس الثالث** من ابن آخر وقد اغتصب الملك من **رمسيس الخامس** ، ولكنه بدوره لم يعش طويلا فتبعه **رمسيس سابع** و**ثامن** ولسنا نعلم من أمرهم شيئا الا أنهم حفرُوا قبورا لهم بوادى الملوك بطيبة حتى جاء **رمسيس التاسع** ، بدأ نجمه المنحرب أو أمنوفيس رئيس كهنة آمون يرتفع عاليا ، بحيث راح ينفق على اصلاح آثار الفراعنة ، مما زاد فى نفوذه ، وتسجل لنا الآثار **رمسيس التاسع** وهو يقدم لأمنوفيس رئيس الكهنة فى حفل ملكى رائع هدايا واعطيات . . وراح يخاطبه بحدث لا يصدر الا من خادم الى سيده . . وقد رسم رئيس الكهنة صورته على جدران الكرنك بحجم كبير كملك الذى ينعم عليه بالهدايا وهو أول رسم من نوعه فى تاريخ مصر فقد جرت العادة على أن ترسم صور من عدا الملك أصغر حجما .

وقد بلغ ضعف الحكومة في هذه الفترة الى حد أن تجرأ اللصوص فراحوا يسرقون المقابر الملكية ، وقد قبض على اللصوص وحوكموا ولكن يتضح من المحاكمة أن المحققين لم يكونوا نزيهين ، مما زاد في جراءة اللصوص فأنتهبوا قبرى سيتى الأول ورمسيس الثانى . بحيث لم نمض عشرون سنة حتى كانت جميع المقابر الملكية بطيبة ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة الى آخر الأسرة العشرين منهوبة ولم يعثر على جثة واحدة نجت من هذه الجرائم الا جثة امنحتب الثانى التى وجدت في تابوتها رغم نهب قبرها .

ولم تصل الينا معلومات عن تاريخ رمسيس العاشر سوى ما تعلق بسرقة المقابر سالفة الذكر . أما رمسيس الحادى عشر فنجهل اخباره كلية .

ولما تولى رمسيس الثانى عشر الملك هوى العرش الفرعونى وحصل فى البلاد انقلاب حكومى اذ استقل بالوجه البحرى أحد أعيان تانىس المدعو (نسوبا نبد) المعروف عند اليونانيين باسم بسمنديس . فلم يستطع رمسيس الثانى عشر أن يقضى على نورته ، فانسحب الى طيبة مكثفيا بالاحتفاظ بالوجه القبلى ، واذا كان نفوذ الكهنة بطيبة قويا ، فقد أصبح الحكم مشتركا بين فرعون ورئيس كهنته ، فتعاونوا على توطيد سلطانهما على الوجه القبلى وبلاد النوبة .

ولدينا قصة من هذا العهد لمن يسمى وينامون وهى تقطع بمدى ما وصل اليه النفوذ المصرى من اضمحلال فى فينيقيا وفى قبرص ، حيث رفضوا أن يزودوه بما جاء فى طلبه من خشب لبنان لصنع سفينة آمون بناء على طلب حريحور رئيس كهنة آمون الا اذا دفع الثمن ، ورفضوا أن يعترفوا بأى ولاء لفرعون مصر ، وقد تعرض وينامون فى سودته الى النهب والسلب أكثر من مرة . كما تظهر القصة انقسام مصر فى هذه الفترة الى دولتين .

كما يوجد لدينا على باب خونسو ما يشير الى انتهاء حكم رمسيس الحادى عشر باستيلاء حريحور رئيس كهنة آمون على الحكم وبدئه بذلك أسرة جديدة . فبعد أن كان حريحور رئيس كهنة آمون هو قائد جيوش الوجه القبلى والبحرى . وأنه مدبر مخازن غلال الوجه القبلى والبحرى - وواليا على كوش ورئيسا الخزانة ومشرفا على عمارات المعابدات بحيث لم يبق عليه بعد أن وضع يده على كل الامور الادارية والدينية الا أن يلبس تاج مصر ، وهو ما حدث بالفعل فى احدى الحفلات الدينية اعترف المعبود خونسو بتولية حريحور ملكا على مصر ثم ايده آمون فى ذلك فأصبح هذا القرار أمرا واقعا .

الأسرة الحادية والعشرون

١٠٩٠ - ٩٤٥ ق م :

في هذا العصر انقسمت البلاد الى قسمين يحكم احدهما (طيبة) كهنة آمون العظام باسم الاله آمون وقد أسسها الملك حريحور الذى كان رئيسا لكهنة آمون وضم اليه وظيفة قائد الجنود ورئيس المالية ونائب فرعون بالنوبة فسيطر على عواطف الشعب الدينية وكان رجلا طموحا عصاميا ، وقد قام بالقضاء على الفوضى التى انتشرت لضعف الرعامسة ، وقضى على الأجانب الذين كانوا يجتاحون البلاد وتولى الحكم فى الوجه القبلى تاركا الوجه البحرى للملك سمندس الذى أنشأ أسرة مملكة فى نانيس وجعلها عاصمة مملكه . وهكذا عادت مصر سيرتها الاولى من التقسيم قبل عهد مينا فصارت مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

وقد حكم فى طيبة « حريحور » لمدة خمس سنوات ، وحكم الكهنة من خلفائه باسم آمون الذى أصبح الحاكم المباشر لحكم مصر عن طريق الوحي الذى كان الكهنة يدعون انه يوحى من خلال تماثيله التى تحرك رأسها بإشارات مختلفة .

ولا عجب وقد انقسمت البلاد أن تعمها الفوضى ، وان تفقد سلطانها على البلاد الأخرى .

وكان من أهم أعمال أسرة الكهنة فى طيبة جمع مومياوات ملوك الأسرة الحديثة خوفا من حاله النهب والسلب التى عمت المقابر الملكية ، فأودعوها فى مخبأ لا يعرفه اللصوص ، بعد ان جددوا أكفانها وكتبوا ما فعلوه على الأكفان . وقد ظلت هذه المومياوات فى مخبئها ، حتى كشف عنها فى الدير البحرى .

وكان لهذا الكشف أعظم أثر فى المساعدة على ترتيب الملوك وتاريخهم من عهد الدولة الحديثة حتى الأسرة الواحدة والعشرين .

أما أسرة سمندس فى الوجه البحرى فقد أخذت تتصاهر مع أسرة الكهنة فى طيبة واصبح الاتصال بينهم وطيدا بطريق المصاهرة .

واستمرت الأمور هكذا . حتى زاد تعداد الجنود المرتزقة الليبية ممن استودطنوا مصر وأخذوا يعظم شأنهم شيئا فشيئا ، حتى قامت حروب داخلية انتهت بزوال الأسرة الحادية والعشرين مما سهل تسلم الحكم على الأسرة الليبية الاصل ، التى كانت تسكن اهناس .

وبالنسبة للأسرة الواحدة والعشرين جرى تطور فى فن التحنيط ليكمل مظهر الموماء يفيض بالحيوية وحسن الشكل وقد دفعهم الى ذلك ما راوه فى المومياوات القديمة من منظر مخيب للامال (راجع مصر القديمة الجزء التاسع) .

الأسرة الثانية والعشرون

٩٤٥ ق م ٠ :

تسعة ملوك وخمسة أو أكثر على التعاقب من سلالة الشواش رؤساء الليبيين منهم شيشنق الأول - أسركن الأول - تاكوت الأول أسركون الثاني وآخرون يحملون أسماء مماثلة ليلية .

مركز الحكومة بنانيس وبوباسطة - سيطرة الأسرة على طيبة ٨٢٠ ق م ٠ - ثم انقسمت المملكة بعد ذلك ثانية .

أقامت الجيوش الليبية المرتزقة طويلا في مصر نتيجة استخدامهم في الجيش . وقد استقر رؤساؤهم في المدن الكبرى وأحرزوا كثيرا من الثروة والقوة ، بينما كان الحكام المحليون يضعفون بالتدريج أكثر وأكثر .

وحكام الأسرة الثانية والعشرين كما يتضح من أسمائهم يمتزجون إلى الجيوش الليبية .

٩٥٠ - ٩٢٩ ق م ٠ :

ويعتبر شيشنق الأول هو مؤسس الأسرة ٩٤٥ ق م ويقول مانيتون : « عاصمة ملكهم هي بوباسطة بينما يتحدث عنهم مؤرخو اليونان كقراعنة نانيس - وهو الأرجح » . قد جعل مقره مدينة بوباسطة في الدلتا ، وزوج ابنه إلى ابنة آخر ملوك الأسرة النائية - كما بسط نفوذه على طيبة بأن عين ابنه الآخر كاهنا أعظم لآمون .

وبينما تظهر الآثار التاريخية أن سليمان قد تعامل مع ملوك الأسرة الحادية والعشرين على قدم المساواة باعتباره ندا .. فقد أعاد شيشنق سيادة مصر على فلسطين .

ويبدو أن حملته التي أرسلها في العام الخامس من حكم راحوبيم (ابن سليمان) قد أخضعت دولتي إسرائيل ويهوذا كما يستدل على ذلك من قائمة المدن التي ساد عليها المنقوشة على جدران الكرنك . وكان الأمر في حاجة إلى يد قوية لقمع مختلف الرؤساء الليبيين فقد بدأت الانقسامات تظهر في أنحاء المملكة .

استمرت الأسرة الثانية والعشرون عدة أجيال ، ولكن كان هناك أكثر من ملك يتنافس على السلطة ، ويبدو أن ملوك الأسرة الثالثة والعشرين حكموا في ذات الوقت الذى كان ملوك الأسرة الثانية والعشرين يحكمون .

وكان هؤلاء الملوك لا يفرضون سلطانهم على أمراء الاقاليم وحكامها الذين كانوا ينفقون موارد الدولة على المنزعات والحروب فيما بينهم .

وكان شيشنق حاكما قويا شجاعا ، لم يكذب يستتب له أمر الملك حتى نهض في قوة وعزم ، لاعادة وحدة البلاد ، واسترجاع مجدها وعزها ونشر الرفاهية بين أرجائها .

ولكن كان يحول دون ذلك . . أن باقى الرؤساء الليبيين ممن يسمون (الشواش) بدأوا بدورهم يطمحون الى الملك كما فعل « شيشنق » الذى حكم ٢١ سنة وقد عين ابنه « أوبوت » كاهنا اكبر على طيبة مما احق الكهنة وجعلهم يلجأون الى نباتا .

وراح ييسط نفوذه على فلسطين ، وبعد ان كانت سيادة ملك مصر اسمية بحتة حولها الى سيادة فعلية ، حتى أن يرستيد يرى أن سليمان كان واليا تحت النفوذ المصرى ، وأنه تزوج بابنة فرعون ، فأوسع الاقاليم تحت اشرافه . ٩٢٦ ق م .

ولما انقسمت مملكة اليهود بعد موت سليمان أيام رحبعام قرر « شيشنق » أن يضم فلسطين تحت سلطانه فتوجه في العمام الخامس لحكم رحبعام الى فلسطين وغزاها .

وكانت الجيوش المصرية قد مضى عليها أكثر من ٢٧٠ سنة لم تطل هذه البقاع . . على أن آخر ما وصلت اليه جيوش شيشنق المصرية شاطئ الجليل (جنوب فلسطين) (١) وعاد شيشنق بعد غزواته بغنائم عظيمة فجدد عهد فراعنة مصر الاقدمين ونقش على جدران الكرنك بطيبة الجزية التى تقاضاها من فلسطين والنوبة بالقرب من نقوش حكام مصر العظام .

وعين شيشنق حاكما ليبيا على الواحة الكبرى وعهد الى حاكم آخر في الاشراف على غرب الوجه البحرى وطرق مواصلاته مع الواحات .

وشرع شيشنق يشيد العمارات الشامخة كما فعل فراعنة مصر من قبله ،

(١) جاء في كتاب الملوك الاول الاصحاح ١٤ - الآية ٢٥ : وفي السنة الخامسة للملك رحبعام أن شيشنق ملك مصر صعد الى اورشليم واخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك واخذ كل شئ واخذ جميع اتراس الذهب التى عملها سليمان .

وفي أخبار الايام الثانى الاصحاح ١٢ سطر ٢ - ٤ .

وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشنق ملك مصر على اورشليم لانهم خانوا الرب بالفي ومائتى مركبة وستين الف فارس ، ولم يكن عدوا للشعب الذى جاء معه من مصر . واخذ المدن المحصنة التى يهودا .

٢
فاختط تل بسطة مقره ووسع الكرنك بطيبة بواسطة ابنه (اوبوت) الذى عينه رئيسا لكهنة آمون بطيبة .. فانشأ اكبر صروح الكرنك مساحة وحجما - اذ يبلغ طول الحوش ٣١٤ قدما وعرضه ٣٦٩ قدما اما الصرح العام فى وجه هذا الحوش فيبلغ سمكه ٣٦ قدما وارتفاعه ١٥٠ قدما وتبلغ طول واجهته ٣٥٧ قدما .. وهو اكبر صرح وأوسع فناء فى معابد مصر كلها .

وقد اراد شيشنق ان يحتفل ببناء هذا الصرح بمناسبة مرور ثلاثين سنة على حكمه ولكننا لا نعرف اذا كان حقق ذلك أو لا .

وقد خلف لنا شيشنق فيما خلف من آثار قائمة بأسماء البلاد التى فتحها والتى يتجاوز عددها ١٥٠ بلدا ، ولوحة بالكرنك دون بها تقريرا هاما عن حملته فى آسيا كما عثرنا له على لوحة فى واحة الداخلة ، تعتبر وثيقة فذة من تاريخ مصر فى هذه الفترة تبحث الأحوال الطبيعية والإدارية والطوبوغرافية لهذا لاقليم كما عثرنا على لوحة أخرى وجدت فى اهناسيا المدينة وهى تتضمن الضرائب التصاعدية وكيفية توزيعها وذلك الى عديد من الآثار التى تراها فى كتب التاريخ بنصوصها وشرحها المستفيضة (مصر القديمة الجزء التاسع) .

٩٢٤ ق م :

مات شيشنق الاول بعد ان حكم ٢٢ سنة وتولى بعده ابنه **اسركون الاول** زوج ابنة الملك بسيب خنو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين ولذلك فقد كان اعتلاؤه العرش طبقا للقوانين والعادات المرعية وكانت المملكة التى انتقلت اليه عن ابيه ، وبطيدة الأركان واسعة غنية حتى استطاع ان يتبرع فى العام الثالث من حكمه بجزيرة على سنة فراعنة مصر بما يزيد على ٤٨٧ ألف رطل من الفضة و٩٣ ألف رطل من الذهب ، ولعل هذا يكشف عن مدى ما كانت عليه البلاد حينئذ من الاستقرار والوفرة . وحكم ٣٦ سنة ثم مات .

٨٨٨ ق م :

مات اوسركون بتل بسطة فورثه فى الملك ابنه « **تاكلوت الاول** » فدخل فى نزاع مع اخيه رئيس الكهنة فى طيبة مما ترتب عليه انتشار الفوضى فى البلاد ثم توفى بعد قليل فتبعه « **أسركون الثانى** » .

٨٦٥ ق م :

ويقول مانيتون أنه حكم ١٥ سنة ولكننا وجدنا بعض الآثار من عهده تشير الى السنة السادسة والثلاثين من حكمه وحفظ لنا التاريخ اسماى زوجتيه

« ماعت كارع » والتي أنجبت له ابنه شيشنق الذى أصبح رئيسا للجيش والكاهن الاول لامون ، أما زوجته الثانية « تلشد خنشو » فهي التى أنجبت تاكيلوت الذى تولى الملك بعد أبيه الى عدد آخر من الأبناء ولوا منصب رئيس الكهنة بعد شيشنق ويظهر من الآثار الباقية من عهده أن حالة البلاد عادت الى الاضطراب وعاد نفوذ الكهنة وسلطانهم الى الظهور فى طيبة كما بدأ رؤساء الليبيين (الشواش) يستبدون فى مقاطعاتهم بسير الأمور ويتضح ذلك من النقوش التى وجدت بتنيس حيث يدعو الملك قائلا : « اجعل أولادى فى الوظائف التى عينتهم بها . ولا تجعل قلب أخ يكبر ويعظم على قلب أخيه » .

وفد اشرك أوسركون الثانى ابنه شيشنق الثانى فى الحكم ولكنه لم يعش طويلا ، وقد اكتشفت مقبرته مع مقبرة بسوسنس الاول - وقد وجدت موميأه سليمة والوجه مغطى بوجه مستعار من الذهب غاية فى الروعة والبهاء ووجدت معه خواتم وقلائد وأساور . فاشرك معه ابنه الآخر تاكلوت لمدة سبع سنوات ومات الملك أوسركون الثانى بعد أن حكم ٢٥ سنة ويقول مانيتون انه حكم ١٣ سنة ولكنا عثرنا على آثار تتحدث عن السنة الخامسة والعشرين من حكمه .

٨٣٥ ق م :

وانفرد تاكلوت الثانى بحكم البلاد بعد وفاة أبيه وعين ابنه أوسركون كاهنا فى طيبة .

واخذ شأن الأسرة الثانية والعشرين يضمحل . . . وتبدو أحوال مصر فى هذه الفترة متوشة مضطربة . . . فنرى أسماء ثلاثة ملوك ليبية من هذه الأسرة وقد انقسمت البلاد فى عهدهم وسعى كل امير للاستقلال باقليمه .

٨١٨ ق م :

وتولى « شيشنق الثالث » وقد وجدنا على الآثار ما يدل على السنة التاسعة والثلاثين من حكمه وان كان مانيتون قد جعل حكم الثلاثة الملوك الذين خلفوا تاكيلوت الثانى ٤١ سنة والمؤرخون يرون أنه حكم ٢٥ سنة وآخر سنة عرفت على الآثار هي السنة السابعة والثلاثون وقد عاصر فيما يبدو شيشنق الرابع آخر ملوك هذه الأسرة الثانية والعشرين حكمى فرعونين من الأسرة الثالثة والعشرين وهما أوسركون وتاكيلوت الثالث كما تدل على ذلك الآثار التى كشفت فى الكرنك .

وقد عثر له على بقايا معبد فى تانيس ، ويعتبر بعض النقوش على صخور هذا المعبد مما يمكن مقارنته بأحسن نقوش فى أزهى عصور التاريخ المصرى من حيث دقة الصنع وجمال النقش .

الأسرة الثالثة والعشرون

٨٤٥ ق م :

وتقام الأسرة الثالثة والعشرون التي اعتبر مانيتون أن مؤسسها هو « بدبست » الذي انتزع الحكم من ملوك تل بسطة ويقول مانيتون أن هذه الأسرة حكمت من تانيس ولكن اسم بدبست يشير على ما يقول المؤرخون إلى تل بسطة - وقد ينسب بدبست سطرانه على طيبة وظل حاكما للبلاد مدة ٢٧ سنة وهناك إشارات تدل على أن ملكا يدعى « أوبوت » قد خلفه لمدة قصيرة جدا .

وتولى الملك بعد بدبست الملك أوسركون الثالث وذكر مانيتون أنه حكم تسع سنوات ورواية أخرى عنه تقول أنه حكم سبع سنوات ولدينا إشارة في الآثار تدل على السنة السادسة من حكمه .

وقد حدث في عهده فيضان في معبد الأقصر فأصبحت كل معابد طيبة كالمستنقعات وقد وجدت نقوش تدل على أنه جدد وأصلح بعض معابد الأسرة الثامنة عشرة .

وساءت الأحوال في داخلية القطر وانقسمت البلاد إلى عدة أمارات مستقلة من الوجه البحري - شمالا إلى الأشمونيين جنوبا . . . وقد عرفنا من أسماء هذه الفترة ثمانية عشر أميرا .

٧٣٤ ق م :

اقتربت جنود آشور أنجلات بليسر الثالث من حدود مصر بعد أن غزت فلسطين وهددت حدود مصر وكان انقسام الأمراء في مصر حائلا دون تدبير هذا الخطر وعمل شيء لدرئه .

الأسرة الرابعة والعشرون

٧٢١ ق.م :

كان المصريون يحكمون النوبة على ما رأينا مدة تزيد على ١٨٠٠ سنة . أما القسم بين الشلال الأول والثاني فكان تحت الإدارة المصرية المباشرة مدة تزيد على ألف سنة .

ومنذ الأسرة الحادية والعشرين أصبح رؤساء الكهنة في طيبة هم حكام النوبة ، فلما كان الفراعنة يضغطون على الكهنة أو يعزلونهم ، كانوا يفرون الى بلاد النوبة ، ويقيمون بها ، وسرعان ما أصبحت بلاد النوبة صورة طبق الأصل من امارة آمون الطبيعية ، وفي القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت في أفق التاريخ بالنوبة مملكة كاملة عاصمتها مدينة نباتا الواقعة أسفل الشلال الرابع (١) . وكان آمون معبود هذه المملكة الرسم ، شديد التدخل في شئون حكومتها بدرجة فاقت تدخله في مصر فكان يعزل الملوك ويولى غيرهم .

وأول من عرف من ملوك هذه المملكة هو كاشتا ولا يعرف شيء عن حكمه بولا مدى نفوذه شمالا ، ولكن ابن هذا الملك المدعى « بعنخى » تولى الملك حوالي ٧٤١ ق.م . واخذ يستعمر مصر ولكن الثابت أنه في عام ٧٢١ أو ٧٢٢ ق.م استولى بعنخى على صعيد مصر حتى مدينة اهناس جنوب الفيوم .

وفي هذا الوقت كانت سلطة أوسركون الثالث المستوطن بتل بسطة منحصرة في مارتة ومخاطة بأعسداء كثيرين من أمراء الوجه البحرى أهمهم « تفنخت » أمير صا الحجر غربى الدلتا . الذى استطاع في وقت من الأوقات أن يحكم الدلتا كلها مؤسسا بذلك في بعض الأقوال الأسرة الرابعة والعشرين وان كان البعض يعزون انشاء الأسرة الى ابنه .

ولكن « بعنخى » استطاع أن يزحف بجيوشه نحو الدلتا . . وان يهزم القوات التى تعرضت له ، حتى اعترف له « أسركن الثالث » بسيادة النوبة على مصر .

(١). بالقرب من مروي في الوقت الحاضر .

وكان بعنخى لم يكذ يرجع الى نباتا عاصمة ملكه ، حتى تمرد عليه تفنخت
أمير صا الحجر وانشأ أسرة ملكية جديدة وأحل لنفسه الألقاب الفرعونية .

٧١٨ ق م :

توفى تفنخت وتولى ابنه بوكوريس الملك مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين
الصاوية . وأن كان البعض يعزون تأسيس الأسرة الى أبيه تفنخت .

وليس لدينا من الآثار المصرية ما يفيدنا عن حكم الملك بوكوريس الا لوح حجرى
وجد بالسرايوم يرجع تاريخه الى السنة السادسة من حكمه ، أقيم وقت الاحتفال
بدفن ثور. أبيس بتلك المقبرة وقد أخبرنا مانيتون أن بوكوريس كان مشرعا كبيرا
وذكر ديودور أنه من بين السنة الكبار فى مصر .

وقد جاء فى رواية يونانية لا شك فى صحتها أن بوكوريس كان عادلا مجتهدا
فى تنقيح القانون ساهرا على الحق بكل قواه . وكانت خاتمة بوكوريس على
ما يقوله مانيتون مفزعة اذ حرقه « شباكا » والمؤرخون لا يستطيعون التثبت من
هذه الرواية .

الأسرة الخامسة والعشرون

٧١٢ ق م :

أسس « شباكا » الأسرة الخامسة والعشرين . . « وشباكا » هو أخ بعنخى الذى اقترن بابنته فأصبح بذلك صاحب الحق الشرعى فى الملك ، فأعاد فيما يبدو غزو مصر وليس لدينا أى أخبار تاريخية تثبت هذا الغزو ، وإن كان مانيتون يقول فى تاريخه أن شباكا أحرق بوكوريس حبا وبسط سلطانه على الوجه البحرى فاجتمع له حكم مصر بأكملها .

على أن دولة آشور فى هذه الفترة كان قد علا نجمها واستطاع تجلت بليسر الثالث ملكها أن يخضع سوريا وفلسطين لحكمه .

ورأى شباكا أن ليس بقدرته مواجهة جيوش آشور فاكتفى بأن أرسل الى سوريا وفلسطين من يوقد النار ضد آشور ويعيد ولاية سوريا بالمساعدة اذا هم ثاروا على ملك آشور . وقد استجابت البلاد الفلسطينية الى نداء شباكا الذى أرسل طهراقه ابن بعنخى على رأس جيش ليقف الى جوارهم ضد جيوش آشور ولكن المعركة التى دارت انتهت بهزيمة المصريين وأعقب هزيمتهم حصار بيت المقدس وتخريب مقاطعة يهوذا . ولكن آشور لم تجن ثمار نصرها ، اذ انسحبت من جديد لنيوى لظروف طارئة (١) .

وقد حكم شباكا مصر كفرعون مصرى فأظهر عطفه ومساعدته لطائفة الكهنة كما سار على نهجهم فى تعمير المعابد المتداعية وترميمها ، وقد وجدت نقوش دينية قديمة على جدار معبد بتاح مرممة من ذلك العهد ، وهى تعتبر أهم القطع الادبية المعروفة .

وقد أرجع أخته امنارديس الى وظيفتها السابقة بمعبد آمون بعد ان طردها اوسركن الثالث لمدة قصيرة . ثم اتحد مع أخته وشيد معبدا بالكرنك .

وقد حكمت امنارديس فى طيبة حكما مستقلا . أما شباكا فقد حكم اثنى عشرة سنة تقريبا : ويرجح انه حكم أطول من ذلك فى بلاد النوبة .

(١) تحققت نبوءة اشعيا النبى بنجاة بيت المقدس فى هذه الحقبة .

٧٠ - ٦٨٩ ق م :

توفي شباكا وخافه على ما يقول مانيتون ابنه **شاباتاكا** وقد سماه مانيتون في تاريخه « سبيكوس » وحكم شاباتاكا في هدوء وسكينة لان اقاليم آسيا بقبت ساكنة لا تحرك سد آشور ولم نعثر على اسم شاباتاكا على الآثار المصرية الا نادرا .

وانما يستدل من الحوادث التالية انه كان ضعيفا لم يستطع ان يستعيد القوة الى السلطة المركزية ليهيء مصر لمواجهة الغزو الاشوري الذي كان يبدو وشيكا بعد ان صلت جيوش آشور المنتصرة اكثر من مرة على حدود مصر ولا يرجعها عنها الا ظروف خاصة بها .

وبعد اثنتى عشرة سنة من الحكم مات شاباتاكا تاركا حكم البلاد ومشكلة مواجهة الاشوريين الى خلفه الملك طهراقه بن بعنقى .

٦٨٨ ق م - تربع طهراقه على عرش مصر :

فيقول لنا مانيتون ان طهراقه بن بعنقى قاد جيشا جرارا من اثيوبيا وقتل شباتاكا ثم اغتصب العرش الفرعوني ولا تسجل لنا الآثار المصرية ما يشير لمثل هذا الانقلاب وكل ما وجد على آثار تنيس ان الملك طهراقه طالب من أمه ان تحضر الى مصر من نباتا بعد ما غاب عنها عدة سنوات ودعاها لتسلم مركزها السامي بمصر كالام الملكية .

وقد استمر طهراقه يحكم بلا منازع من جهة آسيا لمدة ثلاث عشرة سنة سيد فيها بضع عمارات صغيرة بتنيس ومنف وأخرى اكبر حجما في طيبة .

٦٧٣ ق م :

دارت المعركة على حدود مصر بين جيوش آشور التي قدمت الى مصر لغزوها وبين الجيوش المصرية بزعامة طهراقه فاستطاعت ان تهزم الجيوش الاشورية كما سجل ذلك على الآثار .

٦٧٠ ق م :

استأنف اسرحدون ملك آشور هجومه على مصر معتمدا على بدو الصحراء الذين دلوه على الطريق الى مصر عبر الصحراء وامتدوه بجمالهم تحمل ميناء الشرب خلال الطريق والتقى بجنود طهراقه مرة أخرى الذي لم يكن مستعدا لهذا الكفاح فانتهت المعركة هذه المرة بفوز آشور وتمزيق شمل المصريين - وعلى اثر ذلك تقهقر

طهراقه نحو منف لكن (آسر حدون) تعقبه واستولى على منف وسلبها كل ثمين بها .
ففر طهراقه جنوبا تاركا الوجه البحرى فى يد آشور حدون الذى نظمه وضمه الى
املاكه وقد ذكر آشور حدون اسماء عشرين اميرا مصرى قال عنهم أنهم اتوا اليه وحلفوا
له يمين الطاعة فسمح لهم بالبقاء فى مراكزهم شريطة أن يعطوا اموالهم له وقد جاء
من بين هذه الاسماء اسم الامير بننخاو تفنخت وقد وصف بأنه امير صا الحجر
ومنف .

ويمكن ان نعتبر حكم الاشوريين للوجه البحرى ، حكما اجنبيا على خلاف الحكم
السابق عليه سواء اكلن حكما ليبييا ام اثيوبيا . . . فالحكام الليبيون ولاثوبيون
حكموا كحكام مصريين وقد كانوا يدينون بالهة مصر ، ويتشفون بثافتها .

ويعتبرون انفسهم استمرارا لحضارتها . اما الاشوريون فحكموا الدلتا دون
مراعاة شفقة او عطف نحو المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم وحاولوا ان يحكموا
مصر من خارجها .

ولذلك فلم يكد آشور حدون يغادر مصر ، حتى اتصل امراء الوجه البحرى
بطهراقه الذى جاء الى الوجه البحرى مستانفلا حكمه كملك مصرى .

ولكن آشور بانيبال الذى ولى الملك بعد وفاة ابيه استطاع ان يرسل جيشا
جديدا الى مصر هزم طهراقه مرة اخرى عند منف ، ففر من جديد الى طيبة ، حيث
ظل حاكما فعليا على الوجه القبلى وخاصة بعد ان عين اخته « شب توبت » بدل
الاميرة امنديس ، رئيسة كهنة آمون .

ويعزى الى طهراقه انه شيد او اصلح معبدين عظيمين بنباتا عاصمة اثيوبيا .

واشرك طهراقه معه فى الملك بعد خمس وعشرين سنة من حكمه ابن شباكا
« بدى تانوت آمون » فعينه حاكما على صعيد مصر بينما استقر هو فى نباتا متعيا ،
ولم يلبث ان مات بعد عام واحد من اشراكه تانوت آمون معه فى الملك .

٦٦٣ ق م :

تربع تانوت آمون على عرش نباتا وصعيد مصر ، وحاول ان يستعيد سلطانه على
الوجه البحرى ، ونجح بالفعل فى هزيمة الحامية الاشورية واستولى على منف وقد
سقط فى هذه المعركة نخاو اميرها وفر ابنه اساماتييك الى سوريا .

٦٦١ ق م :

جاءته جيوش اشور الى مصر واستطاعت ان تهزم من جديد تانوت آمون الذى
فر الى طيبة فتعقبه الاشوريون واستولوا على عاصمة القطر هذه المرة وسلبوا ما بها

نفائس وكان من بين ما استولوا عليه مسلتان فضيتان زنة كل واحدة منهما ٢٥ تالنت (التالنت يقرب من ٧٥ رطلا) كانتا منصوبتين على مداخل أحد المعابد نلوهما الى نينوى .

ومنذ ذلك الوقت أخذت طيبة تضمحل وتندثر بعد ما كانت مضرب الأمثال في نى والجاه .

وكان رجوع ثانوت آمون الى نباتا نهاية الحكم الاثيوبى في مصر (١) .

(١) انطوى ملوك اثيوبيا بعد هذا الحادث على انفسهم في مدينتهم تيباتا وبذلك انقطعت صلتهم لتدريج مع حضارة الشمال ولم يلبثوا أن امتنعوا عن اللغة المصرية والخط المصرى واستعملوا خطا لم حل رموزه لان ولما غزا الرومان تلك البلاد تحطمت اركان المملكة الاثيوبية وقد انتقل هذا الاسم في لقرن الرابع بعد الميلاد الى مملكة الحبش المسيحية التى نشأت حول منابع النيل الازرق .

الأسرة السادسة والعشرون

٦٥٤ ق.م :

ذكرنا في حوادث عام ٦٦٣ ق.م وفاه نخاو أمير صا الحجر في معركة ضد طهراقا . وفر ابنه إيساماتيک الى سوريا ، وعاد الآشوريون الى مصر كما رأينا واعادوا تنصيب إيساماتيک أميرا تابعا لهم على منف وصا الحجر ولكنه ظل يتحين الفرصة للتحرر من الآشوريين والاستقلال بمصر وهكذا قدر له أن يكون رأسا للأسرة السادسة والعشرين ابتداء من سنة ٦٦٣ ق.م ولكن استقلاله بمصر لم يتحقق بالفعل الا عام ٦٥٤ ق.م. اذ انتهز فرصة اشتباك آشور في حرب دامية مع شقيقتها بابل في هذا التاريخ والسنوات اللاحقة ، فطرد الحامية الآشورية حتى مدينة أسدود في فلسطين وظل محاصرا لها وان كان لم يستطع أن ينتزع المدينة الا بعد ٢٩ سنة في قول هيرودوت ، واخضع أمراء الوجه البحري لسلطانه ودخل طيبة بغير مقاومة وعين اخته نيتقريس بدل « شب نويت » سيدة كهنة طيبة وأعلن نفسه فرعوناً على مصر كلها . وبدأت البلاد على يديه تدخل في فترة من ازهى فترات تاريخها منذ عدة قرون . اعتبرها كثير من المؤرخين بمثابة حركة بعث لمجد مصر القديم وعلومها وحضارتها .

واذ كان للبيبين المستوطنين في مصر قوة ونفوذ عسكري كما رأينا فقد جعل إيساماتيک اعتماده من الناحية العسكرية على الجنود المرتزقة من الاغريق الذين كانوا قد بدأوا يتوافدون بكثرة على مصر في هذه الايام ، ليكونوا نواة له في مواجهة الليبيين ، وهكذا نجح في توطيد الامن والنظام من جديد في مصر واعادة السلطة المركزية الى قوتها .

وقد حافظ على ولائه للآشوريين ، فأرسل الى نجدتهم قوة عسكرية لمعاونتهم على صد هجوم البابليين والميديين عليهم .

ولكن ذلك لم يحل دون سقوط نينوى عاصمة الآشوريين أخيرا عام ٦١٢ ق.م . وبهذا انحلت نهائيا قوة آشور العسكرية وان كان قد ظهر الى الافق هذه القوة الجديدة التي نجحت في تحطيم قوة آشور الرهيبة ، وهى قوة الميديين والبابليين التي سينبتق منها قوة الفرس فيما بعد .

على أية حال ، لقد هياً سقوط آشور لمصر فرصة الاستقلال بشؤونها نهائياً ،
ونظمها في حركة البحث والاصلاح التي بدأها إيساماتيك .

وقد توفي إيساماتيك عام ٦٠٩ ق.م بعد أن حكم ٥٤ سنة كما جاء مبيناً في أحد
الواح العجل أبيس ، استعادت مصر خلالها مكانتها ودورها في التاريخ كمعقل للحضارة
الانسانية كما تتمثل في مجتمع يسوده الأمن والرخاء والازدهار التجاري ، والتفوق
الفني ، ومهياً بذلك الطريق لابنه نخاو أن يخطو خطوة جديدة في سبيل التقدم
والعرفان .

٦٠٩ ق.م :

تولى **نخاو** ابن إيساماتيك عرش مصر بعده فشرع في حفر القناة التي تؤدي الى
بحر « اروتري » (اى الاحمر) .

وسبقه الى حفرها كثير من فراعنة مصر ، ولكن هيرودوت يقول لنا انه توقف
عن انمامها ، وان دارا الفارسي هو الذى اتمها من بعده ، كما يقول لنا هيرودوت ايضا
أن نخاو أرسل بعثة للطواف حول الفارة الافريقية ، وقد استغرقت الرحلة ثلاث
سنوات ونجحت لأن هيرودوت يقول أن البحارة زعموا انهم راوا الشمس تشرق من
جهة يدهم اليمنى ، وقد أبى هيرودوت أن يصدق الرسالة ولكن نعلم الآن صدقها -
وقد كان بحارة السفن من الفينيقيين .

واذ كانت السكينة تخيم على ربوع البلاد وكانت تنعم بالرخاء وكان جيشها
المؤلف من اليونانيين قويا كما كان أسطولها كذلك ، فقد قرر « نخاو » أن يحقق
آمال أبيه في استعادة سلطان مصر على الامارات الآسيوية يشجعه على ذلك انشغال
آشور في هذه الفترة بنفسها .

فقد قام بحملة على جنوب فلسطين في العام الأول من حكمه وأحرز انتصاراً في
سهول مجدو حيث أحرزت الجيوش المصرية أمجادها في هذا السهل لأول مرة منذ
٩٠٠ سنة سابقة . وهزم بوشيا ملك يهوذا هزيمة منكرة قتل فيها وعين ابنه الياكيم
محله بعد أن غير اسمه الى « يهوياقيم » ، وفرض الجزية على اورشليم ثم انطلق نخاو
بجيوشه شمالاً ليقتضى على آشور ولكن جيوش آشور لم تتعرض له في زحفه الذى
أقترب فيه من نهر الفرات . ورأى نخاو أن الشقة قد بعدت بينه وبين مصر ، فعاد
أدراجه قبل أن يهاجم نينوى ، وهكذا استطاع نخاو بحملة واحدة أن يعيد لمصر كل
هيبتها في هذا القطع وان يسترد سلطانها .

ولكن ذلك لم يستمر الا لمدة يسيرة ، فقد استطاع نابوبلاصر ملك بابل أن يقضى
على آشور نهائياً فاعتبر أملاكها ميراثاً له ، فأرسل ابنه نبوخذ ناصر للاستيلاء على
سوريا فخرج نخاو على رأس جيش كبير لمواجهة ، والتحم الجيشان عند قرعميش

فانهزم الجيش المصرى وتقهقر نحاو الى مصر يلاحقه « نيوخذ ناصر » ، ولكن نيوخذ ناصر اضطر للعودة الى بابل لوفاة أبيه عام ٦٠٥ ق.م .

ولكن سوريا وفلسطين أصبحتا تحت سلطان بابل واستؤنف الصراع بين القوتين مرة ثانية فأضرم نحاو نار العصيان فى سوريا وفلسطين ضد نيوخذ ناصر وكان على ملك اورشليم يهوياقيم الذى كان قد رفعه الى العرش .

فقاوم هذا الملك نيوخذ ناصر ، ولكن هذا الاخير انتصر عليه وقاده أسيرا الى بابل وعين ملكا جديدا أسماه صدقيا ليكون تابعا له .

٦٠١ ق . م :

ولكن نيوخذ ناصر لم يستطع أن يخترق حدود مصر . . . اذ تقول لنا الاخبار البابلية ذاتها أنه عاد الى بلاده بعد أن فقد الكثير من رجاله وذلك فى عام ٦٠١ ق . م .

وقد اتاح ذلك الفرصة لخلو لكى يعكف من جديد على تقوية الجبهة الداخلية بالاصلاح والنظهير ، وتدعيم قوات الجيش والاسطول ، فبنى بمساعدة الكورنثيين اسطولا لحماية شواطئ مصر فى البحرين الأبيض والاحمر .

وبعد حكم دام خمس عشرة سنة مات نحاو تاركا الحكم لابنه إيسامتيك الثانى .

٥٩٥ - ٥٨٠ ق.م - إيسامتيك الثانى :

مضت مصر فى ظل إيسامتيك الثانى رغم شبح الحرب الذى كان يهددها ، فى أعمال البناء والانشاء . . . واستأنف إيسامتيك الثانى أعمال الفراعنة العظام هنما يعملون الى ترميم المعابد واصلاحها ليثبتوا اخلاصهم وبنوتهم للالهة فأعاد بناء معبد نيت فى سايس وأقام فى بهوه أهرامات ومسلات ليثبت احترامه للالهة .

ولما كانت نبتوكريس ابنه إيسامتيك الاول التى عينت زوجة الهية لامون قد كبرت وهرمت اذ بلغت الثمانين من عمرها مما كان لذلك اثره على توقف ربح الاصلاح والرعاية لمعابد طيبة فقد طلب منها أن تتخلى عن منصبها لابنته .

وتسجل لوحة من الرمر فى متحف القاهرة وصولها الى طيبة وقد كانت آخر الزوجات الالهيات وكان مقدرا لها أن تظل شاغلة لهذه الوظيفة حتى أيام قمبيز بعد ٦٨ سنة من هذا التاريخ .

وقد سجل التاريخ فيما سجل لإيسامتيك الثانى - رحلة ودية قام بها الى مدينة بيلوس (جبيل) فى فينيقيا ، حيث ذهب اليها مصحوبا بحاشية كبيرة وبعدد من الكهان ، ولكنه عاد منها عندما سمع بتحرك قوى عدوانية جديدة من اثيوبيا .

وأوفد جيشا استطاع أن يحمل القوات الزاحفة من الجنوب على الفرار والعودة نباتا .

وودست العلاقات بين الاغريق ومصر في هذه الفترة الى الذروة فقد روى لنا ودوت أنهم أرسلوا الى ايسامتيك وفدا يستفتيه في خير طريقة نزيهة يدبرون ١ الاعساب الاولمبية .

على أن مدة حكمها لم تطل لأكثر من ست سنوات فترك الحكم من بعده ٤ (ابريس) .

ه - ٥٧٠ ق م - حكم « ابريس » :

ويقول عنه هيرودوت أنه كان بعد جده الثاني ايسامتيك أسعد الملوك السابقين حكم خمسا وعشرين سنة سير أناءها جيشا الى صيدا ، وحارب ملك صور ١ ، مما يدلنا على حيوية الجيش والاسطول المصري في هذه الفترة ، وأغلب الظن سير هذه الحملات البرية والبحرية ، ليلتف حول جيش نبؤخذ ناصر الذي كان صر اورشليم ، وتفاصيل ما انتهت اليه الحملة غامضة . . ولكن من المحقق أنها تؤد الاغراض المقصودة منها . .

فقد سقطت اورشليم في خاتمة المطاف ، وقتل ملكها صديا وضرب الهيكل . أن نهب وحرقت المدينة .

وكان من اثر ذلك أن هاجر العديد من اليهود ، فأقاموا في تانيس ومنف ، وبصفة صة في مدينة الفتتين في جنوب مصر حيث تكونت لهم جالية ضخمة .

وتعتبر هذه الفترة قمة مجد مصر في عصرها الهادي فلم يعد شعب سرب يهددها .

ولذلك فقد عمد ابريس على أن يخلد ذكراه باشادة المباني ، فأقام المسلات هابد والقصور ، مما ينطق بما وصلت اليه البلاد في عهده من استقرار دهار . على أن كثرة الاعتماد على الجنود المرتزقة من الاغريق وكثرة الوافدين من جانب الذين بدأوا يراحمون المصريين في مراكزهم وأزاقهم . . قد احفظت المصريين ، ابريس .

وتصورت بعض فرق الجنود المصرية أنه قد جربهم في معركة فاشلة في ليبيا خلص منهم ، فثاروا عليه . . فبعث اليهم ابريس القائد أمازييس ليهديء الأفكار ، ن أمازييس لم يلبث أن انضم هو نفسه للثوار ونودى به ملكا والتف حوله ريون مؤلفين جيشا وطنيا .

فساق ابريس جيشا من اليونانيين المحترفين بلغ عدده على ما يقول هيرودوت لين الفا ليحاربوا المصريين .

واشتبك الطرفان عند مدينة ممفيس ، ويقول هيرودوت أنه رغم استبسال الاجلانب في القتال فأنهم هزموا لان عددهم كان يقل عن خصومهم .

وقد قبض امازيس على ابريس ، وعامله على ما يقول هيرودوت في بادى الامر معاملة طيبة ، ولكن المصريين اجتجوا وطلبوا تسليمه اليهم لاعدائه ففعل ذلك .

ولكن المؤرخين الحديثين ينسكون في هذا الجزء الاخير من رواية هيرودوت ويرون نهاية ابريس على غير هذا الوجه .

٤٧٠ - ٥٢٦ ق م - امازيس على عرش مصر :

ولست اجد ما اكرم به هيرودوت باعتباره أول من ترك لنا كتابا مفصلا نعرفه متداولاً عن تاريخ مصر القديمة الا ان أنقل عنه مباشرة فقرات مما قاله في تاريخ امازيس .

هذا التاريخ الذى لم يعد يفصله عنه الا أقل من قرن واحد من الزمان وهكذا لما هزم ابريس وقضى عليه صار امازيس ملكا وهو من مقاطعة نسايس (صا الحجر) وكان أصله من مدينة سسيون (تسمى اليوم الضفة) وقد احتقره المصريين لانهم لم يقدروه على الاطلاق ، لانه كان فيما مضى من العامة ولم يكن له أدرة ذائعة الصيت - ولكن امازيس استطاع بعد ذلك أن يخدمهم بفنسل مدته ولينه .

وفي مدينة سايس شيد هذا الملك رواقا رائعاً الالتهيا بز به كل من شيدوا من أسلافه من حيث ارتفاعه وحجمه كما فاقها بضخامة أحجاره المستعملة ونوعها . وأقام أيضا التسوامخ من التماثيل وتمائيل كباش باللغة الطول .

واحضر حجارة أخرى للترميم هائلة الحجم جلب بعضها من مقاطع الاحجار التى في ممفيس وبعضها الآخر - وهو ذو ضخامة منقطعة النظر - من مدينة اليفانتين وهى على مسافة أبحار عشرين يوما من سايس على أن أكثر ما اثار في نفسى ابلغ العجب من بين كل ذلك ما يأتى : امر باحضار محراب شيد من صخرة واحدة من اليفانتين واستغرق احضاره ثلاث سنوات وكلف عشرين ألف رجل بنقله وكلهم كانوا من الملاحين - وطول هذا المحراب من الخارج احدى وعشرون ذراعا وعرضه أربعة عشر ذراعا وارتفاعه ثمانية اذرع .

وأقام امازيس كذلك في سائر المعابد العظيمة اعمالا تستحق المشاهدة لضخامتها وبخاصة التمثال الشامخ الملقى على ظهره في ممفيس وطول هذا التمثال خمسة وسبعون قدما .

ويقال أن مصر كانت تحت حكم امازيس على درجة عظيمة جدا من الازدهار . وذلك نتيجة لما جاء به النيل على الأرض من طمى ، وما جادت به الأرض على الناس

من خير... وكان بمصر على الجملة في ذلك العهد الف مدينة أهلة بالسكان كما كان أمازيس هو واضع القانون الذي يفرض على كل مصرى أن يبين سنويا موارد عيشه لحاكم الولاية ومن لا يفعل ذلك ، ولم يشبته أنه يعيش عيشة مشروعة كان عقابه الموت . ولقد نقل صولون الأثيني هذا القانون عن المصريين وضعه للأثينيين وهؤلاء يطبقونه لأن اذ لم يوجه اليه أى طعن .

وكان أمازيس محبا لليونانيين وعبر لهم عن عاطفته تلك بأن وهب للذين جاءوا الى مصر مدينة نوفرطيس ليسكنوها ، أما الذين لم يرغبوا في استيطانها وكانوا يعدون للسياسة وحسب فقد أعطاهم اراضى ليقيموا عليها هياكل ومعابد لآلهتهم .

وقد أرسل أمازيس الهدايا أيضا الى بلاد اليونان ثم راح هيرودوت يعدد الهدايا رختم الكتاب الثانى عن تاريخ مصر بقوله في الحديث عن « أمازيس » .

وهو أول رجل استولى على قبرص وفرض عليها دفع الجزية وقد ظل أمازيس على عرش مصر ٤٤ سنة وطول هذه المدة كاف في الدلالة على ان عصره كان عصر نهضة ونقدم وسلام بل أن البعض يتسبه عصر أمازيس بأنه مثيل لعصر امنحتب الثالث (امونوفيس الذى عاشه المصريون قبل عصر أمازيس بثمانية قرون) .

ولكن قوى جديدة كانت قد ظهرت في ذلك الوقت في الشرق ، وكان مقدرا لها أن نورث ملك كل من سبقها في الشرق الأوسط ابتداء من المصريين وانتهاء بالاشوريين والبابليين والحيثيين والكلدانيين والعبرانيين ، وتلك هى قوة فارس تحت زعامة ملكها قورش ، ومن بعده قمبيز .

٥٢٦ - ٥٢٥ ق.م :

ابسمتيك الثالث - والذى كان مقدرا له أن يكون دخول جيش قمبيز الى مصر في أيامه .

لقد استطاع قورش بعد أن استولى على مدينة بابل عام ٥٣٩ ق.م . أن يكون سيد آسيا الغربية غير منازع ثم عاش بعد ذلك عشر سنوات ليמות في سنة ٥٣٩ ق.م . في ظروف غامضة على ما يروى لنا هيرودوت فتولى حكم فارس من بعده ابنه « قمبيز » الذى وجه نشاطه لفتح مصر . ولم يقف أمازيس مكتوف اليدين ضد الخطر الفارسى ، فقد احتل قبرص كما راينا ودخل في محالفة عسكرية مع ملك ليديا وطاغية سامدس ، ولكن قمبيز لم يلبث أن سحق ملك ليديا ، وانحاز اليه طاغية سامدس ، فلم يبق أمامه الا مصر . فساق جيوشه التى كانت تتألف في جزئها الاكبر من الاغريق المرتزقة ، وسرعان ما خان فانيس الاغريقى ابسمتيك الثالث فانحاز الى جانب قمبيز ودله على الطريق الى مصر وهو الذى طالما اجتازته الجيوش المصرية نحو جنوب فلسطين وسوريا .

وزحففت أليجيوشى الفارسية نحو تخوم مصر الشرقية ، حيث دارت معركة جريية
فى بلدة بلوزيوم (الفرما) وتراجع الجيش الى مدينة منف فحرب الحصار عليها
وفى اثناء الحصار ارسل اهل برقة وفدا الى قمبيز يعلن خضوعهم له فقت ذلك فى
عضد المدافعين عن المدينة ، فلم تلبث المدينة ان سلمت واستولى عليها قمبيز وسقط
فى يده ابسامتيك الثالث ، ويقال ان قمبيز عامله فى بادىء الامر معاملة طيبة ، ولكنه
اتهم بعد ذلك بتأليب المصريين على الحكم الفارسى ، فقتله قمبيز .

وسار قمبيز بعد ذلك فى النيل على متن السفن فوصل الى طيبة واحتلها ، ومن
هناك عبر الصحراء حتى وصل الى الواحة الخارجية ولكنه لم يستطع الاستيلاء على
واحة آمون بل وهلك معظم جيشه فى الصحراء ويعزو هيرودوت الى قمبيز انه كان
جبارا قاسيا ملحدًا وأنه أصيب بالجنون ، فقام بقتل العجل أبيس ولكن بعض علماء
الأثار الذين كشفوا عن تواييت العجل أبيس ، يدحضون هذه الرواية . . اذ يرون
موميئات بعض هذه العجول ، وقد حنطت وكرمت بأمر قمبيز نفسه (زايد ص ٩٣٨)
ولدينا تمثال لآحد كبار موظفى ذلك العصر (ودجا حورس نيت) فيقول لنا
صاحبه انه قد البع قمبيز بديانة مصر وجعله يبنى معبد سايس ومكث فى مصر ثلاث
سنوات . ولكن رواية هيرودوت التى تلقاها من الكهنة المصريين هى الأقرب
الى الصحة لقرب العهد من الحداث .

٥٢٥ ق م . :

وهكذا قامت فى مصر أسرة حاكمة فارسية هى الأسرة السابعة والعشرون :
ولاول مرة فى التاريخ لحكم مصر من خارج حدودها .

٥٢٢ ق م . :

شادر قمبيز مصر عائدا نحو فارس بعد ان خلف عليها واليا من قبله هو
« أرياندس » فاقام فى مدينة منف ، ولكن قمبيز مات فى اثناء عودته .

٥١٨ ق م . :

وصل « دار الاول » الى مصر وكان قد استطاع ان يستولى على الحكم فى
فارس ، واذا كانت لقمة الشعب المصرى كبيرة جدا على الحكم الاجنبى ، وما لاقوه
على يد قمبيز وواليه على مصر أرياندس ، فقد عمل دارا على استرضاء الشعب
المصرى فقتل هذا الوالى لما خلد أخذه عليها .

ولما صادف حضوره وفاة العجل أبيس ، فقد أصدر دارا أمره بمنح جائزة كبيرة
لكل من يكتشف عجل أبيس جديدا ، وبذلك استمال الناس اليه .

على ان من اعظم الأعمال التى تدل على حكمته وبراعته السياسية والادارية أنه جعل اهتمامه بالعدل وسيادة القانون فقد أصدر فى بلاده تشريعا على غرار تشريع حمورابى فقراه يقول فى ديباجة التشريع .

« تحت رعاية أهدر فردا (اله النور الفارسى) أكنى احب الحق واكره ما ليس بحق . قلن يحدث أن يسىء عبد لائى مواطن . وكذلك لن يسىء مواطن لعبد . اننى احب الحق واكره كل من يقر الكذب . اننى لا اغضب واكظم غضبى واننى لا اثق فى كل من يتحدث ضد العدالة » .

واراد ان تنعم مصر بدورها فى ظل حكم القانون والعدالة فكتب لواليه على مصر يقول له :

« دعهم يحضروا الى حكماء الرجال من بين المحاربين ، والكهنة وكتاب مصر الدين اجتمعوا فى دور العبادة ودعهم يكتبوا الشرائع الأولى لمصر حتى العام الرابع والاربعين لحكم الفرعون امانيس ، دعهم يحضروا لى هنا شريعة فرعون وشرائع المعبد والناس » . وأمر دارا باعادة بناء معبد الآلة آمون فى الواحة الخارجة حيث ترى رسوم دارا على جدران هذا المعبد بملابس فرعون ، وهويقدم القرابين للآلهة المصرية .

وأهتم داريوس باعادة فتح القناة التى توصل البحر الاحمر بالنيل والتى شقها من قبله نيكولو الثانى قبل ان يتوقف فى الطريق ، وتقول لنا النصوص السامرية التى عثر عليها على لسان دارا .

« اننى (دارا) الفارسى استوليت على مصر من بارسيا (فارس) ، وقد أمرت بأن تحفر هذه القناة من نهر النيل الذى يجرى فى مصر الى البحر الذى يصل فارس . وقد حفرت تلك القناة كما أمرت . ومرت السفن من مصر عبر هذه القناة الى فارس بمقتضى رغبتي » .

« وقد حدثتنا اللوحة عن كيفية شق القناة وكيفية تنفيذها ولم يقف اهتمام دارا على شئون مصر الاقتصادية والعمرانية والدينية بل امتد الى شئونها العلمية فلدينا وثيقة تدل على اهتمامه بعلم الطب ورعاية مدرسة الطب فيباهى المشرف على هذا المعبد « لقد جعلتهم مشرفين عن كل رجل متعلم ، حتى يتعلموا كل المهن وأمر جلالته أن يعطى لهم كل شيء حسن ويتدربوا على كل مهنتهم . وقد قدمت لهم كل شيء مفيدا وكل الأدوات التى أشير إليها فى الكتابات ، كما كان العمل يجرى من قبل ، وقد فعل جلالته ذلك لانه يعرف فضل هذا العلم لانقاذ الرجل المريض . وكذلك ليعمل على خلود اسم كل الآلهة ، ومعابدهم وقرابينهم والاحتفال بأعيانهم الى الابد ، واذا استقر الأمن والنظام بمصر ، فسرعان ما عادت الى الازدهار فى كل ميادين حياتها .

فلا عجب وهى هذه خطة دارا واسلوب حكمه فى مصر ، أن يتوجه الكهنة فرعوناً على مصر .

٤٠٠ ق م :

أنزل الإغريق هزيمة فادحة بجيوش دارا في موقعة ماراتون جعلته ينسفل بتجهيز حملة انتقامية لمدة ثلاث سنوات .

وإذا كان المصريون لم يألّفوا إرسال الجزية الى حاكم أجنبي خارج بلادهم ، فقد بدأوا سلسلة من التورات المحدودة على الحكم الفارسي .

٤٨٦ ق م :

وفاة دارا بعد أن قد بلغ من العمر ٦٤ سنة حكم منها ٣٦ عاما ، وتولى بعده ابنه أكسرسييس وانتهز المصريون هذه الفرصة ، فاندلع بركان الثورة ، وامتد لهيبها الى يهود بيت المقدس .

٤٨٤ ق م :

ولكن جيوش أكسرسييس استطاعت أن تخمد ثورة اليهود وان تعيد مصر الى حظيرة الحكم الفارسي بعد أشهر من ثورتها وعمد الفرس في هذه المرحلة الى ضروب من العنف وعومل الوطنيون بقسوة .

وبدأوا يعتمدون على اليهود الذين أصبحت لهم جالية كبيرة في مصر وخاصة في بلدة الفينتين حيث عثروا على مجموعة من وثائق أوراق البردى التي تسجل منازلهم العقارية والمالية ، وهي مكتوبة باللغة الإرامية وقد أنشأوا لأنفسهم منظمات عسكرية كان يرأسها ضباط من الفرس .

٤٦٥ ق م :

اغتيال أكسرسييس - وتولى الملك من بعده ابنه الثاني ارتاكسركيس وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة بعد أن قضى على أخيه الأكبر .

٤٦٠ ق م :

قام أماروس ابن اسماتييك من سلالة أسرة سايس بثورة ضد الحكم الفارسي واستنجد بأئسنا التي بعثت اليه بعض السفن : فأستطاع الثوار ان يقضوا على الوالي الفارسي أخمنيس ، وأن يستولوا على ممفيس عاصمة الملك .

ولكن فارس أرسلت واليا جديدا ومعه قوات كبيرة ومراكب فينيقية فحارب الثوار واستطاع أن يقبض على اماروس وأن يرسله الى سوسه عاصمة ملك فارس فأعدم هو ومعاونوه وقد صور ارتاكسركسيس على خاتم أسطوانى يدبح الثوار ويظهر مرتديا التاج المصرى المزدوج بينما ينتظر قادة اليونان مصيرهم ، ومع ذلك فقد سلم امير مصرى هو اميرتى وظل يحتفظ باستقلال الدلتا حتى عام ٤٤٩ ق.م. وقد ذكر اسمه على معابد طيبة والخارجة ، مما يرجح أنه أصبح سيدا على الجانب الاكبر من مصر ان لم يكن كلها .

وفى هذه الفترة زار مصر عدد من اعلام اليونانيين وعلى رأسهم اتاكسا جوراس الطبيب ومعلم بركليس ثم هيرودوت الذى تجول فى مصر وقيد ما رأى وما سمع والذى اتفق على تسميته أبو التاريخ .

٤٢٤ ق م :

ارتفع دارا الثانى عرش الفرس وقامت ثورة فى مصر ضد الاسرائيليين المقيمين فى الفنتين بلغت ذروتها عام ٤١٠ ق.م. حيث قام المصريون بهدم معبد اليهود فى الفنتين هدمًا تامًا وكسروا حجارتها وحرقوا أبوابه وسقفه وأخذوا أثاثه الذهبى والفضى غنيمة لهم وذلك انتقاما من اليهود الذين كانوا يحالفون الفرس .

الأسرة الثامنة والعشرون

٤٠٤ ق م . :

تُهاية الأسرة السابعة والعشرين الفارسية بوفاة دارا الثاني ، واستقلال الامير
الوطني بمصر عن الحكم الفارسي مؤسسا بذلك الأسرة الثامنة والعشرين . على
أن مانيون لا يزيد حكمهم على أكثر من ست سنوات تنتهي عام ٣٩٩ ق م .
وكالعادة لا يتعدى هذا التقدير الصواب ، فقد وجدنا في وثائق الفنتين الارامية
واحدة مؤرخة بالسنة الخامسة من حكمه .

الأسرة التاسعة والعشرون

٢٩٩ ق م . :

قامت على يد مؤسسها القائد المصري نفرتيس الذى لا يعرف مدى علاقته بالملك السابق والذى لا يعرف كيف انتهى حكمه كذلك .

على ان السياسة العامة لكليهما واضحة محققة وهى مدافعة الفرس عن استقلال مصر ، والتحالف مع الاغريق اعداء الفرس لصيانة هذا الإستقلال .

ولكن المنازعات بين عائلات الامراء وحكام الاقاليم حالت دون أن تصل حركة التحرير الى ذروتها فيستقر ملوك مصر الوطنيين الجدد .

وكيفما كان الامر فالتاريخ يسجل لنا أن نفرتيس قد أرسل عوناً ومدداً لاسبطة فى هربها ضد الفرس فبعث اليها بمائة سفينة عليها ٨٠٠٠ ر. ٨٠٠٠ مكيال من القمح والذخيرة ، ولكن هذه المعونة لم تصل الى غايتها ، اذ اعتراضها كوندى (اليوناني) قائد الاسطول الفارسى عند رودس .

وفى خلال الحرب التى وقعت بعد ذلك بين فارس واسبطة تقدمت الجيوش المصرية الى الحدود السورية واحتلت مراكز دفاعية ولكن ملك اسبطة اضطر أن ينسحب بجنوده لحلول فصل الشتاء فانسحبت القوات المصرية كذلك .

وعكف نفرتيس على العناية بمصالح مصر : حيث سكنت الآثار عن الاشارة اليه بعد ذلك .

٢٩٢ ق م . :

تولى اخوريس (هكر) وقد قال عنه مانيتون انه حكم اثني عشر عاماً . وقد وجد أن لا فائدة من التحالف مع اسبطة فعقد حلفاً جديداً مع اثينا يحدثنا عنه أوسطو فانيس فى روايته (بلوتس) كما تحالف مع ملك قبرص .

وقد استطاع أن يصد هجوماً شنه الفرس على مصر .

وامتد سلطان أخوريس التجارى وربما السياسى أيضا على فلسطين وجنوبى
فنيقية ، فقد وجدت له نصوص فى معبد أشمون شمالى صيدا ومائدة من الجرانيت .

٣٨٠ ق م . :

ولى بسماتيس بعد خوريس ولم يحكم سوى عام واحد ، وقد عثر على بردية
تورد قائمة تجعل بسماتيس قبل أخوريس مما جعل بعض المؤرخين الحديثين
يضعونه قبل أخوريس .

ونحن نعرف ان نفرتيس الثانى الذى ورد اسمه فى قائمة البردى لم يحكم
سوى أربعة شهور ، ثم خلفه نخت نب نف (نكتائب الاول) الذى الف الاسرة
الثلاثين السمنودية على ما يقول مائيتون .

الأسيرة الثلاثون

٣٧٨ - ٣٦٠ حكم نقطائب الأول :

وكان عليه بمجرد ان ولى الحكم أن يواجه غزوة جديدة شنها الفرس على مصر فقد عزم ارتاخشات (ارتكساركسيس) أن ينقم من مصر ، فانتهاز فرصة سحب اثينا لمرتزقة الاغريق الذين كانوا قد دخلوا في خدمة هكر ورئيسهم خابرياس فاعدت فارس جيشا جبارا قوامه ٢٠.٠٠٠ ألف و ٢٠ ألفا من مرتزقة الاغريق ، وبعد جهود طويلة تمكن الجيش من التوغل في الدلتا . ولكن نقطائب جمع قواه للدفاع عن مصر ، وساعده ارتفاع النهر على مطاردة العدو وطرده .

وهكذا أحرز نقطائب نصرا مجيدا . . منح مصر ثلاثين عاما من السلم والازدهار : فتقدمت فيها التجارة الخارجية وبدأت المعابد من فيلة الى سمبود وهى التى تمثل الترمومتر الحساس لما تنعم به البلد من رخاء : وتحصل على نصيب وافر من الخيرات .

بل ان أول عمل قام به نقطائب كان أن اوقف على معبد (نيت) الضرائب التى فرضنها على تقراطيس وقدرها ١٠٪ من قيمة كل ما يرد اليها من تجارة أو تنتجه من مصنوعات .

ويرى نشاط نقطائب ووزيره حورسا ايزيس كاهن بهيت على كثير من المعابد المصرية . واستأنفت البعثات - لقطع الاحجار - اريادها لمراكز الانتاج .

وأقام فى السنة السادسة عشرة سورا بناحية قفط وبوابة كبيرة . وشيد من أجل الاله (من) صاحب قفط مقصورة ووسع وأضاف وبنى كثيرا من المعابد الصغيرة التى مازالت تؤكد صدق الفنان المصرى . .

وبدأ السياح اليونانيون فى عهده يترددون على مصر : ولعل أعظمهم هو افلاطون وكريسبوس الطبيب ويودوكسوس الفلكى الذى مكث عدة شهور يدرس على أيدي كهنة المعابد المصرية .

ويروى أن افلاطون قدم الى الملك عن طريق خطاب من اجيلاوس الاسبرطى وأنه احضر حمولة زيت - بدل المال - لتغطية نفقات الطريق - وأن يوربديس كان يصحبه وأنه مرض وأن الكهنة كانوا يعالجونه بماء البحر (١) .

(١) مصر والشرق الادنى القديم : الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم .

قرب نهاية حكمه (حوالى عام ٣٦٦ ق.م) نرى جدحر (تيدس) يشترك معه في العرش وكان من الذين يميلون الى اليونان وكان يقربهم اليه .

ومات تقطائب عام ٣٦٣ ق.م . ودفن في ممفيس في تابوت من حجر البرشيا الاخضر وهو من اجمل الصناعات في هذه الاسرة .

٣٦١ - ٣٥٩ ق.م :

تولى جدحر (تيدس) حكم مصر والامن والسلام يوفران عليها ، ولكنه كان طموحا ففقد حلفا مع بعض الاسيويين ضد فارس فحشد جيشا لم يسبق تكوينه منذ ايام الدولة الحديثة : يتألف من ثمانين الف جندي مصرى وليبي وعشرة آلاف اثيني و الف اشبرطى والسطول مؤلف من ثمانمائة سفينة ذوات الثلاثة صفوف من المجاديف وتراس الملك هذا الجيش ، وسار به نحو سوريا لمواجهة الفرس ... واستطاع ان يحرق بعض الانتصارات ، ولاح على الاتفاق ان مصر توشك ان تسترد سلطانها على اميرالاوربها المتعبد في الشرق ، ولكن نائب الملك في مصر : (الذى لم يكن الا اخا شقيقا لجدحر : استغل سخط المصريين في هذه الفترة لما فرضه عليهم جدحر من نساء لاعداد هذا الجيش : فارسل ابنه (نخت حرجب) تقطائب الذى كان يعمل القناصل جيش جدحر ليكون ملكا على مصر : فعاد ومعه قسم كبير من الجيش وفي نفس الوقت استسلمت اثينا حرياس ليعين بها قائدا فوجد جدحر نفسه وحيدا في خاتمة المطاف .. فلجأ الى عبوه ملك فارس الذى ارسله ملكا مواليا له على مصر ، ولكنه مات في الطريق .

٣٥٩ - ٣٥٦ ق.م - نخت حرجب - تقطائب الثانى :

كان من الطبيعي وهذه هي الظروف التى عاد فيها تقطائب الثانى الى مصر ليترأس الحكم فيها : ان يواجه ثورات وفتن من جراء هذا الصنيع الذى وقع منه ومن ابيه في ختلان ملك مصر فقد قام ستدس ، احد امراء سمنود باعتباره وريث ملوك الاسرة النابضة بالعشرين بمحاولة لانتزاع السلطة لنفسه وسجل لنا التاريخ ان تقطائب قد سوسر حصارا شديدا في احدى المدن ولم ينج الا بعمله ارجيلاسى الاغريقى الثانى بمساعدة يقيوناس الذى سحر قسطنطاع تقطائب ان يخمد الثورة ولكنه لم يكف يفرغ من الثورة المتأججة ، حتى واجهته محاولة (ارتاحشاشا الثالث) (اوخوس) لتقود مصر ، ولكن تقطائب استطاع ان يهزم جيوش اوخوس ويردها على ارجيلاسا وكان من نتيجة ذلك ان تكرر قيتيتيا على حكم ملك فارس : فغسل بها (اوخوس) عن مصر ...

وهكذا استطاع تقطائب أن يتفرغ بعد ذلك لتنظيم الحياة في مصر .. فحظيت البلاد خلال ثلاثة عشر عاما ابان الفترة من ٣٥٧ - ٣٤٤ ق.م بفترة جديدة من الازدهار سجلتها آثار المعابد التي بدأت المنح تنهال عليها .

ولكن ملك فارس (ارتاخشانا الثالث) الملقب بـ أوخوس لم يكف عن العمل والتدبير للقضاء على قوة مصر واحتلالها ادراكا منه : ان لا سلام لامبراطوريته أو طمأنينة الا باحتلال مصر : ولذلك فقد جهز جيشا من اكثر من ٣٠٠ ألف مقاتل يعاضدهم في البحر أسطول مؤلف من ٣٠٠ سفينة من ذوات الثلاثة صفوف حيث لم يكن جيش تقطائب يتجاوز ١٠٠.٠٠٠ رجل منهم ٦٠.٠٠٠ مصرى و ٢٠.٠٠٠ اغريقى و ٢٠.٠٠٠ ليبيى وهوجمت مصر بحرا وبراً .

ولم يستطع تقطائب المقاومة طويلا .. ففر الى الوجه القبلى وليس الى اثيوبيا كما يروى ديودورس حيث استطاع أن يظل ملكا مدة عامين آخرين ، حيث نجد آثارا له في ادفو في السنة الثامنة عشرة من حكمه .

ولكن الفرس استطاعوا بعد ذلك أن ينفذوا الى الوجه القبلى وأن يستكملوا احتلال مصر . وأن تشهد مصر مأساة انتقام الفرس منها .

فيروى لنا ديودور الصقلي في تاريخه عن هذه الحقبة « بعد ما استولى ارتاكسر كسيس على مصر ودمر حوائط أهم المدن ونهب القاصير وجميع الهيئات كبيرة من الذهب : وحمل السجلات المكتوبة في المعابد القديمة وقد أتت بها فيما بعد الى الكهنة المصريين نظير دفع غرامة كبيرة . وبعد ذلك كافأ كبار اليونانيين الذين رافقوه في الحملة كل على حسب رغبته فسرجهم الى بلادهم الأصلية . وأقسم وألما على مصر شرابا وعاد ومعه جيشه الى بابل وفي ركابه اقراض كثيرة غنائم وانسب شهيرة في عصره لنجاحه .

وكان مسر شأنها دائما لم تستكن للحكم الظالم البطاني فقد وجدنا في منطقة حفائر تونا الجبل قبرا يسجل لنا ما كان يجري في مصر في هذه الفترة : فقد تمهيت سبع سنوات مشرقا على أعمال الآله تجوت : ولو أن ملكا من بلاد اجنية كان يتمتع بالسيادة في مصر .. وكانت هناك معارك في مصر الوسطى وكان الدينوب مضطربا ، والشمال في ثورة وينتقل الناس من مكان الى مكان في دعر ..

لكني فعلت كل خير في معبده (آي تجوت) حينما حكم الاجانب مصر زلي تم أعمال في المعبد منذ آي الاجانب وغزوا مصر .

٢٢٨ ق . م :

دس الخصم بأخوس السهم لأوخس ملك فارس قنات وعبرين منتهز ١٠٠٠
الصقر الرسمي .

الذى ظل على العرش سنسنوات ثلاث ولكن بأخوس سرعان ما الحقه ياييه
اذ دس له السم فقتله .

٣٢٨ ق م . :

قهر فليب ملك مقدونيا جيوش الاغريق المتحالفة في موقعة خايرودينا والف
الحلف الهيليني من الدولات الاغريقية وجعل مركزه مدينة كورنثينه .

٣٣٦ ق م . :

مات فليب ملك مقدونيا وخلفه على العرش ابنه الاسكندر الشاب وهو في العشرين
من عمره وبعد ان تقدمت الاغريق بولائها له شاعت اشاعة موته فثارت ولكنه استطاع
ان يخضعها من جديد واثبت عبقريته العسكرية والقيادية وبعد ان اخضع المدن
الاغريقية الثائرة عبر الهلسبوننت عام ٣٣٤ ق م ليحارب الفرس الذين كان عليهم
ان يحشدوا مليون مقاتل حيث لم تكن جيوشه تزيد على ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة
آلاف من العربات .

٣٣٤ ق م . :

ولى الملك دارا الثالث . الذى اذاق باخوس الكأس التى سقاها للملكين السابقين
من قبله ففس له السم وقتله بعد ان تحكم في مصر مصر والشرق امدا طويلا وكان
مقدرا لدارا الثالث هذا الذى لم يحكم سوى عام واحد ان يكون خاتمة الامبراطورية
الفارسية على يديه فقد حاول ان يجهز جيشا ضخما لاحتلال اليونان . ولكن الهزائم
انهالت عليه تحت ضربات الاسكندر المقدوني الذى اطل على العالم في هذه المرحلة
وكانت الهزيمة الكبرى في موقعة سوس عام ٣٣٣ . .

ولم يلبث بعدها دارا الثالث ان ذبح على يد انتهازى من اتباعه .

واذ يقف مانيتون في تاريخه عند الاسرة الثلاثين ، فان بعض المؤرخين القدامى
قد حاولوا ان يجعلوا من حكم الفرس في هذه المرحلة الأخيرة ٣٤١ - ٣٣٣ ق م . والتى
لم تتجاوز ثمانى سنوات : اسرة تضم الاسرات السابقة وجعلوا ترتيبها الحسادية
والثلاثين .

ولكن حكم الفرس لمصر خلال هذه الفترة على قصرها ، لم يكن مستقرا ، ولم
يعترف به المصريون ، وكان عبارة عن ثورة متصلة . بل لقد وصلت الى ايدينا وثيقة
تدل على ان شخصية مصرية في هذه الفترة قد انتحلت لنفسها عرش مصر ، وذلك

هو خاباش وقد ظهر في الجنوب في ٥ نوفمبر سنة ٣٣٧ ق.م وأرخ في السنة الأولى من حكمه (١٤ يناير عام ٣٣٦) ق.م عقد زواج أحد صغار كهنة آمون في غرب طيبة .
وقد قام خاباش بزيارة الدلتا ليدفع عنها غارة الاسيويين ويسود الغموض حياة هذه الشخصية والدور الذي قامت به في البلاد .
ولكنها دليل جديد يضاف الى الادلة التي لا تجعل حكم الفرس في مصر في هذه الفترة القصيرة يرقى الى مستوى أن يكون من أسرة حاكمة . . ومن المحقق أن يصير الحكم الفارسي وكان في طريقه الى الزوال المؤكد باعتباره حكما اجنبيا .

مراجع القسم الخاص مصر الفرعونية

- | | |
|--|----------------------------------|
| — الدكتور محمد مصطفى زيادة | موسوعة تاريخ العالم — وليم لانجر |
| — الدكتور محمد صقر خفاجة — قدم لها وشرحها د. أحمد بدوى | هيرودوت يتحدث عن مصر |
| — ول دورانت | قصة الحضارة |
| — الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم | مصر |
| — اتين دربوثون — جال فاندييه — | مصر |
| نعريب عباس بيومى | |
| — الدكتور عبد الحميد زايد | مصر الخالدة |
| — هنرى بريستيد — ترجمة حسن كمال | مصر القديمة |
| — تأليف سليم حسن | مصر القديمة |
| — الدكتور أحمد بدوى | موكب الشمس |
| — أحمد كمال | الحضارة القديمة |
| — عبد العزيز صالح | حضارة مصر القديمة وأثرها |
| — محمد عبد القادر محمد | تاريخ الشرق العربى القديم |
| — الدكتور أحمد فخرى | آثار العالم القديم |

الفصل السادس

مصر في عهد الاسكندر وخلفائه البطالة

حكم الاسكندر في مصر

٣٣٢ ق م :

وصل الاسكندر على حدود مصر تنوجه هالة من انتصاراته الرائعة على جيوش فارسية تفوق جيوشه عددا وعدة وسحقه لدارا الثالث في موقعة أسسوس والتي كانت جيوش الفرس تبلغ ٦٠.٠٠٠ مقاتل .

واستيلاؤه على كل من سوريا وفنيقيا ، وخاصة صور وصيدا وبذلك وقعت قواعد الأسطول الفارسي في شرق البحر الأبيض في يده .

استولى على مدينة بلوزيون (الفرما) ، واذا كان المصريون يرون فيه حليفا لهم في ثورتهم وقتالهم ضد الفرس فقد استقبلوه استقبال الصديق ، مما جعل الهوى الفارسي يستسلم بدون مقاومة .

٣٣١ ق م :

وصل الاسكندر الى مدينة منف ، حيث أظهر احترامه وولاءه للديانة المصرية ، فقدم القرابين في معبد الاله بتاح والعجل المقدس أيبس . ورسم نفسه فرعونا في معبد بتاح طبقا للطقوس الدينية المصرية .

سار الاسكندر بعد ذلك في فرع النيل الجنوبي حتى وصل الى شاطئ البحر حيث أنشأ مدينة الاسكندرية عند القرية المصرية القديمة راكوتيس وهي التي كان مقدرا لها أن تصبح خلال القرون الثلاثة التالية هي عروس البحر الأبيض وأعظم حواضره الثقافية على الإطلاق .

وأبى الاسكندر الا أن يدمج نفسه في الديانة المصرية وكان آمون في سيوه يعتبر الالهة عاليا يحج اليه أبناء العالم القديم كله ويعرفه الإغريق ليسألوه بصصفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الصحراء من الاسكندرية حيث وصل الى معبد آمون في واحة سيوة في رحلة شاقة مليئة بالاعطاش واعتبر وصوله في خاتمة المطاف إحدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له . . . وفي معبد آمون نودي بالاسكندر أبنا لآمون . مؤكدا بذلك قصة أمه أوليمباس من أنه ابن زيوس اله اليونان .

وقد حرص الا . كنندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود ، حتى سكتها بقرنى الكبش المقدس آمون ، ولعل ذلك كان هو مصدر تسميته « بنى القرنين » - كما لم يلبث أن طالب اليونانيين بتأليهه باعتباره ابن زيوس .

وعاد الاسكندر الى منف وعكف على تنظيم ادارة البلاد قبل أن يبارحها لمتابعة الحرب ضد دارا الثالث فجعلها شبه مستقلة استقلالاً داخلياً .

وعين حاكمين لمصر أحدهما مصرى والثانى اغريقى كما عين ثالثاً للصحراء الغربية ورابعاً للصحراء الشرقية وعهد الى الأخير الذى كان يدعى كليومنيس باتمام انشاء مدينة الاسكندرية وعهد اليه بمهمة وزير المالية وجبى الضرائب وسنرى كيف سيثرى ثراء فاحشاً .

وبارح الاسكندر مصر في ربيع ٣٣١ ق.م قاصداً بابل ليواجه الجيش الفارسى مرة أخرى ويحرز عليه انتصاراً حاسماً ومات دارا عام ٣٣٠ ق.م بوهكتذا استولى الاسكندر على الامبراطورية الفارسية كلها ، وأصبح سيداً واسط آسيا حتى الهند التى اجتاحتها حتى نهر السند بعد أن اخترق جبال الهمالايا وأعلن انه سيواصل زحفه حتى نهر الكنج لولا أن رفض جنوده التقدم .

٢٢٣ ق.م :

مات الاسكندر في بابل على أثر انخراطه في شرب الخمر بصورة غير طبيعية ليبدد همومه وأحزانه ويخفف هموم الملك وهو في شرح الشباب حيث لم يتجاوز سنه الثالثة والثلاثين ، وقد ملأ عليه حياته أن يجعل من العالم كله أمة واحدة وأن يخرج الحضارات والثقافات والنظم : وقد ضرب بنفسه القدوة لقواده وجنوده ومواطنيه فتزوج ستاتيرا ابنة دارا وأقام فرحاً لم يشهد له التاريخ مثيلاً حيث تزوج ثمانون من قواده وعشرة آلاف من جنوده بزوجات فارسيات بعد أن دفع لكل جندي مهره وسدد عنه ديونه تشجيعاً للأقدام على هذه الخطوة ، ولبس الاسكندر الملابس الفارسية واستعمل الأساليب الفارسية الادارية التى وجدها أرقى من الأساليب الاغريقية . وإذا كانت حياة الاسكندر القصيرة لم تمكنه من تحقيق حلمه ، ولكنه يعتبر بحق مؤسس الحضارة الهلينية التى سادت دول شرق البحر الأبيض المتوسط والتى تجلت في الحضارة السلوقية وحضارة برجيوم حيث فرضت الفلسفة الاغريقية بالتجارب والروحانيات الشرقية واختلط الاغريق بالفرس بشعوب منطقة شرق البحر الأبيض .

وحيث سادت لغة عالمية مشتركة وارتفع مركز المرأة الى ذروة لم تصلها من قبل ، وانتشر التعليم العام وازدهر الاقتصاد لتوسيع التبادل التجارى ، ولقد بلغ عدد المدن التى أنشأها الاسكندر في زحفه الحضارى القاهر نحو الشرق خمسا وعشرين مدينة ، ولكن واحدة منها . . واحدة فقط هى التى كان مقدراً لها أن تخلد اسمه وأن تخلد حضارته الفلسفية وهى مدينة الاسكندرية .

حكم البطالة

٢٢٢ ق م :

قرر قواد الاسكندر في مؤتمر بابل بعد موته الفجائي تولية أخيه غير الشقيق (نليب ارهيداوس) ملكا على أن يشاركه الملك ابن الاسكندر من زوجته الفارسية روكسانا والذي كان لا يزال جنينا في بطنها في أشهر السادس تحت وصاية فائد الجيش بريديكاس . وبهذا الوضع أمكن الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية ولم أنها لم تكن سوى وحدة في المظهر وذلك أن قواده قسموا ولايات الامبراطورية وعين لكل ولاية من ولايات الامبراطورية واليا يحكمها باسم ملكي مقدونيا تحت اشراف بريديكاس .

واختار بطليموس بن لاجوس - أحد كبار قواد الاسكندر - مصر ، وقد نسبت القصص الخرافية حول أصل بطليموس بعد أن أسس دولة البطالسة في مصر ، ولكن المعروف انه سليل لاجوس وارسنيوس - من إحدى الأسر الاغريقية النبيلة ، وانه تربى في قصر فيليب الثاني « والد الاسكندر » ونشأت بينه وبين الاسكندر صداقة كبيرة ، وكان كغيره من قواد الاغريق الذي يعتزون أشد الاعتزاز بأصولهم ولا يرضون بغير معاملة الند للند ، ولذلك فلا عجب أن استمرت المنازعات بين هؤلاء القواد وبعضهم خلال السنوات القادمة ، وقد اختار بطليموس لاجوس - أحد كبار قواد الاسكندر - مصر ، وهي التي كان يرنو اليها منذ دخلها مع الاسكندر وأحاط بما هي عليه من غنى وحضارة يجعلها قاعدة لدولة عظمى ترث امبراطورية الاسكندر كما كشف عن ذلك في مذكراته المستفيضة التي كتبها في شيخوخته ، وكان أول عمل أقدم عليه بمجرد ولايته مصر أن استمع الى شكاوى المصريين من سوء تصرفات كليوميتيس الذي كان قد أصبح صاحب الأمر النهائي في مصر منذ بارحها الاسكندر ، وكيف اغتنى من أعمال النهب والسلب ، فأصدر بطليموس حكمه باعدام كليوميتيس وصادر أمواله وراح يستغلها في تأليف القلوب من حوله وتأليف جيش وأسطول بحري يحققان أغراضه ومطامعه .

وفي أواخر هذا العام قام بطليموس بحركته الثانية البارعة التي تكشف عن خطته للمستقبل ، فقد نجح في احضار جثمان الاسكندر رئيسه ليدفن في مصر ، بدعوى أن الاسكندر المقدوني رئيسه أوصى بذلك قبل موته باعتباره ابن آمون .

ودفن الاسكندر في مدينة منف ، ريثما أعد له بطليموس مقبرة تليق بمقامه في مدينة الاسكندرية .

ولا تزال هذه المقبرة مجهولة حتى الآن لم يكشف عنها رغم العديد من المحاولات .
وإذا كان هدف بطليموس منذ اللحظة الأولى انشاء دولة قوية غنية في مصر
تستطيع أن تكون مستقلة ويكون قادرا على الدفاع عنها ، فقد وضع خطته لانشاء
أسطول بحرى ضخم ، وإذا كانت الأخشاب اللازمة لذلك غير موجودة في مصر ، وقوة
الأسطول تعتمد على مقدار ما له من قواعد ، فقد شرع يعمل على ضم سوريا وقبرص
وضم بعض الاقاليم في آسيا الصغرى .

وبدأ بطليموس بعد ذلك يمد نشاطه الى البلاد المحيطة بمصر فاستولى على ليبيا
(فوربتنيا) وراح يعمل حثيثا للفوز بالسيادة على بحر ايجيه .

٣١٩ ق م :

شرع بطليموس في غزو فينيقيا وفلسطين وجنوب سوريا مما أصبح يطلق عليه
اسم « جنوب سوريا » واستولى فيما استولى عليه على اورشليم بيت المقدس مركز
اليهودية .

وقد جمعه ذلك يصطدم اصطداما مباشرا مع بريديكاس فدخل في سلسلة من
المحالفات والمعارك سقط خلالها بريديكاس قتيلا بيد اتباعه وعلى رأسهم سلوتس ،
وبدأ بطليموس يتغير .

وانخرط بطليموس في المعارك التي دارت بين حلفاء الاسكندر وحكام الولايات
الاغريقية المختلفة وخاصة ضد انتوجونوس الذي حاول أن يستعيد امبراطورية
الاسكندر .

وتاريخ حظ بطليموس بين المد والعجز ، واضطر في احدى المرات أن يجلو عن
جنوب سوريا وفينيقيا وأن يتسحب داخل مصر (٢١٥ ق م) .

وتارة يعود للظهور بمظهر السيد في شرق البحر الأبيض المتوسط حتى ليستولى
على قبرص (٣١٣ ق م) ويساعد رودس ويحتضن المدن المتحالفة للاستقلال عن
مقدونية نفسها حيث يرفعونه الى مصاف الآلهة ويعبدونه باسم الآله المنقذ (سوتر)
ويوشك أن يتزوج كليوباترا أخت الاسكندر ، لولا أن منافسيه من قادة الأغريق قتلوها
ليحولوا دون ذلك ، ثم يسترد ليبيا التي كانت قد ضاعت منه ليفقد قبرص من جديد
ويفقد نفوذه البحرى بالتالى في شرق البحر الأبيض (٣٠٦) .

٣٠٥ ق م :

اعلن انتوجونوس وابنه ديمتريوس أنهما ملكين فانتهز بطليموس هذه الفرصة
للخطوة التي كان يرنو اليها منذ أمد بعيد فأعلن نفسه ملكا على مصر واستطاع أن يصد.

غزوا دبره ضد مصر انتجونوس بعد أن كانت امبراطورية الاسكندر قد انحلت وأعلن كل وال استقلاله بما يحكم بحيث أصبح فيها خمس شخصيات عظيمة وهي كاسانديروس في مقدونيا ، وليسيماس خوس في تراقيا وآسيا الصغرى وسلوتس في بابل وانتيجونوس وابنه ديمتريوس (فاتح المدن) يرأس عصبة كورنثه ويسيطر على قبرص وكثير من المدن الاغريقية في بلاد الاغريق وآسيا الصغرى .

٣٠٠ ق م :

الف اقليدس الذي أنشأ مدرسة للهندسة في الاسكندرية كتابه الشهير العناصر الذي لخص فيه اعمال فيثاغورس وكل من سبقه من علماء الرياضيات وأضاف الى ذلك كله الرياضيات اليها .

٢٩٠ ق م :

وأخيرا بطليموس في مصر .

٢٨٥ ق م :

لم يكد ديمتريوس ابن انتيجونوس الذي كان قد مات من قبل بعد أن طحنه المعارك مع سلوتس % حتى أنهز بطليموس هذه الفرصة واستعاد سيادته على شرق البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على موانئ فينيقيا وصيدا وحمور وكاونوس ، وكذلك أسطول ديمتريوس واسنولي على جوف سوريا للمرة الرابعة ، حيث كان حلفاؤه قد جعلوها من نصيب سلوتس الامر الذي سيجعل هذا الامر متار نزاع بين مصر وسوريا طوال المائة سنة التالية .

وفي هذه السنة أشرك بطليموس معه في الملك ابنه من زوجته المحبوبة برينيكي ، وذلك ليحول بين ابنه الأكبر من زوجته يوريديكي المعروف باسم (بطليموس الصاعقة) وولاية الحكم .

ولذلك تولى هذا الأخير الى ليسماخوس ثم الى سلوتس للحصول على عرشه . يمكنه من الحصول على ارثه .

٢٨٣ ق م :

مات بطليموس الاول وكان قد بلغ من العمر ٨٤ سنة - وكان ككل مؤسسى الدول يتسم بالتعقل والحكمة والحدرد ، فوق كونه جنديا محاربا فخلف لابنه من بعده دولة

متكاملة مستقرة بعد خمسين سنة من حروب متصلة . وقد كان لشخصيته المحبة أثر في هروع الاغريق لخدمته . . كما انه لم يهمل لحظة واحدة شأن الشعب المصري . ولقد كان رجل علم وأدب ولذلك فقد وضع أساس مكتبة الاسكندرية التي ستكون موضع تروها وفخارها وكتب بنفسه تاريخا لمعارك الاسكندر ، ويتصف بالاستقامة والامانة .

٢٨٢ ق م :

انفرد بعرش مصر بطليموس الثاني (فيلاديفوس) (الحب لاخته) وعلى الرغم من انه اشتهر بهذا اللقب فيلاديفوس فالراى على أن هذا اللقب وصفت به اخته وزوجته ارسينوى بعد وفاتها .

وانتشرت في ايامه التجارة وكثر وفود الأجانب على مصر ولا سيما اليونانيين باعتبارهم من جنس الأسرة المالكة وأصبحت اللغة اليونانية هي لغة البلاط وان ظلت اللغة المصرية القديمة هي لغة الأمة وظلت الاوامر الملكية تصدر بها مشفوعة باليونانية .

وتشبه ملامحه ملامح أبيه ولكنه لم ينعم بمواهب أبيه الحربية ولم يشغف بالقتال ، حتى انه لم ير على رأس جيشه احلاقا ، ومع ذلك فقد خلد اسمه بالكثير من خلود اسم أبيه لثقافته الواسعة وشغفه وولعه بالجغرافيا والتاريخ الطبيعي مما جعله يحول الذواة التي وضعها أبوه للمكتبة الى عمل عظيم وأن كان استغراقه في الشهوات والمذات الدنيوية لا يقل وضوحا في حياته عن هذه الناحية .

والى جوانر شخصه تقوم شخصية اخته ارسينوى والتي تزوجته بعد أن كان قد سبق الزواج لها مرتين من قبل وذلك لتحقيق طموحها وسيطرتها حتى استطاعت بالقتل فترة حياتها أن تحكم الامبراطورية وصرفت شئونها الحربية ، وقد كان زواج الابن من اخته الشقيقة يعتبر فسقا في نظر الاغريق ، ولكن بطليموس اخذ بسنة القرائة من قبله .

وفي نفس الوقت كان اخوه غير الشقيق بطليموس الصاعدة قد أصبح ملكا على مقدونيا بعد أن قتل ساوتس اعظم حلفاء الاسكندر . وأسرع بعد يد الصداقة والتحالف لآخيه بطليموس فيلاديفوس ضد عدويهما المشتركين — انطيوخس ملك سلونيا وانتيسوتوس المطالب بعرش مقدونيا ولكنه لم يلبث أن جرح ومات عام ٢٧٩ في غزوة القتال ضد مقدونيا .

وقد اتهم ذلك كله الى جعل مصر اقوى دولة في العالم الهليني فيها دولة السلوقيين التي ولي عرشها انطيوخس ابن ساوتس وكانت تشمل ولايات امبراطورية الاسكندر في بلاد ما بين النهرين واغلب الولايات الشرقية البعيدة وجائيا كبيرا من آسيا الصغرى وسوريا (فيما عدا جوف سوريا) والدولة الثالثة مقدونيا وكانت تعتبر نفسها سيدة المدن الاغريقية في شبه جزيرة اليونان .

على أن لا بطليموس الأول ولا ابنه من بعده ، فكرا كما فعل غيرهما من خلفاء الاسكندر في اعادة تكوين امبراطورية الاسكندر وقصرا همهما على الحفاظ على استقلال مصر الكامل ولعب الدور الأول في العالم الهليني وكانت أفضل وسيلة لذلك هي احراز السيطرة على بحر ايجة - والاستكمال هذه السيطرة حاول فلاديفوس الاستيلاء على شواطئ آسيا الصغرى الجنوبية والشرقية بالإضافة الى استيلائهم على موانئ فينيقية وصور وصيدا وغيرها وكان طبيعيا الا يسلم السلوقيون للبطالسة بهذا الحق الذي يحرمهم من موارد ضخمة وانشاء اسطول كبير والاحتفاظ به في موانئهم السورية ويتيح للبطالسة أن يسدوا في وجوههم الاتصال بالبحر الأبيض المتوسط .

كما لم يكن في وسع ملوك مقدونيا أن يساموا بسيطرة البطالسة على بحر ايجة لان ذلك يؤدي الى سيطرة مصر على بلاد الاغريق .

وهكذا نشبت الحرب بين هاتين الدولتين ومصر .

٢٨٠ ق م .

بدأ النزاع العنيف بين انطيوخوس الأول وفيلادلفوس بتشوب حرب غامضة سميت (الحرب الكارية) فقد احرزت مصر من ورائها فتوحات في كارييا ودمشق لان فيلادلفوس استولى على دمشق وشاطئ فينيقية الشمالي حتى ارادوس ، ولانشغال كل منهما بخطر يهدده عقد صلح بين الطرفين عام ٢٧٠ ولكن لم يكن الا صلحا مؤقتا . فقد كان كل من الطرفين يستغل اشغال الآخر لكي يهاجمه . . . ولذلك فقد استرد انطيوخوس دمشق فيما يطلق عليه اسم الحرب السورية الاولى عام ٢٧٥ ويقال ان هزيمة بطليموس في سوريا هي التي حدثت به الى زواج أخته ارسينوى لمواجهة المجهود الحربي وان كان البعض يرون ان الزواج تم من قبل ذلك .

وكان انطيوخوس قد حالف ماجاس والرمصر على توزمانية فزوجه ابنته فاستمر ماجاس باعلان استقلاله والزحف على مصر ، وان يصل بجيشه الى الاسكندرية ولكن ارسينوى استطاعت ان تتفاد الاسكندرية بأساليبها ودساتيها في جيش ماجاس

٢٧٦ ق م .

وجه فيلادلفوس حملة الى أثيوبيا على ما يقول ديودورس لتوسيد حدود مصر الجنوبية وما بين أعلى النيل .

٢٧٢ ق م .

عقد فيلادلفوس معاهدة تجارية مع هذه القوة النامية التي بدأت تظهر في غرب البحر الأبيض وهي قوة روما .

٢٧٢ ق ٠ م :

اضطر انطيوخوس الى عقد صلح جديد مع مصر بعد ان عادت حيويتها فاستولت على كل شواطئ فينيقيا وردته على اعقابها داخل سوريا واصبحت مصر بموجب هذا الصلح تشمل نصف كليكياء الغربى وساحل بامبيليا الشرقى واغلب ليديا وعدة اماكن في كارياء وايونيا - وفي بحر ايجه كان فيلادلفوس يملك ساموترا فيا وايشانوس الى جانب ساموس التى أصبحت قاعدة الاسطول البطلمى فى بحر ايجه .

ولم يبق فى قبضة انطيوخوس فى سوريا سوى دمشق وعلى حدود مصر الغربية دان له ماجاس بالطاعة .

٢٧٠ ق ٠ م :

ماتت ارسينوى الثانية وبالأحرى صعدت الى السماء والتي عسى اليها رسميا كل هذه الانتصارات الباهرة .

وقد توفيت دون أن تنجب ابنا من فيلادلفوس ويذكر مصدر قديم آخر انها تبنت اولاد فيلادلفوس من زوجته السابقة وأن اكبرهم سنا كان بطليموس الثالث .

٢٦٢ ق ٠ م :

توفى انطيوخوس وخلفه ابنه الأصغر انطيوخوس الثانى الذى سرعان ما أشعل نيران الحرب من جديد مع فيلادلفوس ويطلق عليها اسم الحرب السورية الثانية مع أن غرب آسيا الصغرى كان مسرحها الرئيسى . وفى هذه الحرب خسر فيلادلفوس سيادته على بحر ايجه وخسر ممتلكاته فى قراقياثانية واستولى انطيوخوس على كل فينيقيا شمال صيدا .

٢٥٥ ق ٠ م :

تم دمج قورنيتائية الى الدولة المصرية عن طريق زواج برنيكى ابنة ماجاس الذى كان قد مات ، من ولى عهد مصر بطليموس الثالث (بورخيس) .

٢٥٣ ق ٠ م :

توصل فيلادلفوس الى كسب انطيوخس الى جانبه بالمصاهرة حيث زوجه بابنته (برنيكى) وأصدقه مهرا أصبح مضرب الأمثال بحيث أصبح يطلق على برنيكى لقب

(مرفوروس) أى صاحبة الصداق العظيم — والرأى الراجع أن هذا الصداق كان هو ارجاع كيليكيا الغربية وبافيليا لانطيوخوس فى مقابل تنازل السلوقيين عن المطالبة بحوف سوريا .

٢٥٠ ق م :

بعد أن اطمأن فيلادلفوس على حدوده الشرقية الغربية استطاع ان يثار لنفسه من جوناناس وأن يستعيد سيادته على بحر أيجه .

وهكذا تابع فيلادلفوس سياسة أبيه فعمل على تدعيم حدود مصر الغربية والشرقية والجنوبية ودعم سيادة مصر فى بحر أيجه وعنى بالتجارة الجنوبية ووجه اهتماما الى التجارة الشرقية ويستدل على ذلك من حملته على البنط وتوطيد سلطان مصر فى فلسطين وشرق الأردن وفينيقيا ومن الاستيلاء على اجزاء من ايونيا .

وعلى الرغم من المبالغ الطائلة التى انفقته مصر على مجهود مصر الحربى فى سبيل سياستها الخارجية فان الخزائن الملكية بقيت مكتظة بالاموال .

وليس أدل على الفنى الوافر الذى وصلت اليه البلاد من أن بطليموس الاول حين اراد أن يولم وليمة لاصدقائه اضطر الى ان يقترض آنيتهم الفضية وطنافسهم . أما بطليموس الثانى فقد أنق فى إحدى حفلات تتويجه ما قيمته ٢٥٠٠٠٠ ريال .

وقد اعاد تطهير القناة الموصلة للنيل بالبحر الاحمر التى كان نخاو قد اصلحها وكذلك دارا الثالث .

وقد استقدم فيلادلفوس الى بلاطه مشهورى السفراء والعلماء والنقاد والمتبحرين فى العلوم الطبيعية والفلسفة والفنانين واستضافهم عنده وزين مدينة الاسكندرية بالمبانى الفخمة على الطراز اليونانى ، حتى أصبحت الاسكندرية فى اثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الابيض المتوسط الادبية والعلمية وازدهرت آدابها ازدهارا لم تر مثله ووسع المتحف والمكتبة وانفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين الذين جاءوا بعده ينسبون اليه انشاءها وكان رئيس المكتبة (المعهد) فى عهده يعتبر من الناحية الرسمية كاهنا دينيا لانه كان مخصصا لآلهات الفن بوصفها معبودات بحق .

وكان يعيش فى المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين وكتاب وعلماء فى الطبيعة وأطباء ، وكانوا يتقاضون مرتبات من الخزانة العامة ، ولم تكن مهمتهم ان يعلموا الطلاب بل ان يتوفروا على البحوث والدراسات واجراء التجارب ولما تضاعف عدد الطلاب فى المتحف فى العصور التالية قام أعضاؤه بالقاء المحاضرات .

وتعتبر هذه المكتبة وهذا المعهد والجامعة هو اول مؤسسة فى التاريخ اقامتها

دولة للعمل على تقدم الآداب والعلوم - والاجتماع على أن ذلك ذروة ما استفادته الحضارة الإنسانية من حكم البطالسة ومدينة الاسكندرية .

وفي عهد بطليموس فيلادلفوس كتب مؤرخنا الأشاهد مانيتون تاريخ مصر الذي رأينا مدى اعتماد المؤرخين على تقسيماته وفي عهده أيضا تمت على أرجح الآراء ترجمة النوراة اليونانية هذه الترجمة المشهورة بالسبعينية وهو الذي أوهر للمانيتون بوضع تاريخ مصر - وشيد منارة الاسكندرية لتهتدي بها السفن .

وشيد هيكل أنس الوجود .

٢٤٦ قى ٠ م :

مات بطليموس فيلادلفوس بعد أن حكم ٣٩ سنة وارتفع العرش ابنه بطليموس الثالث - وقد أشاد الشعراء بوادعة الملك الجديد وهي صنفة يؤيدها لقبه الألهى يورجتييس أو الخير .

وقد كان ملكا مثقفا مثل أبيه ، فكان تلميذا للشاعر ليووتيوس الرودى وصديق العالم الفذ اراتوستيس ، وقد أصلح التقويم الذى اقتبسه يوليوس قيصر فيما بعد ، وهذا الإصلاح ينطوى على اضافة يوم كل أربعة أعوام الى العام المصرى الذى كان يتألف من ٣٦٥ يوما .

على أنه لم يكمل يعلى العرش حتى كان مقدرا له أن ينخرط فى الحرب السورية الثالثة ، والتي جعلته يستعيد فى ذاكرة المصريين فتوح توحتهس الثالث من قبل ، فقد وصل بجيشه حتى نخوم الهند ، وسقطت فى يده بابل وايران .

وكان سبب هذه الحرب السورية الثالثة أن انطيوخوس الثانى الذى كان قد تزوج بيرنيكى المصرية ، كان قد مات ، وقيل أن زوجته الأولى هى التى دسبت له السم بعد أن حملته على اعلان ابنها منه خلفا له على العرش وبالفعل نودى عليه ملكا لسلوكيا باسم سلوتس الثانى .

وكان طبيعيا أن تتمسك بيرنيكى التى كانت تقيم فى انطاكية بالعرش لحساب ابنها فنادت به ملكا واستنجدت بأخيها الذى هب لنجدها بالفعل ، وسرعان ما وجدنا جيوش بطليموس فى مدينة سلوقية على نهر الدجلة عام ٢٤٥ ق.م. وأوفد الرسل الى حكام كل الولايات الشرقية يطالبهم بالطاعة فأذعنوا وبين حاكما على هذه الولايات التى كانت تقع عند نخوم الهند . واخضع الجزيرة والعراق وتوغل فى فارس حتى وصل الى همدان وبلخ واسترد معبودات المصريين التى كان قمبىز قد اخذها معه .

وقد عبرت برتيس زوجة بطليموس الشابة عن شكرها لانتصاراته المذهلة فقد وهبت خصلة من شعرها للالهة : وتفننى الشعراء بهذه الفصصة : ورفع الفلكيون عقيرتهم بها الى السماء فسموا احدى المجموعات النجمية باسم كومانسيى أى شعر

يزنيس (دورانت ٦٣) . ولكن هذه الحملة المظفرة لم تجد أخته أو ابنها فتيلة فقد
اقتيلت في هذه المدة هي وابنها .

كما ان أحداثا طرات في مصر جعلت بطليموس يسرع بالعودة الى مصر ، مما مكن
سلوتس الثاني أن يسترد بعض ما فقد ، ويدخل في محادثات مع القوى الاغريقية
المعاصرة ليعاودا الهجوم على مصر بحرا ، ولكن اساطيل مصر استطاعت أن تحبط
هذا الهجوم خلال عامي ٢٤٣ ، ٢٤٢ ق.م .

٢٤١ ق م :

عقد سلوقس الثاني مع بطليموس صلحا ، جعل مركز مصر على شواطئ بحر
ايجه الشمالية والشرقية أقوى من مركزها عام ٢٧٢ ق.م .

ويعتبر ذلك ذروة ما كانت عليه من قوة عسكرية في ظل حكم البطالسة .

ونعمت مصر بعد ذلك بعشرين سنة من السلم ، فلم يحاول بطليموس الثالث :
أن يتدخل في النزاعات والحركات التي قامت بين سلوتس الثاني وأخته ، أو في
الحركات التي قامت لاستعادة مقدونيا سلطانها على بلاد الاغريق . . وكل ما بذله
بطليموس من نشاط كان من خلال المناورات السياسية والمعونات المالية .

ولم يغيره انحلال الدولة السلوقية الكبيرة أن يعاود احتلالها ، قانعا بتأمين حدود
مصر ، وسيادتها على شرق البحر الابيض وبحر ايجه مما يجعل امبراطورية
البطالسة اقرب الى أن تكون امبراطورية بحرية منها أن تكون برية ، وقد حرص
البطالسة الثلاثة حتى ذلك التاريخ على أن يحتفظوا بقوريناثيه وجنوب سوريا
وقبرص كأجنحة وخطوط دفاعية امامية عن مصر لسلامتها ، وتعميم نشاطها
التجاري والاقتصادي .

٢٢١ ق م :

خلف بطليموس الرابع وقد أخذ لنفسه لقب (فيلوطار) أي المحب لأبيه في يوم
بين الخامس والسادس والعشرين من فبراير من هذا العام وكان شابا في الثانية
والعشرين من عمره لاهيا عابثا اتحدت مصر على يديه من ذروة القوة التي كانت
قد وصلت اليها .

تقد بدأ حياته بسلسلة من الجرائم التي قتلت فيها أم الملك وأخوه وعمه على
يد وزيره سوسيبوس الذي أوغر صدر بطليموس ضد هذه الشخصيات الثورية
ليخلو له الجو وينفرد بالسلطان وقد ساعده على ذلك انخراط بطليموس الرابع في
العبث والمجون واللهو إذ أحاط نفسه بمجموعة من الافاقين حثالة الاسكندرية وقد
أطلق اسكندريو ذلك العهد على هذه المجموعة « أخوان الانس » وكان أظهر ما في

هذه الجماعة الماجنة التي لم تلبت ان جعلت من بطليموس العوبة في يدها نديمه اجاتوكس واخته التي اصبحت محظية بطليموس والمسماه (اجاتوكليا) .

وكرر فعل لما كان يعيش فيه بطليموس من لهو وعبت ، تعلق في نفس الوقت ببعض اسرار العبادات الغامضة ، حتى اصبحت الناس ورجال بلاطه يدعونه باسم الاله ديوتيسوس اله الخمر عند الاغريق .

كما اشتهر بتعلقه بالاداب فكتب قصة شعرية تدعى اودنيس .

٢١٧ ق م :

التاريخ الذي يعتبر بمثابة نقطة التحول في حكم البطالسة في مصر ايام بطليموس الرابع ، حيث ظهر الشعب المصري لأول مرة كقوة حربية قادرة على الاصطدام بجيوش الاغريق المحترفة والانتصار عليها . في معركة رفح وما ترتب على ذلك من انقلاب في موقف المصريين من الأسرة الحاكمة .

وقد بدأت الامور التي انتهت بهذه الذروة ، عقب تولى بطليموس الرابع . حيث وصل الى علم انطيوخس الثالث (الكبير) ما آلت اليه امور الدولة المصرية على يد الملك الطائش من ضعف ووهن .

فشن ما يسمى بالحرب السورية الرابعة .

وكان طبيعيا ان ينتهز انطيوخس الثالث ملك سلوقيا ، تدهور موقف العرش في مصر وما يتبعه ذلك من انحلال قوات الدولة . فاستأنف غزوه من جديد لمنطقة حوف سوريا عام ٢١٩ ق م ، واستطاع بالفعل ان يستولى على هذه المنطقة وموانئها صور وعكا واربعين سفينة حربية ومعدات هائلة ، وكان باستطاعة انطيوخس ان يجتاح مصر ، ولكن سوسيبوس وزير بطليموس استطاع ان يوقفه بحجة التفاوض ، في الوقت الذي كان يجهز فيه جيشا اعتمد على المصريين لأول مرة بحيث كانوا يؤلفون الجزء الاكبر من قوة الجيش ، وحدث الاصطدام عندما تخطى انطيوخس رفح فوجد الجيش البطلمي الجديد على بعد تسعة كيلو مترات جنوبي هذه المدينة .

وكان جيش انطيوخس يتألف من ٦٢.٠٠٠ راجل و ٦.٠٠٠ فارس و ١.٠٢ من الفيلة الهندية القوية ، وكان قلب جيشه (الفالافكس) يتألف من ٢.٠٠٠ جندي مقدوني واغريقى يؤيدهم ١.٠٠٠ جندي من حملة الدروع المختارين ينتمون الى مختلف الجنسيات وذلك في الوقت الذي كان الجيش البطلمي يتألف من ٥.٠٠٠ راجل و ٥٠٠ فارس و ٧٣ فيلا افريقيا وكان قلب الجيش (الفالافكس) الذي حقق النصر يتألف من ٢.٠٠٠ مصرى و ٥٠٠ فارس اغريقى

وعندما التقى قلبا الجيشين انهزم قلب انطيوخس الذي كان يتألف من خيرة جنود العصر الذين ملأتهم الانتصارات السابقة زهوا وقوة وثقة بالنفس .

ويقول لنا الكهنة المصريون الذين اجتمعوا في منف بعد عودة فيلوباتر منتصرا ، ان انطيوخوس لقي على يد المصريين هزيمة فادحة فر بعدها هاربا في هلع شديد الى حد انه القى عن نفسه شارات الملك بينما فاز بطليموس بغنائم وفيرة .

وكان باستطاعة بطليموس ان يستثمر هذه الهزيمة المروعة فيلاحق خصمه ، ولكنه اکتفى بهذا النصر الساحق غير المتوقع فقد كان الاغريق يشكون في قدرة المصريين على الثبات فضلا عن الانتصار ... ولذلك فلم يكن انطيوخوس يعرض الصلح على فيلوباتر على ان يعين له جوف سوريا ، حتى بادر فيلوباتر بقبول العرض .

ويقول لنا بوليبيوس المؤرخ القديم الذي روى لنا هذه الاحداث ان معركة رفح لم تكن انتصارا باهرا لفيلوباتر ووزيره سوسيوس الذي كان يقود الجنود المصريين فحسب ، بل انها كانت انتصارا رائعا للمصريين الذين كان البطالسة يعاملونهم حتى هذه المعركة معاملة المغلوبين على امرهم .

٢٠٩ ق م :

انجبت ارسينوى الثالثة أخت بطليموس الرابع والتي كان قد تزوجها عقب معركة رفح وليا للعهد اشرك مع ابيه في الملك وهو لا يزال في المهد (٦ يونيو عام ٢٠٨ ق م) . ولكن ذلك لم يكن له كبير الاثر في انقاذ زوجها من قوى الشر التي تحيط به ممثلة في الحاشية البغيضة السالف الاشارة اليها .

٢٠٢ ق م :

اننصار روما الساحق على قرطاجنة في معركة زاما وسيادتها بالتالى على غرب البحر الابيض المتوسط واتجاهها نحو شرق البحر لتأكيد سلطاتها فيه .

٢٠٣ ق م :

في ٢٨ نوفمبر من هذا العام دعا اجانوكلس وسوسيوس رجال الحرس الملكي وافراد الحاشية وضباط المشاة والفرسان واعلنوا وفاة الملك والملكة وناديا بالطفل الصغير بطليموس الخامس (ايفانس الطاهر) ملكا كان سنه لا يتجاوز خمس سنوات .

أوصياء الملك الجديد :

والقول على أن بطليموس الرابع مات قبل ذلك التاريخ بمدة كبيرة يحددها

البعض بعام كامل .. حيث وقع خلاف بين ارسينوى الثالثة الملكة الزوجة والام
وبين هذه العصابة المحيطة بالملك على من يتولى الوصاية .. وقد قتلت العصابة
ارسينوى ، ثم أعلنت هذا الذى أعلنته . وقد غضب اهالى الاسكندرية لهذه
المؤامرة اشد الغضب ، فبدأت مراحل الثورة ضد هذه العصابة ولم يلبث سبيوس
الوزير ان مات فانفرد اجاتوكليس بالوصاية .

٢٠٢/٢٠٣ ق ٢٠٣ :

انتهز فيليب الخامس ملك مقدونيا ، وانطيوخوس الثالث تدهور الاحوال في
مصر ليعقد فيما بينهما اتفاقا لتقسيم ممتلكات مصر الخارجية بينهما ، ولم يلبث
ان شرع كل منهما فى الاستيلاء على ما هو من حصته ولكن فيليب تجاوز الاتفاق ،
مما احق عليه انطيوخوس وعاد الخلاف بينهما .

٢٠٢ ق ٢٠٢ :

تأججت نار الثورة فى مصر ، ضد اجاتوكليس وعائلته .. واستغل تليولميس
قائد بلزيون هذه الثورة فانضم الى الثوار وتحديثا كتب التاريخ بأدق تفاصيل هذه
الثورة حتى ليرى يوليوس ، كيف اخذت المقاومة اول ما ظهرت بنشر الاقاويل فى
المقاصف والاماكن العامة على سبيل التعريض فى بادىء الامر ثم الحملات الصريحة
على مزخرف الجدران وعازفة القيثارة ومصفقة الشعر : وذلك الخليع الذى كان
فى شبابه يعير نفسه لكل طالب بعد الشراب . وانتهت الثورة الجارفة بعد انتزاع
الملك من يد الوصى عليه بجر اجاتوكليس واخته اجاتوكليا وأمهما وواقاربهما وخدمهما
فى الشوارع وتسليمهم الى الجماهير الغاضبة المتعطشة لدمائهم فقطعت اجسادهم
أربا وهجمت الجماهير على بيت قاتل ارسينوى وقتلته هو وابنه وبجرت زوجته
عارية الى الميدان الكبير حيث ذبحت ، وعين تليولميس وصيا على الملك ، ولكنه لم
يلبث بدوره ان عزل وسط سخط الجماهير وخلفه فى منصبه ارشيونيس بينما
أسندت قيادة الجيوش الى سكوباس .

٢٠٠ ق ٢٠٠ :

بعد انتهاء الحرب اليونانية الثانية ، أرسل الرومان الى ملك مصر (بطليموس
ابيفانس) سفارة من ثلاثة اعضاء ليعلموا له نبا هزيمة هاتليبال بوليشكروه على ولائه
الذى لم يتزعزع فى الوقت العصيب الذى تخلى فيه عن الرومان اوثق حلفائهم ،
راجين منه ان يظل على ولائه القديم للشعب الرومانى اذا ما حدث ان أعلن الرومان
الحرب على فيليب الخامس ملك مقدونيا مدفوعين بالاساءات التى لحقتهم على يديه .

١٩٨ ق ٠ م :

بعد سلسلة من المعارك في جوف سوريا فيما يسمى بالحرب السورية الخامسة تأرجح فيها جيش مصر تحت قيادة سكوباس بين الانتصار على انطيوخوس والانهزام امامه . . استولى انطيوخوس على كل جوف سوريا - في الوقت الذي كان يستولى على آخر مواقع مصر في بحر ايجيه وشرق البحر الابيض المتوسط (بحيث لم يبق لمصر من املكها في البحر سوى جزيرة قبرص) .

١٩٧ ق ٠ م :

راى ايستومتس الوصى على ملك مصر ، انه من الحكمة ان ينهى الوصاية على الملك الذي كان قد بلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، وذلك بعد ان اعدم سكوباس قائد الجيش الذي دبر مؤامرة لقلب الحكومة هو وافراد أسرته وأعوانه .

وفي ٢٨ نوفمبر عام ١٩٧ ق.م. على ما سجل لنا حجر رشيد المشهور الذي كان مفتاح حل رموز اللغة الهيروغليفية ففيه سجل الكهنة حفل تتويج الملك وفقا للتقاليد المصرية القديمة .

١٩٥ ق ٠ م :

عقد انطيوخوس الكبير صلحا مع مصر ، ليتقوى امام عدوته الجديدة « روما » التى كانت قد بدأت تمد بصرها صوب الشرق ، وتلعب دورا رئيسيا في أحداثه ، بالاقناع بين فيليب وانطيوخوس حينما يومحاربة فيليب وقهره حينما آخر لتتفرغ لانطيوخوس الذى كانت توجه له الانذارات .

وكان من نتائج الصلح بين انطيوخوس ومصر ، ان تزوج بطليموس الخامس « كليوپترا » ابنة انطيوخوس على ان تكون هدية عرسها لبطليموس هي « جوف سوريا » وقد جرى الخلاف فيما بعد حول طبيعة الهدية وهل هي ملكية الاقليم ام مجرد دخله .

١٨٩ ق ٠ م :

انهزام انطيوخوس الثالث امام روما في معركة ماجاخسيا التى ترتب عليها رسوخ قدم روما في بلاد الاغريق وفي آسيا الصغرى وزيادة سلطاتها ونفوذها في السياسة المصرية .

١٨٧ ق ٠ م :

مات انطيوخوس الكبير وخلفه على العرش ابنه الضعيف سلوتس الرابع فقرر بطليموس الخامس أن يسترد جوف سوريا ، ولما كان يعرف أن روما لن توافق على مثل هذا العمل ، فقد قرر أن ينهج سياسة مستقلة عن روما ودخل في مفاوضات مع العصابة الآخية الاغريقية عامى ١٨٥ - ١٨٣ ق.م. لتحقيق هذا المشروع .

ولكن لم يلبث أن مات قبل أن يحقق أمنيته .

١٨٠ ق ٠ م :

مات بطليموس الخامس وهو لا يزال شاباً غضاً ، ويقول لنا يوليوس أنه كان بارعا في ركوب الخيل ماهرا في الصيد واستخدام الاسلحة . . وقد كان لقسونه ضد المصريين وغدره بزعماء الثورة منهم بعد أن أمنهم . . أكبر الاثر في اضعاف الدولة من الداخل وايقاع الفتن والشقاق بين أفراد الأسرة الحاكمة ، الامر الذى تسبب في ضياع ممتلكات مصر الخارجية .

بطليموس السادس فيلوماتر (المحب لأمه) .

وللمرة الثانية في خلال أربعة قرون ارتقى عرش مصر جيل صغير فقد ترك بطليموس الخامس وراءه ولديه بينما كان أكبرهم بطليموس السادس - فيلوماتر وكان عمره سبع سنوات فتولت الوصاية عليه أمه كليوباترا الاولى ابنة انطيوخوس ولذلك فقد استمرت علاقات مصر مع سوريا ودية خلال مدة وصايتها .

١٧٦ ق ٠ م :

ماتت كليوباترا مخلقة بطليموس السادس لرجال الحاشية فوقع تحت وصاية مربيه الخصى بولايوس والعبد السورى لنايوس .
وقد سائر هذان الوصيان الحزب الذى ينادى بضرورة استرداد سوريا لاعادة الانتعاش الاقتصادى الى مصر - وبدأت المناورات السياسية مع أحد أحزاب اليهود في مملكة يهوديا .

١٧٥/١٧٤ ق ٠ م :

احتفل ببلوغ بطليموس السادس سن الرشد (الثالثة أو الرابعة عشرة من عمره) وتزوج من أخته كليوباترا الثانية ، واحتفل بتنصيبه فرعوناً في منف .

١٧١ ق ٢٠ :

استغل انطيوخوس الرابع فرصة انشغال روما في الحرب المقدونية الثانية لكي يتشن الحرب السورية السالدية على مصر ، واستطاع أن ينجح فيما فشل فيه من قبله بريدكاس وانطيوخوس الكبير فهزم الجيش البطلمي عند تل كاسيون واستولى على بلوزيون وتقدم الى منف ، وهنا نصح الوصيان على بطليموس السادس أن يأخذ كنوزه ويهجر مملكته ويفر الى ساموترايا ، مما جعل الاسكندرانيين يفضون على بطليموس والانوصياء عليه حتى انهما قتلا هذين الاخيرين . .

ويقول بعض المؤرخين ان بطليموس قبض عليه أثناء فراره ، واعيد الى بلوزيون ، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقولون أنه انما استدعى من ساموترايا ليعقد معاهدة صلح مع خاله انطيوخوس ، فرضت عليه بقبول حمايته .

وقد رفض الاسكندرانيون هذا الوضع فنادوا بأخ فيلومور الاصفر ملكا وهو الذي عرف فيما بعد باسم بطليموس الثامن بورجيتس الثاني .

ومن منف زحف انطيوخوس على الاسكندرية بحجة أنه يؤيد حقوق الملك الشرعي فيلومور .

على أن انطيوخوس لم يلبث أن عاد الى سوريا نازكا حاميته في بلوزيون ، وبطليموس فيلومور في منف وبطليموس الصغير في الاسكندرية ، معتمدا على أن منافسة الاخوين ستمهد له السبيل لغزو مصر ثانية .

١٧٠ ق ٢٠ :

لم يكد ينسحب حتى اتفق فيلومور وبطليموس الصغير واختهما كليوباترا الثانية على أن يحكموا مصر بالاشتراك .

١٦٨ ق ٢٠ :

غزا انطيوخوس الرابع مصر ثانية بعد أن زالت الأسباب التي أدت الى انسحابه منها ، وبعد أن خاب أمله في وقوع الخلاف بين الاخوين . وسقطت قبرص لأول مرة في يد اسطول انطيوخوس ، وأرسل انذاره الى بطليموس يطلبه منه الاعتراف بملكيتة لقبرص ، وأن ينزل له عن مدينة بلوزيون والاقليم المجاور لقرع النيل البليوزي ، وحدد مهلة للاستجابة الى طلبه . . ورفض بطليموس هذه المطالب وبعث يستنجد بروما بعد انتصارها في الحرب المقدونية ، فأرسل السناتو (مجلس الشيوخ) بعثة سياسية على رأسها جاموس يوليوس ، لتملي ارادتها على انطيوخوس ، فطلب منه الانسحاب من مصر وقبرص .

ويصف المؤرخ الرومانى ليفيوس المتشهد الكبير بين أنطيوخوس والسفير الرومانى
وبعد ان عبر أنطيوخوس النهر (الفرع الكابوى) عند اليوسيس (التزهة) وهو
مكان يبعد عن الاسكندرية اربعة أميال - اعترض طريق السفراء الرومان فلما
اقتربوا منه حياهم الملك ومد يده لمصافحة يوليوس غير أن يوليوس سلمه لوحا
مدوناً عليه قرار السناتو ، وأمره أن يقرأه قبل أى شىء آخر فلما فرغ الملك من
قراءته قال أنه سوف يدعو اصحابه ليستشيرهم فيما ينبغى عمله . وعندئذ رسم
يوليوس بما جبل عليه من فسوة فى الطبع بعصاه التى كان يحملها فى يده ، دائرة
حول الملك قائلا أعطنى ردا أبلغه للسناتو قبل أن تخطو خارج هذه الدائرة . وذهل
الملك من لهجة الأمر العنيفة وتردد لحظة قصيرة قال بعدها : سأفعل ما يقرره
السناتو . عندئذ فقط مد يوليوس يده مصافحا الملك كما يمسدها الى حليف
وصديق . ولعل هذه القصة تظهر لنا كيف أصبحت روما مرهوبة الجانب ،
صاحبة الأمر والنهى فى البلاد الشرق الاوسط .

وقد استجاب انطيوخوس لكلا المطلبين وبعث الى روما على ما يحدثنا ليفيوس
المؤرخ الرومانى ، يبلغها فى ذلة انه اطاع اوامر سمرائها كما لو كانت صادرة من
الآلهة - على عكس بطليموس السادس الذى أوفد بعته ليشكر روما دون أن يجيب
طلبها الذى طلبته منه وهو أن يسلم اليها عدوها بوليا رانوس الرودى الذى كان
ملتجئا الى مصر مكتفيا باعادته الى وطنه .

١٦٥ ق م :

اشعل ديونسيوس المصرى ثورة عارمة ضد بطليموس متهما اياه بأنه يحاول
قتل اخيه الصغير .

وجمع حواله العناصر المصرية فى الجيش ، واضطر بطليموس أن يلاحقه فى أنحاء
البلاد ، وأن يلقى الكثير من الغنائم والتضحيات قبل أن ينجح فى اخماد الثورة .

١٦٤ ق م :

انتهت فترة الحكم المشترك فاندمج بطليموس الصغير فى أن يشير الاسكندريين
ضد اخيه الكبير ، فأضطره الى الفرار من مصر : حيث اتجه صوب روما ، والتى
انتهزت هذه الفرصة لتحكم بسط يدها وسلطانها ونفوذها على مصر فنصح له
السناتو بأن يتوجه للاقامة فى قبرص ، ريثما يرسلون بعثة الى مصر لدراسة
الموضوع .

١٦٣ ق م :

اكتشف الاسكندريون خطاهم فى مظاهرة بطليموس الصغير اذ وجدوه سفاكا

محبا للدماء طاغية بعكس اخيه الكبير الذى كان يتمتع بأخلاق كريمة لم ينعم بمثلها أحد من أفراد أسرته البطالمة على ما يقول المؤرخ المعاصر يوليبيوس - ولذلك فقد استدعوا فيلومور من قبرص ليتولى العرش فلبى وعاد الى الاسكندرية .

والكن البعثة الرومانية التى جاءت بناء على طلبه . . ساءها هذا الانتصار ، فقررت ان تبدأ خطوتها الاولى فى تقسيم الدولة المصرية بين الاخوين . فعقدت اتفاقا يأخذ بمقتضاه بطليموس الصغير فوريناثيه ، ويحتفظ بطليموس فيلومور بمصر وقبرص

وقد ارتضى بطليموس فيلومور هذا الاتفاق واسنقل هو وزوجته بحكم مصر حتى مات ، وبدأ عهده الجديد باصدار عفو عن كل الجرائم التى ارتكبت منذ تولى العرس حتى هذا التاريخ .

١٦٠ ق م :

انتسا اليهود فى مدينة ليونتوبوليس معبدا ينافسون به معبد اورشليم العظيم .

١٥٤ ق م :

لم يرض بطليموس الصغير عن هذا الاتفاق من اللحظة التى تم فيها ، وما فتئ يستصرخ روما ان تساعد على احتلال قبرص وضمها الى مملكته . ويتهم اخاه بأنه يدبر المؤامرات له . . وهذا مدى ارتباطه بروما ، وبالإضافة الى رغبته فى استمرار النزاع بين الاخوين بل وذهب الى أبعد من ذلك لكسب ود روما اذا أوصى لها بدولته بعد موته عن غير وارث . . فكان من الطبيعى أن يلقى آذانا صاغية فى روما التى كان يهمها أضعاف مصر ، فاستارت على بطليموس السادس أن ينزل له عن قبرص ، ولكنه رفض ، فشجعت بطليموس الصغير على غزو قبرص وطالبت حلفاءها فى شرق البحر الأبيض بمساعدته ، ولكن بطليموس السادس استطاع أن يهزمه ويدخره ووقع فى يده أسيرا ، ولكنه عفا عنه وسمح له أن يعود الى مملكته فى ثوريناثية . . ووعدته بتزويجه من ابنته .

١٥٢ ق م :

اشترك فيلومور فى حلف ضد ديمتريوس الاول ملك سلوفيا للانتقام لنفسه من الاهانات التى تلقاها فى بداية حكمه ، واذا كان يعرف أن روما لن تسمح له باستعادة امتلاك جوف سوريا فقد اكتفى بتأليب اليهود ضد ديمتريوس . . كما أيد أعداء شخص يدعى بالاس فى عرش سوريا اتخذ اسم الاسكندر ، ولفى ديمتريوس حقيقته فى ميدان القتال فى صيف ١٥٠ على يد جيش بطلمي .

١٥٠ ق م :

أصبح بالاس ملكا على سوريا وبابل وتزوج بالاس من ابنة فيلومونور المسماة كليوبترا (نيا) .
ولكن الحوادث اثبتت ان بالاس لم يكن بالرجل الجدير بالملك فكرهه شعبه ،
ونحدهاه ديمتريوس الثانى ابن ديمتريوس الاول .

١٤٧ ق م :

دخل بطليموس فيلومونور بجيشه الى بلاد سوريا وفلسطين لمساعدة بالاس زوج
ابنته بادىء الأمر ، ولكنه لم يلبث ان انحاز الى ديمتريوس الثانى .

وقد استقبلته مدن فلسطين اليهودية ومدن فينقيا استقبالا رائعا حتى لقد
عرضت عليه انطاكية العرش ، ولكن فيلومونور ادرك ان ذلك يزج به فى صراع مع
روما التى كانت تقف له بالمرصاد ولذلك فقد اقنع الاهالى بقبول ديمتريوس الثانى
ملكاً عليهم وزاد على ذلك ان زوجه ابنته كليوبترا ثيا وذلك مقابل التزول عن
جوف سوريا لمصر .

١٤٦ ق م :

انتهاء الحرب اليونانية الثالثة بتدمير قرطاجنة وابدتها على يد سكيو
ايماليانوس .

نجح بالاس فى اعتداد جيش جديد زحف به على شمال سوريا فتصدى له
فيلومونور على ضفاف نهر اونيوس باراس حيث هزمه نهائيا ولقى حتفه ، ولكن
فيلومونور بدوره أصيب بجرح قاتل ، أسلم الروح على أثره بعد اربعة ايام .

١٤٥ ق م :

وقد كتب يوليوس عن فيلومونور يقول : انه كان اكثر كلفة الملوكة الذين عاشوا
قبله وداعة وطيبة ، وأليك دليلا بينا : فهو لم يقض بموت أحد من أصدقائه بسبب
اى تهمة وجهت اليه ، واعتقد تماما انه لم يمت بأمر منه أى اسكندرى .

وقد اعتبر ديمتريوس ان نزوله لمصر عن جوف سوريا كان لم يكن . . . واستهز
فرصة موته وطالب جيوش بطليموس اما ان تنضم اليه او ان تنسحب الى مصر .

أغسطس ١٤٥ ق م : بطليموس السابع : ثيوس فيلوماثور :

كان بطليموس السادس (فيلوماثور) قد أنجب من زوجته كليوبترا الثانية ولدين أكبرهما يوباثور ، وقد أشركه معه في الحكم عام ١٥٢ ولكنه لم يلبث أن مات بعد عامين . فبقى ابنه الأصغر ثيوس فيلوماثور تحت وصاية أمه كليوبترا الثانية .

سبتمبر ١٤٥ ق م :

ارتقاء بطليموس ملك قوريتانية عرش مصر ، أذ لم يكد يسمح عن موت فيلوماثور حتى عرفت أطماعه وزحف بجيشه صوب الاسكندرية ، وأرسل إلى روما يذكرها بأنه رجلها الذي يجب أن تعتمد عليه . ووجدت روما مصالحها المحقة في أن يكون هو وليس ابن فيلوماثور ملكا على مصر ، فسوف يكون مدينا بعرشه لمساعدتها بعكس الآخر .

واقنع الرومان كليوبترا الثانية أن تتزوجه وبهذا تصبح شريكة له واذا وجدت أن لا سبيل أمامها غير ذلك ، خاصة وقد ناهضها فريق كبير من سكان الاسكندرية لعطفها على اليهود ، فقد انصاعت للنصيحة وارتقى بطليموس ملك قوريتانية عرش مصر واتخذ اللقب الإلهي الذي كان بحمله بطليموس الثالث فأصبح يطلق عليه اسم يورجنس الثاني . . الذي بدأ حكمه الدموي بدمج ابن أخيه ثيوس فيلوماثور ويؤكد يوسفوس المؤرخ أنه ذبحه في حضن أمه ليلة الزفاف . وعلى أية حال فلم يكن قتل ثيوس فيلوماثور إلا أول حلقة من سلسلة المآسي التي خضبت حكم يورجنس الثاني المخيف بالدماء .

فقد أطلق لنفسه العنان في قتل كل من يتشكك في إخلاصهم له . . وقسا على علماء الاسكندرية وفنانينها فقد كانوا يعطفون على فيلوماثور مما جعلهم يفرون إلى أنحاء العالم الأغريقي فبعثوا نهضة في كل الأماكن التي فروا إليها .

ونال اليهود الذين كانوا محل عطف فيلوماثور من اضطهاده .

١٤٤ ق م :

رسم يورجيتيس الثاني في منف فرعوناً وكان يسمى فبسكون أى البطين لترهل جسده وأفراطه في سمته ، وأنجبت له كليوباترا الثانية ابناً سمى ممفيتيس .

١٤٢ ق م :

ورغبة في أن يحذ يورجيتيس من أطماع زوجته كليوباترا الثانية ، تزوج ابنتها

كليوباترا الثالثة التي لم تكن تقل عن أمها طموحا وقسوة - وتذكر الوثائق التاريخية من ذلك العهد في ديباجتها عبارة : الملك والاخت والملكة الزوجة .

١٤٠ ق م :

وصول وفد روماني على رأسه سكيو الذي دمر قرطاجنة فاستقبله يورجيتس بحفاوة بالغة ، ومشى مع الوفد من الميناء الى القصر الملكي وهو يلهم القرط : بدانته - وتقول القصة ان سكيو أسر في اذن بتلمانوس العسقلوني الذي كان يصاحبه في الوفد - ان مواطني الاسكندرية مدينون لنا بشيء واحد هو انهم شاهدوا ملكهم يسير على قدميه وقد سافر سكيو في النيل حتى وصل الى ممفيس وشاهد في الطريق الحقول الخصبة والقرى الاهلة بالسكان .

١٣٠/١٣١ ق م :

اندلع لهيب الثورة الذي كان متوقعا منذ امد بعيد نتيجة تصرفات يورجيتس الدموية وحنق كليوباترا الثانية وسخط الاسكندريين عليه لتبعيته لروما وقد اراد ان يخدم الثورة بعمل يلقي الرعب في القلوب فحاصر الجيمنازيوم وكان غاصا بالسكان وأشعلوا النار في المبنى وقتلوا كل من حاول الفرار ، ولكن ذلك ادى الى استفحال نار الثورة ففرر الاسكندريون حرق القصر الملكي وأشعلوا النيران فيه : ولكنه كان قد تمكن من الفرار الى قبرص مع كليوباترا الثالثة واولاده منها وكذلك ممفيس ابنه من كليوباترا الثانية ، التي انفردت بالحكم على العرش وتحدثنا المصادر التاريخية المعاصرة ان يورجيتس قتل ابنه في ثورة غضبه وقطعه اربا وارسل اشلاءه الى امه كليوباترا الثانية هدية في يوم عيد ميلادها .

١٢٧ ق م :

سقوط الاسكندرية من حديد في يد يورجيتس الذي كان قد عاد الى مصر بعد ان اعفيت مغادرته لها ثورات وفن قامت في أنحاء البلاد ، حيث كان الاغريق واليهود وحانب من الجيش يؤيد كليوباترا الثانية بينما كان باقى الجيش وفريق كبير من الشعب المصري يؤيد يورجيتس ، ذلك ان يورجيتس بكل وحشيته ودمويته بالنسبة للاغريق واليهود وسكان الاسكندرية ، فقد كان يحسن معاملة المصريين . وعندما دخل يورجيتس الاسكندرية كانت كليوباترا الثانية قد لحقت بزواج ابنتها ديمتريوس الثانى الذى كان قد نصح مع زوجته كليوباترا ثيا واستأنفا الحكم سويا .

وكان ديمتريوس قد خف في نадь الأمر عام ١٢٨ لنجدة كليوباترا الثانية ظنا

منه ان الفرصة قد حانت لتحقيق الأطماع التي راودت أنطيوخوس الثالث والرابع . غير أنه لم يستطع التقدم وراء بليزيون حيث وجد يورجيتس في انتظاره : وقد استغل يورجيتس كراهية الجيش لديمتريوس وعمل على تأليب جيشه ورعيته عليه ولذلك فقد رفض الجيش الاشبك مما اضطره للانسحاب .

فما كان من كليوبترا الا ان ولت الى سوريا حاملة معها كنوز الدولة معللة نفسها بتكوين جيش يساعد على استعادة عرشها .

« بطليموس الثامن » يورجيتس الثاني – اصدر قرار عام ١١٨ ق.م :

جاء فيه قيام الخزانة الملكية بدفع نفقات دفن العجول المقدسة وتأمين حق المعابد التي تتمتع بهذا الحق في حماية اللاجئين . وحظر حرمان المعابد من هذا الحق والاعتداء وبلغ ما يملكه معبد ادفو في عهده من الأراضى ما يبلغ ١٤ ميلا مربعا .

١٢٤ ق.م :

تصالح يورجيتس مع كليوبترا الثانية ، وذلك لاسترداد الكنوز التي هربت بها ، ولأنه كان لا يزال لها أنصار كثيرون يصطدمون مع أنصاره .

١١٨ ق.م :

اصدر يورجيتس وكليوباترا الثانية قرارا بالعفو العام عن كل ما وقع من جرائم خلال الفترة الماضية . والاعتراف للجميع بحقوقهم في الاحتفاظ بما كانوا يملكونه آنذاك وهكذا اعترف كل من بطليموس وكليوباترا بما كان الآخر قد منحه لانصاره ايظمن الناس جميعا على ممتلكاتهم وتهدا نفوسهم ويخلدوا جميعا الى السكينة .

١١٦ ق.م :

في ٢٨ يونيو من هذا العام مات يورجيتس في الخامسة والستين بعد ان خلع عليه جنونه الدموى أسوا سمعة نصقت بأى ملك من ملوك البطالمة ، على الرغم من محاولاته التي بذلها في شبخوخته للتصالح مع أهل الاسكندرية والاغداق على العلماء والأدباء والفنانين ، ويرى استرابون ان يورجيتس تحمل نفقات بعثة خرج لاستكشاف الهند تحت اشراف الجغرافى يودكسوس .

وقد ألحقت المراكب المصرية تجوب البحر الأحمر ، وبعد ان كانت لا تتخطى بوغاز .

باب المندب ، اجتازت هذا البوغاز ووصلت الى حضرموت في جنوب بلاد العرب وبلاد بونت على شاطئ الصومال حيث كانت تستجلب العطور .

كما ابحر بودكسوس في رفقة بحار هندي الى الهند - وقد ساعد على رواج تجارة مصر الشرقية انهيار مملكة سبأ في عام ١١٥ ق.م وبمساعدة روما لمصر على حساب سوريا وفلسطين - واستكشاف هينالوس طرق الاستفادة من الرياح الموسمية عام ١٠٠ ق.م .

وكان يضممر حقدا دفينا لليهود لأنهم شددوا أزر أخيه بطليموس السادس ضده ونشطت الرسائل المعادية لليهود .

أخذت ثورة المصريين في الوجه البحري شكل الاضراب العام وفي القبلي الحرب .

أصدر قرار العفو في ١٤٥ ق.م . ثم في عام ١٤٠ ، ١٣٩ - ثم عام ١١٨ ق.م .

وقد حرص يورجيتس قبل وفاته على ارضاء زوجته كليوباترا الثالثة على حساب أمها فأوصى لها بالعرش من بعده ومن تختاره شريكا لها من بين ابنيها منه كما أوصى بمملكة قوريتانية لابنه غير الشرعي ايبون ، ولكن الاسكندريرين فيما يبدو لم ينفذوا هذه الوصية ليحتفظوا بوحدة الدولة وجعلوا منه نائبا للملك . ويبدو أن أول ما فعلته كليوباترا الثالثة هو التخلص من أمها كليوباترا الثانية بطريقة ما ، فقد اختفى ذكرها من الوثائق الادارية بعد عام ١١٦ ، ولم يعد يسمع عنها شيء .

١١٦ ق.م.:

ارتقى بطليموس التاسع - سوثر الثاني (لانيروس) ابن يورجيتس الأكبر
العرش على الرغم من معارضة أمه كليوباترا الثالثة لذلك حيث كانت تفضل أخاه الأصغر (الاسكندر) ولكن الاسكندريرين أرغموها على تولية الأكبر ، فحكم الى جوارها باسم بطليموس التاسع واتخذ اللقب الالهى سوثر الثاني - وأطلق الاهالي عليه اسم (لاثروس) ومعناه حمص .

وأقامت كليوباترا ابنها الثاني (الاسكندر) نائبا للملك في قبرص .

١١٥ ق.م.:

طلق بطليموس التاسع اخته كليوباترا الرابعة التي كان يحبها جدا جما وذلك تلبية لارادة أمه التي لم يستطع أن يقاومها وتزوج بناء على طلب أمه كذلك أخته الصغرى كليوباترا الخامسة (سبلى أى القمر) .

فنقمت كليوباترا الرابعة على أمها هذا العمل ، وحاولت أن تكيد لها وتثار لنفسها ،

فهاجرت الى قبرص ، وبعد ذلك الى سوريا ، حيث كانت تعرض يدها وأموالها على من يمكنها من العودة الى الاشتراك في حكم مصر ، ولكن ذلك انتهى بمصرعها ، ولكن هذه الخلافات الدموية كانت تفرى في جسد الدولتين السلوقية والمصرية وتعجل ساعة وقوعهما في يد روما لقمة سائفة .

١٠٧ ق.م :

دبرت كليوباترا الثالثة خطة لحمل الشعب السكندري على خلع ابنها بطليموس التاسع وقد نجحت الخطة بحيث اضطر للهرب بحرا للنجاة بنفسه تاركا وراءه زوجه وابنيه ، وقد استقر بعد حين في جزيرة قبرص .

وكانت كليوباترا قد استدعت ابنها الاسكندر بطليموس العاشر وأشركته معها في الحكم وقد أسرع الرومان فاعترفوا بالملك الجديد ، فقد كان سرهم أن تسرى الخلافات في دولة البطالسة . كما أسرع ابيون باعلان استقلاله في قوريتانية ولكي يؤمن هذا الاستقلال ويفوز بتأمين روما أوصى بقوريتانية لروما بعد موته .

١٠٤ ق.م :

استغاثت مدينة عكا بطليموس التاسع الذي كان يقيم في قبرص لانقاذها من حصار يافايوس اسكندر ملك اليهود ، حيث كانت مملكة يهودية قد استردت قوتها بتحالفها مع دولة الرومان ، ووسعت رقعتها على حساب جاراتها ، وبلغ الأمر بأن نادى بانايوس اسكندر بنفسه ملكا ، وراح يعمل على استعادة مجد اليهود كما بلغوه أيام داود .

وقد رأى بطليموس التاسع في هذه الاستغاثة فرصة لأن يعود الى الاراضى أيام داود .

وقد دارت بينه وبين ملك اليهود معارك على الارض السورية انتصر فيها على اليهود وناصرته مدينة غزة التي كانت خصما لليهود ولكل من يحالفهم ، وأسرت أمه كليوباترا الثالثة بجيوشها وأساطيلها لتواجه وتحبط مساعيها فوقفت الى جوار ملك اليهود .

وانتهت هذه الحروب والمعارك التي لم يستفد منها سوى اليهود بعودة بطليموس التاسع الى قبرص وعودة أمه الى الاسكندرية .

١٠١ ق.م :

وفاة كليوباترا الثالثة كوكى ، وانفرد الاسكندر الاول بملك مصر اسما وفعلا ، وفيل ان وفاة كليوباترا لم تكن طبيعية وان ابنها هو الذى قضى عليها .

واذ انفرد بطليموس العاشر بالملك فقد انخرط في شهوانه ، قبل انه كان مننفخا من الشحم كآببه الى حد انه كان يعجز عن المشي الا اذا سنده خادم من جانب ويقول المؤرخون المعاصرون ولكنه كان اذا شرب حتى ثمل اظهر رشاقة فا في اداء الرقصات الخليعة .

٨٩ ق.م :

كان طبيعيا أن يؤدي انفصال كوريناثيه عن مصر وسوء الأحوال الداخلية : انفجار الشعب السكندري ، وأسرع الجيش بالانضمام الى الشعب ففر بطليموس العاشر الى سوريا ولما حاول أن يسترد الاسكندرية بمساعدة جيش من المرطدوه مرة ثانية . . وانتهى الأمر بهلاكه في معركة بحرية .

٨٨ ق.م :

خلا الجو بوفاة بطليموس العاشر لبطليموس التاسع الذي استدعاه الاسكند من قبرص ليتولى حكم مصر . .

واذ كانت التنايلد تختم وجود زوجين على العرش وكان بطليموس التاسع قاصا من العمر ٤٠ سنة فقد استدعى ابنته براتيكي الثالثة التي كانت زوجة بطليموس العاشر واشربها معه في الملك وعرفها معا باسم الالهين فيلادلفوى فيلومصو سوثرس .

وكان المصريون في داخل البلاد قد ضاقوا بهذه المنازعات التي لا تنقطع بين الأسره الحاكمة . . وما يؤدي اليه ذلك من ضياع مصالح الشعب . . فقامت في القبلية ثورة عارمة تزعمتها مدينة طيبة استمرت ثلاث سنوات : ولكنها انتهت بتسخ طيبة عام ٨٥ ق.م .

واذ كانت روما في هذه الفترة مشتركة في بعض الحروب في آسيا الصغرى وممرت عاجيا آتينا ومدن الاغريق وكانت الفتن قد ثارت في روما نفسها ضد النبذ الذين يقودون جيوشها في الخارج وعلى رأسهم صلا ، فقد أثر بطليموس التاسع يقف على الحياد من هذه الأحداث . . في الوقت الذي ساعد الاثينيين فيه على ابناء مدينتهم التي خربها صلا حتى لقد أقاموا له ولابنته برنيكي الثالثة تمثالين مدخل الأورين اعترافا بجميلهما .

٨١ ق م :

مات بطليموس التاسع عن الثنتين وستين سنة تقريبا . . تاركا وراءه على العرش ابنته برنيكى الثالثة ، باعتبارها الوارثة الوحيدة للعرش ، وقد رضى بها الاسكندريون ملكة حتى لا يثيروا الخلافات الاسرية ولأنهم كانوا يحبونها من ناحية أخرى .

ولكن بطليموس التاسع كان قد انجب ولدين من كليوبترا سلينى . . وكانت كليوبترا الثالثة قد أرسلتهما الى كوش حوالى ١٠٣ ق م . لمحافظة على سلامتهما كما أرسلت ابنا لبطليموس العاشر .

وقد فر هذا الأخير وانضم الى صلا القائد الرومانى الذى اخذه معه الى روما ، فلما أن مات بطليموس التاسع ، وكان صلا قد أصبح فى ذلك الوقت ديكتاتور روما وسيد العالم الرومانى — رأى أن ليس هناك ما يخدم مصالح روما أكثر من أن يقيم على عرش مصر صنيعة له — فأرسله الى الاسكندرية بأوامر منه أن يكون ملكا .

فنودى به ملكا باسم بطليموس الحادى عشر اسكندر الثانى وتزوج برنيكى الثالثة ابنة عمه . وكانت زوجة ابيه فيما مضى .

ويبدو أن برنيكى لم نعبأ بهذا التعيين لاعتقادها أنها ستستطيع السيطرة على زوجها الصغير واستبقاء كل السلطة الفعلية فى قبضتها ولكن بطليموس الحادى عشر كان مصمما فيما يبدو على أن يكون اسما وفعلا ولذلك فقد قتل زوجته فى اليوم التاسع عشر من زواجه منها .

فأهانت هذه الجريمة الاسكندريين الذين انقضوا عليه فى الفصر وجروده منسه وقتلوه فى الجيمنازيوم . . وهكذا لم يدم حكمه أكثر من تسعة عشر يوما .

بطليموس الثانى عشر (الزمار) :

وقد أسرع الاسكندريون لاستدعاء ولدى بطليموس التاسع اللذين كانا فى سوريا، وجعلوا من اكبرهما ملكا على مصر واصغرهما ملكا على قبرص . وقد اتخذ ملك مصر الجديد بطليموس الثانى عشر لقب فيلاباتور فبلادلفوس — لكنه لم يلبث أن اُضاف الى ذلك لقب « نيوس ديونسيسيوس » .

ولكن أكثر القابه شيوعا كان هو لقب أولينس أى « الزمار » حيث كان بهوى عزف الناي واذ كان ارتقاء هذا الملك الجديد قد تم بإرادة الشعب الاسكندري وبغير استشارة روما فقد رفضت الاعتراف بالملك الجديد ، وزعمت أن بطليموس الحادى عشر كان قد أوصى بمصر لروما ، ولا تفسير لذلك الا أن يكون صلا قد أرسله قبل ارساله الى مصر على كتابة هذه الوصية . ولكن انهمالك روما فى خلافاتها الداخلية وحروبها المتعددة من ناحية ، ومبادرة بطليموس الزمار لرشوة نبلاء روما واعضاء مجلس

شييوخها . . أبقاه على العرش على أنه أصبح في روما منذ ذلك الوقت ما يعرف « بالمسألة المصرية » والتي اختلفت حولها الاطراف ما بين داع الى ضمها الى ممتلكات روما ، وما بين معارض لذلك لمجرد النكابة في الحزب الآخر لضعافه .

وقد اتم بناء وزخرفة معبد ادفو - وهو من ازوع ما أنتجه فن العمارة المصرية في عهد البطالسة .

وقد قامت ثورة في عهد سوثر الثاني .

٧٤ ق.م :

ضمت روما قوريتانية الى مملكتها فحولتها الى ولاية رومانية يناء على الوصية التي أوصاها بطليموس آبيون عام ٩٦ ق.م . مما زاد في ازعاج بطليموس الزمار ، وجعله يضاعف في خضوعه لروما وتزلفه لها ، ورشوته لكبار رجالها ، حتى لا تنفذ الوصية المقول بأن بطليموس الحادى عشر تركها لها .

٦٥ ق.م :

قدم الحزب المناوىء لبومبى وعلى رأسه كراسوس ويوليوس قيصر ، المجلس الشيوخ الرومانى مشروعا لضم مصر للامبراطورية وتكليف يوليوس قيصر بالقيام بهذه المهمة ، بحجة تنفيذ وصية بطليموس الحادى عشر ولأن مصر كانت اغني دولة في البحر الابيض المتوسط ، وان قمح مصر الفائض عنها سوف يتدفق على أسواق الامبراطورية الرومانية - ولكن هذا المشروع رفض بفضل معارضة شينرون صديق بومبى - ومعارضة النبلاء حتى لا تذهب خيرات مصر الى خصومهم من رجال حزب الشعب .

وتوالمت المشروعات السافرة والمقنعة لضم مصر ولكن انصار بومبى استطاعوا ان يحبطوها .

٦٤ ق.م :

نجاح بومبى لتحويل سوريا الى ولاية رومانية .

٦٣ ق.م :

نجاح بومبى في ضم فلسطين وتحويلها الى ولاية رومانية واذا كان الفرع قد استبد

ببطليموس الثانى عشر فقد أمطر بومبى وجيشه بالهدايا ودعاه لزيارة مصر . وقد قبل بومبى الهدايا ولكنه رفض الدعوة - وعاد الى روما ليتدخل فى تحالف مع خصميه القديمين كراسوس وقيصر ، مؤلفين بذلك ما يعرف فى التاريخ باسم « الحكومة الثلاثية الاولى » .

٦٠ ق م :

زار ديودورس الصقلى المؤرخ مصر فى هذا العام ، ووصف لنا كيف كان المصريون من شدة فزعهم من روما يستقبلون أى وافد من ايطاليا بحفاوة بالغة . وخرجوا مدفوعين بالخوف على الا يهينوا للرومان سببا للشكوى منهم أو اشهار الحرب عليهم .

ويروى حادثا يقول انه رآه بعينه وذلك انه عندما قتل احد الرومان قطا تدفقت الجماهير الفقيرة على بيته ولم يستطع الموظفون الذين أرسلهم الملك للمطالبة بالرجل ولا شعور بالخوف الصام من روما أن ينقذه من العقاب مع أن ما فعله كان عن غير قصد .

٥٩ ق م :

فقد نجح ببطليموس الثانى عشر من ابتياع تأييد يوليوس قيصر - الذى عين قنصلا عاما وكان فى مسيس الحاجة الى النقود - بمبلغ كبير قدره ٦٠٠٠ ثلثت لى ما يعادل ١٣٢٠٠ ر. جنيه تقريبا .

وصدر قانون خاص بملك الاسكندرية اعترف فيه ببطليموس الزمار ملكا - وفى الوقت نفسه صديقا وحليفا للشعب الرومانى جزاء لما قدمه من الخدمات للجيش الرومانى فى آسيا .

وتنفذا لهذا القانون عفدت معاهدة تحالف مع مصر ووضعت نسخة منها فى سجلات الكابيتول .

٥٨ ق م :

ضممت روما جزيرة قبرص وصادرت أملاك التاج بها لصالح الخزانة الرومانية . وقد انتحر ملك قبرص بتناول السم رافضا أن ينفذ هذا القانون طوعية واختيارا . وقد كانت هذه عملية سطو سافرة لم تعوزها كما هى العادة الحجج فقد اتهم ملك قبرص بأنه كان يعادى روما ، كما اثبت من جديد مسألة الوصية التى أوصاها

بطليموس الحادي عشر ... ولكن كانت روما باعترافها بطليموس الثاني عشر ملكا على مصر وحليفا ، قد أبطلتها .

وهكذا لم يبق للدولة البطالسة سوى مصر فقط .

وغضب الاسكندريون لضياع قبرص وطالبوا بطليموس اما ان يعمل على استرداد قبرص أو ان يقطع علاقته بالرومان ، واذ بلغت ثورة الاسكندريين الى الحد الذي ينذر بالخطر فقد فر بطليموس الزمار نجاة بنفسه حيث ذهب الى روما يستعديها على شعبه ، حيث استقبله بومبي .

وعلى الفور اقام الاسكندريون ابنته برنيكى الثالثة مكان أبيها على العرش .

٥٦ ق.م :

تزوجت برنيكى الثالثة ارخلاوس احد امراء سوريا ، ليكون شريكا لها في العرش ويدافع عن مصر ضد الاخطار التي أصبحت تتهددها .

٥٥ ق.م :

لجأ بطليموس (الزمار) الى حاكم سوريا الروماني ليساعده على استرداد عرشه بعد أن فشل في جمل مجلس الشيوخ الروماني على اعادته بالقوة .

وقد استطاعت جيوش جابينوس حاكم سوريا التي كان بطليموس على رأسها أن تدخل الاسكندرية .

وفي هذا الجيش الروماني ظهر ماركوس انطيوخس لأول مرة على الأرض المصرية التي سيعلب عليها دورا كبيرا في المستقبل ، وكان قائد الفرسان .

ولم يكن لبطليموس بعد عودته من هم الا أن ينتقم من ابنته وانصارها باعدامهم وهو ما أقدم عليه بالفعل ، وامتصاص دم رعاياه للوفاء بدينه للمرايين الرومان الذين أقرضوه الأموال اللازمة لاستعادة عرشه ، ولدفع الرشوة التي وعد بها حاكم سوريا . حتى لقد عين رابيروس المرابي الروماني وزيرا للمالية لكي يحصل الديون : ورشوة جابينوس ... الأمر الذي جعله يعتصر الشعب اعتصارا — الأمر الذي نذر باندلاع الثورة ، مما اضطر بطليموس الى القبض عليه وعماله وسجنه وذلك لتهدئة غضب الجماهير وحماية له من ناحية أخرى .. وهرب رابيروس ، خاويا خالي الوفاض ، بعد أن أوشك أن يهلك أكثر من مرة . وقد اتضح ذلك كله من المحاكمات التي تعرض لها هو وجابينوس حاكم سوريا فيما بعد في روما ، لاتهمهما بالخيانة العظمى والرشوة .

٥١ ق.م

مات بطليموس الزمار مكروها من شعبه محترقا من الرومان .

ويحدثنا اسرابون بأن كل البطالسة الذين أتوا بعد بطليموس الثالث كانوا ملوكا عاشين أفسد منهم الرذائل ، وإن أسوأهم جميعا كان رابعهم يورجيتس الثاني وبطليموس الزمار ، وإن الأخير أضاف إلى عبثه وفجوره ولما شديدا يلعب الزمار وأنه كان فخورا بمواهبه الموسيقية إلى حد أنه كان لا يحجل من الاشتراك في المسابقات الموسيقية التي كان يقيمها في قصره .

حكم كليوباترا السابعة وبطليموس الثالث والرابع عشر

لم يمت بطليموس الزمار إلا بعد أن كان قد أنجب ابنتين هما كليوباترا وراسينوس وولدين وهما بطليموس الثالث عشر وبطليموس الرابع عشر ، وكان قد أوصى أن يلي العرش ابنه الأكبر البالغ من العمر عشر سنوات ، على أن يتزوج أخته كليوباترا البالغة من العمر ثمانية عشر عاما ويتركها معه في الحكم . ولما كان بطليموس الزمار يعرف كراهية الاسكندرانيين فقد عهد إلى الشعب الروماني بالإشراف على تنفيذ وصيته ، وأرسل نسخة من الوصية إلى روما وأودع الثانية الاسكندرية .

وقد نفذ الاسكندريون الوصية حتى لا يدعوا مجالا لروما للتدخل ، وهكذا بدأت كليوباترا السابعة حكمها والتي كان مقدرها لها أن تخلد من دون سميتها عبر التاريخ على الرغم من أن نهاية الحكم البطلمي وتحول مصر إلى ولاية رومانية كان على يدها .

والقول على أنها لم تكن فاتنة من حيث الجمال ، ولكن هناك أجماعا على جاذبيتها المتديدة وقدرتها على إثارة حب الرجال ، وكانت مثقفة ثقافة عالية مع الإحاطة بعديد من اللغات - وللمصريين كانت تبدو كأنها ايزيس عاطفة عليهم - ولم تكن تتحرج أو تتأثم عن فعل شيء ولكنها كانت قادرة على أن تشير في من تختاره صديقا لها ، أعظم متساعر الولاء لها - واذ كانت تملك طاقة كبيرة وشجاعة وجاذبية وذكاء ، فقد كرست حياتها لتحقيق هدفين - تثبيت دعائم مكانتها ومكانة أسرته في مصر وأن تتشارك في السلطة المركزية لروما . وقد كان هذا الهدف الأخير الذي يملأ قلب أعدائها من الرومان بالحقد .

٤٦ ق.م :

ثار النزاع في روما بين قيصر وجيوشه من ناحية وبومبي ومجلس الشيوخ من ناحية أخرى . فاضطر بومبي إلى الجلاء عن إيطاليا والانسحاب إلى الشرق ، وأرسل ابنه خنابوس إلى كليوباترا يطلب منها المعونة . فأمدته كليوباترا بخمسين أو ستين

سفينة ومددا من القمح وقوة قوامها خمسمائة رجل من حامية جانبيوس التى كان قد تركها بالاسكندرية وقد أوغر ذلك صدر الشعب السكندرى ضد كليوبترا فأجرها على الفرار من مملكتها ، ولكنها اذ كانت تحمل فى عروقتها دم كل الملكات المقدونيات اللواتى سبقنها من حيث الطموح وقوة الارادة ، وزادت على كل الملكات اللواتى سبقنها تعلمها اللغة المصرية بل والعامى منها ، ولغات البدو والبرانية . . فقد ذهبت الى حدود مصر الشرقية وراحت تجند من الاعراب جيشا راحت تزحف به على مصر ، فجمع اوصياء الملك قوة وأسرعوا شرقا ومعهم الملك الصغير لصد كليوبترا ، فتواجه الجيشان عند رأس كاسيون شرقى بلوزيون .

٤٨ ق م :

هرم بومبى فى موقعة فارسولوس أمام جيوش قيصر ، ففقد ثقته بنفسه ولاذ بالفرار والتجأ الى معسكر الملك بطليموس الصغير ، فذبجه أنصار الملك ليتقربوا بهذه الفعل الى يوليوس قيصر ، الذى وصل بعد وقوعها ونزل فى الاسكندرية فى قوة صغيرة لا تزيد عن ٨٠٠ فارس و ٣٢٠ من المشاة ، وسار فى طرقاتها تحفه شارات الحكم الرومانى بوصفه قنصلا واتخذ من قصر البطلمة مسكنا له . وقد دل هذا التصرف على انه اعتبر مصر ولاية رومانية والاسكندرية مدينة مقهورة ، فأحق ذلك الشعب الاسكندرى وغلت مراحل غضبه ، فاعتكف يوليوس قيصر فى القصر وما يحيط به ، ليأمن غائلة الشعب . وأرسل يستدعى كليوبترا وبطليموس المتنازعين ليمثلا أمامه ويحكم بينهما طبقا للوصية التى تركها أبوهما بطليموس الزمار .

وكان على كليوبترا لى تمثل أمامه بدون أن تقع فى يد خصومها أن تتسلل متخفية ، فهربها بعض أنصارها الى داخل القصر ملفوفة فى سجادة . ولم نكد كليوبترا تنجلي أمام يوليوس قيصر حتى ملكت عليه لبه وأسرته بفرامها . وحاول قيصر أن ينفذ نص الوصية وهو أن تحكم كليوبترا بالاشتراك مع بطليموس الصغير ، ولكن الصبى ما كاد يرى أخته حتى استولت عليه عاصفة من الغضب والقي بتواجهه وجرى فى الشوارع يصرخ من الخيانة ، مؤلبا الشعب على روما وقيصر وأخته ، وأعد أوصياؤه العدة لمحاربة يوليوس قيصر . فزحفوا بالجيش الذى كان معدا ومجهزا فى بلوزيون وزحفوا به على الاسكندرية ، وحاصروا يوليوس قيصر وجيشه فى الحى الملكى ، فأرسل يوليوس قيصر يطلب النجدة من أرجاء الامبراطورية بينما صمد للمحاصر الذى فرض عليه .

ولما كان للاسكندريين فى الميناء ٧٢ سفينة وفى الاحواض ٣٨ سفينة أخرى ، فقد قرر يوليوس قيصر احراقها حتى لا ينتفع بها المحاصرون له ، فامتد اللهب الى المكتبة الكبرى على أرجح الآراء فأتى على هذا التراث الانسانى الذى لم يسبق له مثيل فى دنيا المعرفة والتحضير .

وليس هناك ما يصور الموقف أدق تصوير من أن ننقل به . فقرات من كتاب
حرب الاسكندرية :

« واذ كانت الاسكندرية مدينة غزيرة الانتاج وافرة الثراء ، فقد أخذت تجهز
معدات من جميع الأنواع ، وكان سكانها أنفسهم على أكبر قدر من الذكاء وسعة
الحيلة . وعندما رأوا ما صنعناه من معدات صنعوا مثلها بمهارة فائقة حتى بدأ كان
رجالنا اقتبسوها منهم ، كما ابتكروا بأنفسهم أشياء كثيرة . ولم يتمكنوا من مهاجمة
تحصيناتنا في نفس الوقت الذي كانوا يدافعون فيه عن مراكزهم . وقد أخذ زعمائهم
يسوقون مثل هذه الحجج في المجالس والاجتماعات الشعبية . فقد حضر أولوس
جابينيوس بجيشه الى مصر منذ سنوات قليلة مضت . كما التجأ اليها بومبي بعد
فراره . وها هو ذا قيصر جاء مع قواته ، ولم يحمله موت بومبي على العبدول عن
البقاء بينكم . فإذا لم تطرده فستصبح مصر ولاية بعد ان كانت مملكة . ولابد أن
يتم جلاؤه بسرعة لانه معزول بفضل العواصف في مثل هذا الفصل من السنة ،
فلا يستطيع أن يتلقى امدادات من وراء البحر » .

٤٧ ق م :

٢٧ مارس : احرز يوليوس قيصر النصر على بطليموس بعد ان وصلت اليه
النجادات من الشرق برا ومن البحر . وقتل بطليموس الثالث عشر في المعركة .

ومضى قيصر في تنفيذ وصية بطليموس الزمار فأقام كليوباترا ملكة على مصر
وأشرك معها في الحكم اخاها الاصغر بطليموس الرابع عشر .

وأضى مع كليوباترا ثلاثة أشهر أخرى . ولم يفادر مصر مبحرا الى سوريا
ليقصد منها آسيا الصغرى الا في المدة بين ١٥ ابريل و ٥ مايو من السنة . وقد
اعتبرت كليوباترا نفسها زوجة شرعية ليوليوس قيصر وأطلقت على ابنها منه الذي
أنجبته في شهر يونيو من نفس العام اسم قيصر وان كان الاسكندريون أطلقوا عليه
اسم قيصرون .

٤٦ ق م :

وصلت كليوباترا الى روما لتحقيق مشروع زواجها رسميا واعتراف يوليوس
قيصر بابنه منها ، وقد أسكنها قيصر وابنها وأخاها وحاشيتها في قصره عبر نهر
التبر ، وقد شهدت مع قيصر الاحتفالات الراقصة التي أقيمت بمناسبة انتصاراته
الضخمة ، وقد أقام لها قيصر ممثالا من الذهب في معبد فينوس التي كانت تعتبر أم

الرومان جميعاً . . . على أنه يؤلفها تمهيدا لزواجه منها ، كما نقل انطونيوس الى مجلس الشيوخ . عتُرف قيصر بأبوته لقيصرون .

وهكذا عاشت كليوباترا في روما باعتبارها سيدة روما المقبلة ، وعلى هذا الأساس كان نبلاء الرومان يكرهونها ، وفي ذات الوقت يتزلفون إليها ، في الوقت الذي كانت تتعالى عليهم بل لقد حدثنا شيشرون أنها عاملته بطريقة مسيئة .

٤٤ ق.م :

في منتصف مارس من هذه السنة قتل يوليوس قيصر نتيجة المؤامرة الشهيرة التي دبرها له أحرار الرومان من أعضاء مجلس الشيوخ وعلى رأسهم بروتوس وكاسيوس ، خوفا منهم من أن يعلن يوليوس قيصر نفسه ملكا عليهم ، وكراهيتهم لحكم الفرد البطل وانفراده بالسلطة .

وكان طبيعيا وقد انهارت آمال كليوباترا وخططها بمصرع قيصر ان تفر عائدا الى مصر .

ورغبة منها في تثبيت مركزها في مواجهة روما . . اشركت معها ابنها قيصرون في الحكم . ووبرنا معبد دندرة كليوباترا في صورة الآلهة حتحور ومعها ابنها قيصرون في شكل فرعون .

٤٣ ق.م :

تألفت الحكومة الثلاثية الثانية من اكتافيوس ابن بنت اخت قيصر الذي اوصى بولوس فيصر بأن يكون وريثه ، ومن انطونيوس الذي اضطلع ببيع الاقتصاص من قتله قيصر ، فالقى تأكيد التاريخ المشهور لقيصر والذي قلب فيه عواطف جماهير روما ضد قتلة قيصر ، أما ثالث الحكومة فكان يدعى لبيدوس حاكم ولايتي الغال واسبانيا وتم الاتفاق على أن تدوم هذه الحكومة حتى شهر يناير سنة ٣٧ ق.م .

وكان من بين أعمال هذه الحكومة الاعتراف رسميا بديانة ايزس المصرية ، والتي كانت روما ننأرجح حيالها بين التشجيع والحظر منذ عام ١٨٦ ق.م .

وقد وفقت كليوباترا بعذوق عجيب على الحباد خلال الصراع الذي نشب على السلطة عقب وفاة قيصر ، فلم تنحز كما كان متوقعا الى انصار قيصر وآثرت أن تنتظر نتيجة المعركة فدل ذلك على أنها كانت تفكر بعقلها لا بعاطفتها ، وتعمل طبقا لمصالح استقلال مصر .

٤٢ ق م :

انتصر اكتافيوس وانطونيوس نهائيا في معركة لحيلى الحاسمة على قتلة قيصر ،
وعهد الى انطونيوس بتنظيم شئون الشرق ، بينما عاد اكتافيوس الى ايطاليا ليوزع
الأراضي بين جنوده القدماء .

ووصل انطونيوس الى افسيس ، وبدأ يستدعى حكام الشرق الذين حامت حواهم
الشبهات في خلال الصراع الذى تلا مقتل قيصر ، وكانت كليوباترا ممن تلقت طلب
الاستدعاء فلم تلبه في بادئ الأمر ، وتركته طويلا في انتظارها . فلم يلبث أن أرسل
لها رفيق مجونه ليستحثها على لقاء انطونيوس في كيليكيا ، فرأت كليوباترا أن تشرع
في خطتها الجديدة ، وهى أن تستولى على لب سيد روما الجديد كما سلبت لب
سيدها السابق .

فاستقلت مركبا مقدمها من الذهب ، وقلاعها من القماش الارچوانى اللون
ومجاديمها من الفضة ووسط العطور العبقة والموسيقى الشجية ، وبين غوان تمثّل
لهة الحب وعرائس البحر . وصلت الى طرسوس ، ودعت انطونيوس الى مقابلتها
على هذا المركب ولم تذهب اليه .

وقد أخذ ذلك المنظر بلب انطونيوس فوق أسير غرام كليوباترا ، وأصبح مصيره
منذ هذه اللحظة بل مصير روما كلها رهنا بمشيئة الملكة المصرية وكان أول ما فعله أن
جاء مع الملكة الى مصر ، حيث قصت كتب الأدب والتاريخ حياة كليوباترا وانطونيوس
في هذه الفترة ، في كثير من الخيال ، والمبالغات المسرفة ، حتى ليعزّون الى كليوباترا
أنها كانت تذيب اللآلئ الغالية في الخل لتشرب وتسقى انطونيوس ، ويدحض الدكتور
ابراهيم نصحى هذه الخرافات بحجة بسيطة ناصعة وهى ان الخل لا يذيب اللؤلؤ .

٤٠ ق م :

غادر انطونيوس مصر ليواجه مشاكل الامبراطورية . وقد كاد يقع الاصطدام بينه
وبين اكتافيوس ، ولكن مساعى التوفيق نجحت بين الرجلين اللذين أصبحا سيدي
الدولة الرومانية وبمقتضى الصلح الذى تم بين الرجلين أعطى الشرق لانطونيوس على
أن تنتهى منطقتة عند شاطئ البانيا ، وكان الغرب من نصيب اكتافيوس . بينما
احتفظ ليبديوس شمال افريقيا وتأكيذا لأواصر الاتفاق تزوج انطونيوس اكتافيا أخت
اكتافيوس . واتخذ من اثينا مقرا لحكمه . وهكذا بدا كما لو كانت كليوباترا قد
اختفت نهائيا من صورة حياته ، في الوقت الذى كانت فيه قد أنجبت منه توأمين في
هذه الفترة سميا اسكندر هليوس (أى الشمس) وكليوباترا سبلنى أى القمر .

٣٧ ق. م. :

وصل انطونيوس الى انطاكية بعد ان اعاد زوجته اكتافيا الى ايطاليا لتذ
وارسل يستدعى كليوباترا الى جانبه ، ولم تكذ تصل اليه حتى تزوجها
واعترف بابنيه منها ، واصبحت كليوباترا في نظر الجميع شرق بحر الادر
زوجة انطونيوس الشرعية وان رفض الرومان اعتبارها كذلك لعدم تطبيق اذ
لاوكتافيا .

وقد طلبت كليوباترا هدية زواجها من انطونيوس ان يعيد لها امبراطورية
وقد حقق لها انطونيوس كل امنيتها فرد لها كل سوريا الوسطى وكليكييا
وجزيرة كريت والجانب الاكبر من شواطئ فلسطين وقينيقيا ولم يمنع عنها
هرود (اليهودية) كما رد اليها قوريتانية التي كانت قد ضمنت الى روما من

٣٦ ق. م. :

انجبت كليوباترا لانطونيوس ولدا جديدا اطلقت عليه اسم بطليموس فيلا
تخليدا لذكرى استعادة امبراطورية هذا الملك .

٢٥٠ ق. م. :

شن انطونيوس حملة خائية على بارثيا ، انتهت بما يشبه النكبة ، حيث
الى انسحاب متسئوم كلفه خسائر فادحة ، وبصور لنا بلوتارك الذي روى تار
الاحداث ، صورة مؤثرة لموقف اكتافيا من انطونيوس في هذه المحنة لا نعرف
من الدقة . واكننا نشبتنا هنا لجمال الصورة من ناحية ، ولما سيكون لها م
على سير الحوادث فيما بعد .

فعندما علمت اكتافيا ان انطونيوس في حاجة الى مساعدة برحت ايطاليا
مقادير كبيرة من المال والملابس وغير ذلك من حاجة الجيش والفي جندي من
المختارين .

ولكنها عندما وصلت الى اثينا وجدت رسالة من انطونيوس يأمره
التخوض اليه . فاطاعت زوجها كأي زوجة فاضلة وانفذت اليه مبعوثا ليس
الجهة التي يريد ان ترسل اليها ما أعدته من امدادات . وقد انار هذا المسلك
اكتافوس فأمر أخته بأن تترك بيت انطونيوس لكنها رفضت وظلت في بيت زه
ترعى اولاده ، سواء كانوا منها أو من زوجته الاولى فولقيا .

٣٤ ق م :

غزا انطونيوس أرمينيا وأخضعها فأصبحت ولاية رومانية وخطب ابنة ملك ميديا لابنه أسكندر هليوس الذي اعتزم أن يمنحه أرمينيا .

وقد احتفل انطونيوس بانتصاره في الاسكندرية على خلاف ما جرى عليه العرف بالألا يحتفل القواد الرومان بانتصاراتهم الا في روما . وقد دل ذلك على أنه ينوى نقل عاصمة الامبراطورية من روما الى الاسكندرية ويقول بعض المؤرخين ان ذلك لم يكن يطيب لكليوباترا التي كانت تتسوق الى حكم الامبراطورية الرومانية من عاصمتها الأصلية ، حيث اشتهر عنها أنها كلما ارادت تأكيد أمر من الأمور أن تقول : أنها متأكدة من هذا الشيء أو ذاك تأكدها من أنها سوف تصدر الأحكام يوما في الكابنول .

وخطا انطونيوس خطوة كبيرة نحو تحقيق أحلام كليوباترا ، عندما دعا الشعب الاسكندري والقواد والجنود الى اجتماع حاشد في الجيمنازيوم .

وقد أقيم على منصته عرشان مرتفعان جلس عليهما انطونيوس وكليوباترا ، وعلى مستوى أدنى جلس على عروش أخرى قيصران فاسكندر هليوس وبطليموس فيلادلفوس فكليوباترا سبلنى - وكانت كليوباترا في زى الآلهة انزيس واسكندر هليوس في زى الملوك الآخرين وفيلادلفوس في الزى المقدوني وخاطب انطونيوس الحاضرين بأن كليوباترا كانت زوجة قيصر وان قيصران ابن قيصر الشرعى . ثم نادى بكليوباترا ملكة الملوك وقيصران ملك الملوك على أن يحكما سويا مصر وقبرص ونمتد سيادتهما على ممالك أبناء كليوباترا الآخرين ونادى باسكندر هليوس ملكا على أرمينيا وميديا وبارثيا (بالرغم من أنه لم يكن قد فتحها بعد) وبطليموس فيلادلفوس ملكا على ممتلكات مصر في سوريا وفينيقيا وكليزيا . وكليوباترا سبلنى على قوربنابنة . وبدأت الأحداث كلها تتجه صوب قرب وقوع اشتباك بين انطونيوس واكتافيوس .

٣٣/٣٢ ق م :

قضى انطونيوس وكليوباترا الشتاء في مدينة افسسوس حيث كانا يجمعان جيوشهما واساطيلهما للاصطدام بقوات اكتافيوس . وفي هذه الفترة اهدى انطونيوس الى كليوباترا مكتبة برجام (٢٠٠.٠٠٠ مجلد) تعويضا لها عن الكتب التي ذهبت طعمة للنيران أثناء حرب الاسكندرية .

٣٢ ق م :

قرر انطونيوس نهائيا اعلان الحرب على اكتافيوس وطلق اكتافيا . وفي هذه الفترة خطا اكتافيوس الخطوة الأخيرة لتأليب الشعب الرومانى على

انطونيوس اذ استولى على وصيته التى كانت مودعة طبقا للتقاليد الرومانية عند الكاهنات العذارى ، وبموجب هذه الوصية كان يؤكد هذا الذى اعلنه فى مصر من تولية ابناء كليوباترا على ممالك الشرق ويوصى بأن يدفن فى الاسكندرية حتى لو مات فى روما .

فاعتبره الرومان انه أصبح أسير امرأة أجنبية يرغب فى جعلها ملكة عليهم ، فراحوا يوجهون الى كليوباترا كل الموبقات والمثالب .

واسرعت الولايات الرومانية تظهر تصميمها على الحرب وأعلن اكتافيوس حرمنا انطونيوس سلطانه وحقه فى تولي منصب القنصلين ، ثم أعلن الحرب على كليوباترا لا على انطونيوس .

٣١ ق م - موقعة اكنيوم :

وفي كنب التاريخ التفصل الدقيق لسير الحرب البرية بين اكتافيرس وانطونيوس وكليوباترا على شواطئ بحر الادرياتيک ولكن المعركة التى حسمت النزاع هى المعركة البحرية الشهيرة اكنيوم . وقد دار الخلاف بين المؤرخين والباحثين عن موقف كليوباترا من هذه المعركة ، وعما اذا كانت قد خانت انطونيوس كما زعم البعض فانسحبت بأساطيلها الى مصر ، أم أن الانسحاب كان خطة متفقا عليها بين انطونيوس وكليوباترا .

ويلخص الدكتور ابراهيم نصحي رواية بلونارك عن الموقف فى هذه المعركة فى النقاط الثلاث الآتية :

١ - ان اكتافيوس كان متفوقا فى البحر بينما كان انطونيوس متفوقا فى البر ، لكن انصياعه لكليوباترا جعله يقرر خوض المعركة الفاصلة بحرا .

٢ - ان كليوباترا غدرت بانطونيوس ، اذ انها حرضته على خوض معركة بحرية وبدلا من أن تساعد على كسبها أعدت نفسها للهرب .

وبعد مناقشة مستفيضة لكل الأقوال بنى مؤرخنا لهذه الفترة من تاريخ مصر الدكتور ابراهيم نصحي أن المعركة التى جرت فى اكنيوم كانت لتغطية الانسحاب الى مصر بحرا .

وقد عاد انطونيوس الى مصر فى حالة انهيار تام على عكس كليوباترا التى كانت فى أوج نشاطها ، وكان عقلها يعمل بسرعة ويدبر فى خطط جديدة لفهر اكتافيوس ، حتى وصل بها الأسر الى حد التفكير فى الذهاب الى اسبانيا واحتلالها ، أو تكوين دولة على شاطئ الهند ولذلك قررت نقل أسطولها برا من البحر المتوسط الى البحر الأحمر .

٣٠ ق م :

اقترب النسيجة المحتومة حيث وصلت طلائع فرسان اكتافايوس الى ضواحي الاسكندرية فسن عليها انطونيوس هجوما ناجحا جعلها تتبدد ، ولكنه لما حاول اعادة حشد جيوشه في اليوم التالي انفضوا عنه وتركوه وحيدا ، فاضطر ان يعود الى المدينة ، حيث سربت اليه اشاعة مقتل كليوباترا حيث لم يكن يبقى انطونيوس على قيد الحياة الا حبه لكليوباترا ، فطلب من تابعه اروس ان يرديه قتيلا ولكن التابع الامين فضل الانحاز على قتل سيده ، تم لحقه انطونيوس الذي انتحر ببقر بطنه ولكنه قبل ان يسلم الروح جاءته رسالة من كليوباترا انها لا تزال حية ، فنقل اليها في مقبرها التي كانت قد جمعت فيها كنوزها وآوت اليها . فتسقت ثيابها وندبته وبكته بكاء مرا ومات في احضانها كما كان يشتهي .

اول أغسطس سنة ٣٠ ق م - انتحار كليوباترا :

دخل اكتافايوس مدينة الاسكندرية بغير مقاومة وأصدر أمره الى بروكليوس بأن يأخذ كليوباترا على قيد الحياة . وقد أصرت كليوباترا على أن لا تسلم نفسها الا اذا قبل اكتافايوس اعطاء العرش لأحد أبنائها . ولم تلبث كليوباترا بعد مقابلة خاصة بمات بينها وبين اكتافايوس بعد أن استيقنت أن اكتافايوس يأبى الا أن يقودها ذليلة الى روما لنسير في موكب نصره . ان لجأت الى الانتحار ، وجعلت انتحارها بصورة تتناسب مع دورها الملكي في التاريخ باعتبارها ملكة مصر . فقد ارتدت ثيابها الملكية ووضعت الصل الذي كان المصريون يعتبرونه خادما اله الشمس وبضعونه رافع الرأس في تاج ملوك مصر ، فلدفنها لدغة قاتلة . وهكذا انتهت صفحة سليلة البطالسة والتي كانت من دونهم جميعا تعتبر ملكة مصر ، وأرادت أن تحقق لمصر من خلال شخصها حلم الأولين والآخرين وهو أن تكون سيدة العالمين (١) .

ولم ينملك الرومان في كل تاريخهم الخوف الا من شخصين أحدهما رجل والثاني امرأة . فأما الرجل فهانيبال وأما المرأة فكليوباترا ، يكشف عن ذلك تلك الملاحم من التسرع التي راحت تهيل كل السباب واللعنات على كليوباترا وتندد بأحلامها التي ساورتها من أن تحكم روما والعالم . ولذلك فقد اعتبر اكتافايوس انسانا مقدسا يوم دخل الاسكندرية اذ خلص روما من أشد المخاطر ، وقرر السناتو اعتبار ذلك اليوم عيدا وطنيا وبداية للتقويم المحلي . وخلع على قيصر لقب أغسطس وسمى الشهر باسمه ، ولم يلبث أن أصبح الها تقام له المعابد . وحقق اكتافايوس ما أباه الرومان على يوليوس قيصر ، اذ وضع حدا للجمهورية الرومانية وبدأ عهد الامبراطورية .

(١) لعل أعظم شوقي الشاعر لم تصل الى ذروة مثلما وصلت في مسرحيته الشعرية من كليوباترا حيث حلل شخصية الملكة المفتري عليها ودافع عنها ، وقد كنا نظن في شبابنا انه بالغ في هذه الصورة فاذا به يستقى التاريخ في كل بيت من الشعر .

نظرة عامة على عهد البطالسة :

واذ تطوى صفحة البطالسة لتبدأ صفحة جديدة من تاريخ مصر وهى مصر تحت حكم الرومان ، فيحسن بنا أن نذكر بعض ملاحظات عامة ..
يعتبر حكم البطالسة من الناحية الداخلية ، صورة دقيقة لما يعتبر فى المصر الحديث اشتراكية الدولة ، فقد كانت وسائل الانتاج الكبرى وعلى رأسها الزراعة والنجارة الخارجية مملوكة لبطليموس أى الدولة ، والصناعات الرئيسية احتكارا للدولة كذلك .

فتألفت هيئة بيروقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين يؤيدها حراس مسلحون تدير شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة ، وكان الموظفون يعينون لكل زارع تقريبا قطعة الأرض التى ينبغى أن يزرعها والمحصولات التى يجب أن ينتجها - وكان فى وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل فى المناجم ، واقامة المباني العامة - والصيد - وشق قنوات الري - انشاء الطرق - وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكوميه ويدون الكتبة مقدارها وتدرس فى أجران الملك ويحملها الفلاحون أنفسهم الى مخازن الملك وكان يستثنى من هذا النظام بطبيعة الحال بعض الحالات : فقد كان البطالمة يجبرون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ويجيزون الملكية الخاصة فى الحواضر ويؤجرون قطعا من الأرض للجنود كمكافأة لهم على ما قدموا من خدمات - ولكن الأراضى المستنجرة كانت مقصورة فى العادة على المساحات التى يوافق صاحبها أن يخصصها للكروم او البساتين أو أشجار الزيتون .

وقد تحسنت وسائل الزراعة - فاستبدل بالشادوف الساقية - وهى عجلة كبيرة - وكذلك مضخة ثيسوس ولولب اركميدز .

وأمكن بفضل تركيز الادارة الاقتصادية فى يد الحكومة ونظام السخرة اقامة المنشآت العامة للتحكم فى فيضان النيل وانشاء الطرق وشق قنوات الري وتشبيد المباني .

الأراضى :

نقش هيروغليفى على جدران معبد ادفو يروى كيف أن الأراضى المنزرعة فى كل انحاء مصر من الفنتين حتى البحر أهداها الاله حورس الى ابنه الملك حورس الحى بطليموس ومعها وثائق الملكة وقد سجلت بخط الاله تحوت .

الفلاحون يدعون مزارعى الملك - ولم يكونوا موالى ولا عبيد .

القيت على مزارعى القرية مسئولية الانجازات المطلوبة من اراضيها مسئولية جماعية .

الاقطاعات عسكرية - الحكومة تقدم البدور - كانت هناك املاك خاصة (ملاك الأراضى) اراضى المعابد نزرع :

- الحبوب الغذائية .
- الحبوب الزيتية .
- الكتان .
- الكروم والفواكه .
- الأشجار .

وكانت صناعة الزيوت احتكارا للدولة .

« محظور لأى سبب أن يملك أحد مطاحن أو معاصر أو أية أداة تستخدم في استخراج الزيت والا فرض عليه أن يدفع للخزانة العامة ٥ تالنت وللملنزم خمسة اضعاف الخسارة » .

السيدين :

لم يكن فرعون المخلوق الوحيد الذى يستطيع الاتصال بالآلهة ، بل كان أيضا الاله الوحيد الذى يتمتع بالاتصال ببنى الانسان ، فاذا لم يكن على عرش مصر فرعون فان الديانة المصرية كانت تفقد الحلقة الأساسية في الاتصال بين الناس والآلهة .

يقول ارسطو : اذا وجد في دولة شخص يسمو على المواطنين الآخرين في الفضيلة والمقدرة السياسية ، فانه لا يجب اطلاقا اعتباره فردا في الدولة لانه لا يتصف اذا اعتبر مساويا لغيره ، على حين أنه يسمو على غيره في الفضيلة والمقدرة السياسية . ان فعل هذا الرجل يجب اعتباره الها من البشر » .
الله الاسكندر :

فقد أنشأ بطليموس الأول عبادة الاسكندر .

وكانت عبادة البطالمة عبادة محلية في مدينة بطليموس باعتباره مؤسس المدينة .

الاسكندرية :

على بعد أربعين ميلا من نقراطيس (ايتاى البارود) وعلى مسافة بضعة أميال غربى فرع النيل الجنوبي — تقع على الشريط من اليابسة الذى يفصل البحر عن بحيرة مريوط ، وقربها من جزيرة فاروس ، فيمد جسر من الجزيرة الى الشاطئ يمكن توفير مرافق يستخدم ايهاا تبعا لهبوب الريح .

وكانت تقوم قرية رالويتس .

كان يحيط بالاسكندرية منذ تأسيسها اسوار تبلغ طولها ١٥ كيلو حصنت باقامة ابراج عليها في مسافات .

كانت تتبع من الناحية الشمالية الشرقية مجرى النساطىء .
يحدثنا سترابون ان المدافن كانت تبلغ ٣٠ سنادا والاسناد هو ١٨٥٩ مترا في
الطول وسبعة أو ثمانية في العرض .
والمهندس الذى استخدمه الاسكندر يدعى دينوكرانس .
وشوارعها تجرى فى خطوط مستقيمة من الشمال الى الجنوب . ومن الشرق الى
الغرب .

وكانت مقسمة الى أربعة أحياء — أبعدا نحو الغرب حتى راكونس وسكانه من
المصريين — والحي الشمالى الشرفى حتى اليهود والجنوبى الشرقى أو البركيوم يحتوى
على القصر الملكى والمتحف والمكتبة ومقابر البطالسة وضريح الاسكندر ودار الصناعة
البحرية وأهم الهياكل اليونانية وكثير من الحدائق الفسيحة وكان لاحتدى هذه الحدائق
مدخل نبلى مساحته ثمانية أقدام مربعة وكانت حديقة أخرى تحوى على مجموعة
الحيوانات المائكية وكان وسط المدينة مبانى الادارات والمخازن الحكومية والمحكمة
ومدرسة الألعاب الرياضية والى حانوت وسوق .

وكان خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضى وميدان للسباق ومدرج ومقبرة عظيمة .
وكان سكان الاسكندرية خليطا من اجناس مختلفة وكانت عدتهم تتراوح بين
اربعمائة الف وخمسمائة الف من المقدونيين واليونانيين والمصريين واليهود والفرس
وأهل الأناضول والعرب والزنج .

ويصف هروداس : ان الاسكندرية هى بنت افروديتى — وان الانسان ليجد فيها
كل شئ : ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة
ومعادن ثمينة وشبانا ظرفاء .

ومبنى ملكيا طيبا ومجمعا للعلوم وخمرا لذيدة ونساء حسانا .

وكان نحو خمس سكان الاسكندرية من اليهود وقد كانت مصر من القرن السابع
الى الميلاد موطنا للعبرانيين ثم قدموا اليها فى أعقاب الفتح الفارسى — وحضهم الاسكندر
على الهجرة اليها وعرض عليهم كما يقول يوسنوس أن يكون لهم ما لليونان من حقوق
سياسية واقتصادية وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على اورشليم بألاف
الأسرى اليهود الذين أطلق خلفه سراحهم .

وفى القرن الميلادى الأول بلغ عند اليهود بمصر مليوناً .

الفصل السابع

مصر تحت حكم الرومان

٣٠ ق م :

بدخول اكتافىوس وجيوشه المنتصرة الاسكندرية ، وانتحار مارك انطونى و كليوباترا : دخلت مصر رسميا تحت حكم الرومان .

وقد منع اكتافىوس جنوده من نهب المدينة أو تخريبها : وألقى على مواطنيها خطابا باللغة اليونانية أعلن فيه صفحه عنهم .

وعندما احضروا اليه تابوت الاسكندر من قبره رثاه بما يستحقه من تبجيل بأن وضع عليه تاجا من الذهب ونثر فوقه الزهور . ولكنه رفض أن يزور قبر البطالسة باعتبارهم قوما أصبحوا فى عالم الفناء : وتأكيدا لهذا المعنى فقد أعدم قيصرىون ليزيح آخر انسان يمكن أن ينافس . أما أولاد انطونيوس من كليوباترا ، فقد بعث بهم الى اخته اكتافيا (بناء على طلبها كما اتصور) لكى تقوم على تربيتهم كأولادها منه .

احتلال مصر الدائم :

واذ كان اكتافىوس بالتجارب الخاصة : قد عرف خطر مصر وغناها وثروتها . . وكان قمحها هو الذى تعيش عليه روما منذ أمد طويل ، وكان من يحول دون وصول هذا القمح اليها يؤثر على قدرها .

فقد أحكم اكتافىوس تأمين السيطرة على مصر : فترك بها ثلاث فرق ، جعل مقر أولها مدينة الاسكندرية نفسها ، فى ذات الموقع الذى يعرف باسمه حتى اليوم (كامب شيزار) .

والرأى على أنه كان ينتوى أن يجعل من هذا الموقع الجديد مدينة ينتقل اليها مركز الحكم . . ولكن هذه المحاولة حبطت وكانت نيقوليوليس لا تزيد عن أن تكون معسكرا للحامية الرومانية . واذا كانت منفى هى عاصمة مصر السفلى المدينة المقدسة صاحبة النفوذ . . فقد وضع الى جوارها عند بابليون (مصر القديمة) قوة عسكرية أخرى .

وكذلك وضع قوة ثالثة ، عند طيبة عاصمة الجنوب ، ومنبع الشورات والسخط الدائم على حكام الشمال وخاصة الأجانب منهم كما وزع كتابه في طول البلاد وعرضها وعلى حدودها الشرقية والجنوبية .

واذ انتهى اكتافوس ، من تثبيت سلطانه بقوة السلاح على البلاد .

فقد انتقل بشاغب فكره ، وبما عرف به الرومان من قدرة على احسان الادارة . . الى تهيبه الوسائل لجعل مصر تدر على روما اكبر قدر من الثروة ، وذلك عن طريق تحسين وسائل الزراعة : بتكليف الحامية الرومانية بشق الترع وتطهير القنوات ، واصلاح اراض جديدة ، وبناء الصهاريج على الطرق الصحراوية بين موانئ البحر الاحمر وداخل الوادى . .

ولما كانت المدن الاغريقية الثلاث (الاسكندرية ونقراطيس وبابلون) هى وحدها التى كانت تتمتع بمجالس بلدية خاصة بها ، فقد عمم اكتافوس هذا النظام على كل عواصم الاقاليم ، مما أحفظ عليه سكان الاسكندرية من الاغريق . بل لقد ذهب الى أبعد من ذلك فألقى مجلس شيوخ مدينة الاسكندرية (السناتو) فى بعض الآراء ورفض أن يعيد للمدينة انشاء مجلس شورى الذى كان قائما بها منذ تأسيسها ولم يبلغ الا فى فترة الاضطراب آخر حكم البطالسة ، فلم يستجب لهم أغسطس . وذلك فى الوقت الذى أقر فيه لليهود امتيازاتهم القديمة ، حيث كانت طائفتهم تتمتع بشبه استقلال فirasهم رئيس ومجلس من المسنين أشبه ما يكون بمجلس الشيوخ ، واذا كان اليهود ممن ساعدوا الرومان فى غزو مصر فقد طالبوا بحقوق المواطنين فى المدينة — مما ملأ قلوب الاسكندريين حقدًا عليه .

كما وضع الأسس لتنشيط التجارة والصناعة . . على الأسس التى كانت جارية أيام حكم البطالسة فى فترة ازدهارها .

بحيث يقول المؤرخون ، ان مصر فى طلائع القرن الأول من الحكم الرومانى ، قد وصلت الى ذروة ازدهارها الاقتصادى ، كما ظلت الاسكندرية تقوم بدورها التقليدى فى حضارة البحر الأبيض المتوسط ، فتكون الرائدة الشرعية ، وان كان اسم مدينة روما قد علا عليها بطبيعة الحال . .

علاقة مصر بالامبراطورية الرومانية :

وقد دار جدل طويل بين المؤرخين ، ويبدو انه سيظل مستمرا ، حول علاقة مصر بالامبراطورية الرومانية ، فالبعض يرى انها لم تتحول الى ولاية رومانية كبقية الولايات الرومانية ، وانها ظلت ملكا خاصا لقيصر الذى راح يديرها باعتباره خليفة للفراعنة والبطالسة ، عن طريق حاكم يختاره بنفسه من طبقة الفرسان وليس بمعرفة السناتو .

كما يستدلون على انفرادها بأحكام خاصة من دون الولايات الأخرى، بحظر زيارتها من أي كبير من كبراء روما إلا بأذن خاص من القيصر . والشعور الذي خرجنا به من الاعتنا لكل ما قيل بهذا الصدد ، أن مصر والاسكندرية قد ضمتا للإمبراطورية رومانية كأي ولاية أخرى ، ولكن نظرا لتاريخها العريق ، وخطورة موقعها ودقة روافدها واعتماد روما على ثروتها ، فقد وضعت لها هذه الأحكام الخاصة ليكون تانفيوس سلطة استثنائية فيها .

مر الإمبراطورية الرومانية :

بدأ بعودة اكتافيوس إلى روما بعد استيلائه على مصر وإبعاده الخطر الذي كان يرق الرومان ، ما يسمى بعض الإمبراطورية الرومانية حيث انتهت الجمهورية رومانية .

ولكن اكتافيوس كان من الحصافة والكياسة ، والتجربة ما جعله يبدو وكأنه باعث جمهورية ، والرجل الخاضع لمجلس الشيوخ ، حتى لقد كان المجلس يحدد انتخابه نصلا لمدة عام واحد يتجدد بل وجاءت فترات لم يرشح نفسه لمنصب القنصلية ، كنفيا بلقب جديد خلع عليه وهو منصب « المواطن الأول » أو زعيم مجلس الشيوخ ، لكنه ظل في حقيقته مركز القوة الحقيقية ، والسلطة برأسته الفعلية للجيش ، وتولية إدارة أغنى الولايات في الغرب والشرق .

٢٩ ق . م :

كشف اكتافيوس عن عزمه بوضع حد للحروب في أرجاء الإمبراطورية ، وتوطيد عائم السلام ، وذلك بأغلاقه هيكل جانوس « إله الحرب » إشارة إلى أن إله الحرب قد نال كفايته إلى حين .

٢٤ ق . م :

كان اكتافيوس قد عين صديقه كورنييلوس جالوس واليا على مصر مكافأة على خدماته وعهد إليه بتنفيذ السياسة الإدارية والمالية والاقتصادية التي وضعها ، تحقيق أكبر قدر من الاستفادة من مصر ومواردها لصالح روما .

ويبدو أن موظفيه وجباة ضرائبه ، أو النظم الجديدة التي وضعها قد أثارت عليه مدينة طيبة وبالتالي مصر العليا كلها .

ويبدو أن هذه الثورة كانت من القوة أو العنف إلى الحد الذي لم تغلج معه قوة الجيش الروماني المربط عند طيبة لقمعها مما اضطر كورنييلوس نفسه إلى أن يرأس بنفسه حملة قوية لاختمادها ، وترك حجرا من الجرانيت في معبد أنس الوجود يقول لنا فيه بافتخار :

« أنه الفارس الرومانى وأول والى على الاسكندرية ومصر بعد اندحار ملوكها على يد قيصر بن الاله وكيف قمع ثورة طيبة بعد معارك حامية واخضع طيبة مصدر الذعر لجميع الملوك وقاد الجيش مستوليا على المدن الثائرة الى ما وراء شلال النيل واستمع الى سفراء ملك الاثيوبيين عند فيلاى وقبل ذلك الملك أن يكون تحت الحماية وعينه حاكما على اقليم اثيوبيا .

وفد قدم هذا المنصب هدية للالهة الثوبية وللنيل الذى أعانه .

٢٦ ق م . :

اسكر هذا الانتصار فيما يبدو كورنيوس ، فراح يسجله على الاهرام ويقيم لنفسه تماثيل فى أرجاء الوادى فكان من الطبيعى أن يشير ذلك مخاوف اكتانفوس الذى كان السناو قد خلع عليه لقب أغسطس فى العام الاسبق ، فعزله من ولاية مصر ، بل وحاكمه وجرده من حقوق المواطن . . فأنتهى به الامر الى الانتحار .

٢٦ ق م . :

عين أغسطس قيصر ايليوس جالوس واليا على الاسكندرية ومصر خلفا لكورنيوس ، وقد عهد اليه أغسطس بمهمة السيطرة على البحر الاحمر والنفوذ الى المحيط الهندى باحتلال اليمن ، وقد أوفى لذلك جيشا ترى فيه لأول مرة وحدة يهودية من ٥٠٠ جندي أرسل بها هيرود ملك اليهود لتجارب لحساب الرومان . وقد استطاع فى بادىء الامر أن يستولى على اليمن وأن يصل فيما نقول بعض الروايات الى مدينة كارب عاصمة سبأ .

ولكنه لم يلبث أن هزم وانسحب مسجلا بذلك فشل الحملة ، ولكن الحوادث التالية كشفت عن نجاحها فى اشعار المنطقة بقوة الوجود الرومانى فبدأت التجارة الشرقية الخاصة بالعطور والتوابل والاحجار الكريمة والاختشاب التى كانت تأخذ طريقها عبر جزيرة العرب ، تتحول الى الموانى المصرية على البحر الاحمر ، ومنها عبر الصحراء الى النيل فالاسكندرية فروما .

٢٤ ق م . :

كان النوبيون قد انتهزوا فرصة غياب الجيش الرومانى عن مصر ثم عودته فاشلا فأغاروا تحت قيادة ملكتهم كنهراكى على الحاميات الرومانية فهزموها واحتلوا جزيرتى فيلة والفانتين ومدن أسوان ثم نهبوا وحملوا تماثيل أغسطس وأسروا بعض الاهالى .

فلما أن ولى جايوس نيروثيوس حكم مصر بعد عزل أيلوس جالوس .. وكان همه الأول هو تأديب النوبيين ، فانتصر عليهم في كل المعارك التي تصدوا لحربه فيها وتابع سيره جنوبا حتى وصل الى مدينة نباتا فاستولى عليها ، ثم رأى أن من المصلحة أن لا يتوغل أكثر من ذلك ، فترك حامية صغيرة وقفل راجعا .

٢٢ ق م :

اضطر تيرونيوس لأن يعود للحرب في بلاد النوبة . وفي هذه المرة اقام عديدا من الاستحكامات والقلاع العسكرية التي لاتزال اثارها قائمة حتى اليوم (الدكة - كلابشة) وكفت ملكة النوبيين عن القتال وجنحت للسلم وطلبت الصلح فمقد الصلح معها على أساس أعفائهم من دفع جزية للرومان .

١٣ ق م :

ولى حكم مصر روبوريوس بربارويس .

(استقرار الاحوال في مصر)

وانقضت فترة طويلة لاتسجل لنا الآثار شيئا خاصا عن علاقات مصر بالامبراطورية لمدة طويلة مما يدل على استتباب الاحوال ، وان الاصلاحات الادارية والاقتصادية قد آتت ثمرتها ويرى اسم اكتافيوس ورسمه على كثير من الآثار والمباني التي كان قد بدىء بإنشائها قبل حكمه ثم استمر العمل فيها سواء في الاسكندرية او في مصر العليا ويرى اسمه كفرعون في معبد فيلة ، كما يرى متعبدا كفرعون لايزبس في معبد طنطرا (دندرة) كما نرى صورته في معبد « تالمس » وهو يقدم القرابين .

٧ ق م :

ولى حكم مصر توراثيوس .

٤ ق م :

ولد عيسى بن مريم عليه السلام (يسوع المسيح) في بيت لحم ، والمؤرخون على أن هذا التاريخ السابق بأربع سنوات عن تاريخ الميلاد المعمول به ، هو الزمن الحقيقي الذى ولد فيه المسيح ، فالأناجيل تشير الى أنه ولد في عهد هيرودس الكبير ، الذى

مات حول هذا التاريخ بعد أن بعث زعماء ملكه الى أغسطس مع هدية تمثلية أشعاراً بتبعيته لروما .

مقدم عيسى الى مصر :

وقد هربت السيدة مريم بولدها على ما يروى انجيل متى الى مصر .

« فرأى ملاك الرب ليوسف في الحلم قائلاً قم فخذ التسبي وأمه وأهرب الى مصر وكن هناك حتى أقول لك فان هيرودوس مزعم أن يطلب الصبي ليهلكه . فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف الى مصر . وكان هناك الى وفاة هيرودوس ليتم القول من الرب للنبي القائل « من مصر وعدت ابني » .

وهناك أقاويل عن خط سير العائلة المقدسة عند زيارتها مصر ، وأين أقامت ، وقد اكتفى المؤرخ القبطي الكبير مرقس باشا سميكة بذكر بعض اشارات كما وردت في المصادر التاريخية في كتابه القيم دليل المتحف القبطي وأهم الكنائس والاديرة فقال عن كنيسة ابى سرجة بمصر القديمة ان هناك شبه اجماع أن هذه الكنيسة شيدت في نفس المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة لما هربت الى مصر من وجه هيرودوس .

وقال عند ذكره لدير المحرق : في المسمر الذي وضعه الانبا نادمنليس البطريك الثالث والعشرين أن العائلة المقدسة أقامت لما لجأت الى مصر هرباً من الملك هيرودوس وجاء في كتاب المقریزی : تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام أقام بدير المحرق مع والدته ستة شهور وأيام .

ولكن في كتاب تاريخ الأمة القبطية تفصيل واف لخط سير العائلة المقدسة .

فقد جاءت العائلة الى مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها جهة الفرما ومنها الى مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) واتجهوا غرباً فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمند ، وظلوا سائرين غرباً الى فرعه الغربى فعبروه ومروا بوادى النطرون - ومن هناك ساروا الى الوجه القبلى فنزلوا بمدينة الاسمونين ثم مضوا الى القوصية فالى قرية ميزة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق وبعد أن أقاموا به بضعة أشهر على الاكثر ظهر ملاك الرب ليوسف في الحلم وقال قم وخذ الصبي وأمه وعد الى اليهودية لان هيرودوس الذى كان يطلب نفس الصبي قد مات ، فقاموا وانحدروا شمالاً حتى جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حى اليهود - ونزلوا في الموضع الذى به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة السرجة وغادروها الى عين شمس وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجره يقال أن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية ومن هناك انطلقوا الى فلسطين عن طريق مديرية الشرقية فالصحراء .

١٤ م :

توفى اكتافىوس أغسطس قيصر فى التاسع عشر من الشهر الذى سعى باسمه وهو أغسطس ، بعد أن بلغ من العمر ستا وسبعين سنة ، حكم فيها ما يقرب من نصف قرن .

وبطلق على عصره العصر الذهبى حيث وصلت فيه الامبراطورية الرومانية الى أوسع ما وصلت اليه بعد ان اتم فتح اسبانيا وتسلم الادارة فى بلاد غالة ، وهكذا امتدت الامبراطورية من المحيط الاطلسى غربا والصحراء الكبرى جنوبا ونهر الفرات والبحر الأسود شرقا ، ونهر الدنوب والالب شمالا .

وقد فرض فى هذه الرقعة الكبيرة والتي شملت حوض البحر الأبيض باكملها ما يطلق عليه السلام الأغسطسى والذي بقى من بعده مائة عام .

وفد خلع السنانون على اكتافىوس لقب أغسطس عام ٢٧ ق.م معبرا عن احساس شبه وفاء بالجميل لواء الأعمال الى انجزها ولم يلبث اسمه ان اضيف الى أسماء الآلهة فى الترانيم الرسمية التى تنشد فى روما ولكن عبادته انتشرت فى أنحاء العالم الرومانى وبخاصة فى بلاد الاغريق .

ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قرارا أن تعبد روما باعتباره أحد آلهتها الرسميين وقد اتسمت الاربعين سنة الاخيرة من حياته بالبساطة فى المعيشة التى نكاد نصل الى حد التقشف والاعتدال والتواضع الحقيقى الذى لا يشوبه زهو .

وازدهرت الآداب ونشر من الكتب فى عهده ما لم ينشر مثله فى أى عهد من العهود وازدهر التسمر حتى لقد قيل أنه أصبح هواية كل انسان فى روما سواء فيلسوفا أو ابلة .

وكانت الإعلانات تلصق على الحائط معلنة أسماء الكتب الجديدة واتمانها وأعظم آثار النشر كانت فى تاريخ تينس لفيوس الذى ترك لنا تاريخا مفصلا لروما وخاصة للمدة من ٢٣ فى م حتى ١٧ م .

والى هذا العهد ترجع الياذة فرجيل التى احتوت على ملحمة تأسيس روما ، ومعارك اكتافىوس . كما قال هوراس أعظم أشعاره ، وأوفيد .

وكان آخر ما نطق به أغسطس قيصر عند وفاته هى هذه العبارة التى اعتاد المملون الرومانيون أن يقولوها فى ختام كل رواية .

« وآلآن وقد أنقنت دورى فصفقوا بأيديكم واخرجوا من المسرح بتصفيتكم » .
ثم عانى زوجته وقال لها تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا - الوداع .

١٤ م - تبريوس قيصر :

ولى عرش روما تبريوس ، وقد كان أغسطس قيصر قد تبناه عام ٤ ميلادية ،

وأشركه معه قبل وفاته في الحكم باعثباره قنصلا ، فلما مات قيصر كان يتمتع بسلطات واسعة النطاق : فتظاهر كسلفه أغسطس بأنه راغب في إعادة الجمهورية ولكن السناتو أدرك استحالة هذه الخطوة ، فقد كانت أسس الامبراطورية في صورتها الجديدة قد توطدت ولذلك فقد منحه السناتو سلطات والقباب أغسطس .

وقد استهل عهده باظهار الحزم في معاقبة موظفي الدولة الذين يسيئون استغلال سلطتهم في معاملة الرعية . ويحفظ لنا التاريخ أيضا نصا يعزوه البعض الى تيبريوس ، وفيه يقرع واليه على مصر لارساله مبلغا اكبر من المقدر للجزية سنويا . وجاء في هذا النص : انما ارسلت الى مصر لتجز صوفها لا لتسلخ جلدها .

١٦ م :

ولى حكم مصر فيتراسيوس يوليو .

١٩ م :

زار جرمانيكوس ولى العهد مصر ، وكان تيبريوس قد بعث به الى ولايات آسيا الصغرى لفقد احوالها . وكان جرمانيكوس شابا كريما لطيفا محبوبا من الجماهير الرومانية لتسجاعته في المعارك الحربية . فلما جاء مصر تعلق به شعب مصر ، لحسن سيرته وكياسته في معاملته للشعب ، وليس هناك ما ينقل اليها قبسا من حالة مصر وأوضاعها في هذه الفترة خير من ان ننقل ما قاله تاسيوس عن هذه الزيارة :

« ذهب جرمانيكوس الى مصر للتعرف على تاريخها القديم غير انه تدرع بحجة الاهتمام بالولاية ، وقد خفض الاسعار بأن فتح صوامع الغلال واصطنع أشياء كثيرة محببة الى قلب الجمهور فكان يمشى بدون حرس ، وانتعل صندلا وارتنى زيا كزى الاغريق وفد انتقد تيبريوس ارتدائه الزى الاغريقى كما انتقد مسلكه انتقادا هينا ، ولكنه وبخه توبيخا لاذعا لأنه دخل الاسكندرية دون ارادة الامبراطور متخطيا قواعد أغسطس : ذلك ان أغسطس من بين الاسرار الخاصة بتوطيد سلطانه قد عزل مصر ، مانعا أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان الرومان اللامعين من دخولها الا بأذن مخافة ان يصيب ايطاليا بمجاعة أى شخص قد يمثل نك الولاية بحامية بسيطة .

نجد أن جرمانيكوس الذى لم يكن قد بلغه بعد ، أن رحلته هذه كانت موضع هجوم ، صعد في النيل الى مصر العليا بادئا من كانوب ، وبعد ان زار الآثار العظيمة في طيبة القديمة وكانت لا تزال باقية على الصروح الضخمة كتابات مصرية تشرح قصة البذخ الغابر ، غير أن عجائب أخرى استرعت كذلك انتباه جرمانيكوس وعلى الأخص تمثال ممون الحجرى الذى يرجع نفعا موسيقيا عندما تمسه أشعة الشمس ، والاهرام التى شادها ملوك متنافسون بثرائهم ، في ضخامة الجبال وسط رمال متناثرة من السير اجتيازها ، والبحيرة التى حفرت في الأرض لتخزن ماء فيضان النيل .

وبعدئذ قد وصل الى الفانتين واسوان وهما حصنا الدفاع قديما عن حدود
الامبراطورية التي امتدت الى البحر الاحمر .

وثيقة أخرى عن هذه الزيارة ترجمها لنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على
الذى ترجم لنا الفصل السابق وهى منشور أذاعة جرماتيكوس على شعب مصر ،
يكشف عن مدى التزامه القانون في معاملاته ورغبته في احسان معاملة الشعب .

« جرماتيكوس قيصرين اغسطس حفيد اغسطس المؤله نائب القنصل يعلن :
بلغنى انه بمناسبة زيارتى قد اكره الناس على تقديم مراكب ودواب وان منازل
للضيوفان قد اخذت بالقوة للاقامة وان وسائل الارهاب قد استعملت مع الأفراد
لذلك رأيت من الضروري أن أعلن أنني لا أريد أن يستولى أحد على مركب او دابة
الا بأمر بابيوس سديقى وامينى ، ولا أن تفتصب منازل للضيافة ، فان تكن هناك
حاجة فإن بابيوس نفسه سيوزع منازل الضيافة بالعدل والقسطاس وبالنسبة لما
يلزمنا من المراكب او الدواب فانى أمر بدفع الأجر وفقا للجدول الذى قدمته وانى
لأرغب فى احضار المخالفين الى أمينى الذى سيتولى هو بنفسه دفع الظلم عن الأفراد
او يبلغنى الأمر ، وأحظر على من يلتقون بالدواب أثناء مرورها فى المدينة من اغتصابها
بالقوة لان ذلك من أعمال اللصوصية الفاضحة .

فلا عجب وهذا مسلك جرماتيكوس ، أن يتعلق به الشعب المصرى تعلقا شديدا ،
بحيث راحوا يخلعون عليه أعظم الألقاب والنعوت التى لا تضىفى الا على الامبراطور ،
مما جعل جرماتيكوس نفسه يعتب على المصريين ذلك ، وينذرهم أنهم اذا استمروا
على ذلك فلن يظهر بينهم .

على ان حياة جرماتيكوس انتهت بمجرد عودته الى سوريا ، وقيل انه مات
بالسم ، واتهم بقتله بيزو والى سوريا الذى لم يلبث أن انتحر عندما وجهت اليه
التهمة ، وقيل ان ذلك تم بموافقة تيربوس ولكن لا دليل على ذلك .

: م ٢١

ولى حكم مصر جالريوس .

: م ٢٦

بدا ظهور المسيح فى منطقة الجليل مبشرا وداعيا الى سبيل الله .

: م ٣٠

أمر بونيوس بيلاطس حاكم يهودية (جواريا) على ما تقول الاناجيل بصلب المسيح

بتهمة اثارة الفتنة ، بناء على طلب اليهود (١) .

: م ٣٢

عين افيليوس فلاكوس واليا على مصر فاستهل نشاطه بالتجول في أنحاء مصر ، فوصل في جولته الى طيبة فراعته كثرة الاسلحة التى وجدها في حوزة الاهالى .

: م ٣٤

أصدر فلاكوس منشورا يحظر فيه على الأهالى حمل الأسلحة أو احرازها وهدد المخالفين بعقوبة الموت ، كما أمر بغض النوادي والجمعيات الاغريقية .

: م ٣٧

مات ثيربوس ، وسجل له التاريخ أروع الصفحات في مستهل حكمه أو التسع سنوات الأولى حتى لبصفه ممسنى بأنه « أقدر حاكم شهدته الامبراطورية » ، أما المؤرخ ناستس الذى كان من المعادين لثيربوس فقد اعترف له بأن : ترشيحاته للمنصب العامة كانت تصدر عن حكمة وان من كان يرشحهم من القناصل البريتوربتى كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليفة بمناصبهم ، وكان من يلونهم من الموظفين بمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن تدخل الامبراطور . وكانت القوانين ، اذا اسننى منها ، ما نختص باغتصاب الملك تجرى في مجراها الطبيعى ، وكانت أعمال الايرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة ولم تفرض على اهل الولايات اعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى في غير عنف أو قسوة وساد النظام بين عبيده . وكانت دور العدالة مفتحة الابواب نفصل في كل نزاع يقع بين الامبراطور وافراد الشعب ، وكان القانون هو وحده الفيصل في هذا النزاع .

وقد انطوى على نفسه في أخريات حياته وآوى الى جزيرة كابرى واعتقد الناس باطلا أنه يرتكب هناك أخبث الرذائل والحقيقة ، أنه كان يدير منها الامبراطورية في حكمة وحزم ، وكان يبلغ رغباته الى مجلس الشيوخ : فكان مجلس الشيوخ يليها في غير معارضة ، وهكذا تدعمت دعائم السلطة الامبراطورية اذ أنه كان رجلا صسامم الخلق يرمى الزمير الى ابعاد حد في شئون الامبراطورية .

(١) ويقول بوسانيوس القيصرى الذى عاش في القرنين الثالث والرابع في كتابة تاريخ الكنيسة ان بلاطس ارسل تقريراً بما حدث عقب سلب المسيح وقيامه من الموت الى ثيربوس ، الذى اعتبر المسيح اِلها ، وطلب من السناتو اعتباره اِلها رسمياً ، ولكن السناتو رفض ذلك ، وليس هناك في وثائق التاريخ الاخرى ما يشير الى وقوع مثل ذلك .

ولكن تأمر أوفى أعوانه عليه وهو سجانوس الذى تولى قيادة الحرس الامبراطورى جعله بنقلب فى اخريات حياته الى سوط نقمة ، فلم بكتل باعدام سجانوس ، بل أعدم كل عائلته بما فبهم ابنة صغيرة طاهرة كانت تتساءل فى براءة لماذا فبضوا عليها واذ كان محرما اعدام عذراء فقد طلب من الجلاد ان يفض بكارتها قبيل اعدامها . وقتل كل من حلمت حولهم ظلال من الشك ، مما جعل الكثيرين ينتحرون تخلصا من عقابه . وظلمت اخريات حياته سحابة سوداء شملت حتى خائمة حياته نفسها حيث بقال انه قد خنق ، وتنفس الرومان الصعداء عندما مات واندفعوا يهتفون فى الشوارع تيبريوس الى نهر التيبر .

ولكن ذكراه ظلت طيبة فى الاسكندرية والتي كانت اقامت معبدا باسمه على أعلى مكان بالمدينة كان محاطا بالاعمدة وبه مكتبة : كانت الحدائق تحيط به كما نقش المصريون صورهم ورسومهم كفرعون يعبد ايزيس وحورس على معبد فيلا وفى معبد طنطرا (دندرة) .

ويحدثنا فيلو فيلسوف اليهود فى مصر انهم بلغوا فى هذه الفترة ما يجاوز المليون ، حيث كان ثلث هذا العدد يقيم فى الاسكندرية وحدها .

ومن الولاة الرومانيين الذين حكموا مصر خلال حكم تيربوس دون أن يعرف تاريخ ولايتهم بالضبط .

اميلبيوس مركتوس جايوس قيصر - كاليجولا وسيرس سترابو :

٢٨ م :

اعتلى جاريوس قيصر الشهير بكاليجولا العرش فى ١٨ مارس وهو الابن الذى بقى على قيد الحياة من أولاد جرماييكوس الامير المحبوب ، ولعل هذه الصلة التى تربط بين أبيه ومصر هى التى جعلته يبادر بمجرد ولايته للعرش أن يعيد فتح معبد ايزيس فى ساحة مارس (وكان قد أغلق) ثم أصدر قرارا بالاعتراف بديانة ايزيس رسميا .

٢٨ م :

وفد على مصر فى أول أغسطس اجرينا اليهودى حفيد هيرود الكبير ، وكان كاليجولا قد عينه ملكا على دولة يهودية صغيرة مجاورة لمملكة جلاديا اقتطعها من ولاية سوريا الرومانية .

وقد انتهز اليهود فرصة مروره بمصر لكى يحتفلوا به احتفالا شعبيا ضخما يكشف عن قوتهم . فأنار ذلك مخاوف أهالى الاسكندرية ، واستثار كوامن أحقادهم ضد

اليهود ، فنظموا مظاهرات مضادة ساخرة ضد الملك اليهودى . . وكأنهم خشوا من مغبة تورطهم فى الهزء من صنعة الامبراطور ، او كأنهم راوا من عدم تحرش والى بهم مشاركة لهم فى افكارهم ، فاقترحوا معابد اليهود لتنفيذ امر كاليجولا باقامة تماثيله فى كل المعابد ، فلما قاوم اليهود الذين كانوا يوحدون الله ويرفضون اقامة الاوثان فى معابدهم ، اتهم الشعب السكندرى بعدم الولاء للامبراطور وأصدر فلاكوس والى الرومانى منشورا أعلن فيه أن اليهود أجنب ودخلاء وسحب منهم الامتيازات التى كانوا قد اكتسبوها بحكم العرف ابان اقامتهم فى الاسكندرية ، ولم يبين الا الحقوق القانونية لامثالهم ممن لا يتمتعون بحق المواطن .

وكان هذا المنشور كافيا لالهاب عواطف جماهير الشعب السكندرى ضد اليهود الذين كانوا قد تجاوزوا الحى المخصص لهم ، وانتشروا فى الاحياء الأخرى من المدينة، فردوا الى حيههم الاصلى ، ونهبت بيوتهم ومتاجرهم خارج هذا الحى ، وقتل كل من حاول ان يتصدى لهم . ثم أبلغ الحاكم ان اليهود يخفون أسلحة على خلاف الأوامر الصادرة منه بعدم احرار الأسلحة ، فقبض على ثمان وثلاثين من كبار شبوخهم وزعمائهم وجلدهم علنا امعانا فى الزراية بهم .

وكان طبيعيا ان يشكو اليهود الى الامبراطور وان يكون حامل شكواهم هو صديقه الملك اجريبا ، فأحدثت الشكاية اثرها ، وأرسل الامبراطور من قبض على فلاكوس وسبق الى المحاكمة فى روما . . . واذا سبق للمحاكمة فقد انهالت عليه النهم لا من اليهود فحسب ، بل من سكان الاسكندرية الاغريق ، الذين لم ينسوا له فضله لجمعياتهم ونواديهم الأدبية . فكان ان أدين فلاكوس وصودرت أمواله ثم اعدم بعد ذلك . وتغنى اليهود بهذا الحادث باعتباره نصرا اليها لهم .

٣٩٩ م :

ولى حكم مصر فتراسيوس يوليو .

٤٠٠ م :

أوفد اليهود سفارة جديدة الى روما وكان رئيسها فخر اليهود والاسكندرية فى هذا العصر ونعنى به فيلون الفيلسوف اليهودى ، وأوفد أهل الاسكندرية بدورهم سفارة مضادة ، ترد على مطالب اليهود وشكاويهم وكان يرأسهم علم آخر من أعلام الاسكندرية وهو ابون اللقوى .

ولم يكد اليهود يتقدمون بمطالبهم لكاليجولا وهى حقهم فى حرية العبادة وفقا للشريعة الموسوية ، وان يحصلوا على حق المواطن لمدينة الاسكندرية ، فأجابهم كاليجولا الذى كان قد تسلطت عليه فكرة الوهيته أنهم كفرة ملحدون ، لانهم رفضوا أن يعبدوه فى معابدهم ، وأعرض عنهم منذرا اياهم بشر وخيم .

خرج فيلون من هذه المقابلة حزينا كئيبا وهو يقول : ان يكن الامبراطور ضدنا فان الله معنا .

ولم ينقل اليهود من تقمة كاليجولا الا موته العاجل .

وفيلون هذا الذى رأس الوفد اليهودى هو آية على ان الاسكندرية ظلت بعد الاحتلال الرومانى هى عاصمة البحر الأبيض العلمية ، والدور الذى قامت به فى مزج الحضارات والدبانات والتمهيد لانبعاث التعاليم المسيحية . وليس هناك من يرمز لهذا الدور بخير من فيلون فهو يهودى من أبناء الاسكندرية ، افتتن بالفلسفة الاغريقية وجعل هدف حياته الأكبر ان يوفق بين الكتاب المقدس والفلسفة اليونانية وخاصة افلاطون . وكان الله فى كتابات فيلون هو الكائن الجوهرى فى العالم وهو غير مجسد ازلى سرمدى فى وسع العقل ان يدرك وجوده . ولكنه لا يستطيع ان يخلع عليه صفة ما لأن كل صفة تعنى التحديد .

والذين يتصورونه فى صورة بشرية انما يفعلون ذلك ليقرّبوه من خيال البشر . وكان يقول ان أول ما ولد الله ولد العقل الالهى أو كلمة *Loyos* فالكلمة هى ابن الله من الحكمة العذراء ، وكان يقول ان الله عن طريق الكلمة قد كشف عن نفسه للانسان .

وكان فيلون معاصرا للمسيح كما نرى ، ومع ذلك فلا يلوح من كتاباته انه سمع عنه ، ومع ذلك فقد كان مقدرًا له وهو اليهودى الذى لم يسمع بالمسيح ان يسهم اكبر مساهمة فى تكوين اللاهوت المسيحى حيث أخذت أفكاره طريقها فى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا الذى يقول لنا :

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » أو بالأحرى هذا هو ما يقول به الكثيرون من دارسى اللاهوت المسيحى .

٤١ م :

فى الرابع والعشرين من يناير من هذه السنة قتل أحد ضباط الحرس الامبراطورى تنفيذا لمؤامرة مدبرة من كاليجولا .

ولما ذاع خبر مقتله فى روما تردد أهلها فى تصديق الخبر وظنوه احدى حيل الامبراطور لمعرفة من يتهمج بموته .

وكان المتآمرون ارادوا ان لا يدعو الناس فى شك من أمر مقتله . . فقتلوا كذلك زوجته الأخيرة ، وحظّموا رأس ابنته .

ويقف المؤرخون حيارى ازاء ما ينسب الى كاليجولا من معاصره الرومان ، ومن صنوف الجرائم والحماقات والدناعات التى ارتكبها ، ولا يجدون تفسيرًا لها الا انه

كان مجنوناً ، ويبدأ البحث في جنونه أكان أصيلاً فيه أم أنه عرض له بعد ذلك . ذلك أنه بدأ بداية تنم عن حسن ادراك الامور ، فقد وزع أموالاً طائلة على الشعب ، وأظهر الخضوع والتواضع لأعضاء مجلس الشيوخ . ولكنه لم يلبث أن طلب منهم أن يقبلوا قدميه تعظيماً وتبجيلاً ، وأن يسكروه فوق ذلك إسماعه لهم بفعل ذلك وغلاً فطلب من الرومان أن يجعلوا منه ألها لهم . ولما كان هذا التقليد تقليداً مصرياً ، فقد أصبح شديد الإعجاب بمصر ودينها وتقاليدها ، حتى لقد فكر أن ينقل عاصمة الإمبراطورية إلى الإسكندرية واندفع مع شهواته الجنسية إلى الحد الذي لم يقف فيه عند حد : فأرغم أخته دروزولا على الطلاق من زوجها وراح يعاشرها معاشرة الأزواج : وبينما كان يحضر حفلة زفاف في إحدى الكرات انتزع العروس من عريسها ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام . . واندفع بعد ذلك في افتناس كل صنف من النساء . . فلا يسمع على امرأة جميلة إلا وبدعوها لنفسه ، وما كان لها أن ترفض وما كان لزوجها إلا أن يطيع .

وإذا كان قد بدد كل ما في خزائن الإمبراطورية من تراث ، فقد فكر في طريقة لجمع المال ، وهى توجيه تهمة الخيانة العظمى للكبراء والأغنياء ليتسنى له أعدامهم ومصادرة أموالهم .

وحدث مرة أن قل ما يلزم من اللحم لإطعام الوحوش التى كان يستخدمها في الألعاب ، فأمر أن يقدم جميع الصاع من المساجين ليكونوا طعاماً لهذه الوحوش .

وعندما دبرت مؤامرة بعد ثلاث سنوات لاغتياله ، اكتشف كاليجولا المؤامرة ، ففرض على روما عهداً من الأرهاب زاده وحشية حبه الجنونى للذى ، فكان يأمر الجلادين أن يملؤا الضحايا ببط بائخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون ، وأمر جدته انطونيلا أن تقتل نفسها ، وأمر أن يكوى رجال الطبقات العليا بالحديد المحمى (ممن تأمروا عليه فيما نعتقد) وأن يجلسوا فى اقفاص حديدية ، ثم تنشر أجسامهم ويلقوا بعد ذلك للحيوانات الضارية .

أما أحاديث أسرافه وفجوره وعنه مع الرافضين والمننيين فحديث طويل عريض لا يكاد يصدق . وليس ذلك إلا مجرد عينات مما فعل هذا الإمبراطور حرصنا كل الحرص على تخفيفها لتكون أقرب إلى الإذهان .

وكان عمره عندما قتل لا يتجاوز التاسعة والعشرين .

وترى صورة كاليجولا كفرعون مصرى على جدران معبد طنطرا كما يرى اسمه على المباني والمنشآت التى استمر العمل فيها إبان عهده .

٤١ م : الإمبراطور كلوديوس قيصر :

تصور قتلة كاليجولا وقد كانوا يدينون بالمبادئ الجمهورية ، أن الوقت قد

حان لخلع الحكم الاستبدادى والعودة الى النظام الجمهورى الديمقراطى : ناسين أن هذه الجمهورية كانت قد انتهت الى غير رجعة ، وأن القوة العسكرية الباطشة قوة الحرس الامبراطورى لا قوة السناتو هى التى أصبحت مصدر السلطان .

ويحدثنا التاريخ حديثا عجا . . فعندما انقضى الحرس الامبراطورى عقب المؤامرة لقتل كل من يلوذ بكاليجولا ، عثروا على شيخ يبلغ من العمر الخمسين وقد اشتهر طول حياته بالبلاهة ، وكان يرتجف فى مخبئه فزعا فى أحد أركان القصر ، فلما أمسك به الجند توسل اليهم أن يبقوا على حياته ولا يقتلوه فهو لم بفعل شيئا . فاذا بهم يفاجئونه بقولهم « كن أنت امبراطورا لنا » واقتيد الرجل الشيخ الأبله مذهولا مذعورا لا يكاد يصدق إلا أنهم سيمثلون به ، اقتيد الى ثكنة الحرس الامبراطورى ، حيث كروا على سماعه ما عرضه عليه ، فما كان من الرجل إلا أن وقف يخطب فيهم واعداد كل واحد منهم اذا جعلوه امبراطورا بمنحة مالية ضخمة (١٥ ألف سسترس)

وهكذا وضع الأساس لهذا التقليد الذى لن يلبث أن يصبح لدى الحرس الامبراطورى قانونا يشترى به الاباطرة العرش .

ولم يكن هذا الشيخ الأبله الذى وجد نفسه امبراطورا على غير انتظار سوى كلوديوس أخ جرماتيوكوس وعم كاليجولا . وقد كانت مفاجأة للجميع أن برهن كلوديوس بمجرد توليه على العرش ليس فقط بعلمه وذكائه فحسب بل بقوة ارادته وأخلاقه القوية - فقد بادر باطلاق سراح من سجنوا بمقتضى قانون الخيانة العظمى ، واعداد جميع المنفيين الى أوطانهم ورد الاموال المصادرة الى أصحابها والغى الضرائب التى فرضها كاليجولا . ولكنه فى نفس الوقت أمر بأعدام قتلة كاليجولا ، فليس هناك ما هو أخطر من التغاضى عن قتلة الاباطرة وحرمة عادة السجود للامبراطور ولعله لا يكشف عن قدرة كلوديوس التى أدار بها الأمور بمجرد اعتلائه العرش ، من تتبع آثاره ونشاطه فى مصر . .

٤١ م - ولي حكم مصر امليوس ركتوس :

بعث كلوديوس بمجرد توليه الامبراطورية بمنشورين لاحسان معاملة اليهود ، وقد تلاهما بنفسه فى الاسكندرية ، الملك أجريبا ، وكان أول المنشورين يعيد لليهود الاسكندرية كل الحقوق التى كانوا يتمتعون بها قبل عصر كاليجولا . أما المنشور الثانى فكان يمنح هذه الحقوق لكل الجاليات اليهودية فى سائر أنحاء الامبراطورية وكان طبيعيا أن يملأ الزهو بالانتصار يهود الاسكندرية فتجمعوا مسلحين مطالبين بتنفيذ حقوقهم . متحرشين بأهل الاسكندرية فوق الاصطدام بين الطرفين ، وكان اليهود هم البادئون هذه المرة : وأسرع الوالى المزود بتعليمات الامبراطور بقمع الفتنة بكل شدة فهذهات الأحوال .

رسالة كلوديوس الى اهل الاسكندرية :

وقد حفظ لنا التاريخ رسالة من كلوديوس وجهها الى اهل الاسكندرية وكانوا قد ارسلوا اليه : يهودا واغريقيا كل من جانبه وفدا يهنئ ويدافع عن نفسه ويتقدم بمطالب .

وهي رسالة حية تنبض بالحياة وتدلنا على مكانة الاسكندرية لدى الاباطرة وكيف كانوا يناقشون سكانها ويدرسون مطالبهم وشكاواهم :

« من تبريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمانيكوس الامبراطور الكاهن الاعظم حامل السلطة التريبونية المرشح قنصلا الى مدينة الاسكندرية سلاما » .

ثم يقول انه تلقى من السفراء قرار الاسكندرية بتكريمه ويعقب على ذلك قائلا :

« انهم اوضحوا لي ما يكونون من شعور طيب نحونا وهذا شعور ادخرته لكم في نفسي — كما تعلمون جيدا — منذ زمن طويل فأنتم بطبيعتكم تجلون الاباطرة كما أعلم من أدلة كثيرة ولا سيما اهتمامكم الشديد بأسرتي وهو اهتمام متبادل ، وأمل أعظم شاهد عليه — ولاذكر اقرب مثل ضاربها صفحا من الامثلة الاخرى — هو أخي جرمانيكوس قيصر الذي خاطبكم بلغة واضحة صريحة » .

وتنقسم بعد ذلك رسالة كلوديوس الى ثلاثة أقسام يتناول القسم الاول مناقشة اقتراحات الاسكندرية لتكريمه كجعل يوم ميلاده عيدا رسميا ، ، واقامة بعض التماثيل له ، وغير ذلك .. وقد قبل هذا النوع من الاقتراحات . ولكنه رفض اقامة المعابد بأسمه لأن ذلك امتياز خاص بالالهة ويجب أن يظل وقفا عليهم .

ويتناول القسم الثاني مناقشة مطالب الاسكندرية التي تقدموا بها ، وهو يوافق بعضها في ارتياح ، كقصر تعيين والى مصر لمدة ثلاث سنوات فقط .

« لأن حكاهم سوف يسلكون أثناء فترة توليهم مناصبهم مسلكا حذرا خشية أن يتعرضوا للخسار على أساء استعمال السلطة » . حتى اذا وصل كلوديوس الى المطلب الخاص باقامة مجلس للشورى قال في الرد عليه ما يلي :

« أما عن مجلس الشيوخ فليس في وسعي أن أقول ما هو التقليد الذي درجتم عليه في عهد الملوك الاقدمين ، ولكنكم تعلمون جيدا انه لم يكن لديكم مجلس في عهد من سبقوني من الاباطرة وحيث أن هذا مقترح جديد يثار للمرة الاولى ولا يتضح اذا ما كلن سيعود بالفائدة على المدينة وحكومتي فقد كتبت الى ايميلبيوس ركتوسى (الوالى) أن يبحث الموضوع ويخبرني عما اذا كان من الضروري انشاءه أصلا وكيف ستكون طريقة انشائه اذا تبين أنه ضرورى .

اما القسم الثالث من أقسام الرسالة ، فخاص بالموضوع الذي قام بين اليهود والاغريق من سكان الاسكندرية .

« أما عن الفريق المسئول عن الشغب والنزاع - وأن شتمت الصدق - عن الحرب مع اليهود . فعلى الرغم من أن سفراءكم ولا سيما ديوتسيوس بن شيمون قد دافعوا عن قضيتكم دفاعا مجيدا عندما ووجهوا (بخصومكم) الا أنني لم اشأ أن أقوم بتحقيق دقيق مختزنا في صدرى سخطا دفينا على من يبدؤون (العدوان) من جديد وأنبتكم بصراحة انه اذا لم تكفروا عن تبادل العداوة المستحكمة القائمة ، فسوف اضطر الى أن اظهر لكم كيف يصير العاهل الشفوق عندما يمتلكه غضب هو محقق فيه . ولهذا فأننى من ناحية أناشد الاسكندريين مرذ أخرى أن يبدؤوا روح التسامح والود لليهود الذين يعيشون في المدينة نفسها منذ زمن طويل : والا ينتهكوا شعائر عبادتهم الدينية ، بل أن يدعوهم يمارسون عاداتهم التى يمارسونها أيام أغسطس المؤله والتى اقررتها أنا كذلك ، بعد أن سمعت اقوال الطرفين .

ومن ناحية أخرى فأنى أمر اليهود صراحة الا يضيعوا جهدهم فى السعى وراء (حقوق) أكثر مما حصلوا عليه من قبل ، والا يرسلوا بعد اليوم سفارتين كأنهم يعيشون فى مدينين ، فذلك أمر لم يحدث من قبل ، والا يفحموا أنفسهم فى مباريات معاهد التربية أو منظمات الشباب ، بل ينتفعوا بما فى حوزتهم من (امتيازات) ويتمتعوا بمدينه ليست مدينتهم بوفرة من الخيرات الجمه . وعليهم الا يستقدموا او يسندعوا يهودا ممن يقدون الى المدينه من سوريا ، أو من مصر عن طريق النهر مشيرين فى نفسى مزيدا من الرية . ولئن لم يمثلوا لانتقم منهم بكل الوسائل بوصفهم فوما ينشرون الوباء الشامل فى انحاء المعمورة . فان كف كل عن هذه الاعمال ورضى ان يعيش فى تسامح وود مع الآخر فسوف أولى من جانبى اهتماما للمدينة التى تربطنا بها صداقة تقليدية قديمة » . على أن كلوديوس وان لم يمنح الاسكندريه مجلس شوراها ، فقد اظهر اهتمامه وعطفه عليها بتسنى الوسائل فبنى بها مدرسه سماها باسمه وأمر أن يعرا فيها تاريخه الذى وضعه عن ايطاليا وقرطاجنه واعاد لها حق ضرب النقود الذى كان قد انكر عليها فضربت النقود فى السنة الاولى من حكمه ، ثم سنى ملكه بعد ذلك مما افاد المؤرخين فائدة عظمى .

وسن قانونا لحفظ حقوق الشعب من التعدى والظلم ، وأمر واليه ان ينتشره فى طول البلاد وعرضها ، ولكن الوالى لم يقم قضاة فى داخل البلاد للحكم بموجبه فلم يظهر له اثر فعلى .

٤٧ م - ولى حكم مصر جوليوس برستوموس ،

٤٨ م - « فرجيلوس كابيتو » .

٥٣ م - تجددت الفتنة من جديد فى الاسكندرية بين اليهود والخليط من سكان الاسكندرية . ولم تصلنا اخبار الفتنة فى هذه المرة من كتب المؤرخين ، ولكن من هذه البرديات التى تؤلف مجموعة من الوثائق اطلق عليها العلماء اسم « أعمال الاسكندريين » وهى كتابات من نوع الادب الشعبى ستظل تقابلنا حتى عام ٢٠٠ م عندما اعطيت الاسكندرية حق تأسيس مجلسها الخاص بالشورى . ولا يستطيع

التاريخ أن يتجاهل هذه الوثائق التي تفيض كلها بالهجوم على اليهود من ناحية وعلى الرومان من ناحية أخرى ، بل لعلها لا تهاجم اليهود الا كسبيل للهجوم على الرومان ، والهاب روح العداوة ضد الحكم الاجنبى . فتحدثنا هذه البردية التي نحن بصددھا والنی تسمى « أعمال أسيدوروس » كيف ان سفراء الاسكندرية وعلى رأسهم أسيدوروس . قد مثلوا في حضره الامبراطور كلوديوس أول مايو عام ٥٣ ليستكوا له من الملك إجريا اليهودى ... ولكن كلوديوس كما يبدو في هذه الوثيقة قد انحاز الى جانب اليهود وملكهم ... حتى لقد أصدر حكمه باعدام اسيدوروس وزميل له يدعى لاميون .

ويوجه كلوديوس الحديث لاسيدوروس متسائلا :

كلوديوس : أحق يا اسيدوروس أنك ابن راقصة .

اسيدوروس : أنا لست عبداً ولست ابن راقصة ، انما أنا مدير معهد التربية بمدينة الاسكندرية الشهيرة .

وأما أنت فابن منبوذ غير شرعى لسالومى اليهودية وعندئذ يقول لاميون لزميله اسيدوروس ليس بيدنا حيلة سوى الاذعان لحاكم مجنون .

ازدهار حياة مصر الاقتصادية :

وفي هذه الفترة من التاريخ اكتشف الملاحون العاملون من مصر طريق البحر الى الهند ، فادى ذلك الى اتساع التجارة اتساعا عظيما .

ويحدثنا يالينى الاكبر عن الأرباح الضخمة التي بدأت تدرها هذه التجارة التي أصبحت مصر معبرا لها . كما يحدثنا عن ازدهار الصناعة في مصر ولا سيما صناعة المنسوجات والأصباغ والورق بصفة خاصة الذي أصبحت تصنع منه أنواع متعددة تسد حاجة عالم البحر الأبيض كله .

٥٤ م - ولى حكم مصر لوسيوس .

٥٤ م وفاة كلوديوس : دست أجريينا زوجة كلوديوس لزوجها السم في طعمه فاردته قتيلا ، بعد ان ضمنت تأييد الحرس الامبراطورى لها ولتولى ابنها نيمون العرش . ولم يكن مصرع كلوديوس بهذا الأسلوب الا مظهر فشله في حياته الخاصة والزوجية .. فحيث اعتبر من انجح الأباطرة في الشؤون العامة . فعاقب الموظفين الذين أساءوا استخدام السلطة وسعى لرفع شأن الولايات الرومانية كلها لتصل الى مكانة ايطاليا نفسها لتؤلف معها مجموعة متساوية من الامم الرومانية .

وحقق ما سعى يوليوس قيصر لتحقيقه وهو احتلال الجزر البريطانية (عام ٤٣ م) وذهب اليها بنفسه . حيث حقق ذلك كله ... عجز ان يسيطر على سياسة بيته ، فتزوج اربع مرات كانت كل زيجة منها ذات طابع غريب ...

وذهبت واحدة منهم في التاريخ علما على أقصى ما يمكن أن تصل اليه امرأة متزوجة من الإباحية والتحلل من كل المعاني والقيم ونعني بها « مسالينا » والتي يقول لنا عنها مؤرخو الرومان ما يتردد الانسان لتصديقه ... لا من ناحية ارتكابها اياه بالفعل ، ولكن من ناحية موافقة الامبراطور عليه ، حيث كانت تستعين به على اقناع من يتردد في مبادلتها العشق ، فمن استعصى بعد ذلك لفقت له تهمة الخيانة العظمى وقضى عليه .

وفد وصل بها الامر الى حد أن نقصد المواخير العامة وتستقبل كل من يدخلها وتأخذ ما يقدمون لها من اجور .

ونحن مضطرون ان نصدق مدى ما وصل اليه اسهتارها الذي لم يسمع بمثله لانه كان السبب الذي أدى الى موتها .

فقد انتهزت فرصة غياب الامبراطور ، وتزوج رسميا من ساب وسيم يدعى كيوس سليوس ، وابت الا ان يتم الزواج في حفل رسمي وأن تجرى فيه كل المراسيم والطقوس المعتادة .

* وأبلغ نارسيس (سكرتير المراسلات الامبراطورية) سيده بما حدث . فخف الى روما وأصدر أمره بذبج سليوس وجميع عشاق مسالينا . اما هي فقد بعث اليها لتدافع عن نفسها وكانت في حديقتها الخاصة التي أعدتها للذات الخاصة ، وخشى نارسيس على نفسه أن يصفح الامبراطور عنها بعد كل ذلك فتنقلب الدائرة عليه ، فأرسل لها بعض الجنود فقتلوا .

وأبى كلوديوس الذي كان قد بلغ من العمر السابعة والخمسين الا أن ينزوج للمرأة الرابعة ، وكانت زوجته هذه المرة ابنة أخته اجريندا التي أوفعته في حبها وكان قد سبق لها الزواج ، حيث رزقت بابنها نيرون ، الذي جعلت نصب عينيها أن ترفعه على العرش ، وأن تجعل منه اسكندرا آخر ونجحت في خطاؤها الأولى عندما تزوجها خالها الامبراطور وعلى الرغم من أن كلوديوس كان له ابن ، فقد نجحت في حمله على تبني نيرون ، وجعله وريثا على العرش دون ابنه صاحب الحق .

وجاءت بسينكا الفيلسوف الكبير ليكون مرييا لنيرون كما كان أرسطو مرييا للاسكندر .

وعندما تصورت أن كلوديوس يحاول التخلص من وعده وتعيين ابنه الاصيل وليا لعهد اسرعت فدست السم لكلوديوس ... وهكذا وجد نيرون نفسه على عرش روما بفضل دسائس أمه ومؤامراتها وشخصيتها العجيبة المسيطرة .

وقد أنشأ كلوديوس بهو الأعمدة في المعبد الكبير بطنطرا وشيد الأعمدة الرائعة في فيلا وترى صورة كلوديوس كفرعون مصري يتعبد للالهة على جدران معبد فيلا كما ورد ذكر اسمه في المباني والمنشآت التي استمر العمل في اقامتها في عهده .

حكم نيرون :

٥٤ م - اعتلى نيرون الذى كان عمره سبعة عشر عاما عرش روما . وبدأ حكمه بداية موفقة جدا بفضل توجيهات استاذة سنكا وقائد حرسه الامبراطورى يوروس . ودامت هذه البداية الرائعة خمس سنوات يقول عنها تراجان انها خير السنين فى تاريخ الحكومة الامبراطورية .

مصر :

ولقد استقبلت مصر والاسكندرية القيصر الجديد كما هو شأنها دائما مع فراعتها وملوكها ، بالتحية والاکرام واقامة الاعياد والاحتفالات . وتصفه لنا البردية التى ورد فيها اعلان جلوسه على العرش : انه روح العالم والطيب والامبراطور المرتقب من الدنيا ومناطق املها ومصدر كل البركات ، وانه يتعين على الجميع ان يرتدوا الاكالييل وينحروا الثيران لجميع الالهة عرفانا بالجميل .

ويوصف فى بعض مسكوكات الاسكندرية بأنه : «منقذ المعمورة» .

٥٦ م - وقد عين كلوديوس باليلوس واليا على مصر والذى بذل عناية كبيرة باصلاح الاحوال الاقتصادية فى مصر والعمل على ازدهار الصناعة والتجارة والزراعة . مما يجعل المؤرخ جرافتون ملن يرى ان نناء المصريين على نيرون لم يكن مجرد الاقوال التقليدية المألوفة .

٥٩ م - ولى حكم مصر جوليوس فيسينيوس .

٦٠ م - حوكم شارل اليهودى الذى كان قد تحول الى اكبر دعاة التبشير بالمسيحية ، واصبح اسمه بولس امام فيليكس حاكم جواديا ، فطلب بولس الذى كان على معرفة بالقانون الرومانى ، أنه يريد ان يحاكم امام الامبراطور ، فأجيب الى طلبه وارسل الى روما ليحاكم بها .

وهكذا خبطت المسيحية خطواتها الكبرى على يد بولس لتنتقل من ديانة يهودية الى ديانة عالمية .

٦١ م - قامت بعثة بناء على امر نيرون وبتوجيهات من سنكا الذى كان مغرما بالجغرافية والعلوم ، لاستكشاف منابع النيل ، فقوبلت البعثة بالترحاب فى كل مكان حلت به ، ووصلت الى مروي العاصمة الجنوبية للنوبيين ، ثم وصلت الى مستنقعات النيل الابيض ، وجمعت معلومات قيمة عن تضاريس الارض وحيوانات هذه المناطق النائية ورسمت خريطة لها .

ويقول بعض المؤرخين ان هذه البعثة انما كانت تمهيدا للقيام بغزو عسكري لبلاد النوبة ، ولكن هذا ليس الا افتراض .

٦١ (١) م - في هذه السنة بدأ مرقس الرسول التبشير بالمسيحية في الاسكندرية وكان قد قدم اليها من المدن الخمسة (ليبيا) فأخذ يسير في شوارع المدينة مأخوذا بحالها حزينا على ما مر بها من شرور ، وكما لو كانت المدينة العظيمة قد سحرتها فأنسته الجوع والتعب وعند المساء انقطع سير حذائه فوفف عند اول اسكاف صادفه وطلب منه أن يصلح له حذاءه ، وبينما كان الاسكاف يباشر عمله اذ دخل المخراز في يده فرفعها في ألم وهو يهتف « الله الواحد » وفي الحال تفل الرسول على الأرض وصنع من التفل طينا ومسح به الجرح فأبراه .

ثم سأل الاسكاف أن كان يعرف الله الواحد الذي يناديه فقال له : « أننى اسمع عنه سمعا ولكننى لا أعرفه » وعندئذ أخذ مرقس يروى له كيف ولد المسيح وكيف علم وكيف أفتدى الناس بأن ارتضى أن يعلق على الصليب ثم دفن وقام من الاموات وصعد الى السماء « وفتتح قلب الاسكاف لهذه البشري المجيدة وابتهج بها ، فأصطحب معه مرقس الى البيت . حيث اصطبغ بالصبغة القدسة هو وأهل بيته ، فكان بذلك الاسكاف واسمه ايناتوس (جنانيا) وهو وآل بيته أول المؤمنين » (٢) .

٦٤ م - اعتزم مرقس الرسول أن يبارح الاسكندرية ، فرسم ايناتوس (حانيا) بابا للاسكندرية . فهو أول بابا للاسكندرية بعد مرقس أو ثاني بابا للاسكندرية واليه ينسب انشاء أول كنيسة في الاسكندرية وهى على ما يعتقد بعض أقباط مصر في نفس البقعة التى توجد بها الكنيسة القبطية الحالية بالاسكندرية بشوارع الاقباط .

* وتاريخ الكنيسة القبطية يعزو الى مرقس أيضا انشاء مدرسة لاهوتية في الاسكندرية ، لتقف في مواجهة الموارس الفلسفية أو اليهودية التى كانت تملأ الاسكندرية ومرة أخرى ليس باستطاعة المؤرخ المحقق أن ينفى هذا الخبر .. فمدرسة الاسكندرية للاهوت ستصبح بعد قليل احدى حقائق العالم المسيحي .

٦٤ م - في الثامن عشر من شهر يوليو من هذا العام شبت النار في المضمار الأكبر بروما وانتشرت انتشارا سريعا ، وظلت النار مشتعلة طوال تسعة أيام بلياليها التهمت فيها ما يقرب من ثلثى مدينة روما .

وعلى الرغم من أن نieron كان بعيدا عن روما ساعة اندلاع الحريق ، فقد امتلأت روما بالشائعات أنه هو صاحب الحريق ومدبره لكى يغنى أحد أناسيده على ضوء اللهب .

(١) اتمدنا في هذا التاريخ وعلى كل سنى البايوات على التاريخ القبطى المعتمد من الكنيسة القبطية المصرية ، والذي يتأخر عن التقويم الميلادى الغربى بشمانى سنوات .

(٢) هذا هو الراى المعمول به في كيف بدات الدعوة المسيحية في مصر ، وهى رواية الكنيسة ، وليس هناك ما يناهضها أو يدمو لعدم الاخذ بها ولكن الاستقراء يدل على أن الاتصال بين يهود مصر ويهود اورشليم كان لا ينقطع ، ولا يمكن أن يكون يهود مصر الذين حضر الكثيرون منهم عيد الفصح الذى حوكم فيه المسيح ، لم يشهدوا مأساه ولم يتأثروا بها ويعتقوا الدين الجديد مع اخوانهم في مصر فلا بد أن تكون المسيحية دخلت الى مصر بصورة ما خلال الثلاثين عاما السابقة على مقدم بولس .

١ ووجد نيرون أن خير طريقة للدفاع عن نفسه هو أن يلصق التهمة بغيره ، فوجد في المسيحيين كبش الفداء ، فصب عليهم جم غضبه ولنقل لك ما قاله تاسيتوس في تاريخه عما حل بالمسيحيين وهي على ما يقول المؤرخون المحققون أول إشارة وردت للمسيحية في كتب التاريخ المعاصرة لحياة المسيح وما تلاها :

الصق نيرون التهمة بطائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة (١) ويسمون غالبا بالكريستيانى (المسيحيين) والاسم مشتق من كريستوس وهو اسم رجل عذبه بنتيوس بيلات المشرف على الشؤون المالية في عهد بربوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديده وجهت الى الشيعة التي أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وفف نمو هذه الخرافات الخطيرة الى حين ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى نشاطها وانتشرت انتشارا سريعا قويا في بلاد اليهود وفي مدينة روما نفسها . ويمضى تاسيتوس في سرد ما حدث من اضطهاد للمسيحيين فيقول :

واستخدمت في اعدام المسيحيين افانين من القسوة المناهية ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل اضاف الى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فالبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا نلتهمهم الكلاب . وسمر غيرهم في الصلابن ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت اجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة واشعلت فيهم النيران ليكون مشاعل في الليل . وفي آخر الأمر افعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعا رأفة ورحمة ورقت القلوب اسى على المسيحية .

٦٦ م - عين نيرون تيربوس يوليوس الاسكندر واليا على مصر .

اجتمع أهل الاسكندرية في المدرج الكبير ليلبحوا في شأن ارسال سفارة الى روما ، عبر للإمبراطور عن ولائهم له بمناسبة اندلاع ثورة اليهود ضد الحكم الرومانى في اورشليم . فاندس بعض اليهود وسط المجتمعين فلما كشف أمرهم المجتمعون هموا بالبطش بهم باعتبارهم جواسيس عليهم وفكر البعض في حرقهم أحياء . فنار يهود الاسكندرية ، وهاجموا المجتمعين في المدرج ورجموهم بالحجارة ، بل وفكروا في أن يضرخوا النار في الملعب ليحرقوا كل من به .

ولكن تيربوس يوليوس الاسكندر والى الاسكندرية في هذا الوقت وهو اليهودى الأصل وأرتد الى الوثنية ، أوضح لليهود مغبة أعمالهم ، ولكن المتطرفين منهم لم يستمعوا اليه ، ومضوا في اشتباكاتهم المسلحة . فاستعان والى بالجيش المرابط بالمدينة ، كما تصادف وصول جيش من روما في طريقه الى ادرشليم لاختاد الثورة بها فأحاط باليهود وحوصروا في حيهم الخاص بهم ، ولكنهم استماتوا في الدفاع عن انفسهم على أنهم لم يلبثوا أن غلبوا في نهاية الامر على أمرهم ولا سبيل للتحقق مما قاله يوسيفوس المؤرخ اليهودى الذى زعم أن عدد قتلى اليهود في هذه المحمة ناهز الخمسين الفا .

(١) غنى عن البيان أن تاسيتوس لم يكن مسيحيا .

٦٧ م - تعيين فاسبسيان للقضاء على ثورة اليهود .

٦٨ م - موت نيرون : انتحر نيرون بطعنة خنجر شريرا طريدا ، بعد ان أحيط به ، اذ أعلن فندكس حاكم غالة (فرنسا) الثورة عليه ، ولم يلبث الجينس الرومانى فى اسبانيا أن استجاب لهذه الثورة ونادى بقاتله المسن (جاليا) امبراطورا .

وانضم الحرس الامبراطورى فى روما الى المناداة بجاليا امبراطورا .

واسرع السناتو فأعلن أن نيرون عدو للشعب وقضى بأعدامه وفق الطرق القديمة .

ووجد نيرون نفسه فجاء وقد هجره كل من حوله ففر هاربا مدعورا متخفيا فى ملابس زرية وعندما وصل الجنود للقبض عليه وضع حدا لحياته بالانتحار وهو يردد « أى فنان يقتلون » .

ولعل تهمة حرق روما النى الصقها به معاصروه هى أخف ما ارتكب من آثام اذا صح ما ادعاه أو نسب اليه من أنه اراد أن يعيد بناء روما لتكون جديدة بمركزها كعاصمة للعالم .

ولكن الذى يصمه به التاريخ فى الدرجة الاولى ، هو أن قتله أمه اجريينا التى فوق كونها كائى أم قد حملته وارضعته فقد كرسى حياتها من أجل أن تجعله ملك الدنيا حتى أوصلته بالفعل الى ما وصل اليه ، ومع ذلك فقد قرر استجابة لنزوة محظيته « يوبيا » أن يقتلها ففكر فى السم وفشل ، فشرع فى قتلها اغراقا ولكنها نجت أو سبحت ، فلم يبق الا أن تقتل بالسيوف فأرسل رجاله يطاردونها ، فلما لحقوا بها خلعت ثيابها وتبدت امامهم عارية وقالت لهم « أذفعوا سيوفكم فى رحمتى » إشارة الى أنه هو الذى أنجب هذا الولد ، واحتاج قتلها الى عدة طعنات ، ولما رأى نيرون جثتها العارية لم يزد عن قوله : لم أكن أعرف ان لى أما يمثل هذا الجمال .

وكان جزاء نيرون على هذه الفعلة ، ان صفيق له السناتو وهلل ، وقرر توجيه الشكر والحمد للآلهة التى كلأت نيرون بالرعاية وأنجته من السوء والحق نيرون يأمه زوجته اكتافيا التى قطعت رأسها والقيت بين أحضان يوبيا عشيقته نيرون تحقيقا لرغبتها .

ومرة أخرى قدم مجلس السناتو الشكر والدعاء للآلهة لحفظها الامبراطور ونجاته من كل سوء ونستطيع أن نتصور ما الذى حل برجالات روما عندما اكتشف نيرون احدى المؤمرات عليه ، فقد كان جوابه هو التوسع فيما اكتشفه كاليجولا من قبله وهو اخضاع روما لجو من لارهاب الوحشى ، وتوجيه تهمة الخيانة العظمى لا للمتآمرين أو من اشتبه فى تآمرهم ، ولكن لكل من يكون مرغوبا فى قتله لمصادرة أمواله ، لسد عجز الخزانة التى كان نيرون قد بعثرها .

حتى سنكا استأذنه ورائده ، لم يكذب يظهر اعتراضه على بعض أعمال نيزون ، حتى طلب منه الاعتزال في بيته ، ثم لم يلبث أن صدر له الأمر بأن يقتل نفسه ففعل ، غير آسف فيما يبدو على مفارقة حياة تحول فيها تلميذه الى شيطان مريد . ولعل روما في كل تاريخها لا تجد فيلسوفا يفوق سنكا من حيث تمثيله للفلسفة الرواقية .

وتغوف نيزون على سلفه كاليجولا في حماقاته ومبازله حيث كان يتخفى ويطوف الشوارع ويتردد على الحانات والمواخير في صحبة رفاق السوء الذين قد يحلو لهم أن يسطوا على الحوانيت ويسبغون الى النساء ويفسقون بالغلمان ويجردون من يقابلونهم مما معهم من ثياب ويضربونهم بل ويقتلونهم .

وعندما ماتت يوبيا زوجة نيزون التي قتل من أجلها أمه وزوجته (عام ٦٥ م) عثر على شاب يدعى اسبوس عظيم الشبه بها ، فأمر بخصيه وتزوجه في احتفال رسمي (استعمله في كل شيء كما تستعمل النساء) .

والناحية التي تحير الباحثين النفسيين في حياة نيزون هو ان هذا الانسان الذي انحرف بهذه الصورة العجيبة كان في طيات نفسه الرغبة القوية في أن يكون فنانا ، حتى لم يكن يستخفه شيء من الطرب الا ان يغنى على شعره أو صوته ، وحتى ليحمله حب الفن على ان يغنى ويمثل في المسارح العامة التي تزدهم بالجماهير (حتى لينكسر بعضها من شدة الزحام) لتري امبراطورها وهو يركع على المسرح في ختام المسرحية كمادة الممثلين ليطلب من النظارة أن تصفق له .

ولما احس ان الرومانيين لا يقدرّون فنه كما ينبغي رحل الى بلاد اليونان عام ٦٦ فاليونانيون هم الشعب الوحيد الذي له آذان موسيقية تقدر فنه واستغلت بلاد اليونان فرصتها الذهبية فصفقوا للامبراطور ، بل ومنحوه كل ما عندهم من كل فرع من فروع البطولات الرياضية وسباق العربات التي اشترك فيها كما منحوه جوائز الغناء والعزف والتمثيل . ورد الامبراطور التحية بأحسن منها فأعلن أن بلاد اليونان أصبحت حرة فلم يعد عليها أن تدفع جزية لروما .

وليس ذلك الا اشارات لما تضمنته كتب التاريخ الرومانية لحياة هذا الامبراطور . الذي أصبح حرق روما رمزا عليه ورمزا على منتهى ما يمكن أن يؤدي اليه حكم الفرد الطاغى .

ولعل أعجب ما في الأمر أن يهبط رجالات الرومان الى المستوى الذي بجملهم يرضون بمثل هذا الحكم وهم الذين قتلوا من قبل أعظم رجالهم وهو يوليوس قيصر خوفا من أن يعلن نفسه ملكا .

يريد أن يكسب قوته في مصر :

بقى أن مصر والاسكندرية كانت آخر ما تعلق به أمل نيزون عندما أحيط به ،

فقد رجا أن يسمح له بالذهاب ليكون واليا على مصر ، أو يترك ليتكسب في الاسكندرية بعرق جبينه على مسارحها ودور الغناء بها .

وكان في بلاطه رجال من الذين يمثلون العلم المصرى والدين المصرى من أمثال خيريمون النقراطيسى مربى القصر ، وبالبيلولس عالم النجم الفذ .

وكانت يوبيا زوجته صاحبة التأثير عليه تشبه بايزيس ربة مصر ، وأوصت (فيما يبدو) بأن تحفظ جثتها بعد موتها تأثرا بالعقائد المصرية ونفذت وصيتها .

وترى صور نيرون كفرعون مصرى فى معبد طنطرا ويذكر اسمه على كثير من المنشآت التى استمر العمل فى تشييدها ابان حكمه ، ولكن معبد كلابشى قد انشئ بأكمله فى عهده .

أربعة أبطرة فى عام :

٦٨ - ٦٩ - كان الاعتراف بجاليا امبراطورا للرومان فى يونيو ٦٨ تسليمًا من السناتو بأن الأبطرة يمكن أن يعينوا بعد الآن فى أماكن أخرى غير روما ، بعد أن كان قد سلم بحق الحرس الامبراطورى فى تعيين الامبراطور .

ولما كان جاليا الامبراطور الجديد شيخا وقائدا جليلا ممن كانوا لا يزالون يحتفظون بالروح الرومانية الاصلية ، فقد أحق عليه الحرس الامبراطورى منذ اللحظة الأولى بعدم اعطائه المنحة التى شرعها كلوديوس لأفراد الحرس .

وعندما حاول أن يفرض على روما حياة التقشف والعودة الى بساطتها الأولى ، الب عليه عناصر الفساد التى كانت تفص بها روما وحولهم الى أعداء الداء .

وعندما أصدر أمره بوجوب أن يرد كل من أعطاه نيرون مالا تسعة أعشار ما أخذه . . كان يضم لقائمة أعدائه اعدادا غفيرة من أقوى رجال روما ولغنائهم .

فلا عجب اذا كان باستطاعة من يدعى أوتو والذى كان رفيق فسق لنيرون والذى أخذ منه نيرون زوجته بوبيا ، أن يحظى بتأييد الحرس الامبراطورى وأن يحمله على قتل جاليا ويدعو خليفته الذى كان قد عينه ليكون قيصرًا من بعده .

فى مصر :

وعلى الرغم من قصر المدة التى حكم فيها جاليا فاننا نرى معبدا صغيرا فى مدينة حابو قد كرس له ونرى صورته كفرعون كما نرى اسمه على المباني التى استمر العمل فيها فى أيامه .

ولم يكد جاليا يقتل وينادى الحرس الامبراطورى بأوتو امبراطورا حتى بادر السناتو باعتماد هذا الاختيار وتكريمه .

ومما يؤثر عن أوتو أنه كان من عباد أيزيس المتفانين في عبادتها ، وهو ما يدل على مدى انتشار هذه العبادة في روما ووصولها الى كبار رجالاتها . على ان أوتو لم يهنا طويلا بالامبراطورية ، فان جيش الرامين الذى رفض من البداية الاعتراف بجاليا امبراطورا ونادى بقائه اولوس فينليوس امبراطورا ، رفض الاعتراف بأوتو وزحف على روما ، حيث قابلته جيوش أوتو . ولكن الدائرة دارت على أوتو وجيشه ، فاقدم أوتو على الانحار ، ويقال ان هذا الانتحار هو العمل الوحيد الطيب في حياته ولم تتجاوز مدة حكمه خمسة وتسعين يوما . وبالرغم من ذلك نجد صورته بدوره كفرعون نفسه في مدينة حابو بطيبة .

ومرة أخرى بادر السناتو باعتماد اختيار الامبراطور الجديد اولوس فيتليوس ، مع توجيه التمسك لجيش الرامين لاختياره هذا الامبراطور العظيم . ويقول لنا تأسس ان هذا الامبراطور العظيم قد جمع في حكمه الفصير كل الحماقات والمفاسد التى شهدتها روما ابان حكم كاليجولا ونيرون .

وزاد عليهم بأن جعل الحكم وليمة مستمرة من الطعام التى ينفق عليها كل يوم عشرات الملايين من الشراس وان يتخلل هذه الولائم كل المساخر والمهازل ومظاهر الاباحية والانحلال الذى يلطخ تاريخ روما في هذه الفترة . على ان هذا الحكم الفاسد لم يعمر طويلا بدوره ، فقد رفضت الفرق الرومانية في الدانوب الاعتراف به امبراطورا ، وزحفت نحو روما ، وعلى رأسها قائدها انطونيوس . وتقابلت الجيوش الزاحفة وجيوش فيتليوس عند مدينة كزومونا في اكتوبر عام ٦٩ م ويقال ان الدماء جرت في هذه المعركة كما لم تجر في أى معركة سابقة في التاريخ كله ، على الرغم من ان فيتليوس نفسه كان راغبا عن الحرب وطلب من مناصربه ان يلقوا السلاح ، ولكن جيشه اصر على المقاومة في داخل روما نفسها ، بينما وقف الشعب يشهد الجيوش المقاتلة كما لو كان يشهد تمثيلية مسرحية فبقول لنا ناستس الذى كان معاصرا لهذه الاحداث ، أن الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة كأن منظر القتل وراقصة الدماء لم يكن الا منظرا يعرض عليهم لتسليتهم ، وبينما كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهبون المتاجر والمنازل ، وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن . وكان الجمهور يتسلى بالبحث عن الجنود المختبئين وتسليمهم الى غرائمهم ليذبحوهم .

وقبض على فيتليوس وطيف به في المدينة وحول رقبته طوق معقود ، والقيت عليه الأقدار ونذب تعذيبا بطيئا وأخيرا قتل في ديسمبر عام ٦٩ م . وسحبت جثته بخطاف في شوارع المدينة ثم القيت في نهر التيبر .

لعله الوحيد بين الاباطرة الثلاثة الذين بدأوا بجاليا وانتهوا به ، من لا يرى اسمه في مصر فضلا عن صورته ذلك أن انطونيوس قائد الجيوش التى دخلت روما وقتلت الامبراطور لم يكن يعمل لحسابه وانما كان يعمل لحساب هذا القائد الرومانى الذى يسطع نجمه في الشرق ونودى به في مصر امبراطورا ونعنى به فاسبسيان ، والمناداة بالامبراطور الجديد من مصر هى التى حالة دون الاعتراف بفيتليوس .

الاسكندرية ننادى بالامبراطور الجديد :

كان «بيصيا وهذا مدى وقوع الشقاق في أرجاء الامبراطورية الرومانية ، أن تسهم مصر والاسكندرية بصفه خاصة في هذه المعمة وان يقدر لها دون غيرها نجاح من أبدت واختارت .

كان فاسبسبيان على رأس الحملة التى بعث بها نيرون الى بيت المقدس لاختماد تورة اليهود ، فلما أن مات نيرون ، ونادى كل جيش بقائده امبراطورا ، وشحت العرف الرومانية المقيمة في مصر فاسبسبيان ليكون امبراطورا ويقال ان والى مصر يومئذ يريوس يوليوس الاسكندر ، وهو من عرفنا نشأته المصرية وتدرجه في مراتب السلطة حتى أصبح واليا هو الذى أوعز الى الجيوش المربطة في مصر بهذه الخطوة .

وكان طبيعيا أن يبادر جيش فلسطين العامل تحت أمره فاسبسبيان بتأييد هذا الترشيح فنادى بفاسبسبيان امبراطورا وتبعته الفرق السورية .
وتسببت فاسبسبيان بفرصته ، فزحف على مصر ليتخذ منها مركزا لمباشرة سلطانه . وليحول دون وصول قمحها الى روما اذا توقف منافسوه في روما عن الاعتراف بسلطانه .

ووجدت الاسكندرية في تقدم فاسبسبيان اليها فرصتها لتعلن تمردا على روما ، ولتسقى غايلها من المدينة التى سلبتها عزتها السياسية ومجدها ، فاستقبلت فاسبسبيان بكل حماسة وتعالت هتافات ابنائها على اختلاف جنسياتهم بحياة الامبراطور ، واضفت عليه ما اعتادت ان تضيغه على حكامها من صفة الالوهية .

بل ان كذب التاريخ لتحدثنا عن ان فاسبسبيان بدأ يمارس العجائب في الاسكندرية فقد تقدم له ضرير وآخر عاجز اليد وزعما أن سيرابيس أوحى اليهما أن يلتصقا النصفاء على يدي فاسبسبيان بمجرد أن يلمسهما : وتقول الرواية أن فاسبسبيان استشار الأطباء قبل الاقدام على لمس الرجلين فأشاروا عليه أنه لن يخسر شيئا اذا لم ينفيا ولكن الرجلين شفيا بالفعل بمجرد لمسة فاسبسبيان لهما .

فأسرث هذه المعجزة قلب فاسبسبيان فزار معبد سيرابيس مقدما فروض الاحترام ، فحدثت له عجيبة جديدة زادت الاحترام والتقدير عمقا في نفسه .

وتلقى فاسبسبيان وهو في الاسكندرية نبأ الاعتراف به امبراطورا في روما فأعلن سياسته الجديدة . التى تقوم على اصلاح ما افسده نيرون والفاء ما أصدره أو بعثه من قوانين وخاصة ما يتصل بموضوع الخيانة العظمى .

واسرع بشحن كميات مضاعفة من القمح لروما وكانت في أشد الحاجة اليه .

وسرعان ما أحست الاسكندرية : ان إعادة بناء روما ستتم على حسابها اذا ان فاسبسبيان جد في تحصيل الضرائب المتأخرة ، بل وفرض عليهم ضرائب جديدة فلجا

الاسكندريون الى سلاحهم التقليدى سلاح النكته والتشهير فلقبوا فاسبسيان بتاجر السمك فاستشاط فاسبسيان غضبا وأخضع اهل الاسكندرية لضريبة الرؤوس التى كانوا معفون عنها امتهانا لهم . . ولكن تيتوس ابنه توسط لاهل الاسكندرية عنده واعفاهم منها .

وبالرغم من اعفاء اهل الاسكندرية من هذه الضريبة فقد تعالت اصوات الجماهر الفاضية .

اننا نصفح عنه - اى فاسبسيان - فهو لا يعرف كيف يتصرف القياصرة .

٧٠ م - عهد فاسبسيان الى ابنه تيتوس بقيادة الحملة ضد اليهود بينما توجه هو بعد انقضاء الشتاء ليمارس سلطانه فى روما .

وقد توجه تيتوس الى اورشليم مصطحبا معه والى مصر بترىوس يوليوس الاسكندر بعد ان اخذ منه منصب رئيس اركان الحرب .

ومصطحبا معه كذلك احد اليهود الذين ساهموا فى الثورة اليهودية - حتى وقع فى اسر ابيه ، فاسبسيان وهو جوسفون اليهودى الذى قدر له أن يكون من اعظم المؤرخين ، والذى ندين له بصفة خاصة لحفظه قوائم مانتون الخالدة فى تاريخ مصر وقد حاول تيتوس لدى وصوله الى اورشليم ، أن يجرى مع اليهود صلحا فمعلقوا السلاح ويعفو عنهم ، ولكنهم اصروا بعناد غريب على ان يحاربوه ، فأقام الحصار على اورشليم ، فلم يهن ذلك من عزمهم وصبروا على مكاره الحصار ستة شهور وان كانوا قد انقسموا الى فريقين فى الداخل يحارب كل منهم الآخر ويصف لنا جوسفون ما حل بهم فى هذه الفترة من احوال ما توفر على القارىء اذى سماعه وحسبنا أن نقل صورة واحدة تغنى عن ما عداها فقد طهت احدى السيدات اليهوديات طفلها واكلت جزءا منه ولما دخل عليها اهلها ينجثون عن قوت قدمت لهم ما بقى من جسد الطفل ففروا هاربين مذعورين .

وعندما نجح تيتوس فى اختراق اسوار المدينة قاتله من بقى فيها من الاحياء قتالا شديدا فى كل خطوة وفى كل شارع وعطفا وفى كل بيت . . . ولم يخمد مقاومتهم الا ان شرب حريق فى الهيكل احاله الى رماد ففت ذلك فى عضدهم واستسلموا لمصيرهم .

تيتوس فى مصر :

عاد تيتوس الى مصر منصرا ، فأقيمت له اعماد النصر فى مصر كما لو كان فى روما .

وأحب تيتوس المصريين فلم يتودد كسابقه من الأباطرة الى الاغريق من سكان الاسكندرية ، بل لقد تقرب الى المصريين أنفسهم فحضر اختيار عجل ايسس الجديد .

وحرص على أن يلبس التاج التقليدي الذي يلبسه فرعون في مثل هذه المناسبة ،
مما جعل الوشاة يسعون بينه وبين أبيه بالوقية زاعمين أنه يتطلع الى العرش
قبل الاوان .

٧١ م - على الرغم من أن يهود الاسكندرية لم يسهموا في ثورة اورشليم وعلى
الرغم من أنهم اصموا آذانهم عن كل نداء لمساعدة اخوانهم الذين فروا بعد سقوط
اورشليم ، بل وقبضوا على بعض من حاولوا تحريضهم على الثورة وتسليمهم
للسلطات ، فان الامبراطور فاسبسيان اصدر امره بأن يدفع اليهود جميعا ذكورا وانانا
على اختلاف اعمارهم ضريبة سنوية مقدارها ديناران لمعبد الاله جوبيتر في روما ،
وهي ضريبة النصف شاقل التي كان الذكور البالغون من اليهود يدفعونها لمعبد
اورشليم .

٧١ م - ولي حكم مصر بوليوس لوبوس .

٧٣ م - صدر امر الحكومة الرومانية باغلاق معبد (أونياس) في لينثوبوليس
والذي كان يهود مصر يتوجهون اليه بالعبادة بدلا من اورشليم ، وذلك ارتبابا من
الحكومة الرومانية ، ان هذا المعبد قد أصبح مركز نشاط الحركة اليهودية وصارت
املاكه ، وذلك لنحول دون انتقال نفوذ المعبد الكبير بعد زواله اله .

٧٩ م - وفاة فاسبسيان :

مات فاسبسيان في الرابع والعشرين من شهر يونيو من هذا العام وقد نيف على
التاسعة والسعين ، وكان موته طبيعيا على خلاف كل من سبقه من الاباطر باستثناء
اغسطس فيصر . ولا عجب في ذلك فلأول مرة في تاريخ روما الامبراطورية نفا بعصر
سنوات من حكم القانون والعدالة والأمن والنظام .

ويمثل فاسبسيان فضائل الشعوب ، وقد عاش طول عمره وهو لا يجادل أن
يخفي أصله المنواضع ، وهكذا عرف عرش روما لأول مرة فضائل الطبقة الوسطى
فكان بزرى النرف والبطالة . وبأكل طعام الفلاحين ويصوم يوما في كل سبوع .
وأعلن حرب شعواء على التبذير والالتلاف ، حتى لقد وصفوه بالبخل وجاءه في أحد
الأيام رجل روماني كان قد رشحه لمنصب من المناصب فكان رائحة العطر الثمين
تفوح منه ، فقال فاسبسيان كنت أوثر لو كنت تفوح منك رائحة التوم وعدل عن
تعبينه . ولم يحجب نفسه عن الناس فكان بابه مفتوحا لهم ، وكان يتحدث اليهم
حديث الرجل الذي لا يترفع عنهم ، ويسمح لكل انسان أن يوجه الى سلوكه وخلفه
ما يشاء من النقد : وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفى عن المتآمرين ، وبلغ من
حلمه وسعة صدره أن المؤرخين لم يجدوا ما يؤخذونه عليه باعتباره خروجاً على

هذا المنهاج سوى اعدامه أحد أعضاء مجلس السناتو الذين اشتدوا في الهجوم عليه ومعارضته ، وقتله تائرا آخر هو وزوجته ويضيفون انه ظل يندم على هاتين الفعلتين طول حياته وقد اراد أن يطعم مجلس الشيوخ الذي كان قد تعفن كما رأينا فجاء الى روما بالف أسرة من الأسر الممتازة في إيطاليا والولايات القريية وسجل أسماءها في سجلات طبقتى الاشراف والفرسان — وملا ما كان في مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة الفاضلة .

ومن حسناته التي يسجلها له التاريخ انه أنشأ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة فأمر بأن تختار طائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية ، ليقوموا بتعليمها للطلاب على نفقة الدولة ، وعلى أن يعطوا معاشا بعد خدمة عشرين سنة . وجعل رئاستهم الى كونتليان الشهير الذي أنشأ مدرسة للخطابة كان من بين تلاميذها تاستس وبلنى الأصغر .

وقد كتب كتاب بلنى الكبير « التاريخ الطبيعى » في عهده وأهدنى الى ابنه تيثوس .

كما انه أعاد بناء الهياكل التي دمرت وبدأ أشهر المباني الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم .

على أن استلام قاسبسيان خزينة الدولة عند توليه في حالة تشبه الافلاس . . وما دمرته الحرب الأهلية جعله يشتد في جبى الضرائب من الرومان ومن الولايات ، وذلك في الوقت الذى قبض فيه يده عن السفه الذى اشتهر به من قبله من الإباطرة . . فجعل الناس يصفونه بالبخل وينددون به . . . وهكذا لحق أهل روما أهل الاسكندرية من قبل في السخرية به من هذه الناحية .

ومن آثار عهد قاسبسيان في مصر اكماله معبد لاتوبوليس ويقع غربى منف وهر من أبداع بنايات مصر القديمة ، حيث زاد عليه رواقا قائما على أربعة صفوف من العمود المحلاه بتيجان على شكل الزهور .

كما يرى اسم قاسبسيان محفورا فوق الباب الكبير لمعبد دندرة .

وقد مات وهو يحاول أن يتندر على نفسه اذ يقول :

« وا أسفاه أظن انى صائر لأن أكون الها » ووقف على قدميه وهو يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة وإعانه بعض أتباعه على الوقوف وهو يقول : ان اإمبراطور يجب أن يموت واقفا .

ويظهر اسم قاسبسيان على المعابد المصرية كفرعون في معبد كراتش ومعبد آمون رع في الواحة الداخلة .

٧٩ م - تيتوس فافوس قاسبيان :

اعتلى تيتوس عرش الامبراطورية بعد وفاة ابيه وقد عرفته مصر متوددا الى شعبها بمختلف طبقاته . محترما لدينها وتقاليدها ، وقد كان هذا شأنه في ايطاليا كذلك . حتى انه وصف بأنه « محبوب بنى الانسان وقره اعيانهم واكثر الناس طيبة » .

ويقول عنه ديون كاسيوس : انه لم يقتل احدا اثناء حكمه .

وذهب الى حد ان امر بجلد الوشاة والمخبرين ونفيهم من البلاد .

والى على نفسه انه يؤثر ان يقتل من ان يكون سببا في قتل اى انسان : ولما نعى اليه ان اثنين من الاشراف ياتمران به ليخلعهما ارسل اليهما يحذرهما . وكانت سياسته تقوم على معاملة شعوب الولايات لا كعبيد لروما وانما كشركاء لها ولكنه لم يعيش طويلا لتحقيق هذه السياسة . وقد شاب عصره القصير وقوع كوارث طبيعية هزت الامبراطورية ، كثوران بركان فيزوف ثورته التى فاجأت مدينة بومبي فدمرتها عن آخرها ودفنت اهلها تحت الحمم .

واندلاع حريق فى روما عام (٨٠) دام ثلاثة ايام دمر فيها مرة اخرى هياكل جوبيتر وبوتير ومنرفا .

ثم نفشى بها فى السنة الثالثة طاعون لم تشهد وباء اشد فتكا منه فى تاريخها . فكانت هذه الكوارث فرصة لظهور ما انطوى عليه تيتوس من عطف وبر بمواطنيه اذ كان يخف دائما بنفسه الى موطن الكارثة . ويسعف المنكوبين بمساعدة بالادوية والاغذية ويدبر لهم المساكن المؤقتة ريثما بنشئ لهم مساكن جديدة .

واعنبر عيب نينوس الوحيد هو كرمه الحامى .. وعرف عنه القول ، بأن اليوم الذى لا يسعد فيه انسانا ما بهبة يقدمها له هو يوم اضاعه من حياته . وقد اتم اعظم مباني روما الخالدة والذى بدأ بها أبوه وهو معبد « الكولسيوم » .

وكان طبيعيا وهذا مسلكه ان يترك الخزانة عند موته فارغة وهى التى تركها ابوه من قبالة تغنى بالاموال ، وقد تلتطف به القدر فجعله يموت سريعا قبل ان تفسده السلطان قام يهكم سوى عامين .

وقد حزنت عليه روما كلها كما لم تحزن على اى امبراطور من قبله ... وليس الا اخوه الذى ولى العرش من بعده والذى كان ناصبه العداء احيانا فى حياته من انفراد بالسرور والابتهاج .

وبوحد رسم له كفرعون فى معبد لاثوبوليس .

٨١ م - الامبراطور دومتيان :

اعتلى العرش دومتيانوس عقب وفاة اخيه تيتوس ومما يذكر فى تاريخه انه ابان

المفرقة العنيفة التي دارت في روما بين الجيوش الموالية لآبيه وجيوش فيتليوس ،
احتفى بمعبد ايزيس وقضى الليل مختبئاً في بيت حارس المعبد ، ولما طلع النهار تنكر
في زي أحد أشياع ايزيس ثم عبر التبر مع خليط من كهنتها دون أن يكتشف أحد
أمره .

وإذا كان لايزيس وعبادتها مكانة في عهد آبيه لهذا السبب : فلا عجب إذا أصبح
دومتيان هو حامى ايزيس وراعيها . على أن الديانة المصرية لم تكن حبيبة الى قلب
الامبراطور الجديد ، لمجرد العرفان بالجميل ، بل لانه كصاحبه من قبله كاليجولا
ونيرون ، كان يرى فيها الاساس لالوهيته .

٨٢ م - ولى حكم مصر مستيتوس افريكانوس .

٨٥ م - أعاد بناء معبد ايزيس في ساحة مارس وكان الحريق الذى شب في عهد
أخيه عام ٨٠ م قد دمره وأقام أمام المعبد مسئلة منقوشا عليها باللغة الهيروغليفية
المقدسة .

٨٦ م - ولى حكم مصر سيتيموس فيجاتوس .

٨٦ م - أرسل دومتيان الى الاسكندرية عددا من الكتبه لينسخوا المحفوظات
في مكتبة الاسكندرية لتزويد مكاتب روما بها .

وهذا ما يجعل البعض يستندون الى هذا العمل للقول بأن حريق يوليوس قيصر
لم يأت على مكتبة الاسكندرية الكبرى ، ولكن هذا الراى يمكن أن يرد عليه بأن
مكتبة الاسكندرية قد عادت الى الازدهار بالمائتى الف كتاب التى أهداها انطونيوس
لكليوباترا على سبيل التعويض .

٨٦ م - مات انيانوس بطريرك الاسكندرية بعد أن لبث في منصبه اثنين
وعشرين سنة ، وهو ما يؤكد أن المسيحية لم تضطهد في مصر بأى صورة من الصور
في القرن المسيحى الاول .

وخلفه ميلوس (اميلوس) ثانى بطريرك بعد مرقص الرسول .

٨٧ م - ضربت النقود في الاسكندرية وهى تحمل لأول مرة صورة الالهة المحليين
للمدن المصرية القديمة .

٨٨ م - شيد لوكليوس وهو أحد مواطنى بلدة بنتنفيوم بجنوب ايطاليا معبدا
لايزيس احتفالا بنجاحه وعودته بعد نجاحه في إيقاف الغزوة التى شنّها
الداشيون عبر الدانوب .

ونصب أمام المعبد مسلتين تحملان نقوشا هيروغليفية تصف ايزيس بأنها سيدة
بنتنفيوم ، ويستدل من ذلك على أن دومتيان قد أسبغ على عبادة ايزيس صفة
رسمية .

وقد انتشرت عبادة إيزيس على هذه الصورة في عهد دوميتيان ، بحيث أصبحت معابدها مكدسة بصورها المهداة لها ممن أنجبتهم من الخطر فوق انتشارها الذريع في أرجاء الإمبراطورية قبل ذلك ، هو الذى جعل الشاعر الرومانى (جوفينال) وهو الشاعر الهجاء الحاد اللسان يحدد قلمه لتشويه سمعة إيزيس ووصف معابدها بأنها أماكن للفسق إذ تتزين النساء ويهرعن الى لقاء عشاقهن فى الحدائق أو (عند محاريب إيزيس القنودة) وينتقل من مهاجمة إيزيس الى التنديد والسخرية بالمصريين وعقائدهم فى تقديس الحيوانات وعبادتها ، وكيف تقوم أقسى المعارك بين بلدين قد تبعد كل منهما عن الأخرى عشرات الكيلومترات ، لأن هذه تفدس هذا الحيوان ، والاخرى لا تقدسه .

والحق أن تقديس الحيوانات وعبادتها فى مصر ... كان قد بدأ يأخذ صورة متدهورة ، كانت تذهل جميع المراقبين من غير المصريين ، وقد حاروا فى تفسيرها ومن ناحيتنا فنحن نعللها بأن الزمان كان قد بدأ يظلل ديانة سماوية روحية وهى الديانة المسيحية ، فكان لا بد أن تتدهور العقائد القديمة ، ليظهر بطلانها ازاء الحقيقة الجديدة .

٩٠ م - - ولى حكم مصر ميتوس روفوس .

٩٥ م - - ولى حكم مصر ترونيوس سيكوندس .

٩٦ م - - قتل دوميتيان بمؤامرة دبرت له من اخصائه والمقربين اليه على رأسهم زوجته دومينيا ، وهكذا عاد من جديد لسنة الإباطرة قبل أبيه وأخيه وهى أن بنحوا عن العرش بالموت .

ذلك ان دوميتيان الذى يعترف له الجميع بأنه بدأ حكمه بداية طيبة - بحيث واصل سياسة أبيه وأخيه من قبله فى حسن الادارة واحترام سيادة القانون والضرب على يد المختلسين والمرتشين ، ومراقبة الموظفين وحسن اختيارهم .
والغاء الضرائب المتأخرة على رعاياه منذ أكثر من خمس سنوات .

وتشجيعه للأدب والفنون ، حيث بلغ النحت الغلافى الملون الى ذروة مجيدة .
وحبه للبناء والانشاء والتعمير ، فأضاف أجنحة جديدة للكولسيوم . وأنتم حمامات أخيه تيتوس وبدأ انشاء حمامات جديدة وهى التى أقامها وكان متزمتا فى قواعد الاخلاق والسلوك فحرم نشر المطاعن القديمة ونفذ القوانين الوليوشية الخاصة بالزنا وأمر بضرب عنق عذراء مسيحية حكم عليها بالزنا ونص على إعادة الخطباء ، ولم يكن يطبق رؤية الدم المسفوك .

كل ذلك قد تبدل رأسا على عقب كما حدث من قبل بالنسبة لنيرون أو كاليجولا ، بمجرد ان اكتشف مؤامرة على قتله ، فتراه وقد تحول الى طاغية مستبد لا حد لاستبداده .

فتراه ينفى الفلاسفة من روما عام ٨٩ ويحظر عليهم الإقامة في إيطاليا كلها بعد ذلك ، كما شمل قرار الإبعاد المنجمين كذلك عقابا لهم على تنبؤهم بموت الامبراطور . ولم يلبث ان اعتبر نفسها الها ، وطلب من الموظفين الا يذكروه في وثائقهم الا بلقب سيدنا والها . . . وأنشأ طائفة من الكهنة ليشرفوا على عبادته وعبادة ابيه وأخيه المؤمنين .

وعندما رفض بعض المسيحيين في عام ٩٣ ان يقربوا القسرايين بين يدي تمثاله اصدر امره باعدامهم واستبد به الذعر الى حد الأخذ بالوشايات والتشجيع عليها واعداد كل من يحلو له اعدامه ، وكان يتخذ من السناتو اداة لتنفيذ اغراضه ، حيث كان السناتو يوجه آيات الشكر للآلهة لنجاة الامبراطور كلما قضى بأعوام نفر من الأبرياء ولم تكد زوجته تحس ان شكوكه قد حامت حولها ، حتى جمعت حولها اقرب المقربين اليه والذين كانوا يدورهم باتوا لا يأمنون على انفسهم . . فكانت المؤامرة التي أنهالوا فيها عليه في حجرة نومه بعشرات من الضربات قبل ان يسلم الروح .

واسرع السناتو الذي كان حتى آخر لحظة يهتف باسمه الى اصدار قرار يمحو اسمه من جميع النقوش العامة والغاء جميع التنظيمات التي اجراها ، واعتبار الاسرة الشاتية قد انتهت بمقتله .

ويرى رسم دومتيان كفرعون في معبد لاتوبوليس وقد انشئ في عهده جسر على النيل عند مدينة كويتوس .

ويقول تاسنس انه بموت دومتيان قد انتهى عصر الاباطرة العشرة الطغاة الذي سدت فيه الاخلاق بما ضربته روما من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وحيث افنت الحروب الأهلية خير الرجال واشدهم وأقواهم ، ونشرت الغدر والخيانة بين الاقارب والاصواق .

وبعد ان كان السناتو (مجلس الشيوخ) هو صاحب السلطة المبنية على القانون ، أصبحت فرق الجيش هي مصدر السلطات بكل ما يتبع ذلك من اهدار الكفاءة والافتدار ، والاعلاء من شأن الرمح والسنان .

وسقط حكم القانون ليسود حكم طفيان الافراد وحقا لقد شيد في هذا العصر صروحا ضخمة من المباني التي انفق عليها من خراج الولايات ولكن النفوس ضعفت وذلت بعد أرهاق ذوى المواهب والابتكار ، فمات روح الإبداع والابتكار .

ويقول لنا دورانت : اذا كان الكثير من الاباطرة قد انحطوا الى الدرك لأسفل فما ذلك الا لارتفاعهم فوق القانون واذا كانوا قد هبطوا حتى أصبحوا دون شأن الرجل فما ذلك الا لان السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون .

العصر الفضي :

وقد جرى المؤرخون على وصف عهد أغسطس بالعصر الذهبي للامبراطورية الرومانية . . وبالعصر الفضي للعهد الذي يبدأ بوفاته حتى ختام القرن .

فا (ماركوس كوكايوس) :

٩٦ م - استغل السناتو حادث دوميتيان لكي يستعيد سلطانه المفقود ، وكان يبين أحد أعضاء المجلس امبراطورا من الامور التي اتفق عليها المتآمرون .
فنادى بماركوس كوكايوس امبراطورا وكان هذا أول وآخر عمل جرىء قام به مسابو منذ زمن طويل ، وهو العنصر الجمهوري، في النظام الامبراطوري تبات وجوده .

وكانت الاسر الارستقراطية القديمة قد انهكها ما تعرضت له من اضطهاد تناقص عددي مستمر ، وحلت محلها أسر نبيلة جديدة تكونت في مدن ايطاليا وفي ولايات نتيجة التنظيم الذي ادخله الاباطرة على طبقة السناتو .

٩٧ م - تبنى الامبراطور نرفا القائد العسكري الناجح تراجان ليكون خليفة له بهذا حلت الازمة التي اثارها الحرس الامبراطوري الذي كان قد غضب لمقتل دوميتيان ، وغضب بالأكثر لتعيين الامبراطور الجديد دون الرجوع اليه . وعندما لب الامبراطور في شجاعة من الحرس ان يقتلوه ابي الحرس ذلك ولكنهم ظلوا حاصرين له ، حتى امكن التوصل الى هذا الحل .

ويقول المؤرخون ان اعظم ما قدمه نيرفا لروما من خدمات هو اختياره لتراجان.

٩٨ م - مات نيرفا في ٢٥ يناير من هذه السنة .

ونجد صورته في مصر كفرعون في معبد لاتوبولس .

راجان :

٩٨ م - تلقى تراجان نبأ جلوسه على العرش وهو بولى قيادة جيش روما في لانبا ، وهو أول من نربع على عرش روما من اهل الاوليات فقد ولد في اسبانيا وان كان ابوه ايطاليا وكان رضاء روما بهذا الاختيار وعدم الاحتجاج عليه حادثا خطيرا يؤذنا بنطور جديد في التاريخ الروماني .

٩٨ م - ولي حكم مصر يومبيوس بلانت .

٩٩ م - وصل تراجان الى روما بعد انقضاء أكثر من عام على وفاة نرفا ، وعندما يصل اليها كان في النانية والاربعين من عمره طويل القامة معتلىء الجسم مهيب لطلعة ، وكانت شهرته كجندي وقائد من الطراز الاول وشجاعته قد سبقته ، وكيف كان يسير مع جنوده على قدميه ، ويصبر على أشد المكاره والالام .

وقد استقبله السناتو مرحبا والقي بلنى الاصفر خطاب الترحيب فكان من اقواله التي خلدها التاريخ أن من اراد أن يكون زعيما يجب الا يكون سيد الدولة بل خادمها الاول ، ومندوب الشعب الذي ينفذ ارادته . ومن اراد أن يؤمر على الناس جميعا ، يجب ان نخناره جميعا .

وقد قبل تراجان هذه المبادئ أساسا لحكمه واتخذ من بلنى الاصفر صديقا ، ووفى للشعب بعهوده .. فكان حكمه حكم القانون فى أروع مجاليه .. حتى لينسب جوستينيان الى تراجان أنه صاحب القول المدوى فى سمع الزمان ، والذي يمثل ذروة الحضارة والمدنية .

« لان يفلت مائة مجرم من العقاب ، خير من ان يحكم على برىء واحد » .
وسرعان ما انعكس مسلك تراجان فى مصر ، فسادتها فترة ذهبية من الحكم الخير والادارة الحسنة .

٩٩ م - ولى بطيركية الاسكندرية كردونوس بعد وفاة ميلبوس .

١٠٣ م - عين فينبوس مكسيموس واليا على مصر فأساء السيرة واستغل نفوذه ، فشكاه اهل الاسكندرية الى تراجان فأجرى محاكمة له على ما وجه اليه من تهمة . وقد وصلت اليها احدى وثائق البردى التى تتحدث عن هذه المحاكمة ، والتى تشير الى ان يدمى مكسيموس وكان يتقلد فى مصر ارفع مناصبها ، وجرى خلاف حول حقيقة البردية ، أهى محضر رسمى لمحاكمة حقيقية جرت امام الامبراطور . وجاء فى الاسرار البردية .. أم هى نموذج آخر من « أعمال الاسكندريين » التى كان اهل الاسكندرية يعيرون فيها من بغضهم ومقتنهم للحكم الرومانى . وعندنا أنه سواء كانت الوثيقة محضرا رسميا او تملا أدبيا فهى نظرونا على مدى نظرة الاسكندريين لما ينبغى ان يكون عليه الحاكم من وقار وسأرك وقدره حسنة ، وهى تكشف لنا عن ايمانهم بمحاسبة حكامهم ، وسماع تراجان صوت رعاياه ضد نوابه .

وهناك بعد ذلك حقيقة مادية مؤكدة تبينها الآثار المصرية وهى العثور على اسم هذا والى جايوس تتوس مكسيموس مطموسا ، وهو الاجراء الذى كان يوقع على من توجه اليهم تهمة الخيانة العظمى .

والتهمة الموجهة الى مكسيموس فى البردية التاريخية هى الابتزاز والربا واستغلال النفوذ لتعيين مدير معهد التربية فى الاسكندرية ، وأفساد شباب ترى يدمى فيون . وكانت التهمة الرئيسية التى حوكم بها مكسيموس فى روما هى تهمة الابتزاز ، ولكن المتكلم بلسان الاسكندرية قد ركز اهتمامه على مسلك والى الخلقى وتهمة أفساد الغلام واليك بعضا مما جاء فى الوثيقة .

« ولهذا سأضيف يا مولاي نقطة اخرى اعتقد انها ستثير دهشتك فترتاب فى صحتها حتى تقرا المستندات ، لقد كان يحكم على بعض الناس بدفع فوائد عن ديون لم يتسلموها فما هو مرده على ذلك ؟

لقد كنتم غائبين فلم تحاطوا علما بالرسائل التى كتبت لجلالتكم بشأن هذه الموضوعات .. ولكن هذه الرسائل سوف تثبت بطريقة قاطعة مدى صرامة مكسيموس ونشاطه فى هذا الصدد .

والمسند الأخير يدعمه بتهمه السفف بالعلام وهيامه به ماذا اقول ؟ لقد اعتاد شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عاما أن يتناول معك العشاء في كل يوم ، وكلما كان كل فرد من هؤلاء الحاضرين يحظى بشرف المشاركة في مأدبتك فأنت لم تكن تفقد مثل هذا السرف على أحد بسهولة بعد أن ارتقيت منصبا ملكيا - كل واحد منهم رأى الفلام في حفل السراب مارة برفقة والده وبارة وحده . ورأى كذلك النظرات الوضحة . وما كان يبادل له هذان العاشقان الخشنان بصورة شائنة . فضلا عن ذلك فقد كان هذا الفلام يقدم الحجة (للوالى) يوميا ويتشهد هؤلاء الرجال يامولاي بروحك الحارسه أنهم بينما كانوا يقفون عند باب قصره انظارا لحيه الصبح قد رأوا الفلام خارجا من غرفة نومه ، وقد ظهرت عليه علامات اتصاله بهذا الرجل . وما أن ألب الفلام الوسيم الثرى (هذا) السلوك المتسین حتى ازداد رقاؤه ووقاچه فكأن يخرج مع بوتيجرس الحاجب ويعلق بيديه أمام الجميع ويضحك ضحكا عاليا في غير كلفه وسط جموع القادمين للتحيه . ولم يكن ساذجا لانه كان يقوم بعرض ماكان يفعله أمام المدينين (للوالى) . لماذا اذن لم نحاول أن تفقه عند حده بما عهد بك من صرامة وفسوة بالغه . لقد أمرت بمصادره أملاك رجل وأملك زوجته وأصدفائه لانه تقدم اليك بالشكر في ثياب رثه . وقضيت باعدام رجل لانه جلس على المسرح دون أن يرتدى ملابس بيضاء وأما هذا الفلام الوسيم الامرد الوجه ، فكنت تسبفيه كل يوم في قصرك الرسمي ولم تكن ترسله الى المدرس أو معارسه التدريبات اللائقة بالشباب . وكم كنت تحاسب والده - بحق - حسبا عسيرا لو أنه لم يعمل على إرساله للمدرس وها أنت تجوب جميع أنحاء مصر في صحبة هذا الفلام . أو لم يتبعك الفلام ذو السبعة عشر ربيعا حنبى الى المحكمة أثناء انعقاد مجلسك الرسمي ؟ نعم وكان برقتك ياكسيموس في كل من ممفيس ويليوزيون وحيشما كنت . أما نحن الآخرين فكننا جميعا نعزف عن أماكن جولانك التفتيشية وعن مجالسك القضائية .

وليس هناك ما يكشف عن أخلاق تراجان والمستوى الرفيع الذى كان يحاسب به ولاته ، من سمعته قبل هذه المرافعة الطويلة حول علاقة وال بشاب . . وقد رأينا كيف أن نبيرون قد تزوج شابا في حفلة رسمية . . وكان اللواط احدى خصائص رجالات روما في هذه الفترة .

اهتمام تراجان بمصر :

وقد بلغ اهتمام تراجان بمصر ، وحرصه على انصاف أهلها ورفاهيتهم . . . أنه فعل الامر الذى ماكان يمكن أن يطوف بأذهان الرومان ولو على سبيل الخيال . . فحيث كانت روما تعيش على قمح مصر ، فقد عكس تراجان الآية . . فعندما انخفض فيضان النيل في احدى السنوات ، فلم تنتج مصر القمح اللازم لاطعام أهلها ، أرسل تراجان الى مصر أسطولا محملا بالقمح الذى كان مخزونا في روما للتفريج من حالة المصريين .

١٠٥ م - ولى حكم مصر مينيسوس ايتالوس .

١٠٨ م - ولى حكم مصر ساليشسيوس سيفيوس .

تراجان والمسيحيون :

١١٠ م - بعث بلنى الصغير وكان واليا على احدى الولايات الرومانية فى آسيا الصغرى (بونيا) يستفتى تراجان عما يفعله بالمسيحيين الذين كان عددهم يتكاثر باستمرار وكان الوشاة يشجون بالمسيحيين باعتبارهم عصاة ومتمردين فيساقون الى التحقيق والمحاكمة ، فقرر بلنى أن يستشير الامبراطور بشأنهم ، وراح يصنفهم له بأنهم قوم كل ما يمكن ان ينسب لهم انهم يستيقظون فى يوم معلوم قبل العجر ويرتلون بعض التراتيل للمسيح باعتباره الها وانهم اخذوا على انفسهم العهد الا يقدموا على اى امر شرير وان يمتنعوا عن السرقة والنهب والزنا وان لا ينكثوا بعهد أو يفتالوا امامه اودعت عندهم بوغير ذلك من الجرائم الخلقية .

وقد رد تراجان على بلنى طالبا منه : ان لا يبحث عن المسيحيين ولكن اذا ارشد عنهم وحوكموا وأدينوا فيجب ان يعاقبوا واذا حدث ان انكر اى مسيحى مسيحيته وادنى الصلوات للهاله فيجب ان يقبل منهم ذلك ايا كانت الظروف السابقة على ذلك .

ولا يجب ان تسمع بحال الاتهامات والشكاوى المجهولة لان قبول هذه الاتهامات يشكل سبابة خطيرة بوسيلة لا تتفق مع روح عصرنا وتقاليده والراى على أن هذه الرسالة من بلنى وورد تراجان عليها هى اول اشارة تتصل بالمسيحية تصل الينا عن مصادر غير مسيحية (١) .

١١٢ م - مات كيردونوس بطريرك الاسكندرية فكانت مدة رياسته عشر سنوات وتسعة اشهر ، وظلت الدعوة المسيحية فى عهده توالى انتشارها المنظم فى طول البلاد وعرضها . كما كانت مدرسة اللاهوت بالاسكندرية تنهيا للتالى .

وقد خلفه بيمريوس على كرسى الاسكندرية .

١١٥ م - ولى حكم مصر روثليوس لويوس .

١١٥ م - انتهز اليهود فرصة انشغال تراجان فى جملة حربية ضد بارتيا ، والتي نجح فى مراحلها الاولى فاستولى على ارمينيا ، ثم استولى على المدائن عاصمة البارتيين انفسهم ، ولكن مركزه لم يلبث أن تحرج عندما هب البارتيون لمقاومته من جديد فى قوة وعزم ، فاضرم اليهود نار الثورة ضد الرومانيين ، ومما يدل على أن هذه الثورة كانت عملا مدبرا منظما انها لم تشتعل فى فلسطين لقرب جيش الامبراطور منها ولكنها اشتعلت فى الاماكن البعيدة فبدأت اول ما بدأت فى قوريناتية (برقة) ومنها الى مصر وقبرص .

(١) الاشارة الى المسيحيين التى وردت فيما مضى مما وقع عليهم من اضطهاد فى عهد نيرون قد رواها ناستس الذى كتب تاريخه بعد هذا التاريخ بخمس سنوات .

١١٩ م - نصب اليهود في برفه ملكا عليهم يدعى لوكواس . وحولوا ثورتهم الى حرب فانفضوا على مواطني بلدة فورينى عاصمة الولاية ونكلوا بأهلها تنكيلا فظيما حتى أوسكت المدينة أن نفر بعد أن هلك منهم ٢٢٠.٠٠٠ على ما يقول بعض المؤرخين وهدم اليهود معابد وتماثيل الآلهة اليونانية وهدموا معبد إيزيس ودمروا حمامات المدينة وأنديتها ومسارحها وطرفانها وأروقنها . وقد أمدنا الآثار بما يكشف عن اتساع مدى هذا التخريب . . وذلك من خلال الجهود التي بذلها هادريان خليفة تراجان لازاله آثاره .

وزحف اليهود من برفة الى مصر في عام ١١٦ م تحت قيادة ملكهم لوكواس . وانسحبت أمامهم الحامية الرومانية وحصنت بالاسكندرية ، فلم يقو الجيش اليهودي على افتتاحها فانسحب في أنحاء القطر حيث انضم اليهم واطنوهم من اليهود بعائوا في أوسام عديدة من الدلتا ومصر الوسطى فسادا . ولدينا من الوثائق ما يدل على ان المصريين في كل مكان نكلوا للدفع الفارات اليهودية على بلادهم . . وان لم يعدم اليهود أن يجحدوا بعض المصريين الفارين . . الذين وجدوا في ثورة اليهود تنقيسا عن حنفهم وحقدهم على الرومان حتى أن بعض البلاد في مصر ظل يحتفل بذكرى الانتصار على اليهود حتى عام ٢٠٢ م أي بعد خمسة وثمانين عاما من وقوعها .

١١٧ م - أرسل الامبراطور تراجان جيشا الى مصر لقمع قتلة اليهود تحت رئاسته ماركوس يورير - وقد تمكن أخيرا من اخماد الفتنة قبل أغسطس من هذا العام بعد أن تركت جرحا لا يندمل في نفوس سكان مصر .

١١٧ م - أعفى والى مصر رونيلىوس لويوس بعد فتيله في مصر وأرسل الامبراطور واليا جديدا وهو ماركوس فورير على رأس جيش ضخم لاستئصال شأفة عصابات اليهود التي انتشرت في أنحاء مصر .

ومات الامبراطور في التاسع من شهر يوليو من هذا العام عن أربعة وستين عاما أمضى منها في الحكم تسعة عشر عاما بعد أن تبنى وهو على فراش الموت ربيبه وابن عمه هادريان .

ولما كان تراجان كما فدمنا رجلا عسكريا من الدرجة الاولى فقد خالف سنة من سبقه من الاباطرة وأسبأف سياسة الفتح ، ففزا في مستهل حكمه إقليم راشيا (رومانيا الحالية) وخلد ذكر هذا الفتح بالآثر الفريد من نوعه وهو عمود تراجان ، الذى صور عليه كما لو كان سيناريو سينمائيا أحداث هذه الملحمة ابتداء من عبور جنود تراجان لنهر الدانوب حتى استسلام ملك راشيا والرأى على أن هذه الصور التي نقشبت حول عمود تراجان هي أعلى ما وصلت اليه واعة الفن الغلافى ، وكن النحت بصفة عامة في القديم (١) .

(١) وقد بلغ من روعة هذا العمود ونقوشه التسجيلية ان نابليون قد حاكمه بعد سبعة عشر قرنا فأقام عمود قائم في باريس من حديد المدافع التي غنمها ورسم على جدرانها تفاصيل معاركه على قرار عمود تراجان .

ولقد ذكرنا من قبل بمناسبة ثورة اليهود السفالة في حرب بارثيا ، فقد زحف عليها عام ١١٣ م وقرر ان يصفى وجودها نهائيا . فاستولى على ارمينيا وبلاد النهرين ووصل الى شاطئ المحيط الهندي فكان اول وآخر من يقف امام هذا البحر من قواد الرومان .

ولكن الشيخوخة والمرض الذى اصابه حالا بينه وبين مواصلة الزحف . . فاكفى بالوقوف على شاطئ البحر الاحمر معلنا اسفه ان تحول شيخوخته بينه وبين ان يواصل الزحف الى السند كما فعل الاسكندر .

ولكنه اصدر امره بانشاء اسطول في البحر الاحمر ليحمى التجارة التى بدأت تزدهر بين مصر والهند وبلاد الشرق .

ولم يفتأ تراجان ابان حكمه يولى هذه التجارة اهتمامه ، حتى لقد اشار باعادة تشغيل الترعة التى تمتد من النيل الى البحر الاحمر لتربط بينه وبين البحر الابيض من خلال النيل . والنلى اعتنى بها بطليموس من قبل ومن قبله دارا ولقد اصبحت هذه الترعة مقياسا يقاس به مدى ازدهار مصر .

ونعتبر النقود التى صكت في العام الحادى عشر من حكم تراجان من اجمل ما صك من نقود ، بعد ان اصبحت تنقش بالرموز المصرية . ووافقت كميتها كل النقود التى ضربت من قبلها .

ويعزى بناء حصن بابليون الى ايام تراجان ، حيث اصبحت يمثل اهم نقط الدفاع عند رأس الدلتا . وهناك معبد كامل لتراجان في فيللا - كما لا تزال بوابة معبد طنطارة تحمل اسمه وله صور كثيرة كفرعون منقوشة على جدران المصابيد في لاتوبوليس وطنطرة وفيللا .

١١٧ م - اعلى هادريان العرش في ١١ اغسطس من هذا العام وهو من اصل اسباني ومن نفس المدينة التى ولد فيها تراجان ، وهو ابن اخت لتراجان . وكانت مواهب هادريان كما يعددها المؤرخون القدمات مما يتعذر على التصديق ، الا ان تؤخذ على سبيل الاوصاف والنعوت التى تهال على الملوك غير ان الذى لا شك فيه انها ستند كلها الى اساس كشفت عنه تصرفات الامبراطور الجديد .

فهم يقولون عنه انه كان منفوقا وبارعا في المهارات الجسدية كلها تفوقه وبراعته في المهارات العقلية فحيث كان قوى الجسد ، بارعا في حمل السلاح واستعماله راكبا او مترجلا جسورا مقداما ، استطاع في رحلات الصيد ان يقتل بنفسه بعض الدببة الوحشية والاسود . . وحيث كان يعتبر خبيرا في النظام العسكرى .

فقد كان من الناحية العسكرية والعقلية يجيد اللغتين اللاتينية واليونانية ، ويكتب نورا ادبيا جميلا ، كما كان يقرض الشعر . وكان واحدا من احسن خطباء عصره وكان يحذق العلوم الرياضية والطبيعية ويحيط بقوانين روما وفلسفة العصر . قوى الذاكرة

حتى ليذكر أسماء جميع جنوده مهما طال غيابهم عنه ويجيد الرسم والتصوير بما يضعه في صف الاساتذة . وكان يغنى فيطرب السامعين .

فلا عجب وهذه صفاته انه لا تكاد بلى العرش ، حتى لا يتخذ من روما مقرا متجمدا للحكم . بل راح يجول في أنحاء الامبراطورية ، محاولا توحيدها ماديا ونفسيا في اطار واحد ، واصفا مهمة الامبراطور انها بمثابة الشمس توزع ضوءها وحرارتها على أرجاء الكون كله . ولذلك فلا عجب اذا رأينا آثاره في مصر ناطقة بذلك .

١١٨ م - عين هادربان « رامبوس مرتبلس » واليا على مصر وكلفه باصلاح ما افسدته ثورة اليهود التي اضرّت بمصر ضررا بالغا ، واعادة تخطيط مدينة الاسكندرية وبخاصة حي اليهود الذي تهدم في الثورة ، وقد اصدر الوالى منشورا خاصا بتنظيم سكن اليهود بالاسكندرية ، ولا يعرف اذا كان هذا التنظيم يقضى بتوزيع سكن اليهود على سائر أنحاء المدينة للحيلولة دون تكتلهم للحد من خطورتهم ، أم أن هذا التنظيم قضى باستمرار الوضع القديم وهو اقامتهم في أحياء خاصة بهم لتسهيل مراقبتهم ، ولكن البرديات التي عثرنا عليها تدل على أن سكان الاسكندرية تخوفوا من عواقب هذا التنظيم الجديد . ورفعوا بذلك شكاوى الى الامبراطور ، ولكن الوالى حبسها وحال دون وصولها الى الامبراطور ، فهاجت الاسكندرية وسلط الاسكندريون السنثهم « كما هي عادت » على الامبراطور فراخوا بهجونه بأراجيز ماجنة ، فاصدر الوالى رامبوس أمرا بالقض على ستين مواطنا والزج بهم في السجن هم وعبيدهم ممن اشتركوا في اثاره الشغب . فحدث هجوم من الجماهير على السجن لاخراج المقبوض عليهم ، فأصيب البعض بقتل البعض الآخر : وتدلنا احدي السرديات أن محاكمة جرت في روما لرعيامين من زعماء الاسكندرية وهما باولوس وانطونيوس ، وقد جاء على لسان انطونيوس العبارات التالية :

مولاي قيصر أقسم بملاكك الحارس أن باولوس يقول الصدق كما يقوله رجل لن يبقى على قيد الحياة يوما آخر . فقد أرسلنا اليك رسائل كثيرة ، عندما لاقتنا اضطهادا شديدا ، وقلنا في شكاوينا أن الوالى قد أمر اليهود الملحين أن ينقلوا مساكنهم الى مكان يستطيعون منه مهاجمة مدينتنا ذات الاسم الميمون وتخريبها دون عناء . واذا كنت لم تتلق بيديك الكريمتين أى رسالة من هذا القبيل ، فان ذلك يفسر سبب كلماتك الجليلة . أنه من الواضح أن ذلك العمل قد أرتكب ضدك حتى لا يكون لديك دليل على ما لأصابنا من ويلات » .

ولقد أعدم باولوس على ما تقول الوثيقة فواجه الموت في شجاعة وأدرج الاسكندريون اسمه في سجل الشهداء الذين جادوا بأرواحهم دفاعا عن قضية الاسكندرية ضد افتراءات اليهود واستبداد الرومان .

١٢١ م - ولى حكم مصر اثيربوس نبوس .

١٢٤ م - توفي بطريرك الاسكندرية بريموس بعد أن ظل على كرسي مرقس الرسول اثني عشر عاما وخلفه سيسطس .

١٢٦ م - ولى حكم مصر فلاقيوس تيتيانوس .

هادريان في مصر :

١٣٠ م - وصل هادريان الى الاسكندرية في مارس أو أبريل من هذا العام وكانت الاسكندرية بالنسبة له تمثل كل ما كان حبيبا الى نفسه كملك وكناسان مثقف محب للفنون .

وقد استقبلته الاسكندرية باحتفالاتها التي كانت تعامل بها الملوك كألهة .

ورأى هادريان عن كثب أعظم مدن امبراطوريته بعد روما والتي كان عدد سكانها يتجاوز الثمانمائة ألف ، والتي كانت لا تزال أعظم مدن الامبراطورية على الإطلاق من حيث كونها مجتمعا عالميا انصهرت فيه كل الاجناس التي تتألف منها الامبراطورية كما انصهرت فيه كل المعارف الانسانية والفلسفات والعقائد ابتداء من عبادة الحيوانات التي أصبحت تبدو مضحكة سخيفة نتيجة تطور العصر ، وعبادة سيرابيس هذا المزيج من الاله المصرى والاغريقى ، وعبادة ايزيس التي امتلأت بها أرجاء الامبراطورية ، وعبادة يهوه الله اليهود الغرب الذي بتعصبون له تعصبا يؤثرون معه الفناء على أن يسجدوا لاله غيره .

وأخيرا شهد هذه العقيدة الجديدة التي بدأ اتباعها يتكاثرون في كل مكان تكاثرا سريعا ، وكان لها في الاسكندرية مدرسة لاهوتية تحاول أن تتصدى لمدارس الفلسفة القديمة التي كانت لا تزال قوية شامخة حول المكتبة والمتحف وما بهما من علماء اعلام يؤثرون على الفكر العالمى .

واشبع هادريان هوايته في المساجلات العلمية والرياضية والفلسفية واللغوية مع الاعلام الذين كانت نقص بهم الاسكندرية ، سواء منهم الاسانذة الزائرون من أمثال ديونسيوس أستاذ الفلسفة في امستس ويوليمون الخطيب المتجول ، أو من الاسانذة المقيمين أمثال ايبان المؤرخ وأبو لوتيسوس المنطقى .

واسبغ الامبراطور عطفه على المكتبة والمتحف فوضعهما تحت رعايته المباشرة ، وضم علماء جدد الى هيئة علمائها .

وقد اخذ هادريان بأزدهار الاسكندرية الصناعى والتجارى حتى لينسب اليه قوله :

« أنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ولا يوجد بها عاطل عن العمل فالبعض يعمل في صناعة الزجاج وآخرون يعملون في صناعة الورق وكثيرون يعملون أما في صناعات النسيج أو في أى حرفة او صناعة أخرى : حتى اصحاب العاهات من المجزة والخصيان والعميان كل له عمله حتى من فقدوا أيديهم لا يقتضون حياتهم عاطلين هناك الجميع يعبدون الها واحدا هو المال ، وهذا الاله يعبد المسيحيون أو اليهود وكل طائفة أخرى في الواقع » .

ويشك المؤرخون في أن يكون هذا القول قد صدر عن هادريان ، ولكن ذلك لا يقلل من أهميته من حيث أنه يصور لنا الاسكندرية بعد قرن ونصف من الحكم الروماني ، وهي صورة تكاد تنطبق على أعظم حواضر العالم الغربى في الوقت الحاضر .

ومن الاسكندرية واصل هادريان رحلته في أرجاء مصر متجها نحو مصر العليا ومصطحبا معه زوجته (١) ومصطحبا في نفس الوقت خليله وحبيبه الفتى « انتيثوس » وكان الامبراطور قد التقى بهذا الفتى اليونانى في ولاية بشبا قبل هذا التاريخ ببضع سنوات ، فأخذ بجبال الشاب ذى الوجه المستدير والعينين النجلابن والشعر اللئلى فأنخذ منه خادما خاصا له ، وشغف به حبا ، وقد تقول البعض عن العلاقة باعتبارها علاقة أئمة بينما قال البعض أنه يحبه حب الوالد لابنه . وشاء القدر أن يضع خاتمة مفجعة لهذا الحب ، فبينما كان الامبراطور بواصل رحلته في النسل ، اذ قال له فلكيو مصر في بعض أحاديثهم معه أن حياته ستطول شرطة أن يضحي للالهة بأعز ما يملك فما كان من الشاب إلا أن قذف بنفسه في النيل ليكون فداء للامبراطور وهكذا غرق انتيثوس .

ويقول لنا اسبارتياس الذى قص علينا هذه الحكاية أن هذا الحادث قد أحزن ملك العالم وجعله يبكى كما تبكى النساء .

وبصرف النظر عن السبب الذى من أجله مات انتيثوس غرقا . فقد قرر هادريان أن يجعل من الشهداها وطلب من سكان الامبراطورية أن يؤلوه : وكان الاثينيون أول من استجاب لهذا الطلب .

أما في مصر فقد أمر الامبراطور أن يبنى حول ضريح انتيثوس هيكلا ومدينة هى مدينة انتيوبوليس وقضى بأن تكون المدينة مركزا تمتزج فيه الثقافة اليونانية التى كان يحبها ، وثقافة مصر العريقة ، ولذلك فقد رفع الحظر الذى كان موضوعا على سكان المدن الاغريقية منذ أيام البطالسة ، وهو أن لا يتزاوجوا مع المصريين ، فأصبحت تنفرد بهذه الميزة الى جوار ميزات المدن الاغريقية الأخرى ، كانشاء مجلس بلدى خاص بها ، وأعفاؤها من بعض الضرائب .

ولكى يهىء للمدينة سبيل الأزدهار الاقتصادى مد طريقا بينها وبين مدينة برنيقة إحدى موانى البحر الأحمر وزود الطريق بمحطات للمياه والحراسة ، وهكذا ربطت المدينة الجديدة بعجلة الاقتصاد المصرى المزدهر الذى كان يعتمد على تجارة الشرق المارة عبر مصر عن هذا الطريق وأمثاله .

وعاد هادريان الى الاسكندرية بعد ختام رحلته في مصر العليا . . . ليصل الى علمه أن المدينة تمارس هوايتها المفضلة وهى أن تسلقه سرا بالسنة حداد بسيل من النكت والقصص والحكايات .

(١) يتحدث اسكندر صيغى في كتابه المسارة التاريخية عن زيارتين لهادريان لمصر لا زيادة واحدة ، ولكن المراجع الأخرى تتحدث عن زيارة واحدة وهو ما اخترناه .

وتسجل النقود التى ضربت فى الاسكندرية زيارة هادريان لمصر حيث يرى على بعضها صورة مركب تدفعه الهواء .

وثمة نقود اخرى عليها صورة انتيئوس جيبه المؤله الذى مات . وتقود اخرى صكت بمناسبة تجديد انتخابه لعشر سنوات ، ونقود عليها صورة أيزيس او سيرابيس ، وتقود تحمل أحيانا صور الثالوث سيرابيس أيزيس حوريس .

ثورة اليهود فى اورشليم وتشريدهم النهائى :

١٣٢ م - شبت الثورة فى مدينة اورشليم من جديد وكان هادريان أبان زيارته لفلسطين قد هاله خراب المدينة فقرّر أن يعيد بناءها على أن يجعل منها تحفة للفن والمعمار الإغريقى الرومانى وأن يطلق عليها اسما رومانيا .

وكان ذلك كله يمكن أن يتم بغير احتجاج من اليهود . . . ولكن الشئ الذى دفعهم الى الثورة ، هو قراره أن يقيم على انقاض هيكلهم القديم ، معبدا للاله جوبيتر . وترغم الثورة الكاهن العاثر والمتعصب سيمون - وقد أخدمت الجيوش الرومانية الثورة بمنفها المعتاد . ورأى أن تخلى دولة اليهود (جواريا) من اليهود أخلاء تاما ، بحيث جعلت عقوبة الاعدام لمن يحاول من اليهود الاقتراب من اورشليم .

وهكذا تمت عملية تشريد اليهود النهائية فتفرقوا فى البلاد والامصار ، ولم تقم لهم بعدها قائمة (١) .

١٣٤ م - ولى حكم مصر برتونوس مامرتينوس .

١٣٥ م - خلف اومانيسوس الذى ظل بطريركا على كرسي الاسكندرية المسيحى احد عشر عاما الا قليلا .

وفاة هادريان :

١٣٨ م - مات هادريان بعد أن حكم واحدا وعشرين عاما بعد أن بلغ من العمر نيفا وستين عاما حكم منها واحدا وعشرين عاما . والمؤرخون يعتبرون حكمه أزهى صفحات الامبراطورية الرومانية ككل . فلم يحدث أن وصل عالم البحر الأبيض المتوسط فى يوم من الايام الى مثل ما وصل فى عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة . ولم يعتل عرش روما من قبله أو بعده حاكم عمل على رقاية شعوب الامبراطورية كما عمل . لقد كانت نظرية اغسطس أن الولايات توابع لاطاليا لتفيد منها مالا وثراء ولتحقيق ذلك فيجب أن تحكم حكما صالحا لتدر أكبر قدر من الخير على ايطاليا .

(١) لا تزال محاولة اليهود الحديثة للتجمع فى اسرائيل ، مجرد محاولة غير مستقرة وسط بحر من الكراهية والفجس والعقد . وعلى اية حال فإن مدينة اورشليم القديمة لا تزال بعيدة عن متناول أيديهم ولا يزال المسجد الأقصى كالطود الشامخ مكان هيكلهم .

أما في عهد هادريان فقد حقق ما كان كلوديوس يحلم به وهو أن لا تكون مهمة روما مجرد جابية ضرائب لاطاليا . بل الحاكمة المسؤولة عن دولة ، يتمتع كل جزء من جزائها بقدر متساو من عناية الحكومة .

وقد رأى هادريان تحقق ذلك قبل موته ، حيث جمع شتات الدولة ووحدها ، بر بوعده من أنه سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدير من يدرك أنها ملك لشعب لا ملكه الخاص . ونعم حتى العبيد بهذا الحب الشامل لرعاياه ، اذ أصدر من القوانين ما حسن به ظروفهم ، فلم يعد بقدرة السيد أن يقتل عبده ، كما أبطل لتقليد المتبع من قتل كل عبيد الرجل اذا وجد مقتولا .

ولا يوجد ركن من أركان الامبراطورية لم يترك فيه آثار مبانيه ومنشأته ابتداء من انجلترا وسورها الكبير لتفصل بين مدن بريطانيا حتى ضريحه الرائع الذى أنشأه يدفن فيه والذى تحولت بقبابه الى قلعة القديس انجيليو فى سوريا الى مدينه مالتى نشأها فى مصر والتى أشرنا اليها .

وفى مصر نرى على الانار صورته كفرعون على أكثر من معبد فى فيلا وانتنبوليس ولاقوبوليس ، كما نرى اسم زوجته سبيننا .

وقد تأثر الفن المصرى فى عهده تأثرا ملحوظا يتجلى فى هذه الصورة التى كانت ترسم على اكفان الموتى بالشمع والتى كانت تصور ملامح الميت بدقة مدهشة على الطريقة الهلينية .

الامبراطور تيتوس أوريليوس انطونيوس (بيوس) ؟

١٣٨ م - تولى عرش روما تيتوس أوريليوس انطونيوس (بيوس) وكان هادريان قد عهد اليه أبان حكمه بعدد من الوظائف العالية ثم انتهى بتبنيه وعهد اليه بتولى العرش من بعده لما أنسه فيه من الكفاءة ، شريطة أن يتبنى بدوره ماركوس أوريليوس ولوسيوس .

وقد اطلق عليه مجلس الشيوخ (السناتو) لقب بيوس أى التقى لانه اعتبره ممثلا للفضائل الرومانية ، ووصفه بأنه افضل الزعماء وكان أول عمل قام به بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الخاصة الكبيرة الى خزانة الدولة . والذى المأخر من الضرائب على المواطنين وزاد على ذلك ان نفحهم بهبات وفيرة ، ويوفر لهم ما كان ينقصهم من الزيت والقمح والنبيد فأمر بأن تشتري هذه السلع وتوزع على الناس بالمجان .

وكان على عكس هادريان الذى حكم الامبراطورية من خارج روما ، ذلك أنه لم يرح روما طول حكمه ، مكتفيا بأن يعين فى الولايات رجالا من ذوى الكفايات والشرف الموثوق بهم . وكان محبا للسلام ، ضنينا بأرواح المواطنين وقد أثر عنه قوله أنه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحد على قتل ألف عدو .

فلم يسمع الى توسيع رقعة الامبراطورية مكتفيا بالوقوف عند حدودها التى

أبلغها إليها هادريان فنعمت الامبراطورية في ظله بالسلام الذي لم تتذوق مثله منذ أمد بعيد . ونقول لنا ابيان المؤرخ أنه نشاهد في روما بعينى رأسه مندوبى الدول الاجنبية الدين وفدوا الى روما يرجون عينا وضع بلادهم تحت الحكم الرومانى لكى يستمتعوا بمزاياه .

١٣٩ م - ولى حكم مصر افوبوس هليودوروس .

١٤٨ م - ولى حكم مصر نيرونوس أونورانوس .

١٤٩ م - خلف مريانوس على بطريركية الاسكندرية المسيحية أومانوس الذى ظل بطريركاً لمسيحي مصر أحد عشر عاما وبضعة شهور

١٥٠ م - ولى حكم مصر موفانيوس فيلكس :

وليس هناك ما يصور كيف كانت مصر بعامة والاسكندرية بخاصة هي موطن العلم من بزوغ شمس اكبر سماء الفلك حتى بداية العصر الحديث وهو كلوديوس بطليموس وكان مولده في بلدة بطليموتس التى انتسأها البطالسة في مصر العليا ولكنه عاش معظم حياته في الاسكندرية وظل يرصد فيها الاجرام السماوية في المدة من عام ١٢٧ م حتى عام ١٥١ م . وهم ما يذكره به العالم ، هو قلبه لنظرية ارسطراخوس الصحيحة من أن الأرض هي التي تدور حول الشمس آخذاً بالرأى العكسى الذى يقول بأن الشمس هي التي تدور حول الأرض ، وقد دون علمه في كتابه الخالد المعروف باسم « النظام الرياضى » وكان العرب اذا تحدثوا عنه نعتوه باسم العظيم اليونانى « المجسطى » أى الاعظم ودرس الاسم الذى يعرف به الكتاب في التاريخ وظل لهذا الكتاب السيطرة على السماء حتى قلب كوبرنيكس النظرية وأعادها الى وضعها الصحيح من أن الأرض وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض .

وعجيب أن يكون لنظرية تعرف اليوم خطأها ، كل هذه القوة والثبات وهذا هو ما يظهر مدى عظمة بطليموس الفلكى وقوة فكره ، وذلك أنه قد استطاع أن يفسر كل الظواهر الفلكية الاساسية بدقة رياضية وان يحسب الخسوف والكسوف لا في عصره بل في العصور السابقة عليه كتلك التى عرفتها بابل ومصر خلال الثمانمائة سنة قبل زمانه حيث أصبح من الممكن تحديد زمان ملوك بابل والفرس واليهودية تحديداً قاطعاً دقيقاً .

وتقوم نظريته على أن الكون كروى الشكل يدور مرة في كل يوم حول الأرض الكروية الثابتة (١) .

وبلغ من دقته أنه قدر البعد بين القمر والأرض بما يقرب من تقديرنا الحالى .

(١) يقول سير هيربرت سبنسر جونز في كتاب (الفلك العام) يمكن تفسير حركة النجوم اليرمية اما بفرض أن الكرة السماوية كلها تدور حول الأرض أو بفرض أن الأرض نفسها هي التي تدور بينما تبقى الكرة السماوية ثابتة .

ولم يقف علم بطليموس على الفلك ، بل لقد لخص في كتابه الموجز الجغرافي جميع
كان يعرفه الاقدمون عن سطح الأرض . وقد استطاع أن يصور على خرائطه جسما
ويا على مسطح مستو .

والرأى على أنه عالم رياضى أكثر منه فلكى أو جغرافى . وقد وصف كتابه
البصريات « وهو بحث فى الضوء وانكساره بأنه أعظم البحوث التجريبية فى التاريخ
قديم .

كما نقل عنه كتاب فى (الأنعام) يعتبر أحسن ما لدينا من آراء الأقدمين حول
لدا الفن ، فن الغناء .

هرون :

وبجرتنا الحديث عن بطليموس الفلكى ، وما يرمز اليه من تفوق اسكندرية فى
علوم ، الى دى عالم آخر كان يمكن أن يبدأ الثورة الصناعية التى عرفها العالم فى
لقرن التاسع عشر قبل ذلك بشمانية عشر قرنا ، ذلك أنه اكتشف قوة البخار .

وقد اختلفت الآراء حول الزمن الذى عاش فيه هذا العالم فى الاسكندرية فمن
ائل أن ذلك كان فى القرن الأول قبل الميلاد ، فان آخرين يناخرون به الى القرن
لثالث بعد الميلاد ، ونقول دوائر المعارف البريطانية أنه لا يمكن الا أن يكون قد عاش
لـ الاسكندرية خلال القرن الأول لأنه يتحدث فى أحد كتبه عن خسوف قمرى شوهده
لـ الاسكندرية عام ٦٢ ميلادية .

وقد اخترنا أن نذكره الى جوار بطليموس فكلاهما من نتاج الاسكندرية ، وكلاهما
برمزان لتطورها وتفوقها العلمى ،

وقد وضع هرون فى كتابه « الحيل » أسس وقواعد العجلة ومحورها والرافعة ،
والبكرة ، والاسفين ، واللولب .

وفى كتابه « الهوائيات » درس ضغط الهواء فى سبع وثمانين تجربة معظمها من
الحيل والالاعيب .

وتدرج من الالاعاب المسلية باستخدام قوى الطبيعة الى صنع مضخة رافعة
واخرى لاطفاء الحريق ذات مكبس وصمامات .

كما شرح الساعات المائية والأرغن المائى . وصنع طائرا آليا يغرد وتمثالا آليا
ينفخ فى بوق .

على أن أعظم ما توصل اليه هو تسخير قوة البخار كطاقة محرركة ، حيث صنع
أول آلة بخارية فى التاريخ كان البخار الناشئ عنها يستخدم لوقف كرة فى الهواء
ومنعها من السقوط ، ولم يكن ما فعله جيمس وات بعد ذلك بشمانية عشر قرنا الا أن
استخدم هذه القوة البخارية فى تحريك رافعة .

وقد بقى لدينا حتى الآن كثير من كتب هيرون مرجمة الى العربية .

الطب والجراحة :

واذا كان بطليموس وهيرون يملان ذروة العلم والاختراع فى الاسكندرية ، فان ذلك يجزنا الى الحدث عن شهرتها فى هذه الفترة من علم وفن آخرين وهما الطب والجراحة ، حيث كان يقال حتى عدة قرون نالية « حسب الطبيب تنويها ببراعته ان يقال انه تعلم فى الاسكندرية » وليس ذلك فى الحقيقة الا استمرارا لتفوق مصر فى الطب والتشريح من اقدم العصور بحيث عرفت التخصص فى الطب ، فكان عندها اطباء للعيون وآخرون للعظام .

يقول ول دورانت الذى ننقل عنه :

« لم تكن الجراحة فى القرن الأول الميلادى فى اسكندرية اقل رقىا منها فى أى مكان آخر فى أوربا قبل القرن التاسع عشر . ولم تكن الطبيبات نادرات وقد كُتبت واحدة منهن « منرودورا » رسالة فى أمراض الرحم لا تزال باقية حتى اليوم » .

ويزدان تاريخ الطب فى هذا العصر بأسماء عظيمة منها مرنيس الاسكندرى الذى اشتهر بجراحات الجمجمة وانتبليس اعظم الرمدين فى عصره ، وكان اعظم اطباء ذلك العصر الذى لا يمكن الا أنه كان دقيق الصلة بالاسكندرية وقطن بها فقد تلقى فيها العلم فى شبابه .

وجالينوس الشهير الذى لا يفوقه شهرة سوى بقراط ، الذى أربت مؤلفاته على خمسمائة كتاب بقى منها ١١٨ كتابا تحوى عشرين ألف صفحة تشمل جميع فروع الطب وعددا من مباحث الفلسفة .

١٥٣ م - اندلعت ثورة فى الاسكندرية لا يعرف سببها ولكننا نعرف ان والى الرومانى قد خسر حياته فيها ، كما دفعت الاسكندرية ثمنا غاليا لثورتها .

ولكن يبدو ان الامبراطور (الطيب) قد اراد أن يظهر عطفه على المدينة بعد ذلك أو أن يصلحها فأقام بها عدة منشآت (١) كمدرج لسباق الخيل ، وبابن للمدينة احدهما يواجه البحر وسمى « الشمس » .

والباب الآخر يواجه بحيرة مريوط وأطلق عليه اسم « القمر » وشق طريقا يخرق المدينة بالعرض .

ويقول اسكندر صيفى مؤلف كتاب المنارة التاريخية ان الامبراطور انطونيوس امر بمساحة الطرق العسكرية بالمملكة وسموا ذلك « الدليل الانطونيى » .

(١) ربما كانت هذه المنشآت قد اكتملت قبل الثورة .

فكانت طرق مصر العسكرية ستا اولها من بلاد النوبة حتى حصن بابلون على
ل حافة النيل الشرقية ، وثانيهما من منف الى هليوبوليس وحى اليهود وفليمسون
بث ترعة تراجان نحو البحر الاحمر .

لثالث من منف الى مدينة بلوزيون (الفرما) والرابع من الصحراء الى البحر
حمر عن طريق سيرايبون والخامس من فلسطين حتى الاسكندرية على شاطئ
بحر المتوسط .

وسادسها من مدينة قبطوس (قفط) على النيل حتى برانيقة من البحر الاحمر .
وقد حدثنا اريان المؤرخ عن المسافات والأبعاد بين مدن البحر الاحمر وعدد
كانها وأهمية تجارة مصر الداخلية والخارجية بها .

١٥٤ م - ولى حكم مصر سميرونيوس ليبرالس. ويبدو أن الأحوال الزراعية
اعمال السخرة بدأت تسوء في عهده لثقل الضرائب ، فهجر كثير من المزارعين قراهم
اراضيهم ، فأصدر الوالى منشورا وجهه الى هؤلاء الذين هجروا قراهم دعاهم
يه الى العودة الى قراهم واراضيهم واعدا اياهم بالنزول عن الضرائب المتأخرة
تخفيف القائم منها .

١٥٥ م - خلف كاديانوس على بطيركية اسكندرية المسيحية ماريانوس الذى
ل بطيركا لمدة تسع سنوات .

١٥٩ م - ولى حكم مصر فولسيوس ميسانوس .

١٦١ م - مات انطونينوس خاتما بذلك حياته الصالحة بعد أن كان قد بلغ من
ل عمر اربعا وسبعين سنة حكم فيها ٢٣ سنة .

وكما كان خير اعمال الامبراطورين السابقين عليه تراجان وهادريان هو نجاحهما
اختيار خلفهما ، فقد وفق بدوره في اختيار خلفه وهو ابنه بالتبني ماركوس
وربليوس الذى دعاه وهو على فراش الموت وعهد اليه بالعناية بشئون الدولة
م اذار وجهه كما لو كان يُريد النوم وأسلم الروح .

لامبراطور ماركوس أوريليوس :

١٦١ م - اعتلى ماركوس أوريليوس عرش روما. وكان (وفيا للعهد منفذا رغبة
هادريان وأشرك معه على قدم المساواة لوسيوس فيروسا ، مبتدئا بذلك التقليد الذى
سيكون له أكبر الأثر في تقسيم الامبراطورية .

على أن هذا الخطر لم يلح خلال حكم ماركوس أوريليوس الذى كان يؤلف ختام
سلسلة الاباطرة الطيبين ، ذلك أن التاريخ كان يشهد بتولى ماركوس أوريليوس
العرش تحقق ما حلم به افلاطون في جمهوريته الفاضلة وهو أن يلى العرش فيلسوف

ويؤكد لنا ماركوس أوريليوس نفسه أن ليس باستطاعة الحاكم الفيلسوف أن يغير وجه الدنيا نحو حياة أفضل ... وكل الذي يستطيعه أن يبذل أقصى جهده لتحقيق أكبر نصيب من الخير للمواطنين .

ليس ماركوس أوريليوس رداء الفلسفة **السروانية** منذ الثانية عشرة من عمره ، واخذ ينم على فراش من القش راقضا رجاء أمه أن ينم على الفراش الوثير . وحشد لتعليمه رهنط من مختلف الفلاسفة والعلماء في شتى فروع المعرفة كالمنطق والفلسفة واللغة والبيان والخطابة والقانون والرياضيات وكان ماركوس أوريليوس يحمدا لأخيه عندما كبر أنه تعلم منه « أن فكرة الدولة هي التي يكون فيها قانون واحد لجميع المواطنين ويتمتع سكانها بحقوق متكافئة وحرية الكلام ، والحكومة الصالحة هي التي تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شيء سواها » .

وكان يشكر لاستاذة مكسيموس أنه هو الذي علمه : « أن يحكم نفسه والا يسمح لشخص أن بضله وأن يكون بشوشا في كل الظروف ، وأن يجمع **قدرا متكافئا** من اللطف والكرامة وأن يؤدي ما عليه من الواجبات في غير تدمير » .

ومع ذلك فإن هذا الملك الفيلسوف لم يتردد عن خلع رداء الفلسفة وارتداء لباس الجندي ليوأجه الفارات البربرية التي بدأت تتوالى على حدود الامبراطورية استهانة بشأنها وقاد الجيش بنفسه ووضع أحسن الخطط ، وانتصر في أكثر من معركة وأدهش المهزمين بعد ذلك بليته ورحمته .

ولكن ماركوس أوريليوس الفيلسوف ، كان مدركا أن كل الانتصارات التي حصل عليها تحمل طابعا مؤقتا ، فقد بدأ الأداء ينحصر في عظام هذه الامبراطورية المترامية .

في مصر :

١٦٢ م - ولي حكم مصر انتيوس سيراكوز .

١٦٥ م - ولي حكم مصر دومينيوس أونوواتوس .

١٦٦ م - ولي حكم مصر فلافيوس تيتيانوس .

١٦٧ م - ولي حكم مصر باسيويوس روفوس .

١٦٩ م - ولي كرسي البطريركية المسيحية انمرينيوس خلفا لكاديانوس الذي جلس على كرسي مرقس الرسول أربعة عشر عاما .

ثورة في مصر :

١٧٢ م - اندلعت نيران الثورة ضد الحكم الروماني ولم تكن الثورة هذه المرة في الاسكندرية بل اندلعت من صميم الريف المصري ومن اراضى شمال الدلتا بالذات .

انتهمز المصريون فرصة ارسال الحاميات الرومانية للحرب في منطقة الدلتا ، وبلغت جرت عوامل السخط والغضب تحت زعامة كاهن مصري يدعى ايزيدور ، وبلغت رة من القوة بحيث هزمت القوات الرومانية الموجودة داخل البلاد ، وكادت الاسكندرية نفسها أن تسقط في يد الثوار .

وعندما ارسلت روما جيشا لخماد الثورة تحت قيادة « افيدوس كاسيوس » بقوا على مواجهة قواته الثائرين في معركة مفتوحة فعمد الى المناورات وايضا نة بين صفوف الثوار حتى انقسموا الى جماعات فسهل عليه بعد ذلك القضاء هذه الاقسام المتفرقة .

على ان هذه الثورة لم تخمد الا بعد أن أوحى للقائد المنتصر كما سوف ترى أن ي بنفسه امبراطورا من مصر .

ديوس كاسيوس امبراطورا :

١٧٥ م - ولى حكم مصر جايوس كالفيسيوس ستاتيانوس فلم يلبث أن انضم افيدوس كاسيوس الذى أعلن نفسه امبراطورا ، عندما وصلت اليه أنباء كاذبة موت الامبراطور ماركوس أوريليوس .

واسرعت مدينة الاسكندرية التي كانت لا تتوق الى شيء أكثر من أن تكيد روما ن تستعيد سلطانها ومجدها السياسى ، فأيدت الامبراطور الجديد الذى أسرع و سوريا ليحصل على تأييد جيشها وشعبها له ، تاركا في مصر ابنه ميكيانوس با عنه .

ولم يتأخر جيش سوريا ولا سوريا عن المناداة به امبراطورا .

ويحفظ لنا التاريخ موقف ماركوس أوريليوس غير العادى في مواجهة هذه الثورة به والذى يكاد يرتفع الى مرتبة التصوف ، فقد أعلن بين جنوده بمجرد بلوغ الأنباء به أنه على استعداد أن يواجه افيدوس أمام مجلس الشيوخ وامامهم وأن يسلم به الامبراطورية بدون ارافة دماء . اذا كان الشعب يرى الخير في ذلك .

مضى ماركوس يقول في خطابه :

« أن افيدوس لن يرضى بهذا الاحتكام وهو الذى أثبت عدم وفائه وخيائته محسن اليه وأخشى ما أخشاه يرافاقى الجنود واتى أقولها مخلصا ، أن يضع نيدوس حدا لحياته أو أن يضع أحد الجنود حدا لهذه الحياة تصورا منه أنه خدمنى بذلك ، فيجرمنى من رغبتي الشديدة في أن أثبت قدرتى على العفو عن شنع الجرائم واشدها خطرا وأن أجعل من افيدوس صديقا لى رغم أبائه وتمتعه كى أثبت للعالم أن خطر أعنف الحروب الاهلية يمكن أن يصل الى نهاية سعيدة وفقا بغير حاجة الى ارافة الدماء » .

ولكن الجنود الرومانيين كانوا أقل فلسفة من أوريليوس ولم يحققوا له أمانيه اذ وضع احد الضباط حدا لحياة أفيدوس كما اغتال جنود آخرون ابنه في الاسكندرية وهكذا لم تدم هذه الثورة غير ثلاثة أشهر ولم يرق فيها غير دم مشعلها وهم أفيدوس وابنه . وأظهر ماركوس أوريليوس أسفه عندما حملت اليه رأس أفيدوس ، وطلب أن تدفن باحترام وشرف .

ماركوس أوريليوس في مصر :

١٧٦ م - وقد خف ماركوس أوريليوس الى مصر بعد انتهاء هذه الزوبعة ، واذا كان مقتل أفيدوس قد حرمه كما كان يجب من اظهر قدرته على العفو فقد شمل هذا العفو كل من اشترك في الثورة ، حتى الذين كانوا من رؤسائها ومدبريها كوالى مصر وأفراد أسرة أفيدوس والذين يقضى القانون والتقاليد باعدامهم فقد اكتفى ماركوس أوريليوس بعزل الوالى ونفيه وحرمان اولاد أفيدوس من نصف ميراث ابهم ونفيهم . . على أنه لم يلبث فيما بعد ان سمح لهم بالعودة الى بلادهم وراح ماركوس أوريليوس بعد ذلك يتجول في مدينة الاسكندرية كأحد الأفراد ويزور المعابد ويحضر مجالس العلماء والفلاسفة ويستمتع اليهم ويساجلهم ويحاورهم . وتمثاله الذى اقيم له في المدينة يمثل له لابسا الجبة الرومانية وليس الملابس الملوكية كأسلافه .

١٧٧ م - حكم مصر باكتوموس ماخيوس .

١٧٧ م - اشرك ماركوس أوريليوس ابنه كوموروس معه في الامبراطورية فمنح لقب امبراطور ثم لقب بأغسطس وأصبح شريكا لاييه على قدم المساواة معبدا بذلك الطريق ليكون امبراطورا من بعده ومخالفا هذا التقليد الحكيم الذى اتبع خلال العهود السابقة ، وهو أن يتم اختيار الامبراطور عن تبنى الأصلح والاكفأ ، لا عن طريق الوراثة .

موت ماركوس أوريليوس :

١٨٠ م - مات ماركوس أوريليوس وقد بلغ من العمر تسعا وخمسين سنة وبعد حكم استمر تسعة عشر عاما .

وقد ذهب ماركوس أوريليوس الامبراطور كما ذهب وسيظل يذهب غيره من الملوك الصالحين أو الطالحين ولكن ماركوس أوريليوس الفيلسوف ظل خالدا في مبادئه وتعاليمه وكتبه التى ما تزال تقرأ حتى الآن وتسمع ويستفاد بها .

فتراه حينما يدلل على وجود الله يقول :

« أن الأشياء جميعها متشابكة ببعضها البعض والرابطة التى بينها رابطة مقدسة

الاشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة اله واحد يسرى في كل شيء ، مادة واحدة
ون واحد وحقيقة واحدة . هل يمكن ان يكون فبك أنت (نظام واضح) ويكون
ن كله اضطرابا وفوضى .. » .

ويزيد آراءه وضوحا في وحدة الوجود .

« فكما ان تبدل الأجسام وانحلالها ، يفسحان المجال لأجسام أخرى فكذلك
بل الارواح النى تنتقل الى الهواء وتتبدد وتتوزع في عقل العالم الأسمى وتخلى
لها لأرواح جديدة ، لقد وجدت أنت بوصفك جزءا من كل ، وسوف تفنى في
الذى أخرجك وهذا هو ما تريده الطبيعة ، فاجتز هذه الفترة القصيرة من الزمن
تصل هادئا الى الطبيعة وأختم رحلتك وأنت راض وليكن مثلك كمثله حبة
بتون تسقط حين تنضج وتبارك الطبيعة التى أخرجتها وتثنى على الشجرة
حملتها » .

ويصل ماركوس أوريليوس من الصفاء والشفافية بحيث يبشر بتعاليم أقرب
تكون من تعاليم المسيح في موعظة الجبل اسمع اليه وهو يقول :
هل التمر الذى أهابك يمنعك أن تكون عادلا كريما معتدلا ، حصيف الراى

اضمعا حرا :

ولنفرض أن الناس لعنوك أو قتلوك أو فرقوك أربا فماذا تستطيع هذه الأشياء
تفعل لتمنع عقلك أن يظل طاهرا حكيما متزنا عادلا ؟ وإذا وقف الانسان بجوار
رائق صاف ولعنه فان النبع لا يكف عن ارسال الماء النظيف وإذا دسسته أو رميت
الاقذار فسرعان ما يقذف بها النبع الى خارجه حتى لا يتدنس بها مرة أخرى .
تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق المبدأ القائل : ان ما حدث لم يكن شقاء حل بك
ن الصبر عليه صبر الكرام هو السعادة بعينها .

الا ما أقل الاشياء التى اذا حصل عليها الانسان استطاع أن يحيا حياة هادئة
مئنة تشبه حياة الأرباب » .

هذه الأقوال الرائعة التى يقولها ماركوس أوريليوس تكشف لنا كيف أن الحاكم
ما بلغ من الصفاء والتسامح لا يمكن أن يباشر سلطانه ضد آرائه وأفكاره . فالتاريخ
سب اليه أنه اصدر أمرا باضطهاد المسيحيين . وقد لا يكون هو مصدر هذه الأوامر
الحقيقة ، وانما أحد شريكه .

ولكن المحقق أن المسيحيين تعرضوا في حكمه لاضطهادات شديدة نتيجة لما اتهموا
من اثاره القلافل ، واذااعة نبوءاتهم مزعجة وعدم الولاء للدولة والامتناع عن قسم
بين الولاء للامبراطور واحراق البخور حول تماثيله ، وأهم من ذلك كله رفض
خدمة فى الجيش .

وقد ضربت النابذ باسمه في الاسكندرية وعليها صورة النيل العظيم وفي السنة الحادية عشرة من حكمه ضربت النقود وعليها صورة ايزيس نقبض على شراع تدفعه الريح لجهة المنارة انساره لقدم الامبراطور الى الاسكندرية .

وترى صورة ماركوس اوريليوس كفرعون مصرى على جدران معبد لاتوبوليس وقد اصلح عدد كبير من المعابد في زمنه وتم بناء احد معابد فيلا في عهده كذلك .

كومودوس امبراطورا :

١٨٠ م - انفرد كومودوس بن ماركوس اوريليوس بالعرش بعد وفاة ابيه وكان عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة ، واستهل حكمه بنقض كل ما عاش أبوه يعمل عليه ويدعو اليه وهو سياسة اللين والعفو والتسامح فقد اثار الاحقاد القديمة وصمم على تعقب أسرة افيدوس كاسيوس الذين كان أبوه قد عفا عنهم ، وقضى عليهم جميعا ، كما انتقم من اهل الاسكندرية فحاكم زعماءهم وقتل الكثيرين منهم ، كما تدل على ذلك احدى وثائق البردى التي وصلت اليها مسجلة مثلا متاخرا من مجموعه اعمال الشهداء المدنيين او اعمال السكندريين وتتضمن هذه البردية اجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن افيدوس كاسيوس) وابيانوس رئيس جمنازيوم الاسكندرية . ومن الحوار الذي دار بين ابيانوس والامبراطور نرى مدى الكراهية التي احتفظ بها اهل الاسكندرية ومصر بعامة تجاه الحكم الرومانى واليك بعض من هذه النصوص :

الامبراطور مخاطبا ابيانوس : الا تعرف الى من نتحدث الآن ؟

ابيانوس : اجل .. ابيانوس يتحدث الى طاغية .

الامبراطور : بل الى ملك .

ابيانوس : لا تقل انت هذا . كان يحق لوالدك ماركوس اوريليوس ان يكون امبراطورا ولتعلم انه كان أولا فيلسوفا وثانيا زاهدا وثالثا ملكا خيرا اما انت فعلى عكس هذه الصفات طاغية وشرير وفاسد الاخلاق .

فامر قيصر ان يساق ابيانوس الى الاعدام .

وليس هناك ما يدل على عظم الاثر الطيب الذى خلفه ماركوس اوريليوس ان تراه يثنى عليه بهذه الصورة في عمل من هذه الاعمال الاسكندرية .

علو شأن مدرسة الاسكندرية المسيحية :

١٨١ م - جلس بوليانوس على كرسي البطركية في الاسكندرية ، خلفا لاغريبيوس الذى ظل على كرسي الاسكندرية عشر سنوات .

يباقترب القرن الثانى الميلادى من ختامه كانت المسيحية قد تأسست فى مصر مع نطاق معتنقيها ، يدل على ذلك تكريس كثير من المطارنة لرئاسة الكنائس التى تنتشر فى أنحاء البلاد ، ويتجلى بالأكثر فى ارتفاع صيت مدرسة الاسكندرية ذكرنا من قبل أن التاريخ الكنسى يعزو انشاءها الى مرقس الرسول ، وبدأت أهميتها وخطورتها عندما يسهم فيها انيناجوارس الذى كان فيلسوفا وتنبيا الصيت ثم تحول الى مسيحى عميق الايمان فأبى على نفسه أن يوصل الى الآخرين ما أصبح يغمر قلبه من نور وايمان .

ونجد فى كتاب يوسايوس القيصرى (١) أول تنويه بأهمية مدرسة الاسكندرية .

ونحو هذا الوقت (أى وقت بايون يوليانوس) عهد الى بستيونوس - وهو شخص جدا بسبب علمه - ادارة مدرسة المؤمنين فى الاسكندرية . اذ كانت قد انشئت منذ الأزمنة القديمة مدرسة للتعاليم المقدسة ولا زالت حتى يومنا هذا « القرن ع » وكان يديرها كما وصل الى علمنا رجال فى غاية المقدرة والفيرة نحو الالهيات . أن يبرز من بينهم فى ذلك الوقت بننيوس لأنه نهذب بفلسفة الرواقيين . وقد غيرة شديدة نحو الحكمة الالهية حتى أنه عين سفيرا يمثل المسيح للأمم التى شرق ووصل حتى بلاد الهند .

وبعد أعمال مجيدة كثيرة رأس بننيوس أخيرا مدرسة الاسكندرية ، وفسر كنوز اليم الالهية شفويا وكتابيا .

١٨١ م - ولى حكم مصر فلافيوس برسكيوس .

١٨٣ م - ولى حكم مصر مينيوس فلافانيوس وكان الانتاج الزراعى فى مصر قد بدأ هور منذ قامت بشورتها التى دلت على سوء الأحوال . فلم تعد مصر هى المورد ل لتوريد الغلال الى روما كما كان الشأن فى القرن الاول .

ووصل الأمر الى حد أن أنشأ كومودوس أسطولا لنقل القمح من شمال افريقيا يدل نقصان حجم العملة ووزنها والتى سكت فى هذه الفترة على تدهور الأحوال تصادية بصفة عامة .

١٩١ م - ولى بطريكية الاسكندرية ديمتريوس الاول خلفا ليوليانوس الذى س على كرسى مرقس الرسول عشر سنوات وشهرا ، وقد تم اختيار ديمتريوس نلاء السدة ارقصية على ما يقول التاريخ الكنسى بطريقة عجيبة فقد رأى الأنبا يانوس ابان نومه ملاكا وسمعه يقول له :

(١) كان أسقفا لمدينة فيصرية وبعد من أقدر المؤرخين وأقدمهم بالنسبة للمسيحية ولد عام ٢٦٤ م ت عام ٢٤٠ م .

« ان الذى سيأبىك غدا بعنقود من العنب سيخلفك » . وفى اليوم التالى دخل ديمتريوس (الكرام) زارع العنب يحمل عنقودا من العنب هو باكورة كرمه وقد جاء ليقدّمه لباباه المريض فلما رآه يوليانوس قال للمحيطين به هذا هو باباكم من بعدى وقص عليهم الحلم الذى رآه ، فلما ان توفى يوليانوس اتفقت كلمة الاكليروس والشعب على انتخاب ديمتريوس راعيا اعلى لهم وهكذا أصبح الكرام الخليفة الثانى عشر للمقدّيس مرقس .

وسرعان ما نهض البابا الجديد ليكون جديرا بالمنصب الذى وصل اليه فداب على تحصيل العلوم الدينية والمدنية واستطاع بقوة ارادته وايمانه ان يستكمل فى وقت قصير ما فاتّه عبر السنين التى مرت به .

وباعتلاء ديمتريوس كرسى البابوية ، بدأ سلطان المسيحية الروحية والعلمى فى مصر يزدهر علوا ، وكان من اوائل أعمال ديمتريوس ان انتدب بانتيوس رئيس مدرسة الاسكندرية للسفر الى الهند لبشر اهلها بانجيل المسيح ، واستجاب بانتيوس لهذا التقدير ، فعهد بادارة المدرسة الى تلميذه (كلفنيس) وتوجه الى الهند فوجد ان توما الرسول قد سبقه اليها وبشر بالانجيل هناك ... ووجد لديهم نسخة من انجيل متى بخط البشير نفسه .

قتل كومودوس :

١٩٣ م - قتل كومودوس خنقا بعد ان ظل منفردا بالحكم بعد ابيه ثلاثة عشر عاما ولعل هذه النهاية غير الطبيعية التى انتهى اليها على خلاف كل الإباطرة التى سبقته ابتداء من ثرفا تكشف عن الحماة التى كان قد تردى فيها على خلاف ابيه والإباطرة السابقين اليه . فقد اعاد الى الالذهان تصرفات كاليجولا - ونيرون وحماقاتهما وجرائمهما .

وكان يقضى اكثر اوقاته سكريا معربدا مقامرا ومبعثرا اموال الدولة .

وكان فى حريمه ثلثمائة امرأة وثلثمائة غلام ويقول لنا ناستس الذى يروى تاريخه انه كان يحلو له فى بعض الأحيان أن يكون امرأة فيلبس فى الاحتفالات العسامة ثياب النساء . وتروى عنه قصص يتردد الانسان فى قبولها لما تنطوى عليه من نشوة مفرطة . كان يرغم بعض النساء اللواتى ندرن أنفسهن لخدمة أيزيس ان يضربن صدورهن بشمر البلوط حتى يمتن . وأنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهرواة هرقل التى كان يمسكها بيده . وأنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه واحدا بعد واحد .

وعندما اكتشف مؤامرة قتله زاد جنونه واسرافه فى ارتكاب الجرائم فقتل عمته لوسيلا وعددا كبيرا من ذوى المقامات العالية لجرد أن حامت الشبهة حولهم . . ويقولون أنه لم يبق على قيادة الحياة أحدا من ذوى الكفاية على عهد أبيه ماركوس أوريليوس .

ولم يكن حكم كومودوس الا نذيرا بما سستنهى اليه الامبراطورية من تفكك وضعف . . بعد ان اصبحت الأغلبية العظمى من سكان روما من العبيد . وبعد أن زال الايمان نهائيا بحكم القانون والديمقراطية ، ليحل حكم السيف والقوة . وبعد ان تهافت العقائد الوثنية القديمة وفقدت الايمان بها ، وتحولت الى صور وأشكال اقرب الى الهزل منها الى الجذ - وبعد ان تحولت الفلسفة الرواقية التى كانت تقوم على المجاهدة الى الاستسلام .

ولم يكن أثر المسيحية فى دفع الامبراطورية نحو الضعف والتفكك بأقل من أى من هذه العوامل .

١٩٣ م - الامبراطور برتيناكس :

حاول مجلس الشيوخ ان يستعيد سلطانه فى تعيين الاباطرة فاختار للعرش فى اوائل يناير من هذه السنة عضوا من أجل أعضائه واجدرهم بالاحترام وهو برتيناكس وقد حاول أن يكون جديرا بمنصبه وأن يصلح ما أفسده كومودوس ، ولكن الحرس الامبراطورى الذى لم يشأ ان يفقد سلطانه فى تعيين الاباطرة اقتحم القصر وقتل الامبراطور وحملوا رأسه الى معسكرهم على طرف رمح وعلن الثوار أنهم سيضعون الناج على رأس الرومانى الذى يمنحهم أكبر عطاء .

وراح سمسارة الحرس يتنقون من غنى الى آخر ، فلما أن وعد جليانوس كل جندي بـ ٦٢٥٠ دراخمة أعلن الحراس اختياره امبراطورا .

وغضبت الفياق والحاميات فى الخارج من استهتار الحرس الامبراطورى بالاتجار بالمنصب الامبراطورى فأعلنت كل منها رئيسها امبراطورا وزحفت جيوش المقاطعات على روما .

ولم يلبث لوسيوس سبتموس سفيرس (ساويريس) قائد جيوش ولاية نيوفيا ان تفوق على جميع القواد بفضل جرأته وسرعته وما قدمه من رشاشاوى وقطع على نفسه عهدا أن يهب كل جندي ٦٢٠٠٠ دراخمة اذا جلس على العرش ، فاستطاع ان يصل الى روما وأن يضم اليه الجيوش التى أرسلت لصدده ، بل استطاع ان يضم الحرس الامبراطورى واعداد اياهم بالعفو والعطاء ان هم سلموا اليه قوادهم . وهكذا قطع رأس الامبراطور جليانوس .

وهكذا عاد الى الازهان عام ٦٨ م وهو العام الذى توالى فيه على الحكم ثلاثة اباطرة .

وقد حاصر سبتموس مجلس الشيوخ وطالب منه ان يؤيده لارتقاء العرش ، فلما اجيب الى طلبه اقدم عشرات من أعضائه وصادر كثيرا من مزائج الاشراف حتى قيل انه قد آل اليه نصف املاك شبه الجزيرة .

الأحوال في مصر :

كان الوالى على مصر في هذا العام (١٩٣ م) مانتينيوس سابينيوس .

وسجلت الآثار المصرية حكم برتيناكس القصير ، وقد استطعنا أن ندرك من هذه الآثار المدى الذى الزمنى الذى كانت الأخبار تستغرقه للوصول من روما الى مصر فحيث أعلن برتيناكس امبراطورا في ١٥ يناير فان والى مصر لم يدع البيان ويصدر أمره بإجراء الاحتفالات المعتادة في مثل هذه المناسبة الا في ٦ مارس وكانت الاحتفالات تستغرق خمسة عشر يوما .

وقتل برتيناكس في ٢٨ مارس ولكن حتى ١٩ مايو كانت هذه الحقيقة لا تزال مجهولة في انقوم حيث عشر على ونيقة في هذا التاريخ تشير الى كونه لا يزال هو الإمبراطور .

ولم يكذب خبر مقتله يصل الى مصر وان جليانوس ارتقى العرش حتى أعلنت الاسكندرية (فيما بعد) رفضها لهذا الإمبراطور فلم تسك نقودا باسمه ولا يرى اسمه في أى وثيقة من الوثائق فضلا عن جدران المعابد . ذلك ان المصريين وقد رأوا بدور الحكم في روما الى هذا المدى حتى أصبح العرش سلعة تباع في المازاد حتى قرروا ان يتقدموا بمرشح لارتقاء العرش فنادوا — بسيثيوس نبجر (الأسود) وهو الجنرال الرومانى في سوريا ، والذي عمل قبل ذلك في مصر في منطقة اسوان للدفاع ضد غارات البدو ، فأبدى من الحنكة والقدرة على كبح جماح جنوده من أن تنهب حاجات الأهالى أو يتعرض لهم بسوء ، فحبه ذلك الى قلوب الشعب ومما يؤنس عنه انه عندما طلب منه جنوده ان يزودهم بالخمر قال لهم : أن ماء النيل يكفيهم .

وعكذا ودى (بنيجر) امبراطورا في مصر وسوريا وضربت النقود باسمه في الاسكندرية ، وبدأوا يؤرخون باسمه عند تدوين الوثائق .

وكان رد فعل سفروس (ساوبرس) لهذا التمرد ان أسرع لتأمين حاجات روما من القمح من بلدان شمال افريقيا ، مظهرا بذلك ان الوقت الذى كان من يحكم فيه مصر يحكم روما بسبب القمح قد انتهى .

١٩٤ م — انقذ جيوش نيجر وسفروس عند مداخل كليشيا وكان مصير هذا اللقاء مقدر من قبل فحيث جلس نيجر في سوريا مطمئنا الى سلطانه ، كان سفروس شغلة من النشاط والعمل فراح يعنى بالجيوش وينظم صفوفها ويجهزها والغلبة دائما للعامل المجد . وانهزمت جيوش نيجر وقتل ، وبذلك استقرت الأمور لسفروس وانفرد بحكم روما .

واوفد في هذه السنة فيما يبدو البيوس برمبيانوس ليكون واليا عليها .

هاد المسيحيين :

ويذكر (تاريخ الكنيسة) ان اضطهادا وقع للمسيحيين في هذا العام وكان تفلته
بنة الاسكندرية بالذات ، وقد كان من شهداء هذا الاضطهاد والذي خلفه التاريخ
اه ليونيداس والد اوريجانوس الكبير الذي سيكون له شأن اعظم في تاريخ
بسه بعامة وكنيسة مصر بخاصة ، كان مجرد ذكر اسمه يثير في النفوس
دما في اسمى صورته ، كما يثير في النفوس الحقد والكراهية في أحط صورهما
كان استشهاده ليونيداس هو نقطة الانطلاق في حياة اوريجانوس الذي سنعود
من مرة الى ما حدث عنه .

وقد اقترح والى الاسكندرية في هذا الاضطهاد كنيسة القديس مرقس في
سكندرية وسباب ما فيها من ذخائر ومقدسات وآنية ، ثم قبض على الأب
تريوس ونفاه الى بلدة اوسيم حيث ظل منفيا بها حتى انتهى الاضطهاد .

١٩٦ م - جاء الامبراطور سفيروس الى مصر ليكسب ود أهلها باصلاح احوالهم
اذا ما فسد من الادارة فكان أول ما فعله ان حقق للاسكندرية مطلبها العزب وهو
يكون لها مجلسها التشريعي بل ومنح نفس هذا الحق لكل عواصم المديريات
لقوماتها والمدن الدينية (المتروبوليس) ويعتبر المؤخون ان ذلك هو أول توحيد
مصر الادارية مع سائر انظمة الامبراطورية ، وقام سافيروس بالرحلة التي اعتاد
يقوم بها اباطرذ الرومان اذا زاروا مصر ، وهي ان يجروا في النيل صاعدين حتى
بنة وما وراءها ليتشهدوا معابدها الخالدة ويقال ان سفيروس أصلح رأس احد
الى ممنون فتسبب هذا الاصلاح في ايقاف النغمات الموسيقية التي كانت تنبعث
منه . وقد كانت هذه النغمات مبعث دهشة كل من كان يزور هذين التمثالين .

١٩٧ م - ولى حكم مصر ايمليوس ساتورنيوس .

٢٠١ م - ولى حكم مصر ماسبوس ليتوس كما يذكر البعض اسم اكيلا باعتباره
لى مصر في هذا التاريخ .

٢٠٣ م - ولد في لتويوليس في مصر العليا أفلاطونين وكان مصريا ذا اسم روماني
ربية يونانية وهو الذي سيكون مقدرا له بعث الفلسفة الأفلاطونية تحت اسم
فلاطونية الجديدة والتي احدثت أكبر اثر في الديانة المسيحية .

٢٠٣ م - خلف اوريجانوس كليمنتص في رئاسة مدرسة الاسكندرية المسيحية
اوريجانوس هو ابن ليونيداس الذي استشهد دفاعا عن العقيدة المسيحية عام ١٩٤
قد اراد اوريجانوس عندما قبض على أبيه وكان عمره يبلغ السابعة عشرة ان يشاركه

فى السجن والاستشهاد ، ولكن أنه حالت بينه وبين فعل ذلك بأن أخفت جميع ملايحه فلم يستطع الخروج ، فأخذ يرسل الى أبيه فى السجن رسائل مشجعة على احتمال مصيره وقد جاء فى إحدى هذه الرسائل .

« أحرر أن ترجع عن ارادتك من أجلنا » .

ولم يلبث ليونتناس كما أشرنا من قبل أن أعدم وصودرت أموال الأسرة ، فوقع عبء كفالة الأسرة على أوريجانوس الشاب ، وقد كان لاستشهاد من استشهد فى هذه الفترة دفاعا عن العقيدة المسيحية أثر بعيد الفور فى نفس أوريجانوس ، فعمد الى حياة الزهد والتقشف ، وأكثر من الصوم وقلل من ساعات النوم ، واقترش الأرض ، ومثى حافيا وعرض نفسه للبرد والعري ، وأخيرا عمد الى خصى نفسه اطاعة لاحدى نيات انجيل متى بعد أن تزمت فى تفسيرها أشد التزمت .

ولم يكد ديمريوس يوليه المدرسة اللاهوتية ، حتى بزغ نجمه وطبقت شهرته توافق وهرع الكثير من الطلاب المسيحيين والوثنيين ينهلون من عمله وبلاغته وإيمانه . وإن الإنسان فى عصرنا الحديث ليعجب وقد جاء وقت على العابد المسيحي كان يعمر فيه طلب العلم وبخاصة الفلسفة كفرا وتجديفا ، كيف أن أوريجانوس فى هذا العهد المبكر جعل من برنامج الدراسة علوم النحو والمنطق والبلاغة والحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وجعل تلقى هذه العلوم كلها مجرد تمهيد لدراسة الفلسفة ، ومقدمه فى خاصة المطاف لدراسة الأسفار الإلهية .

وهكذا أصبحت مدرسة اللاهوت الاسكندرانية بوتقة الحياة الثقافية فى الاسكندرية وبعد أن كانت المسيحية رغم كل الجهود التى بذلها من قبله أكله منضوس وتنحوس . ومن الجهال والعوام تحولت بفضل جهود أوريجانوس وبغزيمته الى طلبة الفلاسفة والمثقفين .

٢١١ م - مات الامبراطور سيفيروس بعد أن بلغ من العمر خمسا وسعين سنة سلخ فيها من الحكم ثمانى عشرة سنة أمضاها فى حروب متصلة سريعة وحسبة قضى فيها على كل مناعسيه وغزا بارثيا واستولى على طسقونة وضم بلاد النهرين الى الامبراطورية ، وانصر على الاسكتلنديين فى بريطانيا فى عدة مواقع ، ولما جاء الموت كانت كلمته :

« لقد نلت كل شىء ولكن ما نلته كان لا قيمة له » .

وقد عاب سيفيروس على ماركوس أوريليوس أنه سلم الامبراطورية الى ابنه كومودوس ، ومع ذلك فقد فعل هو مثل فعلته واسلمها الى ولديه كراكلا وحيسا وزودهما بهذه النصيحة الساخرة :

« أفدنا المال على جنودكما ثم لا يهمكما شىء بعد ذلك » .

ويرى رسم سفروس بملابس فرعون مصر في معبد الاتوبوليس ، كما ترى رسوم له مع زوجته .

الامبراطور كراكلا :

ارتقى كراكلا عرش الامبراطورية وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى العبادة الغالية الثمن التي كان يرتديها اكبر ابناء سفروس وبمجرد اعتلائه العرش أمر بقتل (جيتا) أخيه الصغير وشريكه في الحكم . ويقال ان القتل عندما دهموه وهو في حجرة والدته هرع الى ذراعيها لنحيمه ولكنها لم تستطع حمايته فذبح وهو في حضنها ونخضبت ثيابها بدمه .

ويقال ان كراكلا اعدم عشرين ألفا ممن احتجوا على قتل أخيه ، ولما تدمر الجيش على اثر مقتل جيتا ، اسكت الجيش بأن نفحه منحة مالية تصادل ما ادخره ابوه سفروس من أموال .

وعين أمه (جوليا دمنه) التي لم تستطع ان تظهر حزنها على ابنها الذي دبح في حجرها امبشة سر الامبراطورية لسئون العرائض والرسائل فكانت تشاركه او تحل محله في استقبال رجال الدولة وذوى المكانة ، فهمس المتقولون بأنها تستمد سلطانها عليه من مضاجعته لها ، وكان اهل الاسكندرية كعادتهم من اعنى الساساخرين به فشيحوه وأمه بأوديب الذي تزوج أمه جو كستا ، واعلنوه نقمتهم عليه لذبحه أخيه على هذه الصورة .

منح حقوق المواطنة الرومانية لكل سكان الامبراطورية :

على ان كراكلا يذهب في التاريخ علما على أنه هو الامبراطور الذي منسح حق (المواطن الروماني) لجميع سكان الامبراطورية الاحرار .

ويقول بعض المؤرخين في تعليل هذه الخطوة انه اقدم عليها لحاجته لفرض شربة التركات على جميع سكان الامبراطورية وهذه الضريبة لا تجبى الا من المواطنين الرومانيين .

واحسب ان هذا تعليل غير مستساغ . فلم يكن هناك ما يحول دون ان يعمم كراكلا سريان هذا القانون على جميع سكان الامبراطورية بغير حاجة الى منحهم حق المواطنة . كما يقول البعض ان حقوق المواطنة كانت قد أصبحت من الضالة فلم يحدث منحها لسائر سكان الامبراطورية فرقا ، ولكن هذا الفارق مهما كان قدره من الضالة .. هو الذي سيضغ بعد قليل على عرش روما اباطرة من كل جنس ومن كل قطر .. اباطرة ربما لم يذهب احدهم الى روما طول حياته .

كما تار جدل بين بعض المؤرخين عما اذا كان حق المواطنين قد شمل المصريين فيمن شمل ...

فيقول البعض ان المصريين (من دون سائر عباد الله) استثنوا من هذا القرار .

ويغزل الدكتور مصطفى العبادي ان الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البردية بصفة خاصة قد اثبتت أن تطبيق قانون كراكلا في مصر كان عاما وشاملا للمصريين جميعا سواء اهل المدن أو الريف .

٢١٥ م - ولي حكم مصر سبتيميوس هراكليوس .

كراكلا في مصر :

ورث الامبراطور كراكلا مصر في هذه السنة ويبدو أن جاءها راغبا في الانتقام منها لما روجا حوله من أفاويل حول علاقته بأمه ونسبها بمسلكتها في مقتل أخيه .

وقد سقبله الاسكندرية كما هي عادتها بكل حفاوة وتكريم بالغين عذاب السماء ورد كراكلا التحية بمثلها حتى قيل انه قدم ضحيته بمعبد سيرابيس . وزار ضريح الإسكندر وخلع عليه غطاءه الملوكي وزناره المحلى بالجواهر وخواتمه النمينة .

ولكن هذا التصرف فيما يبدو زاد في لهيب سخرية الاسكندرانيين . فقد رأوا في هذه الأعمال ما يعزز القول أن كراكلا يحاول التشبه بالاسكندر .

وبدا كراكلا انتقامه الرهيب ، فدعا شباب الاسكندرية ورجالها الى خارج المدينة ليؤلف من القادريين منهم فرقة جديدة في الجيش الروماني .

فسابق الرجال القادريون والشباب المحمسن للانحاق بالفرقة المطلوبة . . . وعندما تجمعوا خارج الأسوار أحاطهم الجنود الرومان ، وتظاهر كراكلا بأنه يهين عليهم . وبعد أن خرج من صفوفهم أصدر أمره للجيش المحيط بهم بافنائهم وجرت مذبحة وحشية لم يسمع التاريخ بمثلها على هذه الساحة . . . ولم يعب عند خسران ذبح المجمعين خارج الأسوار ، بل امتدت بعد ذلك الى داخل المدينة نفسها .

وأصدر كراكلا أمره بعد ذلك بإلغاء حق سكان الاسكندرية في المسابقات الرياضية وأمر ببناء سور شطر مدينة الاسكندرية شطرين وفد ثلثت الجيوش الرومانية حتى ذلك التاريخ بقيم خارج الأسوار في مدينة نيقيبوليس (الرمل حاليا) فأصدر أمره بنقل المعسكرات الى داخل المدينة .

ويرى بعض المؤرخين أن كراكلا لم يقدم على تحطيم الاسكندرية بهذه الصورة العنيفة الا لخوفه من أن تقوم بتورة أبان اشمنائه بالحرب التي كان مقبدا عليها في بارتيا .

٢١٦ م - ولي حكم مصر فالريوس داتوس وفي هذه السنة اذن الأنبا ديمتريوس

بابا الاسكندرية لاوريغانوس رئيس المدرسة اللاهوتية أن يذهب الى آسيا الصغرى
كى يعلم أهلها ، فذهب إليها وقام بالمهمة خير قيام ، وفى طريق عودته مر بفلسطين
فبهر بعلمه ونبوغه وتقواه اسقى قيصرية وأورشليم فرسما قسا .
ويقول لنا يوسايوس القيصر فى تاريخ الكنيسة أن ديتيريوس (غلبه الضعف
البشرى) اذ رأى أوريغانوس يعلو نجمه ويعلو ويزداد شهرة .

واغضبه أن يرسمه اسقفا وأورشليم وقيصرية قسا مع أن ذلك من صميم عمله
واختصاصه : فأصدر قرار حرمان على أوريغانوس واصفا إياه بأنه طائش مستندا
فى ذلك الى هذا الحادث القديم الذى أقدم عليه من خصيائه لنفسه .

على أن قرار الحرمان هذا كان سببا فى أن تعلو شهرة أوريغانوس أكثر وأكثر
وأن يعرف من لم يكن يعرف مدى تقواه وعلمه الفزير وحكمته . بل لقد كان هذا
الحرمان سببا فى خير الكنيسة والمسيحيين ذلك أن أوريغانوس أنشأ مدرسة لاهوتية
جديدة فى قيصرية ، تخرج منها عدد كبير من فحول آباء الكنيسة المسيحية .
٢١٧ م - انتصر كراكلا فى حربه ضد البارثيين ولكن جنوده قتلوه عشية انتصاره
ولم يزد حكمه عن خمس سنوات .

وترى رسومه ورسوم أخيه جيتا على جدران معبد لاثوبوليس . كما توجد له
بعض التماثيل فى المتحف المصرى (١) .

٢١٧ م - الامبراطور مقرنيوس :

أعلن مقرنيوس قائد الحرس الامبراطورى نفسه امبراطورا على أثر موت كراكلا
حتى قيل أنه كان هو الأمر بقتله .

وقد بدأ حكمه بالعمل على استجلاب ود المصريين فبعث اليهم لأول مرة فى تاريخ
العلاقات الرومانية المصرية بأحد أعضاء مجلس الشيوخ (ماريوس سكوندس) ليكون
مساعدًا للوالى الجديد بازيليانوس مبطلا بذلك التقليد المتبع منذ عهد أغسطس
وهو أبعاد مصر عن نفوذ أعضاء الشيوخ .

على أن حكم مقرنيوس لم يدم طويلا فقد استطاعت بعض الأميرات السوريات
الناهات أن يجزلن العطاء لجنود الجيش الرومانى ليحملنهم على تولية ابن أحدهن
وكان صبيا يقيم فى مدينة حمص ويشغل منصب كاهن اله المدينة .

وقد زعمت كبرى هذه الأميرات أن بناتها كن يغشين بلاط كراكلا وأنه اتصل
بأحدهن وأنجب منها هذا الصبى .

(١) والذين يزورون مدينة روما فى العصر الحديث يستوقفهم اسم كراكلا منذ أقدم موسوليني مسرحا
دخما فى أطلال حمامات كراكلا التى كان قد أقامها للشعب .

واذ كانت الاميرة اجزلت العطاء لرجال الجيش فقد نودى بالصبي «الاجابالندس»
امبراطورا .
ولكن اهل الاسكندرية رفضوا الاعتراف بابن عدوهم كراكلا امبراطورا ، وانحازوا
الى جانب مقرنيوس .

ولكن مقرنيوس لم يلبث ان قتل وايدت الجيوش الرومانية في مصر اختيار
الامبراطور الجديد . . . ولكن اهل الاسكندرية وعلى راسهم الوالى بازيليانوس
وماريوس سيكوندس مضوا في مقاومتهم للامبراطور الجديد وقتلوا السعاة الذين
جاءوا من سوريا يحملون النبا .

ووقع الاشتباك بين الجيش الرومانى واهل الاسكندرية ، ولكن الغلبة كانت في
النهاية للجيش وقتل ماريوس سيكوندس وفر بازيليانوس الى روما .

٢١٨ م - الامبراطور الاجابالندس :

اشتق هذا اللقب من اسم اله حمص الذى كان كاهنا له ، ولكى يكسب
الاجابالندس حكمه صفة شرعية ، سمى نفسه ماركوس اوريليوس انطونينوس .
على ان الصى لم يكذ يصل الى روما ويتربع على عرشها حتى اسلم نفسه
لشهوته وملذاته ، التى بلغ فيها الحد الذى وصف معه بالجنون .
وذلك فى الوقت الذى تولت فيه السلطة الحقيقية فى روما امه (جوليا مايزا) .

٢٢٢ م - قتل الحرس الامبراطورى الاجابالندس وامه وجروا جثتيهما فى شوارع
المدينة ثم القوهما فى نهر (التبير) ونادوا بالاسكندر ابن خالة الاجابالندس امبراطورا
بعد ان وعدتهم امه باجزال العطاء لهم ، بل واعطت مقدما ، وكانت ام الاجابالندس
هى التى اقنعت ابنها ان يتبنى ابن خالته الاسكندر ويعلمه خليفة له من بعده .
كان ان حفرت قبرها بيدها .

الامبراطور سفيروس الاسكندر :

كان الامبراطور الجديد فى الرابعة عشرة من عمره ولذلك فقد تألف مجلس وصاية
من اعضاء مجلس الشيوخ نحت سلطان ام الامبراطور الجديد لياشر مهام الحكم .
وهكذا حملت نساء سوريا الى روما تقليدا جديدا لم يسبق للمرأة الرومانية ان
زاولته من قبل وهو ان تضطلع بالحكم بطريق رسمية وان تشاطر الرجال السيادة
والنفوذ .

وكانت ام الامبراطور قد عنيت عناية كبيرة باعداد ابنها عقليا وجسديا وخلقيا
فكان يسبح فى بركة من الماء البارد ساعة فى كل يوم : ويقتصد فى الطعام ولا يأكل

الا بسط الاطعمة . وكان شابا وسيما قوى الجسم طويلا ماهرا في جميع الالعب الرياضية وفنون الحرب ودرس الاداب اليونانية واللاتينية .

وقد اظهر احتراما عظيما لمجلس الشيوخ .

وكان رحيماء دمئ الاخلاق يعود المرضي في منازلهم ، ويستمع الى اى مواطن حسن السمعة ويبادر بالعفو عن معارضيه ولم يسفك قط دماء مدنى طول حكمه .

ولما كانت الامبراطورية في ايامه تشهد انتشار المسيحية في الوقت الذى كانت الوثنية لا تزال دين الدولة الرسمى ، فقد هبت العقائد القديمة تدافع عن نفسها فيما يشبه صحوة الموت .

فراى سفريوس الاسكندر ان معظم كل الاديان التى تدعو الى الخير فاقام في معبده الخاص الذى كان يتعبد فيه كل صباح تماثيل لجوبيتر وأورفيوس وابراهيم (أب اليهود) وهذا الاله الجديد الذى يسميه اتباعه المسيح ، وكثيرا ما كان يردد هذه القاعدة الذهبية التى تتضمنها كل الاديان الخيرة « عامل الناس بما تحب ان يعاملوك به » .

وقد ادى ذلك الى أن بتندر به اهل الاسكندرية وانطاكية « رئيس الكنيسة » . وكانت امه تؤثر المسيحيين على غيرهم من الرعايا حتى قيل انها بسطت حمايتها على اوريغانوس واستدعته الى روما ليشرح لها اصول دينه .

٢٢٤ م — مات احد اباء الكنيسة المصرية الخالدين وهو الانبا ديمتريوس بعد ان بلغ من العمر الخامسة بعد المائة وقاد الكنيسة طوال اثنتين وثلاثين سنة وسبعة سهور .

وقد عرف أنه عند توليه عام ١٩١ قد انكب على اغتراف العلوم ليكون جديرا بمنصبه الرفيع . وقد وصل في علمه الى جد أنه وضع الحساب المعروف بالاتبطى وهو الحساب الخاص بتحديد يوم قيامه المسيح والذي لا يزال معمولا به حتى الآن في الكنائس الشرقية وقد استند في وضعه على حساب بطليموس الفلكى صاحب المجسطى . وهو اول بابا رسم اساقفة لجهات القطر المصرى ، وعقد مجمعا بالاسكندرية حاكم فيه العلامة اوريغانوس .

بطريركية ياروكلاس :

وخلف ديمتريوس على كرسى الكرازة المرقسية الانبا ياروكلاس . وكان ياروكلاس احد نلاميذ اوريغانوس وكان مشغوبا بالعلم جادا في تحصيله الى حد استرعى اهتمام اوريغانوس ، فجعله يتولى التعليم في الصفوف الاولى من المدرسة .

ولم يحصل ياروكلاس على تقدير اوريغانوس فحسب بل حصل على تقدير

ديمتريوس فرسمه قسا ، وعندما تخلى أوريغانوس عن المدرسة بعد أن غضب علي ديمتريوس ، خلفه على رأس المدرسة ياروكلاس بناء على تكليف من ديمتريوس ، فظهر تفوقا كبيرا إذ أنه فوق علمه الواسع كان خطيبا بليغا يؤثر على السامعين ،

فيجمع القلوب حوله .
ولذلك فلم يكد الأنبا ديمتريوس يختم حياته حتى أجمع الاكليروس والشعب في اتفاق روى على انتخاب ياروكلاس خليفة له وفي عهده كانت المسيحية قد بدأت تعم مصر كلها بحيث رأى نفسه مضطرا لرئاسة عشرين أسقفا جديدا لمدن البلاد وصار هو أكبرهم فلقوه بالبابا أى الأب الأكبر (١) ، وكان أول عمل له بمجرد توليه مهام عمله أن أعلن رفع الحرم الذى كان ديمتريوس قد أوقعه على أسناده القديم أوريغانوس ، وكتب اليه يدعو إلى العودة إلى الاسكندرية ليواصل جهاده من أجل العقيدة ، ولكن أوريغانوس رد عليه بأن مدرسة الاسكندرية أصبحت ثابتة الدائم ولم تعد في حاجة اليه قدر احتياج مدرسته الجديدة في قيسرية فاقتنع ياروكلاس بهذا الرأي وعين لرئاسة المدرسة خلفا له أيونسيوس .

٢٢٨ م - ولد الأنبا بولا الذى سيكون مقدرا له في تاريخ المسيحية أن يكون منسباً الرهبنة حيث كان أول من انخلع عن أمواله وأسرته وهرب إلى الصحراء بعيداً عن الناس وكل مظاهر الاجتماع .

٢٢٩/٢٢٨ م - من المحتمل على ما يقول الدكتور مصطفى العبادى أن يكون الامبراطور سفروس اسكندر زار مصر في هذا التاريخ وحاول التخفيف عن الأهالي بالتنازل عن بعض الضرائب ولكن المصادر الأخرى وأهمها (ملن) لم تشر إلى هذه الزيارة .

وما يذكره « ملن » بمناسبة هذا الامبراطور أن مصر كانت قد بدأت تتدهور اقتصاديا وماديا حتى أنه لم يعد يخشى من أن تتخذ قاعدة للقيام بثورة ضد روما ، ويستدل على ذلك بأنه عندما قام رئيس الحرس الامبراطورى ابيجانوس بثورة على الامبراطور وفشلت الثورة فإن الامبراطور عفا عنه وبعثه واليا على مصر ، مما يدل على أنها أصبحت آخر مكان يمكن لثائر أن يقوم بعمل منه (٢) .

على أنه إذا صح ما يقوله ملن من أن مصر كانت قد بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية

(١) لا نوافق ايريس حبيب المصرى على أن يارو كلاس أول من سمي بابا ويقول أن بطاركة الاسكندرية قد سموا بهذا الاسم منذ اثنيانوس أول بابا .

(٢) يذكر ملن أن أب خاموس قد أعدم بعد قليل من الزمن مما يدل على أن إرساله إلى مصر كان لتهدئة الخواطر ثم أعدامه بعد ذلك ..

والمادية كقوة فاعلة في الامبراطورية الرومانية فان ذلك لا يصدق على مكانتها العلمية والروحانية في ذلك العهد حيث كانت الفلسفة تصل الى ذروتها على يد آخر اعلامها من الوثنيين وهو افلاطونين .

كما كانت الفلسفة المسيحية تصل الى ذروتها كذلك على يد اورييجانوس .
وقد كان افلاطونين صديقا لاورييجانوس وزميلا له في دراسته حيث تلقى الاثنان دروسهما على يد استاذ واحد وهو امتيوس سكاس ، وهو مسيحي ارتد الى الوثنية وكان يحاول التوفيق بين المسيحية والافلاطونية ، وهو ما سيفعله تلميذه اورييجانوس .

٢٣٥ - ٢٣٨ م - قتلت الجنود الرومانية سفيرس الاسكندر وكان الجنود يحنفون على سفيرس الاسكندر انه عمل جاهدا طوال حكمه على اضعاف سطرة الجيش على الحكم ، واعاد الهيبة الى مجلس الشيوخ والاشراف ، فانتهاز الجنود فرصة محاولاته الصلح مع قبائل الراين لكي يقتلوه هو وامه واصدقائه .

ويموت سفيرس الاسكندر انحدرت الامبراطورية الرومانية الى نصف قرن من العوضى والفتن وعدم الاستقرار . حيث كان يجتمع في وقت واحد ثلاثة او اكثر او اقل يدعى كل منهم انه هو الامبراطور يؤيده فرق من الجيش في احدى الولايات او بنادى به السناتو . ثم تلتقى الجيوش ويدبح بعضها بعضا ، او يغتال الجنود امبراطورهم لشراء رضاء الامبراطور الاخر وهكذا .

الامبراطور مكسيمينس :

وكان اول من نودى به امبراطورا هو رئيس فرق الجيش في ارض الراين ويدعى مكسيمينس . وهو من حيث الاصل فلاح من تراقيا ، وكان ضخيم البنية بصورة غير عادية حتى يقولون انه كان يلبس سوار زوجته كخاتم في احد اصابعه ، وكان جاهلا تعوزه الثقافة ، ولذلك فلم يعترف به مجلس الشيوخ .

ونصب من ناحيته كاوديوس ماكسيموس وباليينوس امبراطورين .

وفي نفس الوقت نادته الفرق الافريقية بنائب القنصل ماركوس انطونينس جورديانوس الاول وهو شيخ في الثمانين من عمره ولذلك فقد اشرك معه ابنه جورديانوس الثاني . ودارت المعارك بين القوى المتناحرة ، وكان ان قتل جورديانوس الاول وابنه ، ولكن جماهير الشعب في روما اكرهت مجلس الشيوخ على اشراك جورديان الثالث حفيد جورديان الاول مع بويتوس وباليينوس .

وقتل الجند الامبراطور ماكسيمينس في يونيو ٢٣٨ وفي نفس الوقت قتل رجال الحرس الامبراطوري بونيوس وباليينوس فانفرد جورديان الثالث على العرش .

في مصر :

وفتت الاسكندرية رمصر من هذه الاحداث موقفا سلبيا فلم تشترك في هذه

المباريات السطرنجية وكانت تنتقل في غير منافسة الى حكم اى من الاباطره المدعين - فنى في مصر قيصرين باسم جورديانوس الاول والثاني كما نرى نقودا مضروبة باسم ماكسمينس ولكن لا يرى لهم ذكر على جدران المعابد أما بالنسبة لبانيوس بونيثيوس فلا اثر لهما البتة - وقد وردت اشارة عابرة في احدى البرديات الى جورديان الثالث .

موت ياروكلاس بابا مصر :

٢٤١ م - مات ياروكلاس بابا مصر بعد ان جلس على كرسى الكرازة المرقسية سنة عشر عاما وشهرا واحدا .

وقد شهد عصره اضطهادا - وقع على المسيحيين في عهد الامبراطور مكسيمس الذى اكتشف مؤامرة تستهدف قتله وأوهمه المقربون اليه من رجال البلاد انها من تدبير المسيحيين فصدق هذه الوشاية وأثار اضطهادا مروعا ضد المسيحيين .

وقد اضطر ياروكلاس تحت الحاح رعاياه الى الاختباء حتى مات ماكسيمس وقد كان هذا الاضطهاد هو الذى حدا باوريغانوس الى تأليف مؤلفه عن الاستشهاد على ما يقول تلميذه يوسيفوس القيصري .

ولقد اجتذبت شخصية ياروكلاس بوداعتها وغزارة علمها كثيرا من الأجانب الاعلام ومن بينهم اوريكانوس مؤلف تاريخ العالم ابتداء من التكوين حتى عام ٢٢١ م والذى عرفنا من خلاله مؤلف مانيتوس .

ومن مآثر ياروكلاس التى تحفظها له الكنيسة انه قبل توبة التائبين من المسيحيين الذين جعلوا مشيختهم تحت وطأة الاضطهاد ، وبغير حاجة الى تمديد جديد ، ولكن شريطة أن يعلنوا توبتهم جهارا طالبين بتوسلات جمعة .

الأنبا ديونيسيوس :

وحالف ياروكلاس على كرسى الكرازة المرقسية الأنبا ديونيسيوس ، وهو أحد أبناء الاسكندرية وكان عمله الأول الطب ، ثم حدث أن اعتنق المسيحية وتلمذ على اوريغانوس وانعقدت بينهما اواصر الصداقة ، ثم رسم شماسا وكاهنا ، وعين بعد ذلك ضمن معلمى المدرسة فى الاسكندرية عندما كان رئيسها صديقه ياروكلاس .

ولما اعتذر اوريغانوس عن العودة لرئاسة المدرسة أصبح ديونيسيوس رئيسا عليها .

واستهل ديونيسيوس عمله بمجرد اعتلائه السدة المرقسية بأن أرسل الى اوريغانوس يخبره رفع الحرم عنه ويدعوه الى العودة الى عمله فى رئاسة مدرسة الاسكندرية ولكن اوريغانوس كرر اعتذاره القديم لنفس الاسباب وهو أن مدرسة الاسكندرية أصبحت فى غنى عنه ... حيث يقوم بعمل نافع فى مدرسته الجديدة بقيصرية .

فعهد ديونيسيوس ببادارة المدرسة الى تينوغناست ، وعندما مات هذا الاخير عين الانبا ديونيسيوس يربوس حليفة له والذي سيقدر له ان يعيش قرنا من الزمان .

أفلاطونين :

٢٤٤ م - وفي هذا العام وصل خاتم الفلاسفة الونيين ومن اعاضلهم أفلاطونين السكندري الى روما ليجمع منها قاعدة ليبحث تعاليمه ومبادئه الفلسفية : فاستطاع ان يعيد الى الفلسفة سمعتها الطيبة ، وذلك بأن عاش معيشة القديسين وسط ترف روما وورثاتها ، وحرّم على نفسه اللحم ، ولم يأكل من الخبز الا قليلا وابتنع عن كل العلاقات الجنسية وان لم يذقها وليست فلسفة أفلاطونين التي سيطر عليها اسم الأفلاطونية الجديدة الا مزيجا من فلسفة أفلاطون الثالثة بعد ان تأثرت بعقيدة المصريين في التثليث عندما يصل الامر الى تصور الالهية .

فالاصل في الوجود هو الفكر وليس المادة والمادة لا تعرف الا عن طريق الفكر وليس ما نسميه مادة الا مجموعة من الافكار وهي أكثر ما تكون شئ افتراضى مراوغ يضبط على اطراف أعصابنا .

والانسان مؤلف من ثلاث بشرى هو الجسم والنفس والعقل . فاما الجسد فعوض النفس وسجنها معا . والنفس تدرك انها نوع من الحقيقة أرقى من الجسد ونشعر بما لها من صلة بنفس أكبر منها وأوسع ، وهي حين تعمل لنبلغ بالفكر الى حد الكمال تأمل أن تتصل مرة أخرى بتلك الحقيقة الروحية العليا .

أما بالنسبة للاله فهو ثلاث مكون من الوحدة والفكر والنفس ومن وراء الكائن المثلث يوجد الواحد ونحن لا نعرف عن هذا الواحد الا انه موجود وكل صفة موجبة نصفه بها تحديد له غير لائق به ، وكل ما نستطيع أن نصفه به هو أنه أول وواحد وخير وأنه هدف رغبتنا العليا ونشأ من هذه الوحدة العقل العالي وليست هذه التعاليم الا حلقة من تلك السلسلة التي بدأها الفلاسفة المصريون ابتداء من ميلون اليهودى ، وواصلها أفلاطونين واريجانوس والتي سيكون مقدرها لها أن تكون هي التي تصوغ المسيحية في النهاية .

٢٤٤ م - قتل جورديانوس الثالث على يد قائد حرسه الامبراطورى فيليب العربى الذى جعل من نفسه فى بادىء الامر شريكا فى الحكم لجورديانوس ، ثم قرر فى هذه السنة التخلص منه وإعلان نفسه امبراطورا .

الامبراطور فيليب العربى :

وهو عربى الاصل كما يبدو من لقبه يمت الى مدينة (بصره) وقد أسرع بمجرد مناداة الحرس به امبراطورا الى روما ليتقلد زمام الأمور ، وقدّر لهذا العربى الوافد من الشرق أن يكون هو الذى يشهد الاحتفال بمرور ألف عام على انشاء مدينة روما « عام ٢٤٨ » .

٢٤٩ م مقتل فيليب :

نادت بعض فرق الجيش الرومانية بقائدهم ديسيوس امبراطورا ، فزحف عليه فيليب ودارت الدائرة على فيليب فذبح .

الامبراطور ديسيوس :

تولى ديسيوس عرش روما وكان مقدرًا لهذا الامبراطور الذي لم يعمر طويلا على العرش أن يكون هو أول من أصدر قرارا عاما باضطهاد المسيحيين (١) .
٢٥٠ م - وفي هذه السنة ولد في مدينة قمن العروس الانبا أنسطوني وإذا كان الانبا بولا هو أول من اعتزل مدينة الناس وعاش وحيدا في الصحراء فان الانبا أنسطوني هو المؤسس الرسمي لنظام الرهبنة والاديرة الذي انتشر من مصر الى سائر العالم المسيحي .

محنة المسيحيين :

يذكر ملن في تاريخه أن الوالى الرومانى في هذه السنة على مصر كان هو ابيوس سيبينوس لكن تاريخ الكنيسة الذى يتحدث عن محنة المسيحيين التى بدأت في هذا العام قد جرت على يد اميليانوس الوالى وكان الامر الذى أصدره ديسيوس يقضى بأن يطلب من كل فرد من الاهالى أن يعلن تمسكه بعقيدته في آلمته القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها. وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسئولين وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختيار ومن يرفض القيام به يكون جزاؤه الموت وقد عثر على نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التى ترجع الى هذا التاريخ ٢٤٩ - ٢٥١ م .

القبض على ديوتسيوس وتخليصه :

وقد كان ديوتسيوس بابا المسيحيين في مصر هو أول من قبض عليه بطبيعة الحال ليؤدى هذا الامتحان ويعلن جحود المسيحية وبذبح للوثان والالهة القديمة ، ولكن بعض مسيحي الاسكندرية استطاعوا أن يخطفوه من يد الحراس ويهربون به الى الصحراء .

وقد راح من مخبئه بوجه الرسائل الى أبنائه المسيحيين يثبت أقدامهم ويشد أزهرهم .

وقد ترك لنا عدة رسائل بعث بها الى اساقفة المشرق بعث لنا فيها انواع الاضطهادات والمذابح التى حلت بالمسيحيين الذين أبوا الا التمسك بعقيدتهم - وكبف ضعف الكثيرون خوف الموت فجحدوا المسيح - وكيف فر البعض الى الصحراء نجاة بأنفسهم .

(١) كانت الاضطهادات السابقة التى مرت بالمسيحيين اضطهادات محلية لم تأخذ شكل العمومية .

الانبا بولا :

وكان الانبا بولا الذى بلغ العشرين من عمره ممن هجروا المدينة فى هذه الفترة وهرعوا الى الصحراء . وقد تعددت الروايات فى سبب هذه الهجرة فمن قائل أن زوج شقيقه طمع فيه ووشى به الى الوالى فجعلته هذه الخسة يعاف البشر ويقرر أن يعتزل الخليقة ليعبد الخلاق الرحيم (قصة الكنيسة القبطية) .

ومن قائل بل أنه زهد فى الدنيا عندما وجد أحد الاثرياء مبتا وقد بدأ وراثته بتنازعون الميراث ولما يوارى فى لحده بعد (تاريخ الاقباط) .

نم تتفق الروايتان أنه عندما هجر المدينة وتوغل فى الصحراء وجد كهفا تقوم الى جواره نحلطان وعين ماء فأوى الى هذا المكان الذى هياه له الله وظل يعيش وحيدا تسمين عاما حتى اكتشفه الانبا انسطونى .

تسذيب أوريجانوس :

وممن نالهم الاضطهاد فى أيام ديسيوس العلامة أوريجانوس حيث كبل بالحديد ووضع الطوق الحديدى فى عنقه ومدت قدماء فى المقسطرة اياما كثيرة وصبر على ذلك كله ولم ينج من الموت الا أن القاضى المكلف باصدار الحكم عليه بذل جهده لاثبات حياته .

موت الامبراطور ديسيوس :

٢٥١ م - لقي الامبراطور ديسيوس حتفه اثر مؤامرة دبرت ضده . ونجد رسما لديسيوس على معبد لاتابوليس . وبموت ديسيوس بدأ فى تاريخ روما ما اطلق عليه على سبيل المجاز عهد الطفافة الثلاثين ، قياسا على هذه الفترة فى تاريخ الاغريق المسماة بهذا الاسم فقد كثر التطاحن بين ادعياء العرش وانقسم ولاء الجنود ، واشتد ضعف السلطة المركزية فى روما واعلنت الكثير من الولايات استقلالها .

٢٥١ م - الامبراطور جالوس :

ومن أبرز من ترواوا عرش روما فى هذه الفترة جالوس بعد أن قتل ابن ديسيوس وترد اشارة لحكمه فى بعض البرديات المصرية . وفى عهد هذا الامبراطور بدأ الوباء الذى سيقنتك فى روما وأوربا لمدة خمسة عشر عاما .

الامبراطور فاليريانوس :

٢٥٣ م - ولى العرش فاليريانوس بعد أن قتل الجنود جالوس ، وكان فاليريانوس قائد القرى الالمانية التى نادى به امبراطورا ، ولما كان فاليريانوس كبيرا فى السن (٦٠ سنة) فقد اشرك معه فى الحكم ابنه جالينوس .

وكانت غارات القبائل المتبربرة قد بدأت تترى على الامبراطورية . بينما كانت جيوش الفرس تهاجمها من الناحية الشرقية ، بعد أن سقطت هيبة الجيوش الرومانية التي ظلت ترهب البشرية ثلاثة قرون .

وقد عهد فاليريانوس الى ابنه جالينوس بالاشراف على القسم الغربى من الامبراطورية فأشتبك في معارك طاحنة مع قبائل المتبربرين مر الفرنجة والقوط والجرمان الذين وصلوا في بعض الاحيان الى حدود مدينة روما نفسها . واختص فاليريانوس نفسه بادارة القسم الشرقى من الامبراطورية والدفاع عنه .

مصادقة المسيحيين ثم معاداتهم :

ولقد استهل فاليريانوس عهده بمصادقة المسيحيين حتى ليقول عنه دنسيوس بابا الاسكندرية على ما نقله عنه يوسالبوس القيصرى انه كان لطيفا نحو رجال الله محبا لهم اذ لم يعاملهم احد من الابطرة قبله بهذا اللطف وهذه الرقة . وكان بينه باكملة مليئا بالاشخاص الاتقياء وكأنه كنيسة الله .

ولكنه لم يلبث ان انقلب على المسيحيين وراح يضطهدهم فعانى دنسيوس بابا الاسكندرية من هذا الاضطهاد التىء الكبير .

٢٥٤ م - وفاة أوريجانوس :

مات أوريجانوس فخر الكنيسة المصرية بعد ان بلغ التاسعة والستين من عمره والاجماع على ان كتابه « المبادئ الاولى » هو اول عرض فلسفى منظم للعقيدة المسيحية . وفى كتابه « التدرجات » اخذ على عاتقه ان يتبنى جميع العقائد المسيحية بالرجوع الى كتابات الفلاسفة الوثنيين واستعان بالطرق الرمزية الاستعمارية التى انطلق بها الفلاسفة الوثنيون ان يوفقوا بين أقوال هوميروس وبين ما يفعله العقل المنطقى . كما وفق فيلون بين اليهودية والفلسفة المنطقية . ومن أقوال أوريجانوس * أن وراء المعنى الحرفى لعبادات الكتاب المقدس طبقتين من المعانى * نشر منه عمقا هما المعنى الخلقى والمعنى الروحى - لا تصل اليهما الا الاقلية المتعلمة المتعمقة » .

وكان يرى أن النصوص الواردة فى الكتب المقدسة قد اخترعت لتوضح بعض الحقائق الروحية ويقول : منسألا . . أى رجل عاقل يصدق أن اليوم الاول واليوم الثانى واليوم الثالث « من أنام التكوين » وأن المساء والصباح قد كانت كلها بغير شمس أو قمر أو نجوم ، وأى انسان تصل به البلاهة الى حد الاعتقاد أن الله قد زرع جنة عدن كما يزرع الفلاح الارض وغرس فيها شجرة الحياة حتى اذا ما ذاق انسان ثمرتها نال الحياة . .

والله عند أوريغانوس ليس هو « يهوه (١) » بل هو الجوهر الاول لجميع الاشياء وليس المسيح هو الانسان الآدمي الذي يصفه العهد الجديد ، بل هو العقل الذي ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الاب وجعله خاضعا له .

والنفس عند أوريغانوس كما هي عند افلاطونين تنتقل في مراحل وتجسيدات متوالية تدخل الجسم : والحق انه من الصعب جدا أن يفرق الانسان بين آراء افلاطونين ، وأوريغانوس الفلسفية ، ولاعجب في ذلك فكلاهما تلقى هذه الفلسفة في مدرسة واحدة هي مدرسة امونياس سكاكس .

وإذا كانت هذه التبدلات التي نقلهاها من آراء أوريغانوس تبدو جريئة حتى بمنطق القرن العشرين فلا عجب اذا روعت الانبا ديمتريوس فقعد له مجمعا ليحاكم وليحكم على آرائه وأصدر قرارا بحرمانه .

وسيقظ أوريغانوس هدفا للاضطهاد وحتى بعد موته بقرون ، فطعن البابا اتنسينيوس في آرائه التجديفية عام ٤٠٠ ومجمع القسطنطينية عام ٥٥٣ سيصدر ضده قرار حرمان .

ومع ذلك كله فهي حقيقته لا يختلف فيها اثنان انه لم يأت عالم مسيحي واحد طوال الاجيال اللاحقة عليه لم يفترف من بحر علمه .

ولم يستطع حتى الد أعدائه أن لا يخشع أمام حياة الزهد والورع التي عاشها وصنوف الاضطهاد التي تحملها في صبر ، وكيف عاش خمسين سنة في جهاد متصل من أجل العقيدة المسيحية والبذل في إعلانها بالعقل والجسد والروح .

وقد نسب اليه القدماء أن مؤلفاته تجاوزت الستة آلاف . وأنه كان أشهر انسان في العالم المسيحي على الإطلاق . وأن تلامذته هم أعلام العالم المسيحي في القرنين الثالث والرابع .

ويموت أوريغانوس ، كانت هذه السلسلة التي بدأها مكليمنتص ويارد خلاص تصل الى ذروتها .

٢٦٠ م مسوت فاليريان :

مات فاليريان امبراطور الرومان اسيرا لدى سابور كسرى فارس وهو اول امبراطور روماني تجرع هذا الهوان ، وقيل أن سابور قد عامله بفظاظة وقسوة لاذلاله فكان يضع قدميه على ظهره كلما اراد أن يمتطي حصانه .

وليس لفاليريان أى نقوش أو رسوم على المعابد المصرية وإن كان ذكره يرد أحيانا في بعض اوراق البردى التي تؤرخ لحكمه .

(١) الاسم الذي يطلقه « اليهود » على الله « رب الجنود » .

انفراد جالينوس بالحكم :

استمر جالينوس بن فاليريان يحكم منفردا وسط الفن والاضطرابات والعارات المسنمة من فبائل الفرنجة والقوط والجرمان التي راحت تعيث في الولايات الرومانية فسادا بينما كانت الهزيمة العسكرية تعكس التدهور الاقتصادي والاجتماعى الذى نردت فيه الامبراطورية بسائر اجزائها .

٢٦٢ م - مصر تنادى بالحاكم الرومانى امبراطورا :

لم يكن من الطبيعى ان لا تأخذ مصر بنصيبها من هذه الاحداث المى كان لا يكاد يمضى فيها عام دون المناداة هنا أو هناك بامبراطور حديد فاعترفت بادىء دى بدء بالامبراطور الذى نادى به سوريا وهو مقرنبيوس وانه فلما أن قتلًا - أعلن شعب الاسكندرية الحاكم الرومانى ايلبانوس امبراطورا فاستجاب لهم وارتنى الطالسان الامبراطورى .

وقد أظهر حزما فائقا فى سياسة البلاد وأراح منطقة طيبة من غارات البدو ومنع الخراج عن روما .

على أن جالينوس ارسل « تيودوسوس » أحد قواده الى مصر وتمكن من هزيمة ايليانوس وألقى عليه القبض وسبق الى روما حيث قتل فيها خنقا . . بينما عادت مصر الى حظيرة الامبراطورية الرومانية .

وقد عانت الاسكندرية الكثير من خلال هذه الاحداث فقد دسرت فيها أحياء بأكملها تدا مات من سكانها العدد الكبير ، حتى قيل انها فقدت نحو ثلثى سكانها .

٢٦٢ م وفاة ديوتسيوس :

توفى ديوتسيوس بابا الاسكندرية وهو الذى يلقبه اوسابيوس مؤرخ الكنيسة المسيحية بانه : « اسقف الاسكندرية العظيم » .

ويسميه اثناسيوس « معلم الارندوكسية » .

وهو أول بابا جمع البابوية الى رئاسة المدرسة اللاهوتية اذ لا يعرف لها رئيس فى عهده .

وقد رعى تسعته تسعة عشر عاما وتسعة أشهر سجن فيها ونفى أكثر من مرة فى عهد ديسياس وفاليريان فكان المكان الذى ينفى اليه يتحول الى مركز اشعاع جديد للمسيحية . ووصل نفوذه الى حد أن كهنة روما عندما اختلفوا حول من ينصبونه اسقفا على روما ، أرسل اليه الطرفان المتنازعان يحكمونه فيما شجر بينهم من خلاف فأفتى بما يجب أن يجرى عليه العمل لحفظ وحدة الكنيسة وقد كانت وحدة الكنيسة هى محور نشاطه الدائم ، بحيث عالج كل المشاكل التى عرضت عليه بغرض المحافظة على هذه الوحدة فأفتى بقبول الساقطين (الذين جحدوا المسيح تحت العذاب أو خوفا منه) وإعادة تعميد المهزقين .

ويعتقد لكل بدعة جديدة في الكنيسة حرصا على هذه الوحدة ، وكان آخر ما تصدى له من بدع من وجهة نظر المسيحية المصرية هو ما قال به بولس الساموساطي وقد كان بطريركا على الكرسي الانطاكي الذي يلي في الشهرة كرسي الاسكندرية . وكان يقول ان ابن الله لم يكن من الازل ، بل ولد انسانا حلت فيه حكمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء . وان هذه الحكمة الالهية هي التي مكنته من ان يعلم ويعمل العجائب . وقد فارقه حين أمسكه اليهود ليصلبوه وسبب هذا الذي حدث من اتحاد القوة الالهية بالانسان يسوع ، قبل ان المسيح هو الله ولكن ذلك مجاز لا حقيقة .

ثم قال : انه يوجد اله واحد هو الذي ندعوه الكتب المقدسة بالأب . وان كلمته وحكمته ليست افنوما بل أنها الكيان الالهى بمقام الفهم في العقل الانساني .

ومن اجل مناقشة هذا المبدأ دعى مجمع القساوسة للانعقاد في مدينة انطاكية ولكن الشبحوخة حالب بين ديونسيوس وبين الذهاب بنفسه فاكتفى بارسال رسالة الى المجمع كانت هي السند الذي اعتمد عليه المجمع لتجريد الساموساطي من درجة الكهنه .

ولديونسيوس عدة رسائل شهرة ، وأن الفاريء الحديث المثقف ليستمتع وهو يطالع الحجج الى ساقها ديونسيوس لنفى نسبة سفر الرؤيا في الكتاب المقدس الى يوحنا الرسول ، كما أوردتها يوسليوس على لسان ديونسيوس ، حيث يراه يستعمل اساليب التمهيص العلمى كما نستعمله في الوقت الحاضر .

الأنبا ماكسيموس ؛

وخلف ديونسيوس الأنبا ماكسيموس وهو قس متعهد له بأنه تحمل الاضطهاد ، الذي شنه الامبراطور دسيوس على المسيحيين ، بصبر عجيب وبهدوء ورضا ، فذكر الشعب والاكليروس له هذا الاحتمال، وانتخبه ليكون الخليفة الخامس عشر القديس مرقس .

والأنبا ماكسيموس هو بدوره أحد تلامذة أوريغانوس ، وقد برع في الفلسفة براعته في العلوم المسيحية . حتى أنه كان من حقه أن يرتدى ثوب الفلسفة فجمع لأول مرة في تاريخ البطاركة المصريين ، بين الفلسفتين المسيحية والونية .

وكان من حسن طالعه ان استتب السلام بين المسيحيين في أيامه فخدمت ربح الاضطهاد .

٢٦٤ م — ظهور دولة تدمر :

بدأت دولة تدمر في الظهور على مسرح الشرق العربى باعتبارها قوة عسكرية وسياسية تؤثر على كل ما يجاورها . ففي هذه السنة منح جالنيوس بموافقة

السناثو ادوناثوس (ادينة كما يسميه العرب) أمير تدمر وقائد فوات الشرق ، لقب قبصر واغسطس وكل الغاب الشرف متخذاً منه شريكاً له في الامبراطورية بعد ما حققه من انتصارات بجهوده الذاتية ، اذ استطاع أن يؤلف بجهوده الذاتية جيشاً من العرب والبدو المحيطين به ، وأن يهزم جيشاً فارسياً أغار على سوريا ، بل واستطاع أن يتعقب جيش سابور حتى نهر الدجلة ، بل قيل أنه عبر النهر ، وهكذا أصيب سابور على يده بهزيمة منكرة ، فحمل ذلك جالنيوس على أن يعينه قائداً عاماً لقوات الشرق ولما اندمج في دحر قوات أحد من أعلنوا أنفسهم إباطرة وهو مقرنيوس ومن بعده بالسما ، كافة جالنيوس باشرأكه معه في الحكم كما قدمنا .

وامارة تدمر التي تزعمها ادوناثوس تقع في الصحراء التي تفصل بين سوريا ودولة بابل ، وكان محور نشاطها طوال القرون الثلاثة الأولى من حياة الامبراطور ، نفل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى . كثيراً ما تعاون تجار تدمر مع الاسكندرية في التجارة الشرقية ، يشهد على ذلك عدد من النقوش ، التي تثبت وجود تجار تدمر في مدينة قفط بصعيد مصر .

وكانت امارة تدمر قد دخلت تحت سلطان روما منذ عصر مبكر أيام ثيبريوس ، ولكنها عوملت معاملة ودية . وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلي ، واستطاعت أن تستفيد كثيراً من النشاط التجاري في الامبراطورية الذي كانت تنزعمه الاسكندرية .

ووصل الأمر بها في عهد أميرها أدبناقوس الى القيام بهذا الدور الذي فصلناه فلما أن مات ادبناقوس خلفه ابنه « وهب اللات » ولكن أمه زنوبيا (الزباء كما يسميها العرب) ، سيطرت على ولدها وعلى الدولة معا وأصبحت هي مصدر السلطات .

٢٦٧ م - ملكة الشرق زنوبيا :

أعلنت زنوبيا استقلال مملكة تدمر تحت سلطان ابنها الرسمي وسلطانها الفعلي وأطلقت على نفسها لقب ملكة الشرق ، ولبست تاجاً على مفرقها ، وبسطت نفوذها على كل الولايات التي تحيط بها ، ورنّت بعينها الى مصر معلنة عن نفسها أنها سلالة كليوباترا وانها وريثة هذه الملكة الفذة .

ويصف المؤرخون المعاصرون زنوبيا بأنها كانت سمراء هيفاء ذات أسنان لؤلؤية ، وعيون نجلاء وكان صوتها قويا وموسيقيا في نفس الوقت ، وكانت تجيد التكلم باليونانية والسريانية والمصرية ، وتفهم اللاتينية ، وكانت محبة للدراسات الادبية والعلمية . وتحب في نفس الوقت الرياضة العنيفة فكانت تصحب زوجها في رحلات صيد الأسود والتمود وغيرها من الحيوانات الضارية . ويعزو الكثيرون نجاح زوجها في معاركه الحربية الى خطتها ومشورتها . والى جوار هذه المواهب العالية ، كانت تتمتع بعفاف نادر على من كان في مثل مركزها .

٢٦٧ م - موت جالنيوس :

قتل الامبراطور جالنيوس في احدى المعارك في اقليم اللريا ، وقد ورد اسمه في بعض الروايات المصرية ، كما جاء في بعض النقوش الاغريقية .

لامبراطور كلوديوس الثانى :

نادى قتلة جالنيوس بقائد أحد الجيوش الرومانية وهو كلوديوس الثانى ليكون مبراطورا ، ويبدو أنهم أحسنوا الاختيار ليكون شفيعا لهم عند قتل جالنيوس . ذلك انه يتولى هذا الامبراطور العرش انتهت فترة الفوضى التى اشرفت الامبراطورية في خضم من الفتن والحروب والثورات ، وبدأت هذه السلسلة من الاباطرة الليريين الذين اعادوا الاستقرار الى الامبراطورية .

٢٦٨ م - زنبوبيا في مصر :

استجاب الملكة زنبوبيا لدعوة قائد مصرى يدعى تيموجنيس للتعاون معه تحرير البلاد من الرومان فارسلت جيشا من سبعين ألف مقاتل تحت قيادة زائدة - قد تم النصر لهذا الجيش بمساعدة تيموجنيس على الجيوش الرومانية ، ولكن لم كد الجيش التدمرى ينسحب تاركا وراءه حامية قليلة العدد حتى عاد القائد الرومانى لهجوم ودحر الحامية التدمرية فعاد زائدة ليتعاون مع تيموجنيس ، وقد استطاع لقائد الرومانى في بادىء الامر أن يهزم الجيش الجديد ، ولكنه عندما حاول أن يقطع خط الرجعة على الجيش المنهزم عند بابليون ، ظهرت كفاءة تيموجنيس وتفوفه في معرفة الأرض ، فحصل على انتصار باهر على الجيوش الرومانية ، جعل القناصل لرومانى ينتحرو .

وقد ظل سلطان روما طوال مدة حكم كلوديوس الثانى لا يتجاوز اسوار مدينة لاسكندرية .

وقد تحالف عرب تدمر مع عرب مصر وقبائل البدو (البليمي) باعتبارهم من صل واحد وحكموا صعيد مصر ثم الدلتا وجزءا من الاسكندرية .

٢٦٧ م - الامبراطور اوريليانوس :

ولى العرش اوريليانوس بعد أن مات كلوديوس بالطاعون ، واذا كان اوريليانوس هو مساعده ومواطنه فقد نادى به الفرق البلقانية امبراطورا ويقال أن كلوديوس هو الذى رشحه قبل موته .

وأوريليانوس يحمل في التاريخ الروماني لقب « منظم الدنيا » ذلك انه استطاع أن يخمد كل الثورات ، ويرد كل الحملات والغارات التي كانت تهدد روما ، وأنشأ حول روما سورا ليحميها من غارات المتبربرين وقد رأى بثاقب بفكره ، ليستطيع التفرغ لرد عادية القبائل المتبربرة من قوط وفرنجة وغيرهم ، أن يتفاهم مع زنوبيا في الشرق . فجعل ابنها شريكا له في الحكم وصدرت العملة في الاسكندرية تحمل صورة الامبراطورين اوريليانوس على أحد وجهي العملة وذهب اللات على الوجه الآخر .

٢٧٠ م - موت افلاطونين :

وفي هذه السنة مات افلاطونين آخر فلاسفة الوثنيين العظام والمسيحي بغير مسيح - والذي قبلت المسيحية كل سطر من مسطوره تقريبا . والمطالع لكتب القديس اوغسطس يراه كثيرا ما يردد في نشوة صفحات من هذا الصوفي الجليل .

وقد كان افلاطونين كما قدمنا زميلا وصديقا لاوريجانوس ، وقد حدث أن حضر اوريجانوس في روما اجدى محاضرات افلاطونين فأحمر وجه افلاطونين وختم محاضراته بقوله له : « أن تحمس المحاضر يزول حين يحس أن مستمعيه لا يجدون ما يتعلمونه منه » .

وقد تم تأليفه الفيلسوف برفيري بترتيب رسائله الاربع والخمسين « الانباءات » في تسع مجموعات .

ميلاد اريوس :

على أن افلاطونين لم يمت الا وكان اريوس يولد ، وهو المسيحي الذي سيكون مقدرا له أن يلعب أكبر دور في حياة المسيحية في القرن الرابع ، متأثرا بالفلسفة الاغريقية كما يمثلها افلاطونين والفلسفة المسيحية كما يمثلها اوريجانوس .

٢٧٠ م - تنسك الانبا انطوني :

في هذه السنة على ما يقول تاريخ الكنيسة القبطية بدا الانبا انطوني تزهد ونسكه ، فقد صادف أن دخل الكنيسة والقاريء يتلو قول السيد المسيح « أن أردت أن تكون كاملا فذهب بع كل ما لك ووزعه على الفقراء ثم اتبعني » فأحس بأن هذا الأمر موجه اليه ففادر الى بيته ثم وزع أمواله .. وذهب الى خارج المدينة مبتدئا هذه الحياة من النسك والرهباية التي سيكون مقدرا لها أن تطبع العالم المسيحي في العصور الوسطى كلها .

٢٧١ م - قررت زنوبيا ان تعلن استقلالها نهائيا عن روما فقررت أسقاط اسم الامبراطور اوريليانوس وصكت العملة في الاسكندرية وهي تحمل صورتى زنوبيا وابنها وهب اللات .

فكان ان نشبت الحرب بين اوريليانوس وبين زنوبيا . وقد استطاع بروديوس ان يستولى على الاسكندرية ، ولكن بقية مصر ظلت خارج سلطان الرومان تحت قيادة زعيم مصرى يدعى فيرموس كان يعمل بالتعاون مع القبائل العربية المصرية وبقايا الجيش التدمرى . فاستطاع ان يظل مسيطرا على مصر العليا ويهدد الاسكندرية .

٢٧٢ م - انتصر اوريليانوس على الملكة زنوبيا بعد سلسلة من المعارك ووقعت في يده اسيرة ، واعفى مدينة تدمر وسكانها من التدمير ، ولكنه لم يكد يتجه صوب روما مصطحبا معه أسيرنه زنوبيا حتى عادت تدمر للثورة وقتلت الحامية الرومانية التى تركها خلفه ، فعاد اوريليانوس من جديد الى تدمر وفي هذه المرة انتقم منها شر انتقام بحيث دمرها عن آخرها واعادها من جديد لتكون احدى قرى الصحراء وهي التى كانت احدى عواصم الشرق . ولم يكد الامبراطور يفرغ من اخماد نورة تدمر نهائيا حتى كان فيرموس في مصر قد استطاع ان يشعل نار الثورة في الاسكندرية نفسها .

واسرع اوريليانوس الى مصر بجيوشه ، وضيق الخناق على الثوار في الاسكندرية حتى حاصروهم في حى البروخيون ، ولم يسلم سكان الحى الا بعد ان دمر الحى الذى كان يضم اهم مباني المدينة تدميرا .

وعاد اوريليانوس الى روما ، في موكب نصر لم تشهده روما منذ اجيال ، وتجرعت زنوبيا المصير الذى فزعت منه كليوبترا من قبل وآثرت الانتحار ، فسارت في موكب نصر مقيدة بالسلاسل الذهبية .

بروديوس في مصر :

وبينما كان اوريليانوس يحتفل بانتصاره في روما ، كان واليه على مصر القائد بروديوس يمضى في اخضاع مصر العليا لسلطان روما ، واستطاع ان ينتصر على قبائل البدو (البليمي) على ان بروديوس لم يكن مجرد قائد عسكري ، بل كان في نفس الوقت اداريا حازما ، وقد راعه سوء الاحوال في مصر حيث ردمت الشرع وانهلست القناطر وخربت العابد فامر جنود الجيش باصلاح ذلك كله . وراحوا يعملون في تطهير الشرع ، واصلاح ما فسد من المرافق العامة .

٢٧٤ م - وفاة الانبا مكسيموس :

مات الانبا مكسيموس بعد ان جلس على كرسي الكرازة المرقسية اثني عشر عاما وسعة أشهر . ومما يؤسف له ان مؤلفات الانبا مكسيموس لم يبق منها شيء

بعض الشذرات . على ان ما اشتهر به من قداسة ومداومة على التطعيم ، جعلت شعبه يجله مدى الحياة وبعد مماته .

وقد عم السلام المسيحيين في ايامه فلم يعانون اضطهادا فزاد عددهم وتضاعف .

الانبا ثيونس :

وانتخب الشعب والاكليروس خليفة له الانبا ثيونس . وقد كان مقدرا لهلما البابا الجديد ان يكون هو الباني لثاني كنيسة في الاسكندرية بعد الكنيسة المرقسية ولم يكن المسيحيون - على تزايد عددهم - قد استطاعوا ان يبنوا كنيسة بعد ان شادوا الكنيسة المرقسية وذلك بسبب الاضطهادات . فكانوا خلال هذه المدة التي تناهر الفترتين يجتمعون في بيوتهم الخاصة او في المقابر وكان الفرض الذي يهدفون اليه من اجتماعهم حول المقابر هو ان يعلنوا للوثنيين ان الصلة بينهم وبين من انتقلوا الى عالم الروح باقية لم تنقطع - فلما ان مرت اثنتا عشرة سنة لم يقع خلالها اضطهاد استطاع الانبا ثيونس ان يبنى الكنيسة وان يطلق عليها اسم السيدة العذراء . وكانت الصلاة في كنيسة العذراء كغيرها من الكنائس تتم حتى ذلك الوقت باللغة اليونانية الى ان افترق القبط عن اليونانيين وصاروا يصلون باللغة المصرية .

٢٧٥ م - موت الامبراطور اوريليانوس :

قتل بعض الضباط الامبراطور اوريليانوس وهو يعد المدة لغزو الفرس .

وعلى الرغم من ان اوريليانوس جاء الى مصر وقضى على حركة الانفصال وما قام من كوارث ، فلا نجد له اى ذكر على الآثار ، وليس سوى اسمه يرد من حين لآخر في بعض البرديات .

وقد ابى اوريليانوس الا ان يؤكد مركز مدينة الاسكندرية الاقتصادي الممتاز ، فقد اصدر امره بحظر صك النقود في سائر الولايات الرومانية وذلك لاصلاح العملة، ولكنه استثنى من هذا القرار مدينة الاسكندرية ، عاصمة الامبراطورية الرومانية التجارية .

الامبراطور ثاستيتوس :

فوض القواد الحربيون لمجلس الشيوخ ان يختار الامبراطور الجديد ، فانتخب السناتو احد اعضائه وهو كلوديوس ثاستيتوس البالغ من العمر الثمانين والسبعين . على ان الجنود لم يلبثوا ان قتلوه بعد ستة اشهر ، ولما حاول اخوه فلوريانوس ان يكون امبراطورا من بعده قتله الجند كذلك .

٢٧٦ م - مصر تنسأى ببرويوس امبراطورا :

نادت فرق الجيش الرومانى المصرية ببرويوس والى مصر امبراطورا وتابعتها فرق سوريا ، ثم فرق ايطاليا ، فذهب برويوس الى روما حيث نادى به مجلس الشيوخ امبراطورا .

وقام بسلسلة من المعارك ضد هجمات الجرمان القوط والدندانل .

وراح يطبق الأسلوب الذى بداه فى مصر وهو أن يكلف الجنود اثناء توقف المعارك بتجفيف المستنقعات وغرس الكروم وغير ذلك من الاشغال العامة .

٢٨٩ م - استعادت قبائل بدو البليمنى سيطرتها على مصر العليا واحتلت مدينتى قفط وبطليموس فقدم برويوس الى مصر : وحارب قبائل البليمنى ودحرهم ونكل بهم ، ثم عاد الى روما فى موكب نصر كبير باعتباره قد قام بعمل عظيم .

٢٨٠ م - عهد برويوس بولاية مصر الى القائد سائورثينوس الذى دخل الاسكندرية بجيش كبير فما كلد الشعب الاسكندرى يراه حتى خلع عليه لقب اغسطس باعتباره امبراطورا ، فانكر سائورثينوس ذلك عليهم وغادر الاسكندرية الى فلسطين ، ومع ذلك فقد ظل فى خوف من أن يحاسبه برويوس على هذه الفعلية ، فانتهى بأن اعلن نفسه امبراطورا بالفعل . وارتنى طيلسان الاباطرة ، ولكن جنوده لم يلبثوا أن خذلوه وقبض عليه وقتل .

٢٨٢ م - مقتل الامبراطور برويوس :

قتل الجند الامبراطور برويوس - ويرد اسمه فى بعض البرديات المصرية .

٢٨٤/٢٨٢ م - فترة من الفوضى :

انقضى العاملان التاليان على مقتل برويوس فيما يشبه الفوضى : حيث تولى الامبراطورية اورييليوس كاروس الذى كان قائدا للحرس الامبراطورى فى عهد اورييليانوس ثم لم يلبث أن قتل ، وقتل ابنه نوميرانوس من بعده شريكه فى الملك ، ثم حاول ابنه الثانى كاريوتوس أن يحتفظ بالغرب امام دقلديانوس الضابط الذى اختاره جيش الشرق امبراطورا ، ولكن رجال جيشه قتلوه .

وقد اشار اسكندر صيفى فى كتابه الى أنه توجد بعض النقود التى ضربت فى الاسكندرية بلاسم كلروس وولديه نوميرانوس وكارينوس من بعده .

ولا يحتاج الامر الى كبير عناء لكى ندرك كيف أن احوال مصر الاقتصادية كانت

قد بلغت من التدهور حدا من السوء غير المتصور ، بعد هذه الثورات المتلاحقة التي اشتعلت في الاسكندرية وما ترتب عليها من خراب ودمار . وقد أدت الاضطرابات والفوضى الى تدهور النظام الادارى . . فى الوقت الذى تضاعفت فيه الضرائب ، حتى اضطر الكثيرون الى الهرب من مزارعهم وقراهم ليحيوا حياة التسول والتشرد ، ولدنا بردية من الفيوم تشير الى أن سدس الارض الخاضعة للضرائب قد أصبح بورا .

٢٨٤ م - الامبراطور دقلديانوس :

نصب اوريليوس قاليروس دقلديانوس امبراطورا فى شهر نوفمبر من هذه السنة ، وهو سليل أسرة الليرة رقيقة الحال ولكنه استطاع بجده ونشاطه أن يرقى سلم الرتب العسكرية حتى أصبح قائدا لحرس القصر . وكان أكثر دراية بالشئون الادارية منه بالشئون الحربية .

وقد اعتبره معاصروه كمالا يعتبره المؤرخون حتى الآن ثالث ثلاثة من اعظم اباطرة الرومان . فقد استطاع أن يخرج بالامبراطورية من بحر الفوضى الذى غرقت فيه ، وأن يوقفها من جديد على قدميها ، وأن يمد فى عمرها ثلاثة قرون اخرى وذلك باعادة تنظيم الامبراطورية اداريا وسياسيا وعسكريا ، واقتصاديا ، حتى ليعتبر أنه اول من طبق فى روما اشتراكية الدولة فأحيا نظم الاقتصاد الحر الذى سارت عليه حتى عهده .

٢٨٥ م - وفاة الانبا ثيئوناس :

عندما دنت ساعة الانبا ثيئوناس بعد أن ظل راعيا لشعبه سبع سنوات وتسعة شهور التف حوله بعض اخصائه باكين . وقائلين له « هل تتركنا يتامى يا أبانا المبجل » فابتسم فى دعة وأشار بيده الى قسيس كان حاضرا وقال لهم « هذا أبوكم الذى يرعاكم من بعدى » .

فلما أن مات الانبا ثيئوناس اختار الشعب والاكليروس القسيس الذى أوصى عليه وهو بطرس ليكون الخليفة السابع عشر للقديس مرقس .

الانبا بطرس الشهيد :

ولد الانبا بطرس من ابوين تقيين بعد رؤية راتها أمه فى النوم وجاء ميلاده مصدقا لهذه الرؤية التى بشرتها بأنه سيكون أبيا لشعب عظيم وقد أسمته بطرس تيمنا باسم بطرس الرسول الذى حناها فى الرؤية .

ولما بلغ من العمر اثنى عشر عاما رسم شماسا ثم قسيسا واشتهر بتعمقه فى العلوم اللاهوتية والدينية مما أهله لأن يعين مديرا للمدرسة الاسكندرية اللاهوتية وأن

ينال لقب « المعلم البارع في الدين المسيحي » وينسب اليه تاريخ الكنيسة القدره على اجراء الآيات والعجائب .

وفي عهد أبوته ، بدأ آريوس القدي سيقدّر له ان يلعب دورا كبيرا في القرن الرابع ، نشاطه وتعاليمه .

تقسيم الامبراطورية الرباعي :

٢٨٦ م - شرع دقلديانوس في وضع الخطط لاعادة تنظيم الامبراطورية الرومانية والتهوض بها فرائى ان يقسم السلطة مع شريك آخر ليتفرغ كل منهما للدفع عن احد اقسام الامبراطورية ، فاختار احد القواد المتأزين وهو ماكسيميانوس ليشاكره اثناء الملك وكان رجلا خشنا غير مثقف ولكنه كان قائدا بارعا . وحمل دقلديانوس لقب (جوفوس) نسبة الى جوبيتر معلنا بذلك قداسته والوهيته ، بينما حمل شريكه لقباً اكثر تواضعا وهو هرقل - وجعل دقلديانوس مقر اقامته في مدينة تبومديا فاتخذ منها قاعدة لحكمه واعد بها بلاطا على الطريقة الشرقية ، بينما اقام ماكسيميانوس في مدينة ميلان ليكون بقدرته الدفاع عن الحدود الشمالية . وهكذا يدان روما تتضاءل اهميتها من الناحية الفعلية بعد ان انتقل مركز الحكم منها ، وأن ظلت بها كل مظاهرها القديمة .

وكان لهذه الخطوة اعظم الاثر في رفع نفوذ أسقف روما المسيحي ، وسيظل هذا النفوذ ينضاعف ويتزايد حتى يكون هو الوارث الحقيقي للسلطان الاباطرة .

٢٩٠ م - ولد الانبا باخوم من ابوين وثنيين والذي سيكون مقدرا له ان يضع نظام الاديرة في العالم المسيحي .

٢٩٣ م مضى دقلديانوس خطوة جديدة في اقتسام الحكم ، فأختار مساعدا له في الحكم وخليفة له من بعده يسمى جالوريوس ومنحه لقب قيصر وزوجه ابنته ، وعهد اليه بحكم ولايات الدلتوب ، كما اختار ماكسيميانوس من يدعى قسطنطيوس ليكون قيصرًا وخليفة له من بعده وورثه في تدعيم الصلة بين الرجلين فقد طلب دقلديانوس من قسطنطيوس ان يطلق امراته (المسيحية) هيلانه ليتزوج من ابنة ماكسيميانوس وتعهد دقلديانوس وماكسيميانوس ان يعتزلا الحكم بعد عشرين سنة ليخلفهما من بعدهما خليفتهما وقد اراد دقلديانوس بهذا الترتيب ان يسد الطريق على حروب الوراثه ، وأن يوزع السلطة في الامبراطورية في اربعة مراكز على رأس كل منها قيصر ، لتكون على استعداد وتأهب للاقاة الاخطار الناشئة عن الثورات الداخلية ، أو الغزوات التي تشتتها القبائل التبريرة .

وكان كل قانون يصدره اى من الحكام الاربعة يصدر باسمهم جميعا ويطبق في سائر أرجاء الامبراطورية بغير حاجة الى مصادقة مجلس الشيوخ كما كان الحكام هم الذين يتولون تعيين جميع موظفي الدولة .

وقسمت الامبراطورية تقسيما جديدا الى ست وتسعين ولاية .

٢٩٥ م - مصر تعلن امبراطورا جديدة :

وكان لا بد لمصر ان تأخذ بتصيب في هذه الترتيبات والتنظيمات وتتابع خطتها في تحريض كل من تستطيع للخروج على سلطان روما فأعترفت بأحد الضباط الرومانيين المدعو « اخيليوس » امبراطورا . ويبدو ان هذه الحركة بلغت من القوة الى الدرجة التي اضطرت دقلديانوس ان يجرى بنفسه على رأس جيش لاختماد هذه الحركة ، ومما يدل على قوة الثورة ان الاسكندرية لم تستسلم بمجرد ظهور الامبراطور وجيوشه حول أسوارها ، مما اضطره الى محاصرتها ثمانية أشهر ، على انه استطاع في خاتمة المطاف ان يقتحم أسوارها وقيض على اخيليوس ودمر الجزء الاكبر من المدينة ويبدو ان المدينة المتحصنة التي عانت الكثير خلال هذه الحركات والثورات ، قد حركت غفلة دقلديانوس عليها ، فأصدر امره بالعفو عن سكانها ، وزاد على ذلك ان أمر بتوزيع بعض القمح المخصص لروما على أهلها .

في الوقت الذي حال بين جنوده وبين نهب المدينة او المساس بسكانها .

وقد كان لهذا التصرف الرحيم اعمق الاثر في نفس شعب الاسكندرية فأقاموا له هذا العمود الشهير باسم عمود بومبي والذي اقيم بساحة معبد سيرابيس وكتبوا على قاعدته مالا يزال مقروءا حتى الآن « الي الامبراطور العظيم راحم الاسكندرية دقلديانوس المنصور » .

وقد حرص دقلديانوس بعد القضاء على الثورة ان يعيد تنظيم مصر بالطريقة التي اتبعها في سائر الولايات فأعاد تقسيمها الى ثلاث ولايات . وفصل بين السلطة المدنية والعسكرية ، واصاح نظام الضرائب ليساير النظام الذي وضع للتطبيق في الامبراطورية كلها .

ابطال حق الاسكندرية في صك النقود :

على ان دقلديانوس اساء الى الاسكندرية اعظم اساءة بان انفى حقها التقليدي في صك النقود المصرية مستبدلا ذلك بالنقود الرومانية .

وهكذا وضع خانمة لهذا الكتاب التاريخي الرابع والذي كانت النقود المصرية المضروبة في الاسكندرية تؤلف صفحاته والذي جمعه العالم سويفا في كتابه المسمى « نومي اجيتي امبراطوري » اي أسماء أباطرة مصر « سكندر صيفي » .

٢٩٨ م - بدء اضطهاد المسيحيين :

امضى دقلديانوس التسعة عشر عاما الاولى من حكمه متسامحا مع المسيحيين فلم يعرض لهم بسوء ، ولكن فكرة توطيد دطلم الامبراطورية وتوحيد نظمها بدأت تسيطر على كل تفكيره ، واذ كان قد جعل من نفسه ملكا شرقيا كالبطالسة او الفراعنة

الذين كانوا يعتبرون آلهة ، فقد رأى أن في توحيد العبادة في الامبراطورية لشخصه باعتباره ممثل جوبيتر على الأرض مما يريد في تدعيم بناء الامبراطورية وكان مساعده وخليفته جالبروس يرى أن لا توجد عقبة لتنفيذ هذا البرنام ؛ واجتماع شعوب الامبراطورية على عبادة آلهتها القديمة وتقديس الامبراطور سون الديانة المسيحية ، قراح يزين دقلديانوس البطش بالمسيحيين . ولم يشأ دقلديانوس في بادئ الامر أن يبالغ في خطته وأصدر في هذه السنة مرسوما يقضى بتطهير الادارة والجيش من المسيحيين . وكان ذلك هو أول خطوات الاضطهاد .

٣٠٢ م - كان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر في هذه السنة يومبيوس .

٣٠٣ م - كان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر في فبراير من هذه السنة كولكيانوس .

الاضطهاد العام للمسيحيين :

٣٠٣ م - أصدر دقلديانوس أمرا عاما باضطهاد المسيحيين ، وكانت المراسيم الأولى تقضى بهدم الكنائس المسيحية وحرق الكتب المقدسة وطرذ ذوى المناصب الرفيعة من المسيحيين وحظر تحرير العبيد من المسيحيين اذا أصروا على الاعتراف بمسيحيتهم .

وقد حدث عقب صدور هذه القرارات في مدينة نقوميديا حيث كان دقلديانوس وجلبوس يقيمان أن تقدم أحد المسيحيين وكان ذا حيثة الى هذا الاعلان الامبراطورى ، فمزقه في ازدراء وتحد ووصل علم ذلك الى دقلديانوس فاستشاط غضبا (١) لهذا التحدى وحدث أن اشتعلت النار في قصره مرتين وانهم جلبوس المسيحيين بتدبير ذلك ، فأصدر دقلديانوس ثلاثة مراسيم جديدة بالاضافة الى المرسوم الاول ، وتقضى هذه المراسيم بسجن الاساقفة ثم تعذيبهم وأعدام المسيحيين اذا رفضوا انكار مسيحيتهم .

وهكذا بدأت هذه الصفحة السوداء في تاريخ دقلديانوس وان الانسان ليعجب كيف ينزلق حاكم في مثل حنكته وبصيرته التى جعلته قادرا على ايقاف تدهور الامبراطورية ، الى اللحد الذى يتصدى معه لقتل المئات والالوف بعد اخضاعهم للتعذيب للعدول عن عقيدتهم .

(١) لم يذكر يوسابيوس القيصر اسم الرجل الذى قام بهذا العمل ولم يرد في وصف ما قام به من انه مرق الاعلان الامبراطورى ولكن تاريخ الاقباط للاستاذ ذكى شنودة ذكر ان الذى قام بهذا العمل هو القديس مارى جرجس المشهور وانه كان يدعى في الاصل جاورجيوس ، وقد بلغ رتبة قائد بجيش دقلديانوس - وانه لم يقف عند حد تمزيق اعلان الامبراطور بل ذهب اليه بنفسه وأعلنه في تحد انه مسيحى ، فأمر دقلديانوس باعدامه . ويقال أن جسده نقل الى مصر على عهد الانبيا جبريال البابا الثامن والسعين .

ومارى جرجس هو القديس الكرم لدى كثير من الطوائف المسيحية وخاصة لدى الانجليز الذين يطلقون عليه اسم القديس جورج .

عصر الشهداء :

وقد لقيت مصر المسيحية من اضطهاد دقلديانوس وشركائه ما يعادل كل ما تحمله المسيحيون في اوج الامبراطورية ، بحيث يقول ترتليانوس : « لو أن شهداء العالم كله وضعوا في كفة ميزان وشهداء مصر في الكفة الأخرى لرجحت كفة المصريين » ولذلك نلا عجب اذا كانت الكنيسة القبطية تتخذ من هذا الحادث مبدءا لتاريخها فالتاريخ القبطي يبدأ بعصر الشهداء فنحن الآن في السنة القبطية ١٦٨٧ ش وهي المقابلة لعام ١٩٧١ حيث أن الكنيسة القبطية تبدأ عصر الشهداء منذ ولى دقلديانوس الحكم أى عام ٢٨٤ .

ويخصص لنا يوسابيوس القيصر عشرات من الصفحات في وصف صنوف الاضطهاد التي نلت بالمسيحيين في مصر . . فالبعض منهم القوا في النيران بعد كشط اجسادهم وجلدهم جلدا قاسيا ، والبعض تعرضوا لأنواع من التعذيب تقشعر الأبدان من مجرد سماعها ، والبعض أغرقوا في البحر والبعض قدموا رؤوسهم بشجاعة لمن قطعوها ، والبعض ماتوا تحت أيدي معذبيهم . وآخرون هلكوا جوعا ، أو صلبوا بالطريقة المضاة لصلب المجرمين أو بطريقة بشعة حيث كانوا يسحبون على الصليب ورءوسهم منكسة الى أسفل ويتركون أحياء حتى يهلكوا جوعا .

أما المسيحيون في طيبة فمن المستحيل وصف ما حل بهم . لقد كانت اجسادهم تكشط كسطا بالحار بدل المناجل ، وكانت النساء يوثقن من إحدى القدمين ويرفعن في الجو بماكينات خاصة فتتعرض اجسادهن أمام المشاهدين ، وكان البعض من الشهداء يوثق بفروع الاشجار وتقرّب الفروع الى بعضها باللات خاصة ثم تتحرك الفروع لتعود الى وضعها الأصلي فتتمزق الاعضاء . وبعض يوسابيوس على هذه الوتيرة يحدثنا في أسهاب عن مختلف الطرق التي عذب ومات بها المئات والالوف . ويبالغ البعض في تعداد من استشهدوا تحت التعذيب والاضطهاد في العالم المسيحي فيقدرونهم بمليون . . بينما يهبط البعض بهم الى ١٥٠٠ (دورانت) ولا شك أن الحقيقة بين هذين الرقمين .

مارينا العجائبي :

وقد حفظ تاريخ الشهداء عشرات ومئات من الذين لاقوا الموت والعذاب من أجل المسيح مستبشرين مهللين ، ومن العيب أن نثبت أقاصيص هذا الحشد ومع ذلك فلا مناص من ذكر رجل وامرأة ممن استشهدوا في هذه المحنة ليكونوا رمزا للمئات والالوف أمثالهم .

وأول هذين المثليين هو مارينا العجائبي ولد من أبوين مسيحيين وكان أبوه حاكما لمربوط ، ولكنهم لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره حتى كان قد فقد أبويه . فلما بلغ أشده انتخبه الشعب ليخلف أباه في الحكم . فلما أن أعلن دقلديانوس مراسيمه : أعلن مارينا على رؤوس الأشهاد إيمانه المسيحي ، فحاول الوالي القروماتي

ان يستعمله بالوعد والوعيد ولكنه أصر على موقفه فأمر الزالى بقطع رأسه ودفنه المؤمنين في مكان عزلته بالصحرَاء .

وقد أطلق عليه تاريخ الكنيسة بالعجائبي اذ نسبوا اليه ان كل من اتصل بالبقعة التي كان مدفونا فيها قد شفى ، وان ابنة الامبراطور زينون (القرن الرابع) قد شفيت من مرض عضال بعد زيارتها لمريمينا فأصدر الامبراطور أمره ببناء كنيسة كثرائية فوق قبره كانت عند انشائها من أجمل كنائس العالم ، وقامت حولها مدينة كبيرة ازدهرت بمن وفد اليها من الحجاج .

القديسة دميانة :

ومن ناحية أخرى فان القديسة دميانة هي خير رمز للسيدات اللواتي استشهدن في هذه المذبحة . وقد ولدت هذه القديسة من أبوين مسيحيين وكان أبوها مرقص واليا على البرلس . ولما بلغت من العمر الخامسة مشرة أراد أبوها أن يزواجها ولكنها أعلنت رغبتها في أن تحيا حياة البتولة فأقاما لها قصرا في جهة الزعفران لتنفرد فيه بالعبادة ، فالحق بها في عزلتها أربعون من العذارى اللواتي وهبن أنفسهن للرب .

فلما ان بدأت محنة المسيحيين على أيام دقلديانوس بادر أبوها باعتباره واليا فأنكر مسيحيته فتركت دميانة عزلتها وذهبت الى أبيها وقالت له « كان الأهون على أن أسمع خبر انتقالك الى دار الخلود من أن أسمع أنك أنكرت ديننا » فألهمت هذه الكلمات قلب أبيها مرقص وذهب على الفور وقابل الامبراطور دقلديانوس وجهر بندمه على ما ارتكب من أثم فأمر بقطع رأسه . ولم يلبث دقلديانوس أن وقف على السر الذي حفز مرقص على أن يتصرف بهذا الأسلوب ، فأرسل الى دميانة ومن معها فريقا من الجند وأمرهم بأن يحملوا دميانة ومن معها على انكار المسيح والا تقطع رؤوسهن . وعبثا حاول الجنود أن يشنوا دميانة ورفيقاتها ولذلك فقد عملت السيوف في قطع رقابهن . . وقالت دميانة قبل قطع رأسها : اننى اعترف بالسيد المسيح وعلى اسمه أموت وبه أحيا حياة الأبد . ولا تزال كنيسة الشهيذة دميانة قائمة حتى الآن بالبرارى جهة بلقاس يتجدد بناؤها كلما تقادم العهد بها .

استشهاد الأنبا بطرس :

وكان على رأس الذين استشهدوا في هذه المحنة الأنبا بطرس بابا الاسكندرية والذي أطلق عليه اسم خاتم الشهداء . لأن دمه فيما يبدو قد كفر عن سائر شعبه اذ لم يكذ يستشهد حتى توقف ربح الاضطهاد والعلامة مرقص سميكة يجعل استشهاد عام ٢٩٥ م وتتابعه على ذلك الأستاذ ايزيس حبيب في كتابها تاريخ الكنيسة مع أن المتفق عليه أن مراسيم اضطهاد المسيحيين قد صدرت عام ٣٠٣ م ومن المتفق عليه كذلك أن الأنبا بطرس هو آخر المستشهدين واذن فلا بد أن يكون استشهاد بعد هذا التاريخ (١) .

(١) جعل الأستاذ زكى شتودة تاريخ استشهاد الأنبا بطرس عام ٣١٢ .

ويصف تاريخ الكنيسة الساعات الأخيرة للشهيد بطرس بأنه عندما قبض عليه وسبق إلى السجن تجمهر الشعب حول السجن يريد أن يفقدى راعيه المحبوب وخاف الأنبا بطرس على شعبه فاتفق مع الجنود على أن يمهلوه حتى يهدىء من ثائرة الشعب المتجمهر . ثم خطب في الشعب وحثه على أن يعود إدراجه في سكينة وسلام . فرضخ الجميع لحكم غبطته وتفرقوا إلى بيوتهم وأعمالهم . وعندئذ أعطى البابا الإسكندري العلامة للجند فجاءوا وأخرجوه من السجن وساقوه إلى مكان الاستشهاد ووجهه يسطح بنور سماوى فذهل الجنود ولم يجسر أى منهم على أن يرفع يده عليه . فأخرج الضابط المسئول خمسا وعشرين قطعة من الذهب وقال هذا الذهب لمن يجرؤ على قطع رأس هذا الشيخ . فتجاسر أحد الجند وضرب عنق الأنبا بطرس بالسيف فقطع رأسه ، ثم تركوه ملقى حيث هو ومضوا فلم يلبث أن انتشر في المدينة خبر استشهاد البابا الجليل فتجمع المؤمنون باكين ورفعوا الجسد وأخذوه إلى الكنيسة المرقسية حيث البسوه ثياب القديس وأجلسوه على كرسي القديس مرقس الذى لم يجلس عليه قط في حياته تواضعا منه .

وكان دمه آخر دم يسفك ولهذا السبب لقبته الكنيسة بخاتم الشهداء .

وقد جلس على السدة المرقسية كما تقول جداول الكنيسة عشر سنوات وأحد عشر شهرا باعتباره تولى عام ٢٨٥ واستشهد عام ٢٩٥ ولكن لا بد أن تكون مدة بابويته أطول من ذلك بالنظر إلى ما قدمنا من أنه مات في المحنة التى لم تبدأ إلا عام ٣٠٣ .

الأنبا ارشيلالوس :

ولقد اختار الشعب والاكليروس بعد استشهاد بطرس الأنبا ارشيلالوس خليفة له . وكان ارشيلالوس كسلفه كاهنا فمديرا لمدرسة الاسكندرية ، اشتهر بقداسته وعلمه الفزير ومعرفته بالعلوم المتعلقة بما وراء المادة ، الا أنه لم يجلس على السدة المرقسية غير ستة شهور ثم توفاه الله بعدها .

الأنبا الكسنديوس :

اختار الشعب والاكليروس للخلافة المرقسية قسيسا متقدما في السن وهو الكسنديوس .

وفي عهده بدأ الصراع العقائدى بين أريوس والكنيسة الارثوذكسية يأخذ مظهره العنيف الذى شطر المسيحيين والمفكرين في القرن الرابع مما كاد أن يهدد المسيحية لولا أنها كانت قد ثبتت أقدامها نهائيا واعتبرت دين الدولة الرسمي .

٣٠٥ م - تنازل دقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش :

تنازل دقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش في احتفالين مهيبين أقيما في

نقوميديا وميلان وأصبح جاليريوس وقسطنطينوس بعد هذا التنازل امبراطورين الأول في الشرق والثاني في الغرب .

وهكذا طويت صفحة دقلديانوس بهذا الأسلوب الذي لم يسبقه أو يلحقه مثيل من نوعه - فلم يكن سنه قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولم يفكر أحد في خلعه واعتزل بارادته في قصره الكبير وضياعه الشاسعة في سبالاتا حيث عاش ثمانية أعوام أخرى من عمره متفرغا لمرعته . . وقد قدر له أن يشهد اخفاق حملة اضطهاده المسيحية وانهايار الحكومة الرباعية التي أنشأها خلال الحرب الأهلية التي أعقبت تنازله ، وقد ألح عليه مكسيميان أن يستولى على السلطة من جديد ويقضى على الشقاق والحروب ، فرد عليه ردا غريبا حفظه لنا التاريخ اذ قال له : لو أنك رأيت الكرب الجيد الذي أصبحت أزرعه في مزرعتي لما طلبت منى أن أضحي بهذه المتعة جريا وراء السلطة » .

ذلك هو دقلديانوس الذي يقف أمامه التاريخ حائرا فحيث يلعنه المسيحيون وتعتبره الكنيسة عدو المسيح أو صورة من صور الشيطان ، ويقولون عنه بأنه عمى في أخريات حياته ، وأن امرأة مسيحية راحت ترعاه تطبيقا لقول الانجيل « أحبوا اعداءكم » فان معاصريه من غير المسيحيين يلقبونه « أب العصر الذهبي » والمؤرخون المحدثين يعتبرونه أحد شوامخ الامبراطورية الرومانية .

الامبراطوران جاليريوس وقسطنطينوس :

ويتنازل دقلديانوس ومكسيميانوس عن العرش أصبح جاليريوس وقسطنطينوس امبراطورين .

٣٠٦ م - هرب قسطنطين ابن قسطنطينوس من زوجته هيلانة المسيحية ، من قبضة جاليريوس الذي يستبقه عنده كرهينة ، ولحق بابيه في بريطانيا ، فلما أن مات والده نادى به الجند امبراطورا ، في الوقت الذي نادى فيه الحرس الامبراطوري في روما بمن يسمى مكسينوس امبراطورا .

ومن الصعب أن نستعرض تفاصيل المعارك التي دارت في هذه الفترة حول مختلف الاباطرة الذين نادتهم بهم جنودهم ، وفرقهم ، والذين بلغ عددهم في بعض السنوات ستة من الاباطرة الذين كان يلقب كل واحد منهم بأغسطس .

وحسبنا أن نذكر قسطنطين والذي لن يلبث أن يلقب بالأكبر ، والذي سيعتبره المسيحيون بعد قليل قديسا لأنه لم يرفع الاضطهاد عن المسيحية فحسب ، بل أصبح حاميا وراعيا . ثم اعتنقها رسميا .

استطاع قسطنطين أن يشق طريقه وأن يتغلب على منافسيه في الملك واحدا بعد آخر بالتعاون مع ليشينوس الذي كان قد أصبح امبراطورا في الشرق بعد وفاة جاليريوس .

وكان الوالي الروماني الذي يحكم مصر هو ساتريوس اريانوس :

اعتناق قسطنطين المسيحية :

٣١٢ م - أما الحادث الذي أدى إلى اعتناق قسطنطين المسيحية ، أو بالأحرى انحيازه إلى جانبها ، فقد رواه لنا قسطنطين بنفسه على ما سجله في تاريخه يوسابيوس . وهو أنه أبان حربه ضد ماكسيثيوس الامبراطور الذي نادى به الحرس الامبراطوري في روما وصل في زحفه على أبواب روما في ٢٨ أكتوبر عام ٣١٢ ولم يعد يفصله عنها سوى جسر ملنيا على نهر التيبر فرأى في السماء قبل المعركة صليبا من النور كتب عليه عبارة « انتصر بهذه العلامة » .

فأصدر امره لجنوده أن يرسموا الصليب على اذرعتهم وأن يجعلوه شعارا لهم . وانتصر قسطنطين وهزم خصمه وقتله ودخل روما وحجته المدينة وأصبح سيد القسم الغربي بلا منازع .

٣١٣ م - رأى قسطنطين أن يوفى لاله المسيحيين الذي نصره فأصدر « مرسوم ميلان » الذي رد للمسيحيين أملاكهم التي صودرت ، وأعلن التسامح الديني مع كل الأديان .

وبهذا انتهت فترة العذاب والاضطهاد الذي حاق بالمسيحيين طوال عشر سنوات حيث قد أعلن دقلديانوس مرسومه الأول بالاضطهاد عام ٢٠٣ م .

٣١٨ م - بدء حركة أريوس :

في هذا العام تقدم كاهن مصرى إلى الأنبا الاكسندروس بآراء عن المسيح اعتبرت غريبة جدا في ذلك الوقت ويصف مؤرخ كاثوليكي أريوس بقوله : « كان آيوس طويل القامة ، نحيل الجسد ، مكتئب المظهر ، ذا منظر تبدو فيه آثار خشونة العيش ، وكان معروفا بأنه من الزهاد ، كما يستدل على ذلك من ملبسه - وهو جلباب قصير من غير كمين تحت ملحفة يستخدمها عبادة . وكانت طريقته في الحديث ظريفة وخطبه مقنعة ، وكانت العذارى اللاتى تملدن أنفسهن للدين ، وهن كثيرات في الاسكندرية يبجلنه أعظم التبجيل ، وكان له من بين رجال الدين عدد كبير من المؤيدين (دورانت جرد ٣ مجلد ٣ ص ٣٩٢) .

أما تعاليم أريوس فتقوم على أن الأب أقدم من الابن لأن الأب خلق الابن من العدم ، فلا يمكن أن يكون الابن مساويا للأب في الجوهر لأنه أدنى منه في الطبيعة والمنزلة ويمضى أريوس في بيان عقيدته فيقول : « أنه يؤمن بالله واحد متعال يفوق حد التصور منظر على نفسه ، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شيء له نهاية ، وهو فريد لا شبيه له أزلى لا بداية له - لا يموت - صالح وهو وحده سبحانه منفرد بهذه الصفات . والأب قد خلق الابن خلقا ، فالابن إذن غير أزلى وهو مخلوق مثل باقى المخلوقات ولا يمتاز عنها إلا بكونه خلق قبلها ، وهو ليس مساويا للأب في

الجورس ، بل بالعكس تتغير طبيعته مثل أى مخلوق ، وهو كائى مخلوق أيضا قادر على عمل الخير والشر ، وهو معرض للخطأ ولا يستطيع أن يحيط بكل شيء .

وعندما جاء ملء الزمان اتخذ ابن الله صورة انسان وعلم الحقيقة وهو بهذا الوصف لا يستحق أن يعبد بل ان يحترم ويعترف بجميله (١) .

وغنى عن البيان أن هذه الآراء التى تقدم بها كاهن مسيحى قد صدمت الأنبا الكسندروس صدمة عنيفة ، ذلك أنها تهدم الكنيسة المسيحية من أساسها ، فالكنيسة المسيحية تقوم أول ما تقوم على تأليه المسيح ، وعلى القول بأن الله ذات مثلث الاقائيم تتمثل فى الأب والابن وروح القدس ، وهو التثليث الضارب الجذور فى ارض مصر على شتى الصور والأشكال ، وكان أشهرها وأعمها ثالوث أوزوريس وإيزيس وحوريس والذى انتشر فى حوض البحر الأبيض كله فى صورة ثالوث سيرايس وإيزيس وحوريس .

فالقول بعدم الهوية المسيح هو هدم لهذه العقيدة الراسخة الثابتة من أن الألوهية تتعدد شخوصها وأقائيمها .

غير أن مدينة الاسكندرية وقد كانت مركز الفلسفة اليونانية ، ومستقر الثقافة والفكر العالميين ، فقد رحبت بآراء أريوس ، فسرت فيها بكل سرعة ، حتى لقد أخذت شكل الأغاني والأناشيد التى كان يترنم بها اتباع أريوس .

ولم يقف سريان المبادئ الأريوسية على عامة الشعب والمثقفين ، بل تعدتهم الى رجال الدين أنفسهم ، ولذلك فقد دعا الأنبا الكسندروس مجلسا من الأساقفة المصريين حكموا بتجريد أريوس من منصب الكهنوت ، فكان هذا الاضطهاد للفكرة وقودا جديدا لانتشارها وازدياد العطف على أريوس والتحمس لمبادئه . . وهكذا بدأ هذا الصراع العقائدى ، الذى لن يلبث أن يخفى فى طياته صراعا سياسيا ، ليطلع القرنين الرابع والخامس الميلاديين

٣٢٢ م - وكان الوالى الرومانى الذى يحكم مصر فى هذه السنة هو سابينيانوس .

باخوم يؤسس البيرية الجماعية :

وفى هذه السنة بدأ الأنبا باخوم حياة الأديرة الجماعية على ما يرويه لنا يلاديوس الذى زار مصر .

وقد ولد باخوم عام ٢٩٠ كما ذكرنا من قبل واعتنق المسيحية اثناء وجوده فى الجيش وكان عمره عشرين سنة فلما أن سرح من الجيش اتخذ لنفسه حياة النسك والرهبة ، التى بدأها الأنبا بولا ووسع نطاقها الأنبا أنطونيوس .

(١) تاريخ الاقباط زكى شنودة - لابد أن القارئ المسلم يلحظ مدى ما فى هذه التعاليم من انطباق على نظرة الاسلام للمسيح .

ولكن باخوم خطأ خطوة وراء ذلك وهى تحويل الرهبنة والنسك الى حياة بسيطة منظمة تخضع لارشاد وتوجيه ، وتسير على قواعد محددة ، وأول دير أنشأه باخوم كان بالقرب من دندرة .

٣٢٤ م - قسطنطين يوحد الامبراطورية تحت قيادته :

وفى هذه الاثناء كان قسطنطين قد نجح نهائيا فى توحيد الامبراطورية تحت سلطانه بعد ان هزم لسيثيوس شريكه فى الحكم وامبراطور الشرق .

وكان انتصاره بمثابة نجدة جديدة للمسيحيين ، فقد كان لسيثيوس قد بدأ صواعق غضبه فوق رؤوسهم لمناصرتهم لقسطنطين . واصدر قسطنطين أوامره بامسححيين المنفيين الى اوطانهم وبيوتهم ، ورد كل ما يمكن ان يكون قد أخفى ممتلكاتهم . واعاد لهم كل الحقوق ، والامتيازات الكاملة لاي مواطن روماني .

وعلى الرغم من ان قسطنطين كان لا يزال باعتباره السيد الأعلى للامبراطور والكاهن الأعظم للديانات القديمة يقدر واجبه كملك مسئول عن رعاياه على اختلا عقائدهم ، فقد أعلن أنه من حق أى مواطن ان يعتنق الدين الذى يريد ، وأعلن هو نفسه انه مد اعترق المسيحية ودعا رعاياه لاعتراقها .

وتدور أبحاث طويلة مسهبة حول اعتناق قسطنطين للمسيحية وهل كان ذا عن اقتناع حقيقى او عن سياسة وكياسة ، بعد ان أصبح المسيحيون يؤلفون العنصر الوحيد القوى المتناسك فى الدولة ، وأحسب ان مثل هذه التساؤلات جد عفا فالحقائق الراسخة تسجل انه حول المسيحية من دين مضطهد الى ان يكون الدولة . بل ان العقيدة المسيحية كما يدين بها المسيحيون اليوم ، هو من وضع المد الذى دعا اليه وترأسه .

٣٢٥ م - مجمع نيقية :

اما هذا المجمع الذى دعا اليه قسطنطين وترأسه ليضع دستور الايمان وير به مجمع نيقية ، فان قصته تبدأ عندما رفع كل من أريوس والانبا الكسندروس أمر الخلاف الناشب بينهما حول المسيح الى الامبراطور قسطنطين ليقول كلمته :

وتصور قسطنطين بادىء ذى بدء انه من المسور ان يعالج هذا الموضوع ابدأ له تافها ، لو انه زجر كلا من الطرفين وانبه وطالبه ان يشتغل بما هو واجدى . فبعث برسالة الى كل منهما حيث خاطب كلا منهما باسمه المجرد . و فى خطابه :

منذ آل الى حكم الامبراطورية بأسرها أصبح امامى هدفان : أولهما ان نه

الجميع على معرفة الاله الحق ، وثانيهما ان اضمد الجروح التي سببتها
سقطات وابلوغ هذين الهدفين ، وجب ان يكون السلام حليفي . وهذا ما دفعني
ان اخمد كل اضطراب قام في افريقيا . وكنت اعتمد في جهادي على اساقفة الشرق
التي بزغ منه نور المسيحية . واذا بهذا الشرق يسمى مسرحا للخصام . وبعد انعام
نظر فيما هو قائم من خلاف في الاسكندرية خرجت بنتيجة واحدة هي اني ارى في
انيته با الكسندروس انك خضعت مع كهنتك في موضوع تافه لا ارى له داعيا . واما
ت يا اريوس فقد اذعت ما جال في خاطرك من امور سخيفة كان يجب كتمانها ولم
ت تمت حاجة الى اثاره هذا المسكل امام الجماهير لانها مسائل لا يثيرها الا من
س لديهم عمل يشغلون به انفسهم ولا يرجي منها الا ان تزيد عقول الناس حدة .
ك اعمال خليقة بالاطفال عديمي التجربة لا برجال الدين او العقلاء من الناس .
نت اود او ازور مدينتكما ، ولكني امتنع عن ذلك لمدام الخلاف قائما بينكما ،
عقدنا صلحا يسرنى ويلج فؤادي ويفتح لى ابواب مدينتكما (قصة الكنيسة .

رانت) .

وخاب امل قسطنطين في حسم النزاع بهذه الرسالة فالخلاف كان اعمق غورا
اتصور ، وانسحب في ارجاء الامبراطورية ، وشغل الاذهان ، وبلبل الافكار . فرأى
قطنطين ان يحسم ذلك كله ، فأصدر امره بدعوة مجلس عال من اساقفة
نائس في مدينة نيقية ، فأجتمع ٣١٨ أسقفا بصحبهم حشد كبير من رجال
بين الاقل منهم درجة .

وجاء معظم الاساقفة من الولايات الشرقية ، لان الولايات الغربية تجاهلت هذا
ندل ، واكتفى البابا سلفستر الاول (أسقف روما) بأرسال بعض القساوسة
ثله . وقد أصدر المجمع بعد مداوات ومناقشات ما اعتبر منذ ذلك التاريخ
تور الايمان ، وقد قام بصياغته الانبا الكسندروس بابا الاسكندرية وشماسه
ساعده وصاحب القدح المعلق في هذا المجمع وهو اثناسيوس بعد ان ضم اليهما
فف قيسارية ، وهذا هو نص دستور الايمان :

« بالحقيقة تؤمن بالله واحدا الله الاب ضابط الكل خالق السماء والارض
برى وما لا يرى » .

« تؤمن برب واحد يسوع والمسيح بن الله الوحيد المولود من الاب قبل كل
هور نور من نور ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق مساو للاب في الجوهر ،
ى به كان كل شيء ، هذا الذي من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا نزل من
سماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تانس وصلب وقام من الاموات
اليوم الثالث كما في الكتب ، وصعد الى السموات وجلس عن يمين ابيه وسياتي
سا في مجدد ليدين الاحياء والموتى ، وليس للملكه انقضاء » .

« نعم تؤمن بالروح القدس » .

وقد ذبل هذا الدستور بالحرم الآتى نصه :

« أن جميع الذين يقولون عن الابن أنه جاء عليه حين من الدهر لم يكن موجودا ، أو أنه لم يكن له اثر في الوجود قبل أن يولد ، أو أنه ولد من العدم ، أو أنه من غير جوهر الاب ، أو أنه مخلوق ومعرض للتحول والتبدل فالكنيسة الجامعة الرسولية المقدسة تعلن وقوعهم تحت طائلة الحرم » .

وقد وقع جميع الاساقفة الذين حضروا المجمع هذا الدستور ماعدا ثلاثة رفضوا توقيعهم في بادئ الامر لم يلبثوا أن وقعوا خوفا من غضب الابرطور . وقرر المجمع أيضا أن تحتفل الكنائس كلها بعيد القيامة في يوم واحد يحدده كل عام أسقف الاسكندرية على أساس قاعدة فلكية ويذيعه أسقف روما (١) .

كما بحث المجمع في عدة قضايا أخرى خاصة بموضوع زواج الكهنة ، وقبول المريدين من حفيرة الكنيسة من جديد .

وجاء في أحد قراراته (القانون السادس) لتحفظ السنن القديمة التي في مصر وليبيا وليبيا ونبتايراسي أن أسقف الاسكندرية له الرئاسة عليها كلها . وقد أيد ذلك مجمع القسطنطينية الثاني الذي عقد سنة ٣٦١ .

نفى أريوس وحرق كتبه :

وعقب انفضاض المؤتمر أصدر قسطنطين أمرا بنفى أريوس من الاسكندرية وحرق جميع الكتب التي تضمنت آراءه وعقائده ، والعدم كل من يخفى منها كتابا .

٣٢٦ م وفاة الانبا الكسندروس :

وكانما كان الانبا الكسندروس على موعد مع القدر ليفادر الحياة بعد أن يحقق نصره على أريوس بعد أن أقام على السدة المرفعية اثنين وعشرين عاما وعشرة أشهر . ولكنه لم بدع الكنيسة المصرية بغير راع بعده فقد رشح للخلافة من بعده اناسوس رئيس الشماسة والمتصدى بالجدل العلمى والمنطقى لأريوس .

الانبا اثناسيوس (الرسولى) :

وبتربع الانبا اثناسيوس على كرسي مرقس الرسول كانت الكنيسة المصرية تجد بطلها الأعظم : الذى لقب بالرسولى ، باعتباره أحد حوارى المسيح ، فقد قدر له أن يقف في وجه الإباطرة فبنهزمون وينتصر .

والانبا اثناسيوس قدمته أمه الى الانبا الكسندروس عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ليكرس حياة لخدمة المسيح ففرح به الكسندروس وقربه من نفسه وشجعه

(١) جاء في كتاب المنارة التاريخية أن عيد الفصح الذى يقسمه الاله د ليله تمام القمر الرسولى . قد أصبح يعام يوم الأحد الذى يتلو تمام هذا القمر .

على اغتراف العلم على فطاحل علماء الاسكندرية ، فتعلم القواعد النحوية والمنطق والخطابة والبلاغة ، وشعر هوميروس والفلسفة اليونانية والقانون الرومانى كما عني باستيعاب تعاليم مدرسة عين شمس المصرية القديمة ، والتعاليم التى ألفها أكليمينس وأوريغانوس وتوج ذلك بأن غاص فى بحار الاسفار الالهية ثم ذهب الى الصحراء ، حيث قضى فى صحبه الأنبا أنطونى ما يقرب من ثلاث سنوات تشبع فى اثنائها بكل ما لقنه إياه ذلك القديس من حكمة وقداسة .

وعندما عاد الى الاسكندرية منحه البابا رتبة الشماس . وعندما بدأت تعاليم أريوس تنتشر فى الاسكندرية لم يوافق ذلك هوى اثناسيوس ، أو عقيدته ، فتصدى لدحض هذه التعاليم بكل ما أوتى من ذكاء وعلم وقدرة على الجدل ، وقد كان هو الذى بولى الرد على أريوس فى مجمع نيقيه وقد سجل التاريخ الجدل الذى قام بينهما .

وعندما مات الكسندروس ، كان اثناسيوس يعيش مع أستاذه الروحى الأنبا أنطونى فى الصحراء . فأجمع الشعب فى غيابه على تنصيبه بطريركا ، فذهب مندوبوهم اليه فى عزلته بالصحراء فأقناده الى الاسكندرية وساروا به الى الكنيسة ثم قصية فدخلوها وأغلقتوا الأبواب وقالوا للأساقفة الذين اجتمعوا ، لن تخرجوا من هنا حتى تضعوا عليه السيد ، فأستترك جميع الاساقفة الذين كانوا موجودين فى الاسكندرية وكان عددهم (٥٠) فى تنصيبه بابا للاسكندرية وسط التهليل والتعظيم .

٣٣٠ م - اتخاذ القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية :

أعلن قسطنطين مدينته الجديدة التى انتسهاها على البوسفور وأطلق عليها اسم روما الجديدة . عاصمة للإمبراطورية وكان قد اختار اطلال مدينة بيزنطة القديمة لتكون نواة لمدينته الجديدة ، التى عقد عزمه على جعلها من الضخامة والعظمة بحيث تكتسف بورها كل المدن التى اشتهرت من قبلها . فحشد لها كل الامكانيات والطاقات الفنية لخططها ثم تشييد قصورها ، ومبانيها العامة وتنظيم ساحاتها وطرقاتها ، حتى اذا فرغ من بنائها . ضمم كل ما فى الامبراطورية من علماء وفنانين ، مستشرقين ، بذلك هذا العصر الجديد الذى عرف فى التاريخ باسم العصر البيزنطى والذى سالف من مزيج من حياة وثقافة وعلوم ومعارف وصنائع وتراث مصر والافريق والترقى بصعته عامه مع الرومان واللاتين .

وفد اراد قسطنطين أن يزيى مدينته الجديدة باروع الآثار المصرية ممثلا فى مسلتها فنقل واحدة منها ، ثم جلب مسلة أخرى من هليوبوليس للاسكندرية لينقلها الى العاصمة ايضا ، ولكنه توفى قبل أن يفعل ، فنقلها ابنه فيما بعد الى روما .

كما نقل قسطنطين من مصر مقباس النيل ووضعها باحدى الكنائس كشيء مقدس .

واستحضر الامبراطور من الاسكندرية خمسين نسخة من الانجيل مكتوبة على نرق ، لاستعمال كنائس القسطنطينية .

تلكم هي المدينة التي اطلق عليها فيما بعد اسم مؤسسها فأصبحت تدعى القسطنطينية ، والتي كان مقدرها لها أن تقرب نهاية سقوط روما في يد المتبربرين ، وان تلقى ظلا على مدينة الاسكندرية عاصمه الامبراطورية الرومانية التجارية والاقتصادية .. وان يبدأ الصراع والتنافس بين المدينتين .

٣٣٥ م - مجمع صور :

كان النصر الذي احرزته الكنيسة المصرية في مجمع نيقية مصدر قلق للامبراطور فسطنطين . الذي كانت مسيحيته الجديدة لا تقلل من تشبثه بالسلطان المطلق . ولذلك فلم بكديريوس يقدم له التماسا يعلن فيه التوبة حتى تقبله بقبول حسن ، وبعث الى اثناسيوس يطلب منه اعادة اريوس الى حظيرة الكنيسة ، وكانت مفاجاة الامبراطور فسطنطين عظيمة . عندما رفض اثناسيوس تلبية أمر الامبراطور ، ورد عليه قائلا : أن من بحرمة مجمع مسكوني لا يحله من الحرم الا مجمع مسكوني آخر ، لان من يملك سلطان العقد هو وحده الذي يملك سلطان الحل .

ومارت ثائرة قسطنطين على اثناسيوس وانتهز أعدؤه هذه الفرصة ليدسوا له عند الامبراطور . ويصوروا هذا الخلاف العقائدي على أنه في حقيقته تمرد على السلطة .

واراد قسطنطين ان يحسم الفضية فدعا الى عقد مجمع جديد في صور لمحاكمة اثناسيوس نفسه ، حيث كملت له التهم ليس فقط بالنسبة لموقفه من اريوس والامبراطور ، بل ولاستخدامه القوة في معاملة اتباع الاساقفة الذين يخالفونه في رأي . وفرضه الضرائب التي هي من حق الامبراطور وحده . بل وندخله في تعطيل 'بحر القمح المصري الذي كان يرسل الى القسطنطينية كل عام .

ووصلت التهم الى حد القول انه كان ينتوى تزعم ثورة ضد الامبراطور في مصر سودها شخص يدعى فيلدمنيوس ، وان كانت قد قضى عليها في المهد .

وبناء على هذه الاتهامات (التي يعتبرها تاريخ الكنيسة المصرية ملفقة كلها) قرر مجمع صور عزل اثناسيوس من منصبه ، وأصدر الامبراطور بناء على ذلك أمره بنفي اثناسيوس من مصر ، ليقوم في بلاد الغال (فرنسا) .

٣٣٦ م - وفاة اريوس :

واذ خلا الجو بعزل اثناسيوس ونفيه ، فقد طلب الامبراطور من اسقف القسطنطينية ان يقبل اريوس من جديد في العشاء الرباني .

ويقول لنا سقراط المؤرخ الكنسي :

كان ذلك يوم السبت . وكان اريوس يوقع ان يجتمع في اليوم الذي يليه . ولكن القصاص لالهي عاجله فأحبط عمله الاجرامى الجريء . وذلك انه عندما خرج من القصر واقترب من العمود السماقى المقام فى سوق القسطنطينية . تملكه الرعب واصيب بإسهال شديد خرجت فيه أمعاؤه من بطنه وأعقمه نزيف حاد ونزل امعاؤه الدقاق، ومما زاد الطين بلة : ان ضحاله وكبده انفصلا من حده النزيف ومات لساعته .

وغنى عن البيان ان فى هذا التصوير كثيرا من المبالغة والخلط . ولكن الذى لا جدال فيه ان مصادفة موته عشية اليوم الذى كان سيشهد انتصاره قد هز خصومه واتباعه على السواء ، فأعتبره الاولون آية ربانية على زيفه وضلاله . . وتوقف الآخرون ليسألوا انفسهم عن تفسير هذه المصادفة الكئيبة .

ولكن هذا الحادث فيما يبدو لم يغير من عقيدة فسطنطين . ذلك انه عندما اراد ان يعمد فى العام البالى لوفاة اريوس . تلقى مراسيم الهماد على يد واحد من اتباع اريوس وهو يوسبيوس اسقف نوهوميدا .

٣٣٧ م - وفاة فسطنطين :

وأخيرا مات فسطنطين بعد ان احتفل بمرور ثلاثين عاما على حكمه . ولما عتبه مزى الموت استدعى الاسقف يوسبيوس ليجرى له مراسيم التعميد الفدى رحله ان يظهره مما كان يضغط على ضميره من احساس بالاثم والخطيئة . وهذا الملك العظيم الذى امد الدولة الرومانية بحياة جديدة من خلال اعتناق المسيحية . قدر له فى اخريات حياته ان نقل ابنه كرسيس الذى رزقه من زوجته الاولى . تحت تأثير زوجته الثانية « فادسنا » التى انهمت كرسيس بأنه راردها عن نفسها . ولم يلبث قسطنطين بعد قتل ولده ان اكتشف براءته وكذب فادسنا التى ضطت متورطة فى علاقات آثمة ، فقتلها فسطنطين بدورها .

كما سجل له التاريخ اعدام الكثيرين لغير علة مفهومة . وينسب له المؤرخون انه كان اول من قسم الامبراطورية بين اولاده ضاربا بذلك اكبر معول فى هدم وحدتها .

ولكن الحقيقة المؤكدة ان قسطنطين قد وهب الامبراطورية الهرمة مائة وخمسين عاما جديدة ، وربط بينها وبين دين فتى ونظام قوى ومبادئ اخلاقية جديدة . وقد اعتبرته الكنيسة الغربية اعظم الاباطرة على الاطلاق ، ولكن الكنيسة المصرية لا تخفى امتعاضها من السنوات لآخرة من حكمه . حبت جنح الى ممالة الاربوسية ضد العقيدة الارنودكية كما يقررها دستور الايمان الذى وضعته الاسكندرية فى مجمع نقية ، وحسبه انه نفى اثناسيوس بطل الاسكندرية .

حكم أبناء قسطنطين :

كان لقسطنطين أبناء ثلاثة : وهم قسطنطين الثانى ، وقسطنطيوس ، وقسطانز فحمل كل منهم لقب اغسطس باعتباره امبراطورا ، ونولى الاول حكم ايطاليا وغال ، وتولى الثانى (قسطنطيوس) حكم الشرق ، بينما اختص قسطنانز بالريا وجزء من افريقيا .

عودة اثناسيوس الى الاسكندرية :

كان اول عمل من اعمال السلطة التى باشرها قسطنطين الثانى الذى تولى حكم روما وغال . ان اعاد اثناسيوس الى الاسكندرية معززا مكرما ، ذلك ان قسطنطين الثانى كان على خلاف ابيه يدين بمذهب اثناسيوس . .

وانسحابات الاسكندرية بطلها العائد استقبال الفزاة الفاتحين ، وكان ممن وفدوا على الاسكندرية لاستقباله رهبان الصحارى كلهم يتقدمهم القديس انطونى ابو الرهبانية .

ولكن اسباع اريوس الذين كان بظاهرهم قسطنطيوس امبراطور الشرق اذ كان يدين بالاروسية : لم يعترفوا بهزبتهم . ووقفوا يترصدون لاناسيوس ويكيدون له ويدبرون .

٣٢٢٨ م - كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو انطونيوس تبودوروس

٣٢٤٠ م - نشبت الحرب بين أبناء قسطنطين . فقتل قسطنطين الثانى ، فانتزع قسطنطيوس هذه الفرصة . لكى يتخلص من اثناسيوس بطريرك الاسكندرية الذى كان قد بلغ من النفوذ والسلطان الحد الذى اصبح الامبراطور يراه خطرا عليه ، فعقد مجمعا فى انطاكية اجتمع فيه تسعون اسقفا . وجهوا اللوم الى اثناسيوس واتخبوا للاسكندرية بطريركا جديدا وهو غريغوريوس البكادوكى ، وقرر المجمع فوق ذلك العاء ما جاء فى دسبور الايمان الذى نقرر فى مجمع نقيه ، من أن المسيح « اله من اله . جوهر واحد مع الاب » الى النص بانه : بكر المخلوقات وصورة جوهر الاب . وفد رفض المصريون هذا التغير ، واعتبروه كفرا وخروجاً على الدين .

ولكن ذلك لم ننن الامبراطور عن المضى فيما عقد العزم عليه فوجه البطريرك الجديد الى الاسكندرية مع قوة من الجيش مزودة بأوامر للقبض على اثناسيوس . ولكن اثناسيوس استطاع أن لا يقع فى قبضة الجند ، وقصده الى روما ملتجئاً الى اسقفها .

وتعتبر حياة اثناسيوس فى روما فترة من اخصب الفترات فى حياته ، اذ انه وضع كتابا عن حياة استاذة « انطونيوس » « حياة القديس انطونيوس » وقد كان هذا الكتاب الذى ترجم الى اللاتينية ، هو الذى نشر الرهبنة فى أوروبا .

أما في مصر فقد تحدى حزبه القوى غريغوريوس الذى فرض على مصر بدلا من انناسيوس ، وقد بلغ من ثورة هذا الحزب أنه حرق الكنيسة المرقسية بالاسكندرية حتى يحول بين الاسقف الاريوسى وبين مزاوله عمله . وراح يطرد الاريوسيين ويتعقبهم في كل كنائس مصر وأديرتها .

٣٤٦ م - موت الانبا باخوم :

مات الانبا باخوم في هذا العام . وتقف دائرة المعارف البريطانية موقف المتردد في الجزم بان وفاته كانت في هذه السنة . ويصف البعض الانبا باخوم بأنه كان أميا وذلك لعدم معرفته اللغة اليونانية . والحقيقة أنه كان مصريا صميما فلم يكن يعرف غير اللغة المصرية . وكان الانبا باخوم هو منظم الرهبنة الجماعية وحياة الاديرة ، وأول من وضع لها قوانين لا يزال معمولاً بها حتى الآن . وكانت هي الاساس الذى قامت عليه الحياة الديرية في أربابا . والقول على أن نعلم الرهبنة التى وضعها القديس بندكت مقدسة بطريق مباشر من انظمة الانبا باخوم ، ذلك أن راهبا مصريا وهو دوثسيوس الصغير قد ترجم سيرة باخوم وقوانينه الى اللغة اللاتينية فكانت هى الوحي والالهام لكل الاديرة البندكية . بل والفرانسكية والدومينكانية الى تأسست في عصر متأخر في القرن الثالث عشر .

وبدأ قوانين باخوم بتحديد الشروط التى يجب توافرها لقبول طالب الرهبنة اذ يجب عليه أن يتب في الدرجة الاولى أنه غير هارب من العدالة او المسئولية ، ويجب عليه بعد ذلك قضاء ثلاث سنوات تحت التمرين ، يتعلم في خلالها القراءة والكتابة أن كان يجهلها . فان اتمت خلال هذه الفترة اهليته للترهب ، قبل في الرهبنة . كما تحدد هذه القوانين كل ما ينصل بملابس الراهب وطعامه وساعات نومه والعمل البدوى الذى يتعين عليه أن يقوم به ، والتعلم والعبادة وأخيرا العقوبات والجزاءات التى تحل به عند ارتكابه المخالفات .

والقاعدة الاساسية التى قام عليها النظام كله هى ذات القاعدة العسكرية وهى الطاعة التامة لمن هم أكبر وأقدم .

ولقد استطاع الرهبان في مصر في ظل هذه الانظمة أن يقوموا بعمل كبير ، فكانوا هم الذين تولوا ترجمة العهد القديم والجديد من اليونانية الى اللغة المصرية (القبطية) مما سببكن الكنيسة المصرية من الاستقلال بعد حين عن الكنيسة البيزنطية ، ليس فقط في عقيدتها ، بل في لغتها .

وقد بلغ عدد الرهبان عند وفاة الانبا باخوم خمسة آلاف راهب موزعين على تسعة اديرة للرجال ودير للنساء .

٣٤٦ م - عودة اناسيوس الى كرسى البطريركية :

وفى هذه السنة أبغض مات البطريرك الملكى غرينوروس ، وبذلك خلا كرسى البطريركية ، ورأى الامبراطور فسطنطيوس انه من الحكمة ومن مصلحة الدولة أن يعيد اناسيوس الى كرسه بعد ان ائتمرت عليه ان لا يتعرض للاربوسيين .

٣٥٠ م - قتل فسطانز بنى أبناء فسطنطين على يد أحد المتطعين الى العرش .

٣٤٣ م - استطاع فسطنطيوس ان يقضى على قاتل أخيه ويصبح بذلك لأول مرة بعد وفاة أبيه هو الحاكم الفرد للامبراطورية الرومانية التى نوحذب فى ظلله من جديد .

٣٥٤ م - كان الحاكم الرومانى على مصر هو لونجينيانوس .

٣٥٦ م - اختفاء اناسيوس : ضاق الامبراطور فسطنطيوس ذرعا من جديد باناسيوس الذى كان لا يستجيب لمطالبه ولا يؤدى رغباته ، فبعث اليه بقوة عسكرية للقبض عليه ، ولكن الانبا اناسيوس تمكن من الاختفاء فى الاسكندرية وسط رعاياه ، وفشل كل المحاولات التى بدأت للعثور عليه حيث تفانى المخلصون فى حمايته .

٣٥٦ م - وفاة الانبا انطوني :

وفى هذه السنة ، والبعض يجعلها السنة السابقة عليها ، مات الانبا انطوني متجاوزا المائة عام . والاجماع على أن الانبا انطونيوس هو مؤسس نظام الرهبانية فى العالم ، فقد كانت الرسالة التى كتبها عنه اناسيوس ابان مدة نفيه فى مدينة « نورين » حياة القديس « انطونيوس » هى التى بذرت تعاليم الرهبانية فى اوروبا .

وفد كان ينتقل ، مند آلى على نفسه ان يحيا حياة الرهبنة والنسك ، فى أرجاء الصحراء حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر . وقد عرف مكانه المعجبون به ، فحلوا حذوه فى تعبدته ونسكه فبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به ، حتى امتلأت الصحراء ، قبل موته باتباعه الروحانيين .

وقد غادر الصحراء أكثر من مرة وقصد الى الاسكندرية فى مناسبات مختلفة ، كان أولها عندما حل الاضطهاد والتعذيب بالمسيحيين أيام دقلديانوس ومكسيمانوس . وعلى الرغم من أنه كان يصاحب المسيحيين المحكوم عليهم بالاعدام ويواسيهم ، ويحضر محاكمتهم لينبئ ايمانهم ، فان سيف الجلاد ، لامر ما ، لم يصل اليه .

ولما خفت ريح الاضطهاد عباد من جديد الى الصحراء . ولم يلبث أن عاد الى الاسكندرية من جديد ليساعد تلميذه اناسيوس فى محاربة الاربوسية .

وهكذا عاش ٨٥ سنة من حياته ما بين ترهب ونسك وجهاد .

ولم يضع الانبا انطونيوس نظاما للدبره والرهبابه الجماعيه فتد كابر هذا هو عمل الانبا باخوم كما قدمنا. ولكن الانبا انطوني هو واضع نظام الرهبنة بصفه عامه . وهو لم يطالب الراهب الا بالصلاة والسكف والعمل اليدوى . وقد حدد الساعات التى تقام فيها الصلوات والاسفار الى برتل فيها . وفصد بالنقشف العفاد النام . أما العمل اليدوى فهو عبده ضروره لار الناسك لا يلين به ان يكون متعطلا ولا ان يعيش عالة على غيره بل يجب أن يعيش من عمل يديه ويعرف جبينه .

وفد وضع زيا خاصا بالنسبك منخذ اياه من زى كهنة الفراعنه . فكان يلبس توبا من الكتان الأبيض وهو الزى الذى انتشر بين رهبان العالم .

ويعال ان المنيه عندما ادركته اسندعى بلميزدين من بين خاصه اخصانه . واحدهما هو الانبا مكارى (مقار) الذى سيصبح خليفه له . وطلب منهما أن يحفرا له قبراً يحفانه عن الناس جميعا . نجنيا لتلك العادة المحلفه عن الوثنية وهى ريادة القبور (١) .

ولكن امنية الانبا انطوني لم تنحقق فعلى مقربة من البحر الاحمر يقوم دير الانبا انطونيوس فى ايامنا هذه على نفس البقعة التى مات فيها .

حياة الرهبنة :

ولم يمت الانبا انطوني الا وكانت هذه الروح العجيبة من الزهد والنسك فد عمت ارجاء مصر ، بحيث أصبحت نظاما كاملا بعد ان نظمها الانبا باخوم كما اشرنا من قبل ، وتحولت مدن بأكملها فى الصحارى الى مناطق الزهد والرهبة .

ونشأت بين الناس منافسة قوية فى بطولة النسك فكان مكارىوس الاسكندري لا يكاد يسمع عن عمل من أعمال الزهد الا وحاول ان يأتى بأعظم منه ، فاذا امتنع غيره من الرهبان عن اكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير ، امتنع هو عن اكله سبع سنين ، واذا عاقب احدهم بالامتناع عن النوم شوهه مكارىوس وهو يبذل جهد المستميت لى يظل متيقظا عشرين ليلة متتابعة . وحدث مرة فى صوم كبير ان ظل واقفا طوال هذا الصوم ليلا ونهارا لا يدوق الطعام الا مرة واحدة فى الاسبوع ، ولم يكن طعامه اكثر من بعض اوراق الكرنب ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى اخص بها وهى صناعة النسلال .

وكان الراهب سيرايون يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجروء على النزول اليها الا عدد قليل من الحجاج . ولما بلغ جيروم (القديس الغربى) وبولا الى صومعته هذه وجدا رجلا لا يكاد يزيد جسمه عن بضعة عظام وليس عليه الا خرقه تستر حقويه

(١) عجيب هذا التقابل بين المؤمنين من مختلف الاديان ، فان كراهية الانبا انطوني لزيارة القبور ومبادة الاموات هى التى تجدها بين كثير من علماء المسلمين والمتهم .

ويغطي الشعر وجهه وكتفيه ، وكان فراشه لوح خشب وبعض أوراق الشجر ، وقد كان سيرايمون هذا أحد اشراف روما .

وكان من الرهبان من تخصصوا في الصمت ، وظلوا عددا من السنين لا تنفرج شفاههم عن كلمة ، وغيرهم الزموا انفسهم بأنواع من الجهد والمشقة لا تخطر على بال .

فلا عجب أن جاء الحجاج من جميع أنحاء العالم المسيحي ليشاهدوا رهبان الشرق في الفترة التالية ، فأحدهم المسمى رونيوس القادم من مدينة تريستا يقول لنا انه تحشم السفر للصعيد مع بعض رفقائه وشاهد مدينة أوكريونيوس وفيها اثنتا عشرة كنيسة وعشرة آلاف راهب وعشرون ألف راهبة ومنهم يكون العالم باللغات اليونانية .

وتطابت الاقاويل والاقاصيص عما يأتي به هؤلاء الرهبان من أعمال وعجائب فيطردون الشياطين باللمس ، ويروضون الافاعي بنظرة ويعبرون النيل على ظهور التماسيح . ويقول القديس جيروم واضفا احوال الرهبان في مصر أن الكثيرين منهم كانوا يحتقرون العلوم الدينية ويرونها غرورا وباطلا ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الايمان ، وقد أبت العذراء سليليان أن تفصل أى جزء من جسدها عدا أصابعها ، وكان في أحد الاديرة النسائية ١٣٠ راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تفصل قدميها . ولكن الرهبان أنسوا الى الماء حوالى أواخر القرن الرابع فسخر الاب اسكندر من هذا الانحطاط . وأخذ يحن الى هذه الايام التي لم يكن فيها الرهبان يفسلون وجوههم .

ولا عجب اذا كان هذا هو التيار الذي بدأ يغمر التفكير المسيحي ، أن بدأت ربح العلم تخفت في مصر ، وان ظلت المراكز الوثنية تواصل علومها ودراساتها القديمة من فلسفة وعلوم وآداب .

ومن مصر سرت هذه الروح الى سوريا ، فأصبحت صحراؤها بدورها تنص بالنسلك الذين يشد بعضهم نفسه بالسلاسل . ووصل الامر بواحد من النسك يدعى سمعان العامودي أن يبني لنفسه عمودا ارتفاعه ستين قدما ومحيطه فيما لا يتجاوز ثلاثة أقدام وعاش فوقه ثلاثين سنة .

٣٥٧ م — كان الحاكم الروماني على مصر برناسيوس وقد تجلى عجزه المطلق في فشله في العثور على اثناسيوس الذي كلن وهو في مخبئه لا يكف عن محاربة التوحيد الاريوسي ، الذي أوشك في هذه الفترة أن يتغلب على التثليث .

وقد ساد الاسكندرية في هذه الفترة حكم الحديد النار ، وفرض الاريوسيون على السدة المرقسية اسقفا من كيدوكيا اسمه جورج (جرجس) ولكن أهل الاسكندرية قبلوه باحتقار وقاطعوه رافضين أن يدخلوا كنيسة يكون هو فيها . فرد على موقفهم باتباع سياسة العنف والشدّة مستعينا بالسلطات العسكرية فنفى ١٦ أسقفا ، وفر من وجهه ثلاثون آخرون ، وبدأ فترة من الارهاب الحاد دامت ثمانية عشر شهرا .

وفي عيد العنصرة انفتحت كلمة المسيحيين في الاسكندرية على ان يصلوا في الخلاء حتى لا يذهبوا الى الكنيسة . فاذا بقوة من الجبش مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي تحيط بهم وراحت تعمل فيهم السيوف باندفاع جنوني . لم يتوقف الا بعد ان سئمت نفوس الجند من رؤية الدم المتفجر والجثث والاسلاء .

ولم يكن ذلك الا نموذجا لما حاق بالمسبحين على يد اخوانهم المسيحيين ، مما يتضلع الى جواره كل ما اوقعه الوثنيون من اضطهاد بالمسيحيين .

واد كلن هذا مدى التصميم لدى السلطات على استئصال شافة كل من لا يدين بالاريسوية . فلا عجب اذا راينا ان اساففة الكنيسة العربية والترقية (تقريبا) يعلنون واحدا اثر الآخر انصياعهم لنقابلد اريوس . بحيث بدا على الافق كما لو كانت تعاليم اريوس الداعية الى الوحيد قد انتصرت في خامة المظاف . وان لم يبق يدين بالنسليث سوى اناسيوس المخنفي . واتبعه من ابناء مصر الذين كانت فكرة التشليث عميقة الجذور بينهم .

٣٥٧ م - كان الحاكم الروماني في شهر يوليو من هذه السنة هو بومونيوس مترودوراس .

٣٦٠ م - كان الحاكم الروماني ارتيميوس .

٣٦١ م - موت الامبراطور قسطنطيوس .

في نوفمبر من هذه السنة مات الامبراطور قسطنطيوس ، فحال موته دون وقوع حرب اهلية بينه وبين ابن عمه جوليانوس الذي كان قسطنطيوس قد عينه قيصرا على القسم الغربي من الامبراطورية ، فنادى به جنود الفلال امبراطورا ، فكان وقوع الاصطدام محققا بين الرجلين لولا ان عاجل الموت قسطنطيوس . وقد مات قسطنطيوس في سن الخامسة والاربعين بعد ان حكم اربعة وعشرين عاما .

الامبراطور جوليانوس الوثني المرتد :

أعلن جوليانوس بمجرد ارتقائه العرش ارتداداه عن المسيحية وعودته الى عبادة الالهة التقليدية ، فكان ذلك بمثابة آخر خفقة في السراج للوثنيين كدين مسيطر في الامبراطورية ولم يكن هذا الارتداد يمثل صراعا عقائديا ، بقدر ما كان يمثل صراعا سياسيا بين القسم الغربي للامبراطورية والقسم الشرقي ، فقد كان القسم الشرقي من الامبراطورية قد اصبح بفضل قسطنطين واولاده مسيحيا ، بينما ظلت الوثنية منتشرة في ارجاء ايطاليا وفرنسا ، فلا عجب اذ جنح جوليانوس نحو الوثنية استرضاء للعناصر التي تدعم سلطانه .

والمؤرخون الحديثون يعنون عناية فائقة بجوليانوس ويسهبون بالحديث عنه باعتباره آخر ظل لروما الوثنية القديمة .

ويقولون عنه أنه كان يحتفظ ببساطة الفيلسوف وسط ترف البلاط وكان يعيش عيشة الرهبان ، ويلبس كما يلبسون ، ويناام على القش في حجرة غير مدفأة ، بل ولا يسمح بتدفئة أى حجرة في قصره « حتى يعتاد البرد » .

وقد أكبر الشعب في بادئ الأمر فضائله وزهده وانهماكه في العمل ، وكانوا يشبهونه بتراجان في حسن قيادته العسكرية وبأنطونيوس بيوس في تقواه وصلاحه وبماركوس أورليوس في الجمع بين الملك والفلسفة .

وقد حدث مرة أن اعتدى من غير قصد على أحد الامتيازات الخاصة بمجلس الشيوخ فما كان منه إلا أن حكم على نفسه بفرامة قدرها بشرة أرطال من الذهب وأعلن أنه يخضع كما يخضع كل المواطنين لجميع قوانين الامبراطورية وتقاليدها .

وفد ملك عليه حب الفلسفة كل تفكيره ، وكان مولعا بالكتب ، وكتب في ذلك يقول : من الناس من هو مولع بالخيال ومنهم من هو مولع بالطير أو الوحوش البرية أما أنا فقد كنت منذ نعومة أظفاري مولعا بالشد اللولع باقتناء الكتب .

وقد كتب مقالا يوضح به أسباب ارتداده عن المسيحية بعنوان « ضد أهل الجليل » وقد ظلت هذه الرسائل وعديد غيرها من كتاباته موضع اهتمام المشايخ والمفكرين لاجيال حتى اضطر أحد بابوات اسكندرية أن يرد عليها بعد أكثر من نصف قرن ليقلل من اثرها في نفوس القارئ .

وكان مما جاء في هذه الرسالة : أن الاناجيل يناقض بعضها بعضا ، وأن أهم ما تتفق فيه هو أنها أبعد ما تكون عن العقل ، فأنجيل يوحنا يختلف كل الاختلاف عن الاناجيل الثلاثة الأخرى (١) في روايتها وفيها تحويه من أصول الدين ، وقصة الخلق التي جاءت في سفر التكوين تفترض تعدد الآلهة « فإذا لم تكن كل قصة من هذه القصص الواردة في سفر التكوين ، أسطورة لا أكثر وإذا لم يكن لها كما اعتقد بحق ، تفسير يخفى على الناس ، فهي مليئة بالتجديف في حق الله ، ذلك أنها تمثله أول ما تمثله جاهلا بأن (حواء) التي خلقها لتكون عوناً لأدم ستكون سبب سقوطه ، ثم تمثله ثانيا لها حقوقا حسداً إلى أقصى حدود الحق والحسد ، وذلك بما تعزوه إليه من أنه أبى على الإنسان أن يعرف الخير والشر ، وأنه يخشى أن يصبح الإنسان مخلداً إذا طعم من شجرة الحياة ويخص جوليانوس في رسالته فيقول موجهاً القول للمسيحيين :

ولم يكون الحكم غيورا حسودا إلى هذا الحد فيأخذ الإبناء بذنوب الآباء ، ولماذا يغضب الآله العظيم هذا الغضب الشديد على الشياطين والملائكة والادمين ؟
الا توازنوا بين سلوكه وسلوك ليكرغ نفسه والرومان أزاء من يخرجون على القانون . يضاف إلى هذا أن العهد القديم يقر التضحية الحيوانية ويتطلبها كما

(١) لا تزال هذه القصة تشغل الكثيرين من الباحثين في اللاهوت المسيحي .

نفرها وتطلبها الوثنية . ولم لا يقبلون الشريعة التي انزلها الله على اليهود ؟ يقولون ان الشريعة الاولى كانت مفقودة على زمان ومكان معينين . ولكن في وسعي أن أنقل إليكم من أسفار موسى عشرات الآلاف (١٩) لا العشرات فقط . من الفقرات التي يقول ان الشريعة نزلت ليعمل بها في جميع الأزمان ، دورانت ١١ - ١٢ .

ولقد اطلنا عمدا في الفل ليعلم من تصور ان العصر الحديث يتفرد بجحد الاديان وانفادها . . بحجة ارباء العقل البشري هو قول غير صحيح . فالفضة قدمه قدم الانسان . على أن جوليانوس الذي هاجم المسيحية هذا الهجوم ضد عاش بشهادة الجميع حياة مسيحية لم يكن ينقصها سوى العقيدة . وهو مدبر في حياته الفاضلة وسلوكه غير العادي الى المبادئ والاحلاق المسيحية التي لفتها في طفولته وسبانه المبكر .

حرمان المسيحيين من الامتيازات :

على اننا لا يجب ان نفهم من اربداد جوليانوس عن المسيحية أنه اصدر أمرا باضطهاد اتباعها . . أو طالبهم بالعدول عنها ، كما فعل الإباطرة الذين اضطهدوا المسيحيين من قبل ، كان ذلك في زمن مضى واصبح المسيحيون هم أقوى جماعة متماسكة في الدولة .

ولذلك فان ما فعله جوليانوس لا يخرج عن نطاق ما تتخذه الدول العلمانية من اجراءات فقد منع ما كانت الدولة تقدمه للكنيسة من اعانات ، وحرم المسيحيين من ان يشغلوا كراسي البلاغة والفلسفة والآداب في الجامعات ، ووضع حدا لاعفاء رجال الدين من الضرائب وغيرها ، كما حرم الوصبة بلال للكنائس ، وحرم المناصب الحكومية على المسيحيين وامر الجماعات المسيحية في كل ولاية ان يعوضوا الهياكل الوثنية التي دمرها أو نهوها ، تعويضا كاملا .

أما من حيث ممارسة العبادة ، فقد ترك للمسيحيين حقهم الكامل في ممارستها ، بل وفي الوعظ والتبشير بها . وذهب الى أبعد من ذلك ، فأعاد الاساقفة المتمسكين بديتهم والذين سبق لقسطنطينوس أن نفاهم .

ظهور اثناسيوس :

ولذلك فقد انتهر اثناسيوس هذه الفرصة ، ليظهر من مخبئه ليباشر قيادته الروحية والمادية على أتباعه من اتباع الكنيسة ولكن جوليانوس غضب على هذا التصرف ، حيث لم يستأذنه اثناسيوس فيه ، ولذلك فقد أرسل الى والي مصر بطلب منه ابعاد اثناسيوس عن كرسيه والا حل به العقاب ، فلم يكن امام اثناسيوس الا أن يعاود الاختفاء من وجه السلطة .

٣٦٢ م - كان الحاكم الرومانى على مصر فى ديسمبر من هذه السنة

« اكديسيوس » .

وفى هذه السنة وقعت فتنة سدبدة فى مدينة الاسكندرية قام بها العامة من الوثنيين الذين كانوا يحقدون أشد الحقد على جورج (جرجس) الاسقف الاريوسى الذى اغتصب كرسى اثناسيوس .

وكان قد اثار حفيظتهم بأن نظم موكبا عاما سخر فيه من الطقوس الوثنية ، فانتهز وثنيو الاسكندرية فرصة ارتداد الامبراطور عن المسيحية لكى بصفوا حسابهم مع الاسقف الاريوسى ، فهاجموه وقبضوا عليه ، واذ لم يتحرك جمهرة المسيحيين للدفاع عنه ، فقد قتله المتمردون وفرقوا جسده ، كما هاجموا الكثير من المسيحيين وقتلوا أو جرحوا منهم الكثيرين .

وقد اراد جوليانوس ان يعاقب من احدثوا الشغب ولكن مستشاريه اقنعوه بأن يكتفى بارسال خطاب احتجاج شديد الى اهل الاسكندرية .

٣٦٣ م - وفاة الامبراطور جوليانوس :

قتل الامبراطور جوليانوس ولم يتجاوز عمره الثانية والثلاثين اثناء حربه فى بلاد فارس (وقيل ان الذى قتله كان مسيحيا) وقد اعتبر كثير من المسيحيين أن قاتله كان شهيدا .

الامبراطور جوفيان :

اختار الجيش على الفور بمجرد مصرع جوليانوس قائد الحرس الامبراطورى المدعو جوفيان .

وقد بادر اشر توليه بعقد صلح مع فارس بأن رد اليها اربعا من الولايات الخمس التى انتزعها منها دقلديانوس منذ سبعين سنة .

وكانت توليته اعادة لاعتبار المسيحية الارثوذكسية فقد اعلن تمسكه بالمسيحية على المذهب النيقى ، كما يدعو له اثناسيوس .

عودة اثناسيوس الى كرسية :

ولذلك فقد ظهر اثناسيوس مرة اخرى من مخبئه ، واعلى الكرسى - الرسمى - وسط تهليل الشعب وتمجيده ، والتسبيح بقوة الله القدير الذى اعاد لهم قطبهم الروحى فائزا منصورا .

٢٦٤ م - موت الامبراطور جوفيان :

على ان جوفيان لم يحكم سوى سبعة شهور ، ثم لم يلبث ان توفي في ١٧ فبراير سنة ٣٦٤ .

الامبراطور فالنتيان وابنه فالنس :

وعلى اثر وفاته اختارت القوات المسلحة فلافيوس فالنتيانوس ، وهو كما يصفه التاريخ جندي فظ مقطوع المصلة بالثقافة اليونانية . بذكر بعباسيان . وفد بادر بنعيين اخبسه الاصغر فالنرا امبراطورا على الترق مستبقيا لنفسه امبراطورية الغرب .

الامبراطور فالنس وامناسيوس :

كان الامبراطور فالنس يدين بالمذهب الاربوسى ، ولذلك فلم يكذ يتربع على عرش الشرق . حتى رفع الاربوسيون في الاسكندرية رءوسهم من جديد ، وبدأ التحرش والاضطدام بانناسيوس ، الذى كان في هذه الفترة يتجول في أرجاء مصر كما لو كان أحد ملوكها الفراعنة ، حيث كان يستقبل في كل مكان بالترحاب والتأييد والمجيد ... واذا واصل رحلته في النيل ، فقد كانت جموع الشعب تخرج لاستقباله بالصلبان والنراثيل والاهازيج ... وكان الرهبان والراهبات يتركن الاديرة ، لكى يصطفوا لتحيته واستقباله ونيل البركة منه ...

ولذلك فقد عجز الحاكم الرومانى ان يمتد بيد سوء الى انناسيوس ، بل ان فالنس رأى من حسن السياسة ولتهدئة الخواطر ان يعلن انه لن يتعرض لائناسيوس، وهكذا عاد - اثناسيوس الى الاسكندرية ليستقر من جديد على كرسيه بقوة الشعب المصرى . حيث كان مقدرا له ان يمضى ما بقى له من العمر في ذروة السلطان الروحى والمسادى ، بعد ان تكسرت على صلابه ارادته كل صنوف الارهاب والمقاومة والاضطهاد .

٢٦٥ م - كان الحاكم الرومانى في هذه السنة ثاتيانوس .

٣٦٩ م - كان الحاكم الرومانى في هذه السنة هو بولبيوس .

المسيحية في الحبشة :

٣٧٠ م - اوفد اثناسيوس في هذه السنة القديس افرونيوس للتبشير بالانجيل في بلاد الحبشة .. ومنذ ذلك الوقت والكنيسة الحبشية تابعة للكرسى المرقسى

يرسم لها أساففة مصريين بناء على طلب ملوكها (١) وقد تغير هذا التقليد في العصر الحديث جدا - وقد بدأ التحول برسامة أساففة أحباش ، ثم أصبح الأساففة الأحباش يدرون كنبيسهم .

٣٧١ م وفاة القديس اناسيوس الرسولى :

طويت في هذه السنة صفحة علم من أكبر أعلام المسيحية في الشرق والغرب معا . بعد أن أمضى في رئاسة الكهنوت ستا وأربعين سنة وهو ما لم يقدر لبطربرك من قبله أو بعده - وفى خلال هذه الفترة عاصر ستة عشر امبراطورا تحدى الأكثرين منهم نفى من منصبه خمس مرات ، كان لا يلبث في كل مرة أن يعود أكثر قوة . والمسيحيون الشرفيون بعد . فه خاصة بعثروبه صاحب الفضل الأكبر في بدء م الحقيقةين الأساسيتين اللتين قامت عليهما المسيحية وهما :

١ - لاهوت المسيح المتحد بناسوته اتحادا لا يتطرق اليه مزج ولا خلط ولا تعبير .

٢ - وحدة التالوث المقدس (١) .

واعترنا بفضل منحه الكنيسة لقباً لم ينله سواه في العالم بأسره وهذا اللقب هو : ثالث عشر الرسل الاطهار . ومن أجل ذلك كان يلقب بالرسولى .

الأنبا بطرس الثانى :

وفد أسرع الشعب والاكليروس بانتخاب تلميذ اناسيوس وهو الأنبا بطرس ليكون الخليفة الحادى والعشرين لمقرس الرسول .

ولم تكن انباء هذا الاختيار تصل الى الامبراطور فالنس حتى استسباط غضبا ، وأحس أنه لو جنح لمشيئة الشعب المصرى في هذا الاختيار فسوف يفقد آخر ظل له من النفوذ .

فأرسل الى واليه في مصر يأمره بخلع الأنبا بطرس الثانى ونفيه وتنصيب لوسيوس الاريوسى أسقفا مكانه .

وتعزيزا لهذا الأمر الامبراطورى أصدر فالنس أمره بأن ترافق لوسيوس قوة عسكرية ، وهكذا دخل لوسيوس ليتقلد كرسية في الاسكندرية تحت حماية الحراب الرومانية .

وكانت الأوامر المعطاة لهذه القوة العسكرية أن تقبض على بطرس الثانى ، ولكنه استطاع كاستناذه أن يختفى في الوقت المناسب وينجو من يد السلطة .

وعندما وصل نبأ ذلك الى الامبراطور ، زاد في غضبه وأصدر أمره بنفى كل الأساففة المصريين الذين يرفضون التعاون مع لوسيوس الاريوسى .

(١) ص ١٤٧ دليل المتحف القبطى .

(٢) قصة الكنيسة القبطية .

كما أصدر أمره بإلغاء الامتيازات التي كانت مقررة للرهبان منذ أيام قسطنطين وهو اعفاؤهم من الخدمة العسكرية ، ولما كانت الرهبانية قد انتشرت في مصر ، انتشارا واسعا كما قدمنا ، فقد كان معنى تنفيذ القانون الجديد ، أن تجند مدن بأسرها ولذلك فقد قاوم الرهبان هذا القانون ، وفضل الكثيرون منهم أن يموتوا في سبيل عدم الاذعان له من أن يصبحوا جندا في جيش الامبراطور .

وهكذا عاشت الاسكندرية ومصر كلها ، فترة من أحلك فتراتهما وبدأ اليأس يتسرب الى النفوس ، حيث خيل للكثيرين ان الاريوسيين سينتصرون في النهاية .

وكان يضاعف في تعقيد المشكلة ، انه بصيرورة المسيحية هي الدين الرسمي للدولة ، فقد بدأت تتكون ارسنقراطية مسيحية تشايح الدولة من التجار والأغنياء ، فبدأت الوحدة التي كانت راسخة أيام اضطهاد المسيحية تتصدع وتحلل في ظل تمتع المسيحيين بالنفوذ والسلطان .

٣٧٤ م — كان الحاكم الروماني في هذه السنة هو ايليو بالاديوس .

٣٧٥ م — موت الامبراطور فالنتيانوس :

مات الامبراطور فالنتيانوس بعد أن كان قد أشرك معه في الحكم ابنه جراتيانوس فأصبح امبراطورا للغرب بعد وفاة أبيه حيث ظل فالنس امبراطورا للشرق .

٣٧٥ م — كان الحاكم الروماني ، هو تاتيانوس .

٣٧٦ م — كان الحاكم الروماني هو هادربانوس .

٣٧٨ م — موت الامبراطور فالنس :

قتل الامبراطور فالنس في معركة هادربانوس (ادرنه) عندما حاول أن يتصدى للقوط الغربيين الذين عبروا نهر الدانوب وراحوا يعيشون في بلاد البلقان نهبا وفسادا .

الامبراطور جراتيانوس :

ويموت فالنس انفراد جراتيانوس بحكم الامبراطورية ، وقد كان مسيحيا متحمسا للعقيدة الارثوذكسية كما يصورها مجمع نيقية ولذلك فقد أعلن « ان العقيدة النيقية . فريضة واجبة على جميع الشعوب الخاضعة لنا » .

وقد قدر جراتيانوس انه لن يكون باستطاعته حكم الامبراطورية بقسميها بنفسه ولذلك فقد اختار ثيوديسيوس ليكون امبراطورا للشرق .

الامبراطور ثيودسيوس :

كان اول عمل قام به ثيودسيوس في الشرق هو تنفيذ هذا الذي دعا اليه جراتيانوس من الزام كل رعايا الامبراطورية باعتناق المسيحية النبقية على مذهب اثناسيوس .

عودة الانبا بطرس الثاني :

وكان من آثار هذا التطور الجديد أن عاد الانبا بطرس الثاني الى كرسيه : مثبًا بذلك أن بابا الاسكندرية أصبح احد محاور السلطان الروحي في أرجاء الامبراطورية .

٣٧٨ م - وفاة الانبا بطرس الثاني :

على أن أيام الانبا بطرس الثاني لم تطل بعد هذا النصر ، فقد توفي ولم يزد نولبه لكرسى الكرازة المرقسية على خمس سنوات وتسعة شهور أمضى الجزء الأكبر منها في المتاعب .

الانبا تيموثيوس :

وفع اختيار الشعب والاكليروس بعد وفاة الانبا بطرس الثاني على الانبا تيموثيوس وهو تلميذ آخر من تلامذة اثناسيوس الكبير وكان يقوم بدور السكرتير الخاص لاثناسيوس في بعض رحلاته وجولاته ، كما كان أحد معلمى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية .

٣٨٠ م - كان الحاكم الرومانى هو يولييانوس .

٣٨١ م - مجمع القسطنطينية :

كان ثيودسيوس امبراطور الشرق يدين كما قدمنا بمبدأ اثناسيوس فعمل جاهدا منذ اعتلى السلطة على أن يعمم عقيدة نيقية في الكنائس ، فعهد الى تيموثيوس بابا الاسكندرية بنسخ قوانين نيقية العشرين وتوزيعها على كنائس العالم شرقا وغربا .

وفي هذه الفترة طلع مقدونيوس اسقف القسطنطينية على العالم المسيحي برأى جديد فحواه أن روح القدس ليس باله ولكنه مخلوق .

ولم يلبث النزاع أن استجد من جديد حول الوهية روح القدس ، كما دار من قبل حول الوهية المسيح .

واستطارت الفتنة بين صفوف رجال الاكليروس . فنصح البعض للامبراطور أن

بحسب هذه القضية بدعوة مؤتمر عالمي (مسكوني) للاساقفة كما فعل قسطنطين من قبل .

فوجه الدعوة الى عقد مؤتمر في القسطنطينية ، ولبي الدعوة مائة وخمسون اسقفا من اساقفة الشرق .

واستقر رأى المجتمعين على أن يضيفوا الى دستور الايمان كما تقرر في مجمع نيفيه العبارات التالية :

« نؤمن بروح القدس ، الرب المحيى المنبثق من الاب السجود له والممجّد مع الاب والابن ، الناطق في الانبياء » .

نؤمن بكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيام الموتى وحياة الدهر الآتى . وبعد أن فرغ المجمع من تقرير العقيدة ، انتقل لتقسيم الاسقفيات الى درجات ، فقرر أن يكون لكنيسة القسطنطينية مكان الشرف الثانى بعد روما باعتبارها روما الجديدة وعاصمة الامبراطورية فاحتج على ذلك تيموثيوس بطريرك الاسكندرية قائلا : لقد علمنا مخلصنا بأن من أراد أن يكون عظيما فليكن للجميع عبدا فالاولوية الروحية يجب أن تكون لمن يمتاز من الاساقفة بالجهاد في الروحيات وقد تفانى اساقفة الاسكندرية في خدمة الايمان الارثوذكسى . وكانت آخر الخدمات التي أدوها في هذا السبيل تدعيمهم البيان المتصدع في كنيسة القسطنطينية نفسها .

ولكن المجتمعين اغفلوا هذا الاحتجاج لاعتبارات سياسية فما كان من الانبا تيموثيوس الا أن انسحب هو واساقفته من المجمع عائدین الى الاسكندرية .

٣٨١ م - كان الحاكم الرومانى على مصر في هذه السنة باسيانوس .

٣٨٢ م - كان الحاكم الرومانى هو بالاديوس .

٣٨٣ م - قتل الامبراطور جراتيانوس :

نادت الفرق البريطانية بماخيوس ماكسيموس الذى استولى على بلاد الغال امبراطورا ، فقتل الامبراطور جراتيانوس .

واذ كان ثيودسيوس مشغولا بالاطار المحدقة به من الشرق : فقد اعترف بماكسيموس امبراطورا على الغرب ، شريطة أن يتخلى عن حكم ايطاليا لابن جراتيانوس « فالنتين الثانى » .

٣٨٣ م - كان الحاكم الرومانى على مصر في هذه السنة هيبانيوس ثم انطونيوس .

٣٨٤ م - كان الحاكم الرومانى على مصر في هذه السنة هو فلورنتيوس .

وفاة الأنبا تيموثيتوس:

وفي هذه السنة توفي الأنبا تيموثيتوس بعد أن أقام على كرسي الكرازة المرقسية ست سنوات وخمسة شهور .

الأنبا تيوفيلس :

واختار الشعب والاكليروس للسيدة المرقسية الأنبا تيوفيلس ، وقد كان من تلامذه اتناسيوس وواحد من القائمين بأعمال سكرتاريته وكان معمقا في العلوم الفلسفية والرياضية وقد رسمه الأنبا اناسيوس قسا وضمه الى سكرتيرته فظل يعمل في خدمة المذبح طوال جزء من بابوية اناسيوس وبطرس الثاني وتيموثيتوس .

وقد استطاع خلال هذه السنوات أن يكتسب قلوب المؤمنين ، فلما أن خلا الكرسي الرسولي وقع الاختيار عليه .

ويعزى اليه أنه اقنع الامبراطور تيودسيوس بتحويل المعابد الوثنية الى كنائس مسيحية .

وقد راقت الفكرة للامبراطور وأصدر أمره على الفور بتنفيذها . وكان أول هيكل استولى عليه البابا السكندري لتحويله الى كنيسة هو هيكل باكوس اله الخمر . فنزع منه التماثيل وراح يعرضها وسط الأزدياء والسخرية في شوارع الاسكندرية فأهاج هذا التصرف الوثنيين رغم قلة عددهم ، فجمعهم وأحاطوا بمعبد سيرايس للدفاع عنه . واذ كان المعبد أشبه ما يكون بالقلعة حيث كان مبنيًا فوق هضبة وبرزى اليه بمائة درجة ، فقد استعان تيوفيلس في الهجوم عليه بالجيش الروماني « فحرى الاصطدام بينه وبين الوثنيين الذين اضطروا في النهاية الى الاحتما بالمعبد الكبير » .

فصدرت الأوامر بمحيطيم المعبد فوق رؤوس المقيمين به ، فجرت الدماء أنهارا ، واتسعابت النار في قسم من المعبد فانت على مكتبه التي كانت تضم ٧٠٠ ألف كتاب . وهكذا تحول المضطهدون بالأمس الى مضطهدين لمخالفهم في الرأي . وتنقسم الآراء بطبعة الحال حول هذا الحادث ، ما بين مجيد ومحيد ومستنكر ، فأما صاحب كتاب قصة الكنيسة المصرية فيلقى المسؤولية على الوثنيين وانهم هم الذين بدأوا بالعدوان ، ونفى عن الأنبا تيوفيلس تهمة التحريض على حرق معبد سيرايس فضلا عن تدمير ما فيه من كتب ، ويسوق على ذلك كثيرا من أقوال المؤرخين الذين يدحضون هذه التهمة .

أما صاحب المنارة التاريخية فيقول لنا :

« وعند انتهاء معبد سيرايس تشتت السبعمئة ألف كتاب التي كانت فيه لأن المؤرخ الأسباني أورسيوس الذي زار الاسكندرية في العهد التالي لم يجد أثرا لهذه الكتب ، ولم يجد سوى الخزانات الخاوية » .

ثم يمضى فى تعليقه على هذا الحادث قائلا :

« وهنا يجرنا الانصاف ان نقول بان كل اضطهاد دينى هو ممقوت ، سواء اكان وافعا من ونيين او مسيحيين ، لا سيما وهو ينصب فى الاغلب على احرار الناس اكثر من سواهم . فالذين اضطهدهم اسقف الاسكندرية كانوا من علماء ذلك الزمان واحدهم هو اوليميوس كاهن معبد سيرابيس كان مع كبر سنه ومقامه رجلا ودبعا حلما عاقلا لا عيب فيه كافضل شهداء المسيحيين . بل ان الفرق بين الاضطهادين بعيد جدا . لان الونى كان يضطهد عن سياسته واقتصادياته ، اما المسيحى فهو يضطهد غلوا فى دين اساسه الرحمة والوداعة . لاجب بسط اليد بالاذى ولا التناول باللسان وقول الهجو » .

وقد زاد هذا الحادث الجديد فى بدهور مركز الاسكندرية الثقافى فوق تدهوره المستمر ، فقد هجرها كثير ممن كانوا بها من رجال العلم والفلسفه والدين كانوا يشرفون على مدارسها . باعبارها مركزا للفلسفه اليونانية .

راذلا يوجد حد ينف عند التعصب للرأى اذا اخذ سبيل العنف ، فسرعان ما وجدنا نيوفيليس يحلف مع رهبان وادى النظرون ممن كانوا يعجبون بأوريجانوس . فاصدر قرارا يعتبر فيه الاوريجانية ، بدعة مسيحية ، فاحتكم الرهبان الى اسقف القسطنطينية وهو يوحنا فم الذهب الذى كب للانبا تيوفيليس يسترضيه على الرهبان وأوريجانوس فلم نزد ذلك نيوفيليس الا غضبا على يوحنا فم الذهب نفسه .

٢٨٥ م - كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة هو بولينوس .

٢٨٦ م - كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة فلورنتيوس .

٢٨٨ م - كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة ارتريوس .

٢٩٠ م - كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة الكسندر .

٢٩١ م - كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة ايفاجريوس .

٢٩٢ م - كان الحاكم الرومانى فى هذه السنة يوتامبيوس .

تم هياتبوس . تم بوتامبيوس نانية .

٢٩٤ م - الغاء الوثنية بصفة نهائية :

بعد ساسلة من الاحداث فى اوربا . طرد فيها ماكسيموس والتتيان الثانى من ايطاليا ، فالتجأ هذا الأخير الى نيودسيوس الذى استطاع ان يعيده الى عرشه بعد

أن قبض على ماكسيموس وقتله ، ولكن فالنتينيان الثانى مالبت أن قتل على يد أريوجاست أحد قواده الذى نادى بمن يدعى أيوجنيوس امبراطورا ، ولكن ثيودسوس استطاع أن يهزم الاثنين وان يقتلها ، فأصبح بذلك هو الامبراطور الأوحى للشرق والغرب ، فزاد ذلك فى حماسه للديانة المسيحية فحمل مجلس الشيوخ الرومانى على أن يصدر تشريعا بالغاء الوثنية فى جميع صورها وأشكالها فى أرجاء الامبراطورية شرقها وغربها ، ووضع العقوبات الصارمة لكل من يعبد الها غير المسيح ، أو لمن يرتد عن دين المسيح أو يلحد فيه .

ومن هنا سجل له التاريخ انه هو وليس قسطنطين من جعل المسيحية دينا رسميا للدولة لا تسمح ببقاء دين آخر الى جوارها .

٣٩٥ م - وفاة الامبراطور ثيودسيوس :

وفى ١٧ يناير من هذه السنة توفى الامبراطور ثيودسيوس بعد أن حكم سبعة عشر عاما توحدت فيها الامبراطورية لآخر مرة فى ظل امبراطور قوى .

ولكنه كقسطنطين من قبله لم يمت الا بعد أن قسم المملكة بين ولديه اركاديوس وهونوريوس .

الامبراطور اركاديوس :

كان عمر اركاديوس عندما أصبح امبراطورا للشرق ثمانى عشرة سنة ، وكانت هذه الامبراطورية تبدأ من حوض الدانوب الأدنى حتى تخوم فارس وتشتمل على تراقيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر أما أخوه هونوريوس فقد تولى حكم المغرب .

٣٩٥ م - كان الحاكم الرومانى على مصر فى هذه السنة هو شارموزيانوس .

ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد الأنبا تيوفيلوس ، الذى كان عدوا للاريسيين مدهسا وللأغريق سياسة ... ولذلك فقد كان المصريون ينظرون اليه نظرتهم لا الى زعيم روحى بل الى قائد ورئيس سياسى .

شاءتم الظروف أن تعمل على تدعيم سلطانه أكثر وأكثر ، فوقع خلاف بين يوحنا فم الذهب اسقف القسطنطينية والامبراطور اركاديوس لمهاجمة يوحنا لزوجة الامبراطور (أودكسيا) فأصبح تيوفيلوس هو القاضى الذى رأس مجمعا من الاساقفة المصريين ليحكم بحرمان يوحنا فم الذهب وطرده من منصبه وعاد تيوفيلوس الى الاسكندرية ، فازداد ضراوة فى محاربة مخالفه لا من الوثنيين بل من المسيحيين ، وكان الخلاف معه فى الراى لا يؤدى الى الكفر والالحاد فحسب ، بل واعتبار المخالف تائرا على سلطة الامبراطور نفسه .

ويقول لنا المؤرخ الانجليزى « ملن » امتد تاريخ مصر منذ هذه اللحظة حتى خمسين سنة قادمة ، لا يخرج عن تاريخ بطارقة الاسكندرية ، والخلافات بين الاساقفة واتباعهم ، بحيث أصبحت الحياة وكأنها لم بعد شيئا الا مناقشة اللاهوت .

وقد وصف احد الاساقفة الذين زاروا القسطنطينية فى هذه الفترة ما يمكن ان يصدق على مدينة الاسكندرية لذلك قال : ان جميع عمال هذه المدينة وعبيدها يشتغلون باللاهوت فاذا قصدت صرافا لاستبدال قطعة نقود اوقفك ليروى لك اوجه الخلاف بين الابن والاله الاب واذا ذهبت لشراء رغيف اخبرك صاحب المخبز بأن الابن يجب ان يكون دولة الاله الاب واذا طلبت من الحمامى ان يعد لك الحمام اجابك بأن الابن وجد من لا شيء (اوروبا العصور الوسطى ص ٥٦) .

ويقول « ملن » أن نيفيلوس اصطحب كتيبة من الجند وحطم زوايا الرهبان فى وادى كنطرون لمخالفتهم اياه فى الراى ، وكان ذلك مظهر جمع السلطة الدينية الى السلطة الزمنية ، والذي لن يلبث ان يصل الى ذروته العليا على يد بابوات روما ..

٣٩٦ م - كان الحاكم الرومانى على مصر فى شهر فبراير من هذه السنة جيناديوس .

أما فى شهر مارس فنرى اسما جديدا وهو ريميحيوس .

٣٠٧ م - كان الحاكم الرومانى ارشيلالوس .

٣٩٨ م - وفاة ديدموس الضير :

فى هذه السنة مات كآخر اعلام مدرسة الاسكندرية اللاهوتية وهو ديدموس الضير . والذي كان قد أصيب فى طفولته بمرض أفقده البصر فجعله هذا الحادث يطلب من الله ان يمنحه قريحة وقادة وبصيرة وفهما ، فاستجاب الله لدعائه ، اذ استطاع رغم عجزه ان يصبح من اكبر المتضاعين فى النحو والبلاغة والشعر والفلسفة والرياضة والموسيقى .

وقد عهد اليه انناسيوس برئاسة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية فلم يكن يكتفى بالقاء المحاضرات فيها ، بل صرف همه نحو التأليف ولا يزال بعض ما كتبه باقيا حتى الآن .

وكان ديدموس والانبا انطونى ابو الرهبان صديقين حميمين جمعت بينهما المحبة الخالصة .. وكلما وفد الناسك الى الاسكندرية كان يحل ضيفا عند ديدموس . ومما يذكر له بالعجز انه ابتكر وسيلة لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة سبق بها بريل بخمسة عشر فنا . حيث كانت الكلمات والحروف تحفر على خشب ليمكن الكفيف من مطالعتها باللمس ، ولكن شاءت الظروف الا يتطور هذا الاختراع ويجعد

عند هذا الحد ثم يعفى عليه النسيان حتى يبعث من جديد في العصر الحديث
ويعود فضله الى بريل .

وقد ظل ديديموس يدير مدرسة الاسكندرية اللاهوتية زهاء نصف قرن ،
فعاصر البابا اثناسيوس وبطرس الثانى وتيموتيس .

٤٠٨ م - وفاة الامبراطور اركاديوس :

مات الامبراطور اركاديوس ، وفي عهده وعهد هذه الفترة من حياة اخيه
هونوريوس ، ظهر القوط والوندال والجرمان كقوى عاملة في جسم الامبراطورية
وذات قول في تعزيز مصيرها وخاصة في قسمها الغربى . وكانت هذه القبائل المختلفة
التي توصف بالبربرية ، تؤثر على حياة الامبراطورية في الطرفين الاول والثانى
بهجماتهما على اطراف الامبراطورية . . أما في اواخر القرن الرابع واولى القرن
الخامس فقد كانت هذه القبائل بأعدادها الوفيرة قد أصبحت هي الجيوش الرومانية
نفسها ، بعد أن اسكنهم الإباطرة مخلف الولايات في اليونان وإيطاليا واتخذوا منهم
فوادا لجيوشهم ، ووزراء لحكوماتهم .

الامبراطور ثيوديسيوس الثانى :

ولى عرس الشرق ثيوديسيوس الثانى ابن اركاديوس ولم يكن سنه يتجاوز سبع
سنوات . وكانت أخته بوليكرينا تكبره بعامين فأشرفت على تربيته ، ولن تلبث أن
تصبح وصية عليه بمجرد بلوغها سن السادسة عشره بحيث سيقدر لها أن تكون
هى التى تصرف شئون الامبراطورية خلال ثلاث وثلاثين سنة .

٤١٢ م - وفاة الانبا تيوفيلس :

توفى الانبا تيوفيلس بابا الكرازة المرقسية الثالث والعشرين ، بعد أن ظل
على كرسيه سبعة وعشرين سنة وشهرين ، بلغ فيها قمة السلطان الروحي والزمنى .
وهو احدى الشخصيات التى تثير الجدل في تاريخ الكنيسة المصرية ، فحيث
يصفه البعض بأنه فرعون متجبر جعل من كلماته الدستور الذى يجب أن ينحنى
أمامها الشعب مباشرة ، بينما يمتدحه البعض ويشنون على حسن ادارته وسرعة
ادراكه للحقائق (قصة الكنيسة القبطية) .

الانبا كيرلس :

وقع اختييار الشعب والاكليروس فى الانبا كيرلس ابن شقيقة الانبا تيوفيلس
وكان قد تمهده بعناية حلصة ، وعاش فترة فى بعض الاديرة ، حيث استغرق فى
الدراسة وتحصيل كل صنوف العلوم .

على أن اختياره لم يتم بهيسر وسهولة كاختيار بين سبعة من البابوات ذلك أنه بتعاظم خطورة صاحب هذا المنصب في النفوذ والسلطان ، فقد بدأت القوة الحاكمة تتدخل في اختياره . فيقول لنا « مان » ان ايونديانتوس فائد القوات الرومانية في مصر بذل جهدا كبيرا في انجاح مرشح له يمثل المذهب الارويسى ، وعمت الاسكندرية المجادلات والمساكنات بل والمضاربات ، ولكن ارادة الشعب والكنيسة المصرية هي التي انتصرت في نهاية الامر باختيار كيرلس الذي لم يكن يقل بغضا للارويسيه عن سلفه ، ولذلك فلم يكذبوا كرسى الكرازة حتى بدأ يقوم بدور عميق الاثر في حياة الكنيسة المصرية والشرقية بعامة ، لا يقل عن دور اتناسيوس وأن كان امتدادا وبكميلا له .

٤١٠ م - أول هوان لمدينة روما :

تعرضت مدينة روما لأول هوان في تاريخها ، اذ احتلها الريك ملك القوط الغربيين واستباحها جنوده لمدة ثلاثة أيام يقتلون ويدبحون وينهبون ويدمرون ، وفد وجد الوثنيون في هذه الكارثة التي حاقت بالمدينة آية على غضب الآلهة التي انصرف عنها الرمان الى المسيحية .

على أن الريك الذي كان قد سيطر على ايطاليا كلها لم يلبث أن انسحب من روما ، تم مات بعد ذلك .. ولكن بعد ان كشف لكل الشعوب المتبربرة عن ضعف روما وهوانها - مما سوف يجعل بسقوطها نهائيا في يد المتبربرين ، أو بالاحرى ما اعتاد الرومان أن يصفوهم بهذا الوصف .

٤١٤ م - تولت يوليكا ريا اخت الامبراطور ثيودوسيوس الثانى الوصاية عليه .

٤١٥ م - كان الحاكم الرومانى على مصر في هذه السنة اورستوس .

تجدد اضطهاد اليهود :

وفي هذه السنة تجدد اضطهاد اليهود : فمنذ ولى الانبا كيرلس البطريركية زاد من تشدده في نصرة المسيحية الارثوذكسية ومقاومة كل ما يخالفها بالقوة والعنف . وقد كان اليهود الذين ازيلوا من الاسكندرية أيام تراجان ، اى منذ ثلاثة قرون سابقة ، قد عادوا في هذه الفترة للتجمع والتكاثر والازدهار ، بحيث أصبحوا هم القوة السائدة في دنيا المال والاقتصاد والتجارة .

ولا يعرف كيف بدأت الفتنة ضد اليهود ولا ما هو السبب المباشر لاشعالها ، والمهم ان الذى قام بالفتنة هم عامة الشعب في المدن ، والرهبان الوافدون من الصحراء الغربية ، فانتهب العثمة اموال اليهود وممتلكاتهم وأجلوهم عن بيوتهم واضطرب جبل الامن في المدينة حتى عمتها الفوضى وعبثا حاول اورستوس الحاكم الرومانى أن يعيد

الامن والنظام ، فقد كانت قواته اضعف من التغلب على الشعب الهائج . بل لقد وقع هو نفسه فريسة للاعتداء اذ قذفه البعض بقطعة من الحجر اوجعته .
وكان كيرلس هو سيد الموقف الوحيد .

مصرع الفيلسوفة هيباتيا :

وسكر الرهبان وعامة الشعب بهذا النصر ، فقرروا ان يقتلوا من مدينة الاسكندرية ما تصوره آخر معالم الفلسفة اليونانية التي كانت تتمثل في هذا الوقت في الفيلسوفة هيباتيا ابنة العالم تبون وزوجة الفيلسوف ايدادور والتي كانت تعتبر من ائمة المدرسة الافلاطونية وتمثل ذروة الجمال والوادة والرقعة النسائية فتربص لها البعض اتلاء مرورها في عجلتها بأحد شوارع المدينة ، وانقضوا عليها وجروها على الارض حتى كنييسة قيصر ، وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها اربا وحملوها خارج المدينة حيث احرقوها في أحد الافران .

٤٢٥ م - الامبراطور فالنتينوس الثالث :

تولى فالنتينوس الثالث امبراطورية الغرب بعد موت هروريوس ومصرع يوحنا مفتصب العرش على يد جيش ثيودسيوس الثاني .

٤٢٨ م - النسطورية وتصدى كيرلس لها :

في هذه السنة استمر النزاع من جديد بين الكنائس الارثوذكسية والاروسية بعد ان اتخذ اتجاها وشكلا جديدين .

فما دامت الوهية المسيح ام تعد ميدانا للجدال فليدر البحث حول الوهية امه .
والعقيدة الارثوذكسية تقرر انه ما دام المسيح الها فان مريم العذراء هي ام الاله ، فجاء نسطوريوس ليناقش هذه القضية بحيث انتهى الى نظرية جديدة .

وماخص هذه النظرية انه لما كان الله تعالى لا يمكن أن يموت أو يتألم فلا بد انه كان للمسيح اقنومان متباينان : ذات الهية تعلو على الآلام الانسانية ، وذات انسانية عرضة للآلام والموت ، ومن كانت الذات المتألمة هي الذات الانسانية وحدها منفصلة عن الذات الالهية ، تفريعا على ذلك مضى نسطوريوس يقول :

ان مريم لم تكن ام الطبيعة الالهية في المسيح بل هي ام طبيعته البشرية وانه خير من تسميتها ام اله ان تسمى ام المسيح .

وقد نالور هذا الفكر فيما استهر بأته القول بالطبقتين للمسيح : الطبقة الالهية والطبقة الانسانية ، وذلك في مواجهة القول بالطبقة الواحدة الالهية .

وفد كان الانبا كيرلس هو حامل لواء هذا القول الاخير والمدافع عنه بكل قوه وعنف وصرامه فراح يدبج الرسائل ويبعث بها الى رؤساء المجامع في الشرق والغرب ويعفد المجامع ويحاطب الامبراطور ، بل والامبراطوره والاميره بوليكاريا ، مما جعل الامبراطور نيوديسيوس الثانى يفضب لذلك ويهم كيرلس بأنه يعمل على اثاره اعضاء أسرته بعضهم ضد البعض الآخر .

٤٣١ م - مجمع افسس :

لم يستطع الامبراطور بكل بهديانه او ضغطه ان يوقف كيرلس عن نشاطه في مهاجمه الفانليين بان مريم ليست أم الالهة وقد رأينا فيما سبق ان عباده ايزيس كانت إحدى الديانات التى احسب صورته عليه ، وكانت صورها وهى تحمل الابن الاله (حوريس) هى العويده واسميه اتى ينود بها الملايين من العباد في أرجاء الامبراطوريه . . لذلك فقد ربي عقد مجمع مسكونى جديد من الاساقفه في مدينة افسس وكان المحرض للامبراطور للدعوة هذا المجمع هو نسطوريوس نفسه ، نصورا منه ان المجمع سيدين كيرلس وياخذ وجهة نظر نسطوريوس .

ولم يكد كيرلس يلقى الدعوة حتى سند رحاله الى افسس مصطحبا معه خمسين اسقفا وعشرات من رجال الكهنوت كن من بينهم النلسك الانبا شنود . وكان كيرلس يحذل نفوذا من كنائس افريقيا التى عافتها عوائق الشهيد بغزو اجنبى عن المشاركة في المؤتمر ، ان يملها ويتكلم باسمها كما تلقى نفوذا من كنيسة روما وهكذا أصبح يمثل ثلاث كنائس ، فعهد اليه برئاسة المجمع الذى احشد فيه قرابة سائين من الاساقفة .

ولم ينتظر كيرلس حضور اساقفه انطاكية الذين تأخروا في الوصول الى افسس وأسرع بعقد المجمع الذى اصدر قرارا بسحب بدعة نسطوريوس وعزله من كرسي القسطنطينية وحرمانه من الدين المسيحى جملة .

وفد حاول الامبراطور نيوديسيوس الثانى عندما «رسله النبأ أن يستيع لاسقف عاصمة بلاده نسطوريوس فاستمع لاقوال حصوم كيرلس الذين كادوا له عند الامبراطور واتهموه بالنامر فأصدر أمره بسجنه في مدينة افسس ، ولكنه لم يلبث أن انصاع لاجماع الكنيسة فوافق على عزل نسطوريوس ثم نفاه بعد ذلك الى صحراء ليبيا ، في الوقت الذى اطلق فيه سراح كيرلس فعاد الى الاسكندرية وقد بلغ ذروة النجاح والنفوذ .

٤٣٥ م - كان الحاكم الرومانى في يناير من هذه السنة كليوباتر .

٤٣٨ م - اصدر نيوديسيوس الثانى ، او بالاحرى صدوته باسمه وفي عهده دون ان يكون له مشاركة فعلية ، ويقول بعض المؤرخين بل ربما دون ان يطالعها : أول

مجموعة للقوانين الرومانية منذ جلس قسطنطين على العرش ، لتطبق. على الشرق والغرب معا ، فأصبحت هناك لأول مرة في العالم الروماني شريعة موحدة تنظم المجتمع الروماني كله ، وقد ظلت هذه المجموعة نافذة المفعول ، حتى أصدر جوستينيان مجموعته الاعظم والافضل .

٤٤٢ م - وفاة الانبا كيرلس الكبير :

توفي الابا كيرلس الكبير بعد ان ظل متربعا على كرسي الكرازة المرقسية واحدا ولاتنين عاما وثمانية شهور تمتع فيها بمكانة عالية لم يحظ بها بطريرك من قبله حتى أصبح يلقب بفرعون .

وفي عهده أصبح لبطريرك الاسكندرية من السلطة المباشرة على اساقفته مصر والمدن الخمس ما جعل من البطريركية المرقسية اكبر وحدة كنسية في الشرق وأصبح لبابا الاسكندرية ما لبابا روما من السلطة في رسامة معاونيه من القسس والاساقفة .

ولم يعد نفوذ الكنيسة المصرية وقفا على سلطتها الروحية ، بل ان قوتها المادية بدأت تتجلى في ضخامة نروبها الى أصبحت نتألف مما تمدها به الحكومة من هبات ومنح ، وما ينال عليها من نمرعات وهبات ووصايا ، والتي تقدر بمليون دينار في العام الواحد .

ولا تزال آثار الانبا كيرلس الكبير باقية حتى اليوم تتردد بين أرجاء الكنيسة المصرية ، فيما يسمى « بالقداس الكيرلسي » حيث يؤديه الكنائس في اعيادها الكبرى .

الانبا ديسقورس :

واختار الشعب والاكبروس الانبا ديسقورس لبخلف الانبا كيرلس ولم يكن يختلف كثيرا عن سلفه الكبير في شخصيته وسلوكه وسياسته ولذلك فقد استؤنف الصراع من جديد بينه وبين اسقف القسطنطينية الجديد (فلافيانوس) والذي ابعت المبادئ السطورية من جديد ، بمناسبة مناداة أحد رؤساء الاديرة في القسطنطينية ويدعى اوفيكس بمذهب الطبيعة الواحدة ، اذ انكر عليه فلافيانوس هذا القول وعقد مجمعا محليا من الاساقفة فأصدروا قرارا بانكار بدعة القول بالطبيعة الواحدة وحرم اوفيكس القائل بها من الكنيسة المسيحية وكان طبعها ان يلتجئ اوفيكس الى بابا الاسكندرية وبابا روما متظلما من هذا القرار بحرمانه .

واسنطاع ديسقورس ان يقنع الامبراطور بعقد مجمع جديد في مدينة افسس لحسم هذه القضية .

٤٤٩ م - مجمع افسس الثانى :

انعقد المجمع فى مدينة افسس وتولى رئاسته ديسقورس واصدر قراره بتبرئة اوفيكس وهوجم فلافيانوس هجوما عنيفا ، حتى قيل ان الرجل لم يستطع احتمال ما وجه اليه فلم يلبث ان قضى نحبه مغموما .

وكان من قرارات المجمع الاخرى ، لعن كل من يقول بوجود طبيعتين للمسيح .
ويبدو ان ديسقورس قد حرص هو والاساقفة الشرقيون ان يقللوا من شأن بابا روما ليو الاول ، فاغفلوا عامدين نلاوة رسالة بعث بها الى المجمع يحدد بها الصيغة الرسمية التى يجب ان يكون عليها حل القضايا محل البحث والجدل .

فلا عجب اذا غضب البابا لبو على مجمع افسس الثانى ولم يقف عند حد عدم الاعتراف بقرارانه ، بل لقد وصفه بأنه « مجمع للصوص » .

ولقد جعل هذا الموقف من بابا روما ، ما يؤكد الحقيقة التى كان يحس بها الجميع وهو ان الصراع فى حقيقته بين الاسكندرية والقسطنطينية وروما لم يكن نزاعا عقائديا بقدر ما هو نزاع على السلطة السياسية .

فمن ناحية كان هم ديسقورس كاسلافه تدعيم اولوية كنيسة الاسكندرية وسلطان بطريركها على العالم المسيحى ، فى الوقت الذى كان أسقف القسطنطينية باعتبارها عاصمة الدولة الجديدة ويتابعه على هذا الامبراطور يرى ان ذلك هو من حقه .

ثم ندخل بابا روما فى هذا النزاع لا لمصلحة العقيدة هذه المرة ولكن لتقويض سلطان كنيسة الاسكندرية التى بدت كأنها هى وحدها التى تملك تحديد العقيدة المسيحية .

٤٥٠ م - موت الامبراطور ثودسيوس الثانى :

مات ثيودسيوس بعد ان حكم من الناحية الرسمية اثنتين وأربعين سنة ، وان كان الحاكم الحقيقى خلال هذه المدة هو أخته بوليكاريا على أن التاريخ يحفظ لها حسن التصرف والادارة والكياسة ، فقد كانت هذه الفترة التى حكمت فيها مباشرة باسم ثيودسيوس ، ثم ما تلا ذلك من مباشرة ثيودسيوس الحكم بمعاونتها هى فترة هدوء واستقرار لم تنعم به الامبراطورية منذ أمد بعيد ، وذلك فى الوقت الذى كان القسم الغربى من الامبراطورية تمزقه الاضطرابات والفتن والحروب والغارات .

الامبراطور ماركيانوس :

رفعت بوليكاريا على العرش خلفا لاختها زوجها ماركيانوس .

٤٥١ - مجمع خليقدونية :

لم يكن باستطاعة كنيسة روما والقسطنطينية أن يسكتا على ما وصل اليه نفوذ بابا الاسكندرية بعد مجمع افسس وخاصة بعد أن نجح ديسقورس في تنصيب مرشح له بطريركا على كنيسة القسطنطينية نفسها ، اذ أنه أصبح هو المسيطر الاوحد (بموافقة الامبراطور) على الكنيسة الشرقية .

ومن هنا بدأ المساعي لحمل الامبراطور على دعوة مجمع جديد في مدينة خليقدونية التي تقع بالقرب من القسطنطينية ، لمحو بطريفة نهائية كل المسائل التنظيمية والعائدية المتعلقة بالكنيسة المسيحية فوافق الامبراطور على عقد هذا المجمع ، الذي احتشد له عدد من الاساقفة لم يسبق له مثيل في أى مجمع سابق اذ بلغ عددهم ٦٣٢ أسقفا .

وكانت قرارات هذا المجمع الجديد تكاد تكون معروفة قبل اجراء أى مناقشة ، وهى اذكار مرارات مجمع افسس ، وقبول رسالة بابا روما المعروفة باسم Tome رالتى رفض تلاتها مجمع افسس واعبارها منققة مع العقيدة الساجمة الارثوذكسية التى تقضى بوجود المسيح فى طبيعتين دون اندماج أو تغيير أو انقسام أو انفصال . اما ديسقورس نفسه فقد جرت محاكمته وتقرر عزله لا لاجاده وهرطقته بل لان سلوكه كان يخالف القوانين الكنسية فقد اتهموه بسوء السلوك الشخصى وأنه اغتصب من اقارب سلفه املاكا اضافها الى املاك الكنيسة ، وأنه يتصرف على اعتبار أنه الوالى الحقيقى للاسكندرية . ونتجلى قوة شكبة ديسقورس وامتداده بنفسه وبالرسالة القومية التى يمثلها ، فى رفضه باباء لما عرضه عليه الامبراطور من ابقاءه فى منصبه شريطة أن سحب لقرارات المؤتمر ويخضع للامبراطور وأثر انتهى على قبول ما عرضه عليه ، فذهى الى احدى مدن آسيا الصغرى وظل بها الى أن مات عام ٤٥٤ م .

مختتما بذلك عهد بطاركة الاسكندرية الفحول الذين كانت اهم الكلمة العليا فى حياة المسيحية وتعزيز عقائدها .

انفصال الكنيسة المصرية عن الشرقية :

وتعتبر قرارات مجمع خليقدونية ذات أهمية سياسية فى تاريخ روما البيزنطية ، وفى الوقت الذى اعتبرت فيه قرارات هذا المجمع أساس العقيدة المسيحية نهائيا ، فلن مصر والشام قد رفضتا الأخذ بها وازدادت تشبها بمذهب الطبيعة الواحدة (الونوقيزتى) وفشلت كل الجهود التى بذلت خلال القرون المتعاقبة لراب هذا الصدد .

اللفسة القبطية :

وكان من أول مظاهر هذا الانفصال وما ساعد على تعميقه ابطال الكنيسة المصرية

استعمال اللغة اليونانية بصفة نهائية في طقوس الكنيسة ، وأحلت محلها اللغة المصرية القديمة التي أصبحت تسرف منذ ذلك الوقت باللغة القبطية ، وهي ليست سوى اللغة المصرية القديمة مكتوبة بحروف يونانية بعد أن أضفت إليها سبعة حروف تخلص منها اللغة اليونانية .

وغنى عن البيان أن استعمال اللغة القبطية في طقوس الكنيسة لم يكن ممكن التحقيق إلا بفضل رهبان الأديرة وخاصة رهبان دير أبى مقار الذين توافروا على ترجمة أشعار العهد القديم والعهد الجديد إلى اللغة القبطية البحرية منذ عهد مبكر .

البطريك بروتيروس :

أسرع الامبراطور بعد عزل ديسقورس بتعيين خلف له ، واجتهد أن يحسن الاختيار ، فربح بروتيروس وهو أحد كهنة الاسكندرية وكان وثيق الصلة بديسقورس حتى لقد عهد إليه بتولى أمر الكنيسة أثناء غيابه في مجمع خليقدونية .

وبادرت طبقة الارستقراطية المسيحية الجديدة في الاسكندرية فأيدت الاختيار وأعلن الحاكم الروماني تأييده ، فأصدر الامبراطور أمره بتعيين بروتيروس بطريركا على الاسكندرية .

ولكن هذه الاجراءات كلها لم يكن لها سوى اثر عكسى على شعب مدينة الاسكندرية الذى كان يعكس ارادة مصر كلها في التمسك ببطريركها ولذلك فقد هاجمت جموع الشعب موظفى الحكومة المدنيين والعسكريين ، وتراجع الجند أمام غضبة الشعب واعتصموا بالسرابيوم فأشعل الشعب النار بالمبنى العتيق ، واحتاج الامر الى إرسال مزيد من فرق الجيش لاعادة الامن والنظام وتثبيت البطريك الجديد في كرسيه .

في الوقت الذى أصدرت فيه الحكومة بعض الاوامر على سبيل العقاب للشعب فأوقفت الالعاب العامة وأغلقت الحمامات ، وحرمت المدينة من الانتفاع بهبات القمح المخزون .

ولكن هذه الاجراءات الجديدة لم ترد النار الا اشتعالا ولم يكن باستطاعة البطريك المالكى أن يتحرك الا في ظل العتاس .

ولقد اتخذ المصريون من معارضتهم لمجمع خليقدونية ومن تمسكهم بمقيدة كيرلس وديسقورس رمزا للمقاومة الوطنية .

وسيكون لهذه المقاومة أكبر الاثر لتيسير مهمة الفتح الفارسى لمصر ثم الفتح الاسلامى ثانيا في القرن التالى .

٤٥٣ م - كان الحاكم الرومانى على مصر في هذه السنة فلورس .

٥٤٧ م - الامبراطور ليو :

مات الامبراطور مرقيان مخلفا على العرش الامبراطور ليو الاول وهو اول امبراطور بيزنطى قام بتتويجه اسقف القسطنطينية وسط الشعائر الدينية .

٤٥٨ م - الانبا تيموثاوس ومقتل بروتيروس :

انتهنز الشعب السكندرى فرصة غياب قائد الجيوش البيزنطية ديونسيوس فى الوجه القبلى لمواجهة الحملات التى عادت قبائل البليمى والنوبة تشنها على جنوب مصر ، لكى يسقطوا بروتيروس عن كرسى الاسقفية وينصبوا بدلا منه الراهب تيموثاوس العروسي يعقوبى مؤكداين بذلك حق الشعب فى اختيار بطريركه ووصلت هذه الاخبار الى القائد البيزنطى فهرول مسرعا الى الاسكندرية ، ولكن الشعب الذى تسامع بقرب عودته اراد ان يضعه امام الامر الواقع فقتل بروتيروس وعلق جثته .

وكان طبيعيا ان يشتد غضب الامبراطور لهذا الذى حدث تحديا لسلطانه ، فاستشار اساقفته فيما يجب عمله ، فأشاروا عليه جميعا بضرورة عدم الاعتراف بمختار الشعب ، وان لا مناص من التمسك بالعقيدة الخلقيدونية . فأصدر امره بعزل البابا الذى اختاره الشعب ، وعين بطريركا من قبله شاءت الصدفة ان يكون اسمه تيموثاوس كذلك فأصبح يلقب بالملكى تعريفا له عن تيموثاوس البعقوبى ولم يعترف الشعب بطبيعة الحال بالبطريرك الملكى وظل متمسكا بطريركه وهكذا بدأ ازدواج البطارقة فى الاسكندرية احدهما ملكى يرضى عنه الامبراطور ولا يعترف به الشعب ، والثانى يختاره الشعب ولا يعترف به الامبراطور .

واصبح من الاقوال التى تؤثر عن السكندريين (المونوفيزيين) فى هذه الفترة ان يقولوا للبطريرك الملكى : اننا نجبك غير اننا لا نريدك اسقفا علينا .

٤٧٤ م - الامبراطور ليو الثانى وزينون :

ارتقى عرش الامبراطورية عقب وفاة ليو خفيدة ليو الثانى ولما كان صغيرا فقد اشرك معه فى الحكم والده زينون ، فلما مات ليو فى نفس السنة أصبح زينون هو الامبراطور .

٤٧٥ م - تمردت بعض فرق الجيش ضد حكم زينون وبأيعت يازيل زوج أخت ليو الاول ليكون امبراطورا فاستطاع ان يستولى على القسطنطينية بدون قتال وان ينفى الامبراطور زينون ويعلن نفسه امبراطورا .

وقد كان من حسن حظ مصر وكنيستها ان يازيل كان يدين بالمذهب المصرى

أى وحدة الطبيعة الذى بدأ يعرف من ذلك الوقت بالملذهب اليعقوبى ولذلك فقد أصدر أمره بإلغاء قرارات خليقدونية وأعاد تيموتاوس العربسى اليعقوبى لكرسى الاسكندرية فدخلها دخول الفاتحين . وأعاد لمدينة افسس مقامها البطريكى الذى كان مجمع خليقدونية قد حرما منه مؤكداً بذلك سلطانه الروحى على كنائس الشرق ولكن من سوء حظ الكنيسة المصرية أن ذلك لم يدم لفترة طويلة ، فقد استطاع زينون المخلوع ، أن يحشد من القوى ما قدره على التغلب على يازيل وقتله خلال عامين .

٤٧٦ م - نهاية الامبراطورية الرومانية :

في ٤ سبتمبر من هذا العام خلع أوردكر زعيم القبائل المتبربرة رومولوس اغسطس آخر أباطرة الغرب ، وقد اعترف زينون باحتلال أوردكر لروما واسقاطه لامبراطورها ، بل وخلع عليه لقب البطريق وهو لقب الشرف لقادة المتبربرين وقد أسطخ المؤرخون على اعتبار هذا التاريخ نهاية الامبراطورية الرومانية .

٤٨٠ م - وفاة الانبا تيموتاوس :

توفى الانبا تيموتاوس بعد أن أقام على كرسى الكرازة المرقسية اثنين وعشرين سنة واحد عشر شهرا ، ومات قبل أن يمكن لزينون الذى كان قد عاد الى العرش أن يخلعه . وبموته انفتحت من جديد مشكلة كرسى الاسكندرية ومن ينولاه فقد اختار الشعب والاكليروس بطرس فيجوس ليكون بطريركا ولكن الامبراطور زينون لم يعترف به واعاد الى الكرسى تيموتاوس الملكى ليكون طوع يديه رمنفدا لسياسته في مصر .

واستعمل الشعب حقه في الاعتراض فبعث الى الامبراطور بكاهن مصرى يدعى حنا ليستعطف الامبراطور ويحمله على الموافقة على مختار الشعب بطرس فيجوس . ولما كان الامبراطور يرغب في تهدئة الجو والمصالحة فقد وعد الرسول خبرا ، وطلب من الشعب المصرى مهلة لتحقيق رغباته .

وحدث في هذه الفترة أن مات البطريك الملكى تيموتاوس فاختار الشعب والاكليروس الكاهن يوحنا ليكون هو البطريك ، وأراد الامبراطور ألا يتصلدى لراى الشعب فى الوقت الذى يعمل فيه على استرضائه فى نفس الوقت فأقام على الكرسى بطرس فيجوس الذى سبق للشعب أن اختاره بطريركا .

واتفق الامبراطور مع بطرس أن يجرى العمل طبقا لقرارات مجمع نيقيا وترك الخصام والعداوة بشأن قرارات مجمع خليقدونية .

٤٨٢ م - سياسة الوفاق الديني :

رأى الامبراطور زينون أن من الحكمة أن يضع حدا للخلافات االدينية بين كنائس الشرق الخلقية ، وساعده على ذلك سقوط روما في يد أوردكر من بعده في يد بودوريك فخرجت بذلك من دائره السياسة البيزنطية ، فأدسار في هذا العام ما يعرف بمشروع الاتحاد *Honotikon* وقد جاء في ديباجة هذه الوثيقة أن سعادة الامبراطورية إنما يتوقف على توحيد الصلوات والطقوس عند رجال الدين والرهبان والعلمانيين ، والضمان الحاصل على الوحدة المملوكة في الكنيسة والدولة ، فقد اتخذت الوثيقة العقيدة النسطورية من اعتبار المسيح ألها وادسانا في شخص واحد اسما لها وصرفت النظر عن السمات عن طبيعة المسيح وانكرت كل قول بخلاف ذلك سواء في مجمع خالما بيسة أو غيره من المجامع وأدانت نسطوريين وأرمن .

وقد ونعت هذه الوثيقة بـ *الوثيقة* يقرها المعتدلون من المونوفيزيين والخلقةيين وبالنسبة لغيرهم بالـ *الوثيقة* ، تم الاتفاق على حق المشرقيين في اختيار أسقفهم دون تدخل الامبراطور ، وقد اعبر الشرقيون هذا الاتفاق بـ *الوثيقة* بـ *الوثيقة* ، كما يستهم وثيقة عقيدة .

وبالمثل فقد انكر الانبا بطرس على الرهبان المتمسكين بقرار مجمع خالية دولية وأخطأ في ذلك ، فاعبر الامبراطور ذلك منه نعتا للعهد والاتفاق بأمر إلى اليه من هذا الأمر ، فاعبر بطرس بـ *الوثيقة* بالامانة ارسنيوس فقبض عليه وفاده بالقسطنطينية .

في سنة ٤٨٢ م وقد انقضى في سنة ٤٨٢ م

أولى الانبا بطرس بـ *الوثيقة* إلى كرسى الكرازة الأرثوذكسية ثمانى سنوات وثلاثة أشهر ، ثم انقضى في سنة ٤٨٢ م .

وقد وافق انطونيوس والكليروس في اختيار خليفة له في كنيسة الانبا انطونيوس (القسس) الذي يرأس بالرواغة والذين استلما أن يضموا حراج الكنيسة محلة أواسط انطونيوس زينون ثوبى مرة من أخبار المنازعات والخلافات العقائدية بالمدى .

في سنة ٤٨٢ م انقضى في سنة ٤٨٢ م

وفي الامبراطور زينون فارتقى انطونيوس اسطاسيوس الاول الذي تزوج بأرملة زينون وثا ، وصنف ثا كان رجلا قديرا شجاعا ، محبا للخير دعم مالية الدولة بأذنيه

الاقتصادية الحكيمة وخفض الضرائب ، وألقى صراع الادميين مع الوحوش على الضعفاء
والالعب وانشا حول القسطنطينية اسوارها الشهيرة التي جعلتها أمنع من هجاب
البحر ، والتي كانت تمتد أربعين ميلا من بحر مرمرة الى البحر الاسود وكان لها
الفضل في الأبقاء عليها قرابة عشرة قرون ، وكان من الحكمة بحيث أوقف العداء
للحزب المنوفيزى .

٤٩٦ م - وفاة الانبا اثناسيوس :

توفي الانبا اثناسيوس بعد أن أقام على الكرسي الرسولى ستة أعوام وعشرة أشهر
خلت من المنازعات ، واعتبر المصريون فيها أن عقيدتهم (المونوفونيه) هي التي
سادت أخيرا وانتصرت .

الانبا يوحنا :

وارتقى السدة المرفسية الانبا يوحنا بناء على اختيار الشعب بالكليروس .

٥٠١ م - غسارة الفرس على مصر :

اغار الفرس على سوريا ثم تقدموا الى مصر فاستطاعوا ان يجوزوا خلال الدلتا
ولكنهم وقفوا عند أسوار الاسكندرية التي استعصت عليهم ويبدو أن القائد الفارسي
خشى على نفسه مما نسميه استطالة خطوطه وابعاده عن قاعدته بغير أدل في
وصول نجدات ، فاضطر للانسحاب .

وقد كان لحصاره الطويل أثر في مدينة الاسكندرية اذ ابدا بمساحة تشييدة .

وقد عني انسطاسيوس بمساعدة الاسكندرية ، وانعاشها وترميم مبانيها العلية
وكانت مناره الاسكندرية الشهيرة قد أهملت خلال القرون السابقة حتى كاد ان
تخرب ، فأمر بترميمها واعادة العنلة بها .

وكان الحاكم الروماني على مصر في هذه السنة ايوستانيوس .

٥٠٥ م - وفاة الانبا يوحنا :

توفي الانبا يوحنا بعد أن أقام على كرسي الكرازة المرفسية ثمانية
وسبعة أشهر .

الانبا يوحنا (الثاني) :

وخلفه بابا بنفس الاسم وقد أقر الامبراطور اختيار الشعب والاكليروس ،
مما جعل المصريين يتصورون ان الامبراطور يدين بمذهب واحدة الطبيعة
(المونوفيزية) .

٥١٢م - نصب سويروس بطريركا على انطاكية وكان يدين بمذهب المصريين في
وحدة الطبيعة فعارضت القسطنطينية في اختياره فالتجأ الى الاسكندرية ويقول لنا
الاستاذ اسكندر صيفي في كتابه « المنارة التاريخية » انه عندما وصل الى مصر
ليقيم فيها لم يستطع أن يصادق على مذهب المصريين في جملته فقد كان المذهب
المصرى في هذه الفترة يقول بأن يسوع لم يصلب بل شبه للناظرين كما جاء فيما
بعد في القرآن ، ومذهبه لم يكن كذلك (ص ١٨٩) .

٥١٦ وفاة الانبا يوحنا :

توفى الانبا يوحنا الثاني بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية احد عشر عاما .

الانبا ديسقورس :

وارتقى السدة المرقسية الانبا ديسقورس وقد جاء في كتاب المنارة التاريخية
ان الشعب قاوم ارتقاؤه بدعوى ان رسامته لم تجر على السنن الرسولية مما اضطر
حاكم الاسكندرية الى ان يحرسه بقواته العسكرية حتى اجلسه على كرسيه
في كنيسة مار مرقس .

٥١٨ - وفاة الامبراطور انسطاسيوس :

مات الامبراطور انسطاسيوس وقد تجاوز الثمانين من عمره بعد ان حكم حكما
وشيدا طوال سبع وعشرين سنة ، ساد فيها الهدوء أرجاء الامبراطورية البيزنطية ،
وازدهرت اقتصاديات بيزنطة حتى لقد ترك خزانة مكدسة بالذهب بلغ في تقدير
البعض ٣٢٠.٠٠٠ (١) رطل ، وهو الذى سيمكن جوستينيان من القيام بحروبه .

اغتنب الملك جستين الاول الذى كان قائدا للحرس الامبراطورى ، فاستعان في
الحكم بابن اخيه المحنك جوستينيان . وكان اول ما واجهه هو تهديد فارس المستمر
للامبراطورية وكان انسطاسيوس قد اجتهد أن يحرك عرب حمير من اليهود اصحاب
تجارة الهند والحبشة مع مصر ضد فارس .

(١) التوى البحرية والتجارية في حوض البحر الابيض ص ٢٧ .

فلما ان ارتقى جوستين العرش ، سار في هذا الطريق فبعث بسفارة جديدة الى الحارث ملك الحميريين من اليهود ، فاستقبل السفارة استقبالا حسنا ووعد بمهاجمة الفرس وابقاء طريق تجارة الهند والحبشة مع مصر مفتوحا .

٥١٩ م - وفاة الانبا ديسقورس :

في مطلع هذه السنة او آخر السنة السابقة توفي ديسقورس بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية عامين واربعة اشهر .

الانبا تيموتاوس :

وخلقه على كرسى الكرازة المرقسية الانبا تيموتلوس .

٥٢٧ م - الإمبراطور جوستينيان :

مات الامبراطور جوستين الاول في نفس العام الذى اشرف فيه ابن اخيه جوستينيان رسميا على الحكم ، فلما ان مات جوستين ، اصبح جوستينيان هو الامبراطور وكان عمره خمسا واربعين سنة .

وجوستينيان سليل أبوين مزارعين من أصل اليرى واذا كان جوستينيان يذكر في التاريخ باعتباره رجلا قويا حازما طموحا ، فان التاريخ يكاد يعزوه كثيرا من الفضل فيما أحرزه من نجاح الى زوجته تيودورة التى لم تكن تقل عنه قوة وطموحا أن لم تزد .

ويقول لنا بروكبيوس - أهم مصدر لنا عن تاريخ جوستينيان - ان تيودورة كانت فى الاصل تعمل مدربة دبة فى السيرك قبل أن يتزوجها جوستينيان ثم اشتغلت ممثلة ثم انحدرت بعد ذلك الى أن تكون مومسا ، وقصدت الى مدينة الاسكندرية لفترة من الزمن ، ثم عادت الى القسطنطينية حيث تعرف بها جوستينيان ، ثم أصبحت زوجته .

أما جوستينيان من ناحيته فقد كان متقشفا فى طعامه وشرابه تقشف الزهاد فكان لا يأكل الا فليلا ويعيش معظم أيامه على الخضر ، بل انه كان كثيرا مايصوم حتى لتخور قواه .

وبالرغم من صيامه كان لا ينقطع عما اعتاده من الاستيقاظ المبكر وتصريف شئون الدولة حتى ساعة متأخرة ، وقد بذل جهده ليكون موسيقيا ومهندسا معماريا وشاعرا ومشرعا ، وفقيها فى الدين وفيلسوبا وامبراطورا يجيد شئون الامبراطورية .

وكان يقبل النقد الصريح ولا يفضب منه . وبالرغم من أن بروكبيوس مؤرخه الذى يمقته اشد المقت يصفه بأنه « رجل ظالم » فقد كان أسهل منلا من أى انسان آخر وكان احقر الناس فى الدولة ، ومن لا شأن لهم على الاطلاق يستطيعون كلما شاعوا أن يأتوا اليه ليتحدثوا معه (١) .

على أنه قد عمل على أن تصبح حفلات البلاط ومراسيمه غاية فى الابهة والفخامة حتى لقد فاقت ما كان يجرى أيام دقديانوس وقسطنطين . وكان يطلب الى من يمتلون فى حضرته أن يركعوا ويقبلوا اطراف نوبه الارجوانى أو اصابع قدميه من فوق حذائه . وحرص على أن يوجه بطريك القسطنطينية وأن يتقلد فلادة من اللؤلؤ .

٥٣٢ م - فتنة الزرق والخضر (٢) :

ومن اكبر الحوادث الى واجهت جوستينيان فى مطلع حكمه هذه الفتنة التى قامت فى هذه السنة بين الخضر والزرق وهما الحزبان الكبيران اللذان كان ينقسم اليهما سكان بيزنطة حسب لون الثياب التى كان يلبسها راكبو خيول السباق . وقد امتد هذا الانقسام الى أرجاء الامبراطورية وخاصة فى مدينة الاسكندرية ، حيث لم تكن المعارك العنيفة تنقطع بين اتباع هذين الحزبين .

وقد عمد جوستينيان الى ايقاف تيار المنازعات بين الحزبين فلتحد الحزبان ضد جوستينيان . واشعلوا نيران الثورة فى القسطنطينية ، وقتلوا عددا من رجال الشرطة ، واطلفوا سرح المسجونين ، وتملدى الثوار عندما وجدوا جوستينيان لا يتحرك لقمعهم ، فانتخبوا امبراطورا آخر ليكون بديلا من جوستينيان .

واوشك جوستينيان على الانهيار ، وفكر فى الهرب وهنا يبدأ دور زوجته الخطير فى حياته ، فقد كانت هى الى قوت عزيمته ، وحالت بينه وبين الهرب ، واصرت على وجوب المقاومة ، واستطاعت أن تقنع بلزاريوس قائد جيوش جوستينيان ، بأن يتولى قمع الثورة . فصعد بأمرها ، وقمع الثورة فى قسوة بالغة ، حتى ليقال أن عددا من ذبحوا أربى على ثلاثين الفا .

٥٣٣ م - مذبحة جوستينيان :

كان جوستينيان قد أصدر أمره عام ٥٢٨ م لفقهاء دولته أن ينظموا قوانين الدولة

(١) دورانت .

(٢) لم استطع أن اتمالك نفسى وأنا اسجل هذا العنوان ، من أن أشير الى هذه المقابلة السجبية بين هذا العنوان ، وبين ما كان يحدث فى مصر بعد هذا التاريخ بأربعة عشر قرنا ... حيث كانت تقع مصاصات بين شباب مصر الفتاة (ذوى الاعمصة الخضراء) وشباب الوفد (ذوى الاعمصة الزرقاء) .

ويجمعوها ويصلحوها ، فأصدرت اللجنة الجزء الأول من عملها بعد عام واحد من تشكيلها ، فصدر عام (٥٢٩) تحت اسم « القانون الدستوري » .
وأعلن الإمبراطور في هذه السنة إلغاء كل ما سبق هذا القانون الدستوري من تشريعات .

ثم انتقل أعضاء اللجنة الى القسم الثاني من مهمتهم ، وهو أن يضموا في مجموعة واحدة آراء فقهاء القانون الروماني ، في تفسير مواد القانون المختلفة بحيث يصبح لها قوة القانون ، ويتحتم على القضاء اتباعها . وفي عام ٥٣٣ نشرت هذه المجموعة تحت اسم (مجموعة القوانين والمبادئ المدنية) ، والتي ظلت منذ صدورها حتى عصرنا الحديث تعتبر أكبر مصادر التشريع الأوروبي بصفة عامة ، وهي التي اشتهرت في التاريخ باسم « مدونة جوستينيان » ولعله ليس هنالك ما يدل على عظمة هذه المدونة من أن نعرف انها تستعمل فيما تستعمل على أنه « لا يجوز القبض على أي إنسان الا بأمر أحد كبار القضاة شريطة أن يحدد في قرار القبض موعد المحاكمة تحديداً دقيقاً لا يجوز مخالفته بأي حال من الأحوال » .
واحسب أنه لا يزال كثير من المجتمعات التي نوصف بالمدنية والرقى في عصرنا الحاضر نفتخر الى مثل هذه الضمانات الكبرى لحرية الإنسان وكرامته .

ولقد استعرض دورانت في كتابه الكثير من أحكام هذا القانون واثني عليها ، ومع ذلك فلم يتمالك نفسه أن يمد بصره الى ما بعد أيام جوستينيان وكتب أن الترفيزين قد لاقوا أشد العذاب في ظل هذا القانون مما جعلهم « يمتحنون صدورهم للمسلمين » وكانوا أكثر رخاء في ظل القرآن منهم في ظل هذا القانون (١) .

٥٣٦ م - وفاة تيموثاوس :

توفي الإبا تيموثاوس بعد أن أقام على كرسي الكرازة المرقسية سبعة عشر عاماً بأربعة أشهر . برعرب فيها وازدهرت المونوفيزية لأن الخليقدونين كانوا لا يزالون أقلية ضئيلة .

على أن المذهب المونوفيزي نفسه لم يلبث أن أصابه الانسحاق لظهور عديد من النحل والعروض حول جسد المسيح بعد صلبه وهل ينطرق اليه الفساد كبقية الأجساد أو لا ينطرق .

كما وجدت نحلة أخرى تتساءل عما اذا كان المسيح بحكم طبيعته البشرية يحيط بكل الامور أم يجهل شيئاً منها . وهكذا ساد الاضطراب صفوف المذهب المونوفيزي . وقد انتهزت الإمبراطورة تيودورة قرصة وفاة الانبا تيموثاوس لكي تتدخل في اختيار خليفته . وقد كاسب هي نفسها ندين بالمذهب المونوفيزي . فوقع اختيارها على

(١) ص ٣٢١ جزء ١٢ .

الشماس بيودسيوس ليكون بطيركا على الاسكندرية وقد كان من المونوفيزنيين المعتدلين ، وانتهر بميله الى المسالمة .

الانبا ثيودسيوس :

ارتقى الانبا ثيودسيوس السدة المرقسية ، ولكن سكان الاسكندرية وقفوا في وجهه واعتبروه صنيعا الحكومة البيزنطية ، كما اتهموه بالاحاد لانه لم يكن يدين برأيهم القائل بعدم فساد جسد المسيح وطلبوا أن يكون البابا عليهم هو جاتينوس رئيس السماسة ورعيم الحزب الفائل بعدم فساد جسد المسيح ، ولم يلبثوا أن هاجموا بيودسيوس الذي لم يكن قد مضى على نوليته منصبه أكثر من يومين ، وكادوا يتوصلون الى قتله لولا أن نجا منهم بنفسه . وأقام التعصب جاتينوس بطيركا .

ولكن الإمبراطورة نيودوره أعادت ثيودسيوس الى الاسكندرية مصحوبا بقوة من الجيش تحت قيادة نارسيس ابنه على كرسيه ، والقبض على جاتينوس .

فانداعب نيران الثورة في الاسكندرية ، وسالت الدماء وسقط المئات والالوف من الضحايا ، واشترك النساء في الفتنة على ما يقول المؤرخون المعاصرون فكان يلقين من فوق أسطح المنازل كل ما يصل الى أيديهن من القذائف على جند نارسيس ، الذي كان كلما اشتد في اجراءات القمع كلما ازدادت الفتن اشتعالا والشعب صلابة ونماسكا ، فلم يجد نارسيس امامه الا أن يحرق جانبا من المدينة للقضاء على الفتنة .

فلجأ السكندريون الى المقاومة السلبية بعد المقاومة الايجابية فقاطعوا الكنائس بحيث لم يعد يرادها الا الموظفون . .

واذا كان الانبا ثيودسيوس رجلا صادقا امينا ، فقد رأى أن يستجيب لارادة الشعب ، وأن يتخلى عن منصبه ، وأن يعود الى القسطنطينية .

وكان جوستينيان قد استقر عزمه في هذه الفترة على توحيد العقيدة الدينية في أرجاء الإمبراطورية على أساس مقررات مجمع خليكندونيا ، ووضع حدا لسياسة التسامح التي سار عليها حتى ذلك الوقت ، وتصور أنه يستطيع أن يعتمد في تنفيذ خطته الجديدة على ثيودسيوس باعتباره موطورا من المصريين ولكن ثيودسيوس رفض في اصرار أن يكون أداة لتنفيذ السياسة الجديدة ، سياسة التكنيل والارغام .

فغضب عليه جوستينيان واعتبره كافرا وملحدا وقرر عزله عن بطيركية الاسكندرية ، ثم أصدر أمره باعتقاله في قلعة دير كوس . وقد كان هذا الموقف من جانب ثيودسيوس كفيلا بالهيب عواطف المصريين وأن يحملهم على الالتفاف حوله واعتباره زعيمهم الشرعى الذى لا يدينون لغيره بالولاء .

بولس البطريرك الملكي :

اختار جوستنيان أحد رؤساء الاديرة القريية من الاسكندرية ، وقد تصادف وجوده في القسطنطينية في ذلك الوقت ليكون بطريركا على الاسكندرية . ووجوده بسلطات مطلقة استثنائية بما في ذلك عزل رجال الدين وتعيين غيرهم ممن يدينون بالمذهب الخلقيدوني ، بل خوله الحق في أن يكون له يد في تعيين الدونات أى حكام أقسام مصر المختلفة .

وقد استقبل الاسكندريون الاسقف الجديد أسوأ استقبال واعتبروه دخيلا عليهم وخائنا لفصيتهم ولقبوه باسم يهوذا اشارة الى ارتداده عن المذهب المونوفيزي .

ولكن بولس رد على الاسكندرية في عنف مستخدما ما زود به من سلطات فامر باغلاق الكنائس المونوفيزية ، ثم سلمها بعد ذلك الى الخلقيدونيين ، ومضى في اضطهاده لمعارضيه في الراى الى حد لم يبلغه الحكام الوثنيون في اضطهاد المسيحيين ، حتى قيل أنه كان يلقي بالمصريين في الحمامات ليكونوا وقودا لتسخين مياهها .

على أن ذلك كله لم يوهن من عزائم المسيحيين المصريين من اتباع المذهب المونوفيزي ، والذين مضوا في سياستهم السلبية وتمسكوا أكثر وأكثر بزعيمهم الروحي الانبا نيودسيوس .

٥٣٨ م - إعادة تنظيم مصر :

كان للموقف الجديد الذى وقفه جوستنيان من العقيدة الدينية المصرية ، أسوأ الأثر على العلاقات بين مصر وبيزنطة ، فاشتدت كراهية الناس للادارة الامبراطورية فوق كراهيتهم القديمة التى كلن سببها انتشار الفساد والرشوة بين رجال الادارة .

وبدأت احوال البلاد الاقتصادية تضطرب ، فارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا وعزت ضروريات الحياة . . . وبدأ مرجل السخط ينفى مهددا بالانفجار

وهنا قرر جوستنيان أن يتدخل لاصلاح الادارة المصرية اصلاحا أساسيا ، ليعيد النظام والاستقرار والازدهار الذى فقدته البلاد ، فأصدر قانونه المشهور الخاص بإعادة تنظيم الاحوال في مصر ، والذي اشتهر باسم القانون رقم ١٣ .

وقد أفاض الدكتور السيد الباز العربى في مؤلفه مصر البيزنطية في تفاصيل هذا القانون ونواحيه الادارية والمالية والقضائية والعسكرية .

وقد أعاد هذا القانون تقسيم مصر الى خمس دوائيات تستقل بعضها عن بعض في المناحية الادارية يرأس كل منها حاكم (دون) يجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية ، على أن يبقى من اختصاص دون الاسكندرية (الارجسنال) تلقى القمح الخاص ببيزنطة وأرساله اليها .

• راعاد القانون . باسم السلطة القضائية . ونظام الشرطة كما أعاد تنظيم الضرائب وخاصة ضريبة الأرض التي أصبحت عماد حياة بيزنطة كما كانت من قبل عماد حياة روما ، وأعاد تدوين اختصاصات مجالس المدن ، واختصاصات كل مؤسسة من موظفي الإدارة .

• ويبلغ من شموخ هذا القانون . . . أن تعرض لاجور شمعن القمح من الاسكندرية إلى التسلطية فزاد في فئائها .

• وغنى من البيان أن الهدف الأول من اجراء هذه التنظيمات لم يكن غيرا للمواطنين وإنما هو نفس الهدف الذي حدا بأستفسر هادريان من قبل إلى وضع مثل هذه الخطط ، وهو تنظيم البلاد لضمان حسن الجباية ، واستمرار أكبر قدر من الضرائب .

• ولكن روح الاستقلال التي نجحت في موقف الكنيسة المصرية سرعان ما احبطت مقاصد الامبراطور . . . ووقع الاستطدام بين ما وضعه جوستنيان من نظم وما كان سائدا في مصر من تقاليد ، ووصل التصادم إلى ذروته حول القضية الدينية .

٥٣٩ م - التحاكم والاستقف :

• كانت الامبراطورة نيودورة ، قد نجحت في حمل الامبراطور على عزل بولس وتعيين خائف له اسمه زوبل ، غير أنه كسلفه لم يستطع أن يتولى كرسيه الا في مساهة الجسد .

• وقرر جوستنيان فيما يبار ، أن يمضي في الشدة مع المصريين إلى آخر مداها فارسل إلى مصر بطريرك ملكيا جديدا رسم إلى سلطته الدينية سسلطة الحاكم العسكرية ، وطالب منه أن يتخذ كل الوسائل لعزف المصريين عن مذنب الوحدة والاشد بالبادىء الخلقية وثبة وكان هذا البطريرك يدعى ابولينورس . ووصل رجل الدين إلى الاسكندرية ، بهلبس فاذا انجند ، حتى اذ بلغ الكنيسة خلع ثوب الجند واربدى لباس الاسقف ، ثم راج يوجه الحديث إلى أهل الاسكندرية المجتمعين بالعبارات التالية : « يا أهل لاسكندرية ، يا أيها الأشرار . . . أن رجعت إلى الإيمان وتخلبتم عن البدعة البعقوية فإن ذلك خيرا لكم ، وأن لم ترجعوا عما أنتم فيه ، فسوف يبعث إليكم الامبراطور من بهدر دماءكم ويستحيى نساءكم ويتم أبناءكم » وكان طبعيا أن يرد على الاسكندريون هذه الدعوة بمنهلا فخصوه بالراب والحجارة ، ولكن الرجل كان معدا عذبة وشجرا كبده ، فقد أمطأ إشارة للجنود المبرصين ، فانقضوا على المحدثين في الكنيسة وراحت تدبح وتقتل ، حتى تغطت أرض الكنيسة بالدماء والجثث وانسلت المذابح من الكنيسة إلى خارجها في أرجاء المدينة ، وتسرف بعض الروايات في عدد الذين قتلوا فتجعلهم مائى ألف . . . ولكن ساويوس الاشمونى يقول لنا بهيارة عامد : أن ما حدث وهناك لم يكن له مثيل حتى في زمن الوثنيين .

وربه، يكون ابولساريوس الحاكم ، قد نجح في توزيع المصريين المؤجدين ولكن البطريك والرسم الروحي قد قتل فلم يكن لكل ما عدله سوى ابن واحد ، وهو ازدياد المصريين بمسكا بمبدئهم ، واصرارا على رعامه بطريركهم المنتصر تيودسيوس .

٥٤٠ م - الحرب الفارسية الكبرى :

كانت الحرب بين الفرس والرومان ، منذ جاء الرومان الى الشرق لا تكاد تهدأ الا لسنين من جديد .. وقد انهمك جوسنيان في السنوات الخمس الاولى في حرب طاحنة مع الفرس . ولكنه اذ كان يربو ببصره نحو الغرب ، واعاده توحيد الامبراطورية الرومانية ، وبسط سيادته على البحر الابيض المتوسط ، فقد حمل فائده بازاریوس على عقد صلح مع الفرس . على اساس أن يدفع لهم جزية سنوية .

وان تضاع جوسنيان في ظل هذا الصلح ، أن ينشئ هو بحريه وسيادة في البحر الابيض المتوسط مكنته من اعادة شمال افريقيا . وإيطاليا وجزر البحر الابيض واسبانيا الى سلطانه .

ولكن كسرى الاول ملك فارس ، لم يلبث أن نش الحرب من جديد على بيزنطة ، هذه الحرب التي توصف بالكبرى والتي ستظل معتمدة الاوار بين الدولتين لمدة قرن من الزمان ، والتي لم يضع لها حدا .. الا فيصام الدولة الاسلامة التي ستعظم جيوش الدولتين معاً .

امتداد الحرب الى البحر الاحمر :

وقد كان المظهر الجديد للحرب بين فارس وبيزنطة في هذه الحقبة من التاريخ ، هو هذا الصراع في جنوب البحر الاحمر بين دولة اكسيوم (الحبشة) التي ترتبط ببيزنطة من ناحية ، وبين العرب في بلاد اليمن الذين يرتبطون بالفارس من ناحية اخرى .

وقد كان الرباط الذي يجمع بين كل من الطرفين .. هو المنافسة حول تجارة الشرق ، وهى تأخذ طريق جزيرة العرب فبلاد فارس ، ام طريق الحبشة فالبحر الاحمر فمصر لتأخذ طريقها الى بيزنطة .

وسيطر هذا الصراع ممتدا حتى مواعيد النبي العربي عام ٦١٠ م ، عندما تزجه جيش حيتي تحت زعامة ابرهه الى مكة عازما أن يهدم الكعبة ، فصدته هناك ارادة السماء .

وقد ظهر أثر الحرب بين الفرس والروم في مياه البحر الاحمر على ارض مصر ، اذ أن جوسنيان حول الاديرة الكبيرة المنتشرة عبر صحراء مصر الشرقية ، الى حصون عسكرية لتحمي الطرق المؤدية من مصر عبر سينا الى سوريا ، بل وانتمت

سلسلة أخرى من الاديرة حشدت بالرهبان والجنود في آن واحد لتكون قلاع دفاع ضد الجيوش التي قد تحدثها نفسها بغزو مصر عن هذا الطريق .

٥٤٨ م - موت الامبراطورة تيودورة :

ماتت الامبراطورة تيودورة فكانت وفاتها أكبر ضربة حلت بالامبراطور حطمت شجاعته وصفاء ذهنه وقوة بدنه على ما يقول مؤرخوه . واذا كان قد بلغ من العمر عند وفاتها خمسا وسبعين سنة ، فقد ترك شئون الحكم لعماله ، وأهمل وسائل الدفاع ، وأنهمك في المباحث الدينية .

٥٥٣ م - مجمع القسطنطينية الثاني :

كانت تيودورة قد استطاعت ان تقنع جوستنيان قبل وفاتها بضمه للمذهب يعقوبى (المونوفيزنى) وقد ظلت هذه النزعة تقوى عنده حتى قرر أن يضعها موضع التنفيذ ، فدعا الى عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية عام ٥٥٣ فلم يحضره أحد من أساقفة الغرب ، وعرض جوستنيان عدة مبادئ على المجمع فوافق عليها المجمعون ، ولكن الكنيسة العربية رفضها ، فعاد النزاع بين الكنيستين الشرفية والغربية من جديد .

ووصل الامر بجوستنيان فى اخريات حياته الى نقيض كل ما حارب عليه طول حياته من معتقدات دينية اذ أعلن أن جسد المسيح غير قابل للدنس كما أعلن أن طبيعة المسيح البتربة لم تتعرض فى يوم من الايام لحاجة من حاجات الجسد الفانى ، ولا لتىء من مساوئه وقد كان ذلك اقرارا من جوستنيان بما يؤمن به المصريون من وحدة الطبيعة . وقد حذر رجال الدين فى القسطنطينية ، من أنه اذا مات قبل ان يرجع عن هذه الخطيئة « فسيلقى فى نار جهنم ويبقى فيها الى ابد الآبدين » . ولكن جوستنيان مات قبل ان يرجع او يتوب عما طلب منه أن يموب عنه .

٥٦٥ م - موت جوستنيان :

وأخيرا مات جوستنيان . بعد أن تصور معاصروه أنه لن يموت أبدا وبعد ان وصل بامجاده الى حد قللوا فيه ان الدنيا لن نسعه فى دنيا الحرب والسياسة فقد تضاعفت رقعة الامبراطورية فى عهده ضعفين .

واعاد سلطان بيزنطة على كل البحر الابيض المتوسط بتسواطئه وكل ما فيه من جزر وما يقع عليه من بلاد مستخدما فى ذلك الاساطيل البحرية التى غيرت من طبيعة

سلطان بيزنطة فأصبح يعتمد على القوة البحرية أكثر من اعتماده على الجيوش البرية الجراة ، وهو ما اتاح للاسكندرية أن تواصل لعب دورها الرئيسى فى البحر الابيض كأعظم مدينة فيه .

وتشهد مدونته القانونية بمقدار ما وصلت اليه القسطنطينية من ازدهار ففى .

كما تشهد كنيسة اياصوفيا (جامع اياصوفيا) بما وصل اليه الفن البيزنطى من تألق ، وما استطاعت القسطنطينية أن تبلغ من عظمة جعلتها أكبر مدن العالم المعروف يومئذ بلا جدال .

الامبراطور جوستين الثانى :

تولى العرش جوستين الثانى ابن أخت جوستينيان بمساعدة طبريوس قائد الحرس . وقد اشتهر جوستين الثانى بأنه حاكم شديد الحذر حاول تركيز اهتمامه فى معالجة ما أصاب الامبراطورية من أزمة اقتصادية بعد أن ترك جوستينيان خزائنها خاوية على عروشها نتيجة حروبه المستمرة ، وعطاياه الباذخة لشراء كل القوى المحيطة بامبراطوريته .

٥٦٧ م - وفاة الانبا ثيودسيوس :

توفى الانبا ثيودسيوس فى منفاه بعد أن أقام من الناحية الروحية على كرسي الكرازة المرقسية واحدا وثلاثين عاما وأربعة شهور . وأن كان البطريرك الفعلى هو ابوليناريوس الملكى الذى لم يلبث أن مات قبل وفاة جوستينيان ، وتعين مكانه بطريكا ملكيا (يوحنا) فلم يحصل على رضاء أى من الحزبين المصرى المونوفيزى أو البيزنطى الملكى فقد اتهمه الآخرون بالمانوية .

على أنه لم يلبث بدوره أن مات وخلا الكرسي البطريركى .

الانبا بطرس الرابع :

واختار المصريون « الاقباط » أبلا روحيا لهم عقب وفاة ثيودسيوس الانبا بطرس الرابع ليكون زعيما لكنيستهم « المونوفيزية » وقد كان بطرس الرابع شماسا رافق ثيودسيوس فى منفاه وكان من أقرب المقربين له .

وكان بعض الاساقفة المصريين قد اختاروا راهبا مصريا اشتهر بالزهد يسمى تيودور ، ولكن شعب الاسكندرية اعترض على هذا الاختيار الذى تم سرا ولم تجر استشارتهم فيه فتنازل تيودور عن اختياره حتى لا يثير النزاع والشقاق .

واذا كان جوستين الثانى قد قرر أن يصالح المصريين ، فقد سمح لبطرس الرابع أن يعود للإقامة فى الاسكندرية بعد أن كان البطارقة المصريون يقيمون فى دير يبعد

نسعة امبال من الاسكندرية ، وقد اعترت هذه العودة بمثابة انتصار جديد للكنيسة « المونوفيزية » ، وقد عمل بطرس من جانبه على تدعيم هذا الانتصار فرسم ستة وسنين اسقفا دفعة واحدة .

٥٧٠ م - مولد محمد بن عبد الله :

في هذه السنة ولد في مكة التي تقع في اقفر جزء من صحراء جزيرة العرب محمد بن عبد الله ، الذي سيكون مقدرا له أن يقوض سلطان كسرى واوروم معا ، وان يقرض سلطانه الروحي على شعوب الشرق الاوسط وتسمال افرقيا منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .

وقد عاصر مولده اهم حادث في جزيرة العرب دحر جزيرة العرب . . حيث امتد الصراع بين الفرس والروم الى قلب الجزيرة العربية . . فقد قصص جيش حبشي بقيادة أبرهة لتخريب بيت الله الحرام في مكة . . وكان الجيش الحبشي المسيحي الضالع مع الروم يستعمل في مقدمته فيلا ، فسموا أصحاب الفيل (١) . ومحمد (عليه الصلاة والسلام) هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن كنانة بن النضر بن عبد مناف ، بن عدنان ينتهي نسبه الى اسماعيل نبي الله الذي رزقه سيدنا ابراهيم الخليل من هاجر المصرية التي اهداها اليه فرعون مصر بعد زيارة ابراهيم اليها فانجبت له اسماعيل فنفست عليها سارة التي كانت عتيما لا تنجب فطلبت من ابراهيم أن يغرب هاجر وولدها . فسار بها حتى جلاء الى هذا الموقع حيث بنيت مكة وتركها في هذا المكان (٢) وانصرف عنهما .

نقدّر لهاجر أن لا تهوت جوعا أو ظمأ هي وابنها اذ تفجرت عين زمر وجاءت قبائل من العرب فسكنت باذنها الى جوار الماء . . . وهكذا شب اسماعيل واستغرب فكان ابا للعرب المستعربة اجناد محمد .

فاذا كان تاريخ مصر بعد سنوات قليلة من الآن سترتبط اشد الارتباط بالاسلام فليس ذلك الا جنى لثمرات ما زرعت سمر من قبائل .

وقد أشار الرسول سلوات الله عليه اليه هذه العلاقة التي تربطه بمصر اذ قال لاصحابه في أحد الايام علو سبيل التنبؤ الذي صدق :

« ستفتحن مصر من بعدى ، فأوحىكم بأهلها خيرا ، فإن لكم بها رحما وثمة »
وفي رواية : نسبا .

(١) يشهد القرآن الكريم الى هذا الحادث بقوله : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم نارا ابيد ، فمهم سمحارة من سجيل ، فجعلهم كصفا مأكول . وقد روى عن رسول الله قوله : ولدت في عام الفيل .

(٢) أدرج الى فيصل هذه القصة كما وردت في البخاري ، وفي كتاب مسالك الحج للمؤلف .

ومولد اسمه من هاجر المصرية هو الرحم الذي يربط العرب المستعربة وعلى
رأسهم سيدنا محمد بمصر ... أما الدمة أو النسب والصور فسرد علينا تفصيله
دسما بمصر

٥٧١ م - وفاة الانبا بطرس الرابع :

توفي الانبا بطرس البطريرك الأنطى ، اذ لم تطل مدة اقامته على الكرسي الرسولى
سوى عامين اثنين . كلن البطريرك الذى فى اثنتا وما هو يوحنا الثانى .

الانبا دميانوس :

رجلس على الكرسي الرسولى روحبا الانبا دميانوس الذى اختاره الشعب
والاكابر من المصريين ليكون البابا الخامس والثلاثين على كرسي الكرازة المرقسية .
وهو حاول الانبا دميانوس ان يعالج الضعف الذى طرا على الكنيسة المونوفيزية ،
حيث انشعبت على نفسها فقد اما خطم او امرخ المونوفيزيين الى مالا يقل عن عشرين
نحلة فكان دميانوس بكر من الردد على مدينة الاسكندرية ويطلب مدد اقامته
بها ويعقد المجتمع الدينية وبعض فى الكنائس .

وفد هذا له هذه الحرية سياسة التسامح الجديدة التى سلكها البطارقة المليون
فى هذه الفترة وخاصة الاسقف الولوج (٥٨١-٦٠٨) الذى استمر بالتبحر فى اللاهوت
وقوة بباة وحسن منطقته ، فجعله ذلك يتسامح مع ناسيانيوس الذى استقل من
ناحسه هذه الفرصة فعمل على اعادة الحيوية الى الكنيسة « المونوفيزية » .

٥٧٧ م - النوبيون يعوثون للهجوم على مصر :

كان من بين الاوامر التى اصدرها جوستينيان لقائده ياريسس عندما بعث به
الى مصر عام ٥٧٣ م أن يضع حدا الوثنية فى جنوب مصر وذلك بتدمير معبد فيلة
آخر معقل امادة ايزيس . وقد كان هذا المعبد هو قبلة النوبيين القديسة
وكذلك قبائل البليمى .

وقد كانت هذه الرابطة الروحية هى التى تبقى قبل البليمى والنوبيين فى حالة
هدوء وسكينة ... فلما أن دمر معبد ايزيس تجددت غارات النوبيين وقبائل البليمى
على جنوب مصر .. بحيث نرى أن ثيودوسيوس حاكم صبية يرى نفسه ملجأ لاهادة
تحصين جزيرة فيلة ، التى كانت قد أصبحت فى هذه الفترة اسقفية كما تحول معبد
ايزيس الى كنيسة .

٥٨٧ م - الامبراطور تيرىوس :

مات جوستين الثانى بعد ان كان قد اصيب بلوثة من الجنون ، فخلفه على العرش تيرىوس قائد الحرس الامبراطورى الذى رفع جوستين على العرش ، الذى كان قد أصبح الحاكم الفعلى للبلاد من عام ٥٧٤ م .

سوء الاحوال فى مصر :

يقول لنا ملن فى كتابه « مصر تحت الحكم الرومانى » ان مصر فى هذه المرحلة كانت تندفع نحو حالة من الفوضى ، فأصبحت الحكومة فى جانب والشعب فى جانب آخر ، وكل من الطرفين يفعل ما يحلو له ، بينما وقفت حكومة القسطنطينية مترددة عاجزة عن حسم الامور ، فبعد ان اصدرت امرها بالقبض على قسائد الجيوش فى مصر استتوماخوس ، واقتيد الى القسطنطينية ليحاكم بتهمة سوء التصرف ، ولكنه لم يكد يصل مقبوضا عليه حتى صدر امر بالاعفو عنه ، وكلف بالعبودية الى مصر ليواجه هجوما جديدا من النوبيين على جنوب مصر ، فلم تكن التحصينات التى اقيمت فى جزيرة فيلة بقيادة على رد هجماتهم .

وعاد استتوماخوس ، حيث سجل لنا التاريخ انه خاض معارك ضد النوبيين والموريتانيين وانتصر عليهم .

٥٨٢ م - موت الامبراطور تيرىوس وولاية الامبراطور « موريس » :

مات الامبراطور تيرىوس وخلفه زوج ابنته الامبراطور موريس .

تدهور الاحوال فى مصر :

ويمضى ملن فى كتابه فيحدثنا عن استمرار تدهور الاحوال فى مصر فى هذه المرحلة كما تكشف عن ذلك بعض الوثائق التى عثر عليها . فتحدثنا بعض هذه الوثائق عن نهب بعض الرجال قريتين من قرى الدلتا وهما قريتا كيثوبوليس وبوسيريس « بدون اذن حاكم الاقليم » .

وعندما هددهم حاكم الاسكندرية بالعقاب ، حشدوا قوة اضافية من الرجال واستولوا على القمح الذى كان يرسل من الريف الى الاسكندرية فأحدث ذلك مجاعة بها .

وتصرفت الحكومة بتردها المعهود فعزلت حنا حاكم الاسكندرية ولكنه لم يكد يصل الى القسطنطينية ويشرح موقعه حتى أعيد الى منصبه .

فلم يكن لهذا التصرف من اثر الا زيادة اشتعال الفتن فى الاقاليم المصرية ، بحيث احتاج الامر الى ارسال جيش لاقمادها .

كما وقع تمرد آخر في بلدة بانابوليس تحت قيادة من يدعى آزريوس ولكنه كان اقل خطرا .

٥٨٩ م - المرحلة الاخيرة من الحرب الفارسية :

كان كسرى الاول قد مات عام ٥٧٦ وخلفه ابنه كسرى الثاني فنشبت ضده ثورة عسكرية في هذه السنة (٥٨٩) أدت الى خلعه عن العرش ، فهرب الى القسطنطينية مستنجدا بعمدو الفرس التقليدي امبراطور بيزنطة ، فاستقبله الامبراطور موريس استقبالا حسنا ، وانتهاز هذه الفرصة ليلبسط سلطانه على بلاد الفرس من خلال مساعدته لكسرى ، فأمدّه بجيش بيزنطي كبير استطاع بواسطته أن يسترد عرشه ، ومضى موريس في تنفيذ خطته فزوج كسرى بابنته واتخذ منه ولدا له .

٦٠٢ م - الامبراطور فوكاس :

تمرد أحد قادة الجند ويدعى فوكاس ضد الامبراطور موريس ، وقد كان فوكاس هذا جنديا جلفا غليظ القلب مشوه الخلقة مجردا من كل قدرة وكفاية ، سوى استخدام القوة الوحشية بحيث لم يكتف بأعدام الامبراطور موريس ليستولى على منصبه بل اعدم جميع ابنائه وكل من يمت اليه بصلة أو أيده أو ناصره .

وقد أشعل هذا الحادث نيران الحرب من جديد بين الفرس والروم التي كانت قد خبت أيام موريس .

والحق أن كسرى منذ زمن طويل عقب عودته الى عرشه ، لم يكن ينظر بعين الرضا للعلاقة التي أصبحت تربطه بامبراطور بيزنطة ، ولم يكن يحصل دون قطع العلاقات سوى احساسه بالدين الذي يدينه به الامبراطور موريس ، وصلة المصاهرة التي تربطهما . فلما ان قتل فوكاس موريس ، استغل كسرى الثاني هذه الفرصة ، فأعلن غضبه لهذا الحادث وأصدر أمره لجيوشه فزحفت على البلاد البيزنطية فأستولت على ارض الجزيرة وسوريا وأوغلت في الاناضول حتى مدينة خليقندونيا

٦٠٦ م - وفاة الانبا داميانوس :

توفي الانبا داميانوس بعد أن أقام على كرسي الكرازة المرقسية ابا لاقباط مصر خمسا وثلاثين سنة واحد عشر شهرا .

وكان البطريك الملكي خلال الجزء الاكبر منها هو (أيلوج) .

الانبا نسطور :

واختار النسطور والاكايروس القبطي الانبا انستاسيوس ليكون بطريركنا وابا
وزعيما روحيا لهم .

اما القسطنطينية ، فقد ارسلت بطريركها ملكيا جديدا وهو نيوذوروس .

٦١٠ م - ظهور هرقل :

دبرت مؤامرة لخلع فوكاس ونقله من القسطنطينية . تسرع هرقل حاكم
افريقية لتأييدها وكان ابن هذا الحاكم يدعى بنفس الاسم « هرقل » وكان اكثر
شبابا وقوة من ابيه فآخذ على عاتقه الحرب ضد فوكاس .

مصر بين فوكاس وهرقل :

تحولت مصر الى ميدان الصراع بين فوكاس وهرقل الشاب فقد ارسل هذا
الاخير القائد بوناكيس ليستولى على مصر ، تقديرا منه ان الاستيلاء على مصر يفتح
بيزنطة مصدرا قويا . وقد استطاع بوناكيس ان يهزم الجيش الموالي لفوكاس
خارج مدينة الاسكندرية .

بينما فتح الاسكندريون مدينتهم لاستقبال بوناكيس في حماس منقطع النظير ،
اذ تضامن الشعب مع رجال الكنيسة في تأييد هذه الثورة الجديدة على بيزنطة ،
لبيستعيدوا سلطان كنيسهم « المونوفيزية » واستقلالها عن بيزنطة .

ولتن فوكاس ارسل من ناحيته جيشا جديدا تحت قيادة برونوسوس ، الذي
استطاع ان يهزم بوناكيس ، بل وان يقتله .

واغارت فلول بوناكيس المنهزمة على مدينة الاسكندرية التي اغلقت ابوابها
وارسل هرقل الابن مددا الى الاسكندرية تحت قيادة نيكيثياس ، الذي اعد
تنظيم فلول الجيش الذي انحاز الى الاسكندرية وخرج للاقاة برونوسوس فانصر
عليه واجبره على الفرار الى القسطنطينية ، تاركا مصر خيرا تحت سلطان نيكيثياس
ليحكمها باسم هرقل .

٦١٠ م - الامبراطور هرقل الاول :

في الوقت الذي كان فيه نيكيثياس يتجه بجيشه نحو الاسكندرية كان
هرقل يستقل اسطولا بحريا ويبحر به نحو سلونيكيا تمهيدا للهجوم على
القسطنطينية نفسها .

وفي هذا العام تمكن من اقتحام القسطنطينية بعد أن ثارت الجماهير داخل المدينة ضد فوكاس ، ونادوا بهرقل امبراطورا على بيزنطة .

ويعتبر هرقل مؤسس بيت امبراطوري جديد ، وفي عهده كما ستري أخذت بيزنطة صورة جديدة اقرب ما تكون الى اليونان منها الى الرومان واللاتين ، واذا كان هرقل قد بدأ حكمه بأسطول بحري فكانه كان يكشف عن حجب الغيب ، وان لن يبقى على بيزنطة بعد ذلك في الوجود الا قوتها البحرية ونشاطها التجارى .

فهرس

موسوعة تاريخ مصر

الجزء الاول

صفحة

٣	الاهداء ...
•	المقدمة ...
١٧	الفصل الأول : ما قبل مصر والمصريين - وحدة الأرض ووحدة الجنس الإنسانى ...
٣١	الفصل الثانى : مصر والنيل جيولوجيا وجغرافيا وشعب ...
٤٠	مصر ما قبل الأسرات ...
٤٣	الفصل الثالث : الدولة القديمة ...
٤٥	الأسرة الأولى ...
٤٦	الأسرة الثانية ...
٤٦	الأسرة الثالثة ...
٤٧	الأسرة الرابعة ...
٥٢	الأسرة الخامسة ...
٥٦	الأسرة السادسة ...
٥٨	سقوط الدولة القديمة ...
٦٠	ملاحظات على الدولة القديمة ...
٦٦	العهد الانتقالى الأول ...
٧١	الفصل الرابع : الدولة الوسطى ...
٧٣	الأسرة الحادية عشرة ...
٧٥	الأسرة الثانية عشرة ...
٨٦	المرحلة الانتقالية الثانية ...
٨٩	الأسرة السابعة عشرة ...

صفحة

٩٣	الدولة الحديثة :
٩٥	الأسرة الثامنة عشرة ...
١٢٦	الأسرة التاسعة عشرة ...
١٣٩	الأسرة العشرون ...
١٤٤	الأسرة الحادية والعشرون ...
١٤٥	الأسرة الثانية والعشرون ...
١٤٩	الأسرة الثالثة والعشرون ...
١٥٠	الأسرة الرابعة والعشرون ...
١٥٢	الأسرة الخامسة والعشرون ...
١٥٦	الأسرة السادسة والعشرون ...
١٦٦	الأسرة الثامنة والعشرون ...
١٦٧	الأسرة التاسعة والعشرون ...
١٦٩	الأسرة الثلاثون ...
١٧٤							مراجع القسم الخاص بمصر الفرعونية
١٧٥	الفصل السادس : مصر في عهد الاسكندر وخلفائه البطالسة
١٧٧	حكم الاسكندر في مصر
١٧٩	حكم البطالسة
٢١٩	الفصل السابع : مصر تحت حكم الرومان

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثانى

مَطَابِعُ مَوْسَسَةِ دَارِ الشَّعْبِ - لِلصَّحَافَةِ وَالطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ
٩٢ شَايِعْ قَصْدِ الْعَيْنِ - الْفَاهِرَةُ ت: ٣٥٥١٨١٠١ - ٣٥٥١٨١٨ - ٣٥٤٣٨٠٠

